

المُهَيِّدُ
فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ
الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ هَادِي مُعْرِفَةُ

التمهيد

في علوم القرآن



الجزء الرابع
العلامة محمد هادي معرفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين



مرکز تحقیقات کتب و تاریخ علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

فهرس مواضيع الكتاب

١٣	الإهداء
١٤	قطعة من حياة راحلنا الشهيد
١٩	المقدمة
٢٣	الإعجاز القرآني
٢٣	الإعجاز في مفهومه
٢٨	الإعجاز ضرورة دفاعية
٣٠	التحدي في خطوات
٣١	التحدي في شموله
٣٣	التحدي بفضيلة الكلام
٣٥	سر الإعجاز
٣٥	وجوه الإعجاز في مختلف الآراء والنظرات
٣٩	آراء ونظرات عن إعجاز القرآن
٣٩	أولاً: في دراسات السابقين
٣٩	١ - رأي أبي سليمان الخطابي
٤٨	٢ - اختيار ابن عطية

- ٢- رأي عبدالقاهر الجرجاني ٥٠
- ٤- رأي السكاكي ٥٣
- ٥- رأي الراغب الإصفهاني ٥٤
- ٦- رأي الإمام الرازي ٥٨
- ٧- كلام القاضي عبدالجبار ٦١
- ٨- كلام الشيخ الطوسي ٦٦
- ٩- كلام القطب الرلوذي ٧٠
- ١٠- كلام الزملكاني ٨١
- ١١- اختيار ابن ميثم ٨٥
- ١٢- تحقيق الأمير العلوي ٨٧
- ١٣- كلام السيد شبر ١٠٣
- ١٤- العلامة هبة الدين ١٠٤
- ثانياً: الإعجاز في دراسات اللاحقين ١٠٧
- من علماء وكتاب معاصرين ١٠٧
- ١- سيد قطب ونظريته عن الإيقاع الموسيقي في القرآن ١٠٧
- ٢- مصطفى محمود وحكاية الموسيقى الداخلة للقرآن ١٠٩
- ٣- محمد عبدالله دزالز ونظريته في الجمال التوفيقي والتنسيقي للقرآن ١١٤
- ٤- مصطفى صادق الرافعي ونظريته في أسلوب القرآن الجداد ١١٩
- ٥- محمد فريد وجدي ونظريته في التأثير الروحي للقرآن ١٢٧
- ٦- الشيخ محمد عبده واستدلالاته على الإعجاز القرآني ١٢٩
- ٧- الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ومسألة التحدي ١٣٠
- ٨- الشيخ محمدجواد البلاغي وبيان القرآن السحري ١٣٣
- ٩- العلامة الطباطبائي ونظريته في وجود الإعجاز ١٣٤

١٣٥	١٠ - الإمام الأستاذ الخوئي واستيعابه جوانب الإعجاز
١٣٧	القول بانصرفة
١٣٨	حقبة مذهب الصرف
١٤١	مقالة أبي إسحاق النظم
١٤٤	اختيار أبي عثمان الجاحظ
١٤٦	مقالة ابن حزم الظاهري
١٤٨	كلام ابن سنان الخفاجي
١٥١	مذهب الشريف المرتضى
١٥٨	فذلكة القول بالصرفة
١٥٩	مناقشة القول بالصرفة
١٦٠	١ - ليس في كلام العرب ما يضاها القرآن
١٦٢	٢ - الإطراد من روائع البديع
١٦٤	٣ - إنما يعرف ذا الفضل من العلم ذوقه
١٦٧	دحض شبهة الصرفة
١٦٨	كلمة أبي جعفر الطوسي
١٦٩	كلمة الإمام يحيى العلوي
١٧١	كلمة عبد القاهر الجرجاني
١٧٢	كلمة الإمام الرازي
١٧٣	كلمة كمال الدين الزمكاني
١٧٣	سعد الدين التفتازاني
١٧٤	كلمة العلامة كاشف الغطاء
١٧٤	كلمة هبة الدين الشهرستاني

١٧٥	كلمة مصطفى صادق الرافعي
١٧٧	شهادات وإفادات
١٧٧	الوليد بن المغيرة المخزومي
١٨١	الطفيل بن عمرو الدوسي
١٨٢	النضر بن الحارث
١٨٣	عتبة بن ربيعة
١٨٥	أنيس بن جنادة
١٨٦	ثلاثة من أشرف فريش يتسللون بيت الرسول
١٨٧	فصحاء فريش تحاول معارضة القرآن
١٨٨	جذبات وجنوات
١٨٩	قوس مستعكة
١٨٩	وفد نصارى فجران
١٩٠	سويد بن الصامت الشاعر
١٩١	إسلام سعد وأسيد
١٩٣	بكاء النجاشي
١٩٤	عند رجال العلم والأدب المعاصر
١٩٩	قرعات وقمعات
٢٠١	أبولهب وامرأته حمالة الحطب
٢٠٤	أمية بن خلف
٢٠٦	الوليد بن المغيرة المخزومي
٢٠٨	الأسود بن عبد يغوث



مرکز تحقیق و توثیق اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

٢١١	الحكم بن أبي العاص
٢١٣	العاص بن وائل
٢١٥	النضر بن الحارث
٢١٦	جُبَير بن مُطْعِم
٢١٩	محتاجات ومخاصمات
٢١٩	مع النضر بن الحارث
٢١٩	مع عبدالله بن الزبعرى
٢٢٠	مع أبي بن خلف
٢٢١	مع الأسود بن المطلب
٢٢٢	مع أبي جهل بن هشام
٢٢٣	مفاخرات ومساجلات
٢٢٧	سخافات وخرافات
٢٢٨	١ - مسلمة الكذاب
٢٣٢	٢ - سجاح بنت الحارث التميمية
٢٣٥	٣ - طليحة بن خويلد الأسدي
٢٣٦	٤ - الأسود العنسي
٢٤٠	٥ - ابن المقفع
٢٤٣	٦ - أبو شاعر الديصاني
٢٤٣	٧ - ابن أبي العوجاء
٢٤٤	٨ - ابن الراوندي
٢٤٦	٩ - ابن إسحاق الكندي



مرکز تحقیق و پژوهش اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

- ٢٤٧ ١٠ - أبو الطيب المتنبي
- ٢٤٨ ١١ - أبو العلاء المعري
- ٢٥٠ ١٢ - حادث طريف عاصرنا؟
- ٢٥٢ محاكاة وتقاليد صبيائية
- ٢٥٣ البلية والبهائية
- ٢٥٦ القاديائية
- ٢٥٧ مصطنعات وتلفيقات هزيلة
- ٢٦٣ صفاة تبشيرية مفصولة في مطانع الألف الثالث من الميلاد
- ٢٦٤ سورة الإيمان
- ٢٦٥ سورة المسلمون
- ٢٦٦ سورة التجسد
- ٢٦٦ سورة الوصايا
- ٢٦٧ الإثرت والسور المزينة للقرآن
- ٢٦٨ رب ضارة نافعة
- ٢٦٩ نظرة تاريخية
- ٢٧٠ ومن إعجاز القرآن الإعجاز العلمي
- ٢٧١ كلمة أخيرة
- ٢٧٢ تقليد القرآن ليس إعجازا
- ٢٧٦ الأزهر وبيانه الرسمي
- ٢٧٨ إغلاق الموقع الذي أساء إلى القرآن على الإنترنت
- ٢٧٩ القصة الكاملة للمجرم الذي أساء للقرآن على الإنترنت
- ٢٨٣ وقفة عند (الخزعات) المنشورة في (الإنترنت) من قبل الاستكبار الأمريكي

٢٩٦	مقارنة عابرة
٣١٦	أجواء مفعمة بالأدب الرفيع أحاطت بعهد نزول القرآن
٣١٦	شعراء مخضرمون
٣١٧	١ - أعشى بني قيس بن ثعلبة
٣١٩	٢ - لبید بن ربعة العامري
٣٢٤	٣ - عبدالله بن الزبیری
٣٢٧	٤ - هبيرة بن أبي وهب
٣٢٧	٥ - فروة بن مسيك المرادي
٣٢٩	٦ - عمرو بن معدی كرب
٣٣٢	٧ - معاوية بن زهير بن قيس
٣٣٢	٨ - عامر بن الطفيل العامري
٣٣٣	٩ - الأغلب بن عمرو العجلي الراجزي
٣٣٣	١٠ - أمية بن أبي الصلت
٣٣٤	١١ - شداد بن الأسود بن شعوب الليثي
٣٣٥	١٢ - أبو محجن الثقفي
٣٣٦	١٣ - الحارث بن هشام المخزومي
٣٣٨	١٤ - ضرار بن الخطّاب الفهري
٣٤١	١٥ - الخطيئة العبسي
٣٤٤	١٦ - الخنساء السلمية
٣٤٦	١٧ - مالك بن عوف
٣٤٧	١٨ - مالك بن نمط ذوالمشعار
٣٤٩	١٩ - فروة بن عامر الجذامي
٣٥٠	٢٠ - كعب بن زهير المزني

- ۲۱۔ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ الْخَزْرَجِيُّ ۲۵۴
- آل عبدالمطلب کلہم شعراء ۲۵۷
- فہرس الآیات ۳۶۵



الإهداء

إليك يا ولدي ويا فلذة كبدي، بل وكل أُملى في الحياة ومُرتجى في مسيرة الوجود...

إليك أُهدي هذه البقية من ثمرات هذا المجهود.. فقد فُزْتَ بدرجة الشهادة في غضون فوزك برفع منزلة العلم والكمال.. فجمعت بين الفضيلتين وحُزْتُ قَصَبَ السبق في كلا المضمارين.. واستوجبت لنفسك الهناء بهذا المتواضع من الحباء...

إنك عِشْتَ - عِشْتَكَ القصيرة - في سعادة واستشهدت في كرامة، وفزت فوزاً عظيماً...

إنك رغم جهودك المتواصلة في طلب العلم، واجتهادك الملح في اقتناء شرف الكمال، اخترت الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله في الأرض.. حيث رأيت ضرورة القيام بواجب الدفاع عن حريم الإسلام والمذهب عن كرامة القرآن... فكان حظك الأوفى ونصيبك الأوفر من عند الله تعالى، هو النور بدرجة الشهادة، فضيلة ما فوقها فضيلة.. فهنيئاً لك من سعادة أبدية وشرفٍ تليد، حبائك الله به عن إرادتك واختيارك وهو فوز عظيم..

والدك

قطعة من حياة راحلنا الشهيد

ورأينا من المناسب أن نذكر لمحة مختصرة عن حياة شهيدنا الغالي سائين الله جلّ شأنه أن يحشره وإيانا مع الأئمة الطاهرين.

وُلد شهيدنا الغالي في كربلاء المقدّسة (ليلة الاثنين ثاني عشر ربيع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وستّ وثمانين هجرية قمرية = ١٣٤٤/٤/٢٠ هـ.ش) واستشهد في واقعة كربلاء الخامسة في جزيرة «بوارين» (سلمجة - خوزستان) (في العشرين من جمادى الأولى سنة ١٤٠٧ = ١٣٦٥/١١/١ هـ.ش) وهو من غريب المناسبة بين موضع الولادة ويوم الاستشهاد...

قضى أيام طفولته في النجف الأشرف حتّى عام هجرتنا الكبرى إلى مدينة قم المقدّسة (سنة ١٣٥٠ هـ.ش) فهناك كانت دراسته الابتدائية والثانوية والإحراز على شهادة «دبلوم» ليحوز بعده على قبولية الدخول في عدّة جامعات في طهران وغيرها، غير أنّه رفض سوى الالتحاق بالحوزة العلمية ومواصلة دروسها الدينية عن فهم غريب، وكان موافقاً مرضياً في جميع هذه المراحل... مضافاً إلى عدم تغافله عن كسب الأخلاق الفاضلة وتهذيب النفس بما بلغ به مرتبة قلّ من كان يوجد على مثل سنّه المبكر في مثل تلكم الفضائل والآداب والسلوك بما جعله محبباً محموداً في أهله وذويه وفي جميع الأوساط التي كان يتراددها، أضف إلى ذلك شدّة محافظته على شعائر الدين ومباني الشريعة، وعلاقته الوثيقة بعري الإسلام، من ذلك علاقته الوفيرة بأصول النهضة المباركة التي قام بها سيدنا الإمام الكبير الإمام الخميني (رحمه الله).

وما أن قامت الحرب الشعواء المفروضة على جمهوريتنا الفتية، أغارتها أيادي الاستعمار الكافر المتمثلة في سفلة العرب الأذنين... إلا وسرعان ما تطوّر شهيدنا في الالتحاق بالجيش الشعبي الباسل المقاوم ضدّ جنود إبليس... وكانت العمليات الدفاعية التي كان يقوم بها جنود الإسلام حينذاك تُسمّى بوقائع كربلاء تحت أرقام متسلسلة، وكانت النجدة تتلاحقها من أبناء الإسلام الغيارى بقيادة إمام الأئمة العظيم... من جملتها

واقعة كربلاء الرابعة تم الخامسة بجزيرة «بوارين - شلمجة» التي التحق بها شهيدنا عن سابقة تدريب واستعداد للجهاد.. وقد كان الموقف حرجاً آنذاك، ومن ثم ترك مواصلة دروسه الحوزوية في بحبوحة نشاطها المتداوم، لما أن أحس بغربة الإسلام واستنجاهه بأبنائه الغيارى تجاه هجمات العدو اللدود. وعندما استجازني - وكانت إجازتي على الفور - ذكرته التروى في الأمر ريثما يكون ذهابه إلى الجهاد عن فكر وروية والتدابير لا يشوبه كدر الهوسات لا سيما وهو جاهد في تحصيل العلوم الإسلامية الذي لا يقل عزّة عن عزّة القتال في سبيل الله، وقد كنت آمل في وجوده، وبفضل نبوغه، تصاعداً في مدارج الكمال العلمي الفائق.. لكنه رغم ذلك كله رجّح نصرته الدين من هذا السبيل لضرورة الموقف، وقال إنني ذاهب إلى ربي سيهدين.. فباركته على رأيه وعلى اختياره الذي كان عن بصيرة وفكر واستعداد..

وقد كان حينما ذهب إلى الجهاد قد بلغ مرتبة سامية من العلوم الإسلامية، من جملتها علوم القرآن التي كنت أبشر تلمسها في الحوزة، وكان يشترك في محاضراتي عن استعداد وأهلية كنت أباهي به وأرجو له الكمال البالغ.. الأمر الذي دعا بي أن أهدي إلى روحه الطيبة هذه البقية من موسوعي في علوم القرآن وأرجو من الله أن يجعلها موضع ترويح لحاظره العاظر تحت ظله الوارف بفضله وكرمه..

وينبؤك عن كماله النفسي وعرفانه البالغ بمواضع الإسلام في الحركة والجهاد، تلك وصيته المباركة وقد كتبها ليلة ذهابه إلى جبهة القتال.. (٤/ج/١/٤٠٧ ق = ١٥/١٠/١٣٦٥ ش) جاء فيها - بعد البسملة -:

«يا أيها الذين آمنوا ما أنكم إذا قيل لكم اتفروا في سبيل الله أثأقنتم إلى الأرض. أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة. فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَتُسْتَبَدَّلَ قَوْمٌ غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^١
قال علي عليه السلام: إن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحد الله لخاصة أوليائه، وهو لباس

التنوي ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة..

هذا يوم يمتحن الله فيه قلوبنا نحن المسلمين ولا سيما الموالين لأهل البيت عليهم السلام وكان شعارنا: يا ليتنا كنّا معكم. آسفين على مصائبهم السائلة..

الإنسان عندما يستمع إلى قولة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مؤنباً لأصحابه تقاعسهم عن القتال: «يا أشباه الرجال ولا رجال، لوددت أنّي لم أركم.. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً...» ليحقّ أن يموت دون أن يشملته عموم هذا التأنيب!

نعم إنّما تتحقّق مباني الإسلام الركينة بأمرين: قيادة حكيمة، ووجود أعوان مخلصين. وقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يُعوزّه الأمر الثاني، فكان مآل الأمر ما كان... والآن وهذا إمامنا القائد، الذي وقف نفسه على حراسة الإسلام، وكان موفقاً مؤيداً بعناية مولانا الإمام الحجة المنتظر عجل الله فرجه.. يجب تلبية ندائه والقيام بأوامره في الدفاع عن حريم الإسلام.. وإلا فقد شملنا ذلك التأنيب العنيف الذي تأسف عليه الإمام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

فلو كنت مولى للإمام أمير المؤمنين، فالواجب هو سلوك الطريقة التي رسمها لنا، وليس الآن سوى الجهاد في سبيل الله..

لو كنّا نندبر قليلاً لرأينا منذ واقعة الطفّ لم تحن الفرصة للمسلمين أن يجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده، وقد حرّموا هذا الفيض الفائق بالبركات.. والآن وقد فتح الله هذا الباب أمامنا.. وعلينا انتهاز هذه الفرصة السانحة والاستفاضة من فيوضها.. فلو رزقنا الشهادة في هذا السبيل فهو الفوز العظيم.. والبشارة الكبرى: أن فتح الله لنا باب الجهاد وجعلنا من خاصّة أوليائه.. وإلا فالذي يبقى بعده نحن وهذه الحياة الدنيا والمجدال العنيف القائم على زخارفها.. فهل نتوفّق في مبارزات هذه الحياة.. وهل نتخلّص من براتن إبليس.. وهل نصبح من عباد الله المخلصين.. وهل لا يكون المخلصون على خطر عظيم؟! ما الذي يضمن لنا النجاح والفوز في هذه الحياة عند ذلك؟!

وعليه.. فإنّي قد اخترتُ سبيل الجهاد عن قلب واع مطمئن، بل هي الوظيفة الشرعية

قُمتُ بها عن واجب ديني لا محيص عنه.. وأرجو منه تعالى التوفيق بعنايته، وأن يرزقني صلاح الجهاد والشهادة في سبيله، عسى أن أكون بإهداء هذه المزجاة من دمي قد رويت شجر الإسلام وبذلك كنت قد أدركت السعادة الأبدية إن شاء الله...

قلت: وقد استجاب الله دعاءه ورزقه الشهادة إذ وجدته أهلاً لذلك وصالحاً للنبيل إلى درجات القدس عند ربه فهنيئاً له من سعادة أبدية كانت أمنيته في الحياة.. اللهم اجعله لنا شافعاً مشفعاً وارزقه المقام المحمود، في زمرة أوليائه محمد وآله الطيبين..

وقد رتاه الشعراء والأدباء في حفلات تأبينية كانت ولا تزال تقام لذكراه سنوياً.. ومن رتاه في قصيدة عصماء وأرخَ شهادته في أخرى هو الشاعر المجيد المفضو الشيخ محمد باقر الإيرواني المعروف بإجادة القريض وحسن الإلقاء، قال فيها - وكان الحفل منعقد في الأيام الفاطمية -:

يا آل معرفة لمعرفتي بكم في كل يوم حبكم يتجدد
جئنا لتقديم التعازي عندكم بمصاب فاطم للعزاء نردد
ثم التعازي في مصاب شهيدكم وعلي معرفة شهيد أسعد
عشق الشهادة والشهادة سُلّم يرقى الشهيد إلى الخلود ويصعد
وكرامة الشهداء عنوان به شرف السعادة والسعادة تشهد
يا آل معرفة عرفنا مجدكم برجالكم والكل منكم أمجد
.....الخ..

وفي قصيدة أخرى جاءت مادة التاريخ هكذا:

أرخت: (من ألم الفراق منادياً سعد الشهيد عليّ نجل الهادي)
٩٠ + ٧١ + ٤١٢ + ١٠٦ ١٣٤ + ٣٥٠ + ١١٠ + ٨٣ + ٥١

= (١٤٠٧) هـ



مركز تحقيقات كالمپوٲر علوم اسلمى

المقدمة

وبعد، فإنّ مسألة «الإعجاز القرآني» كانت ولا تزال تشكّل الأهمّ من مسائل أصول العقيدة التي بُيت عليها رواسيها ودارت عليها رحى الإسلام، فكان جديراً بمن حاول التحقيق من مباني الشريعة، والبحث عن أسسها الأولى القويمة، أن يدرس من جوانب المسألة ويضع النظر فيها إمعاناً، بعد أن لم تكن المسألة تقليدية ولا تخفي المتابعة العمياء من غير معرفة أو علم يقين.

مرکز تحقیق کتب وعلوم اسلامی

أمّا عرب الجاهلية الأولى فقد كانت تدرك جانب هذا الإعجاز البياني، بحسّها البدائي المُرَهَف وذوقها الفطريّ السليم في سهولة ويسر، إذ كان القرآن نزل بلغتهم وعلى أساليب كلامهم، سوى كونه في مرتبة عليا وعلى درجة رقي، كانوا يدركونه فهماً ولا يكاد يبلغونه في منله أداة وتعبيراً.

كان عصر نزول القرآن أزهى عصور البيان العربي، وقد بلغت العرب من العناية بلغتها والإشادة بمبانيها، مبلغ الكمال بما لم تبلغه في أيّ عصر من العصور. كانت لهم أندية وأسواق^١ يجتمع إليها فصحاؤهم، خطباء وشعراء، يعرضون فيها

١ - كانت على مقربة لطائف سوق تجتمع إليها العرب في الأشهر الحرم - حيث الأمان الصوت - فينصبون خيامهم بين نخيل في مكان يسمى بكاذ و كانت العرب تقصدها في طريقها إلى الحج، فيجتمعون منه في مكان يقال له

أنفس بضائعهم وأجود صنائعهم، ألا وهي بضاعة الكلام وصناعة الشعر والبيان. كانوا يتبارون فيها، وينقدون ويتفاخرون، ويتنافسون فيها أشد التنافس

... حتى إذا ظهرت فيهم الدعوة ونزل القرآن.. فما أن تليت عليهم آياته إلا والأسواق قد تعطلت والأندية قد انفضت، وقد خلت الديار إلا من رثة صوت القرآن. وقد زحفهم ببراعته وهزمهم بصوته، فلم يستطيعوا مباراته ولم يقدرُوا على مجاراته، فنضُّلوا الفرار على الفرار واستغشوا على رؤوسهم ثوب العار. ذلك على أنه لم يسدَّ عليهم باب المعارضة، ولم يمانعهم التنافس فيه، صارخاً ومتحدِّياً لهم أفراداً وجماعات: لو يأتوا بحديث مثله!

وقد عرض عليهم هذا التحدي الصارخ في جرأة خارقة وصراحة بالغة، مكرراً عليهم ومتهكماً بهم: أنهم أعجز من أن تقوم قائمتهم تجاه صوت القرآن المدوي المدهش، وقد تنازل معهم إلى الأخف فالأخف، امتهاناً بشأنهم وتبييناً لموقف عجزهم وضعف مقدرتهم:

«وَلَا:» «فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ». «ثَانِيًا:» «فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ». «ثَالثًا:» «فَأْتُوا بِسُورَةٍ

→ «الابتداء» وقد اتخذتها العرب سوقاً بعد عام القيل بـخمس عشرة سنة، أي قبل مبعث النبي ﷺ بخمس وعشرين عاماً (سنة ٥٤٠ ميلاداً) وكانت وفود العرب تتوافد إليها من كل صوب، وزادت قرين بواعث الاجتماع إليها أنهم جعلوها مسرحاً للأنثى والشمس، تتسابق فيه القبايل لإظهار نوابها من شعراء ونطباء، فيتنافسون ويتفاخرون وكانوا يحرصون فيها لغير قصائدهم على نقدة القريض والكلام، ويكون لذلك احتفال عاشر يشهد جماهير العرب، فتشيع قصائدهم فيترثم بها التركبان في كل صقع. وبقيت سوق عكاظ بعد الإسلام مرفداً يتبادل فيه التسامع، حتى نهىها الخوارج التحريمية حين خرجوا بسكة مع المختار بن عوف سنة (٦٦٩).

وكانت لهم أسواق أخرى تبلغ العشرة كانت تقام في فواصل معينة من السنة في أمكنة متعددة، وكانت تحت خفارات منتظمة في حمایات معينة، ذكر تفصيلها اليعقوبي في تاريخه، ج ١، ص ٢٤٩.

وكانت لهم أيضاً مجالس يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومباداة الأخبار والبحث عن بعض شؤونهم العامة، وكانوا يسمون تلك المجالس «الأندية» ومنها نادي قرين ودار الندوة بجوار الكعبة، وكان لكل بيت من بيوت الأشراف فناء بين يديه للاجتماع، وتكلم قوم مجتمع عام في المضارب، على أنهم كانوا حينما اجتمعوا تناشدوا وتفاخروا وتبادلتوا سلع الكلام وصناعات القريض والبيان، انظر: تاريخ الآداب العربية، ج ١، ص ١٩٥، وتاريخ التمدن الإسلامي، ج ١، ص ٣٧ كلاهما لـنجدي زيدان. ودائرة المعارف لـفريد وجدي، ج ٦، ص ٥٣٥.

١ - انظر ٥٢: ٣٤.

٢ - هود ١١: ١٣. بناء على نزول سورة هود قبل سورة يونس، كما نلینا سابقاً في الجزء الأول من التمهيد. إذ ليس تسلسل ترتيب النزول دليل قاطع على المشهور، ونعلم فيه بعض التقديم والتأخير كما هنا.

مِثْلِهِ»^١، وأخيراً أجهز عليهم بحكمه البات: «فَإِنَّ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ»^٢ فقد أُنذِرهم بالنار وساوى بينهم وبين الأحجار!

هذا.. ولم يكن العرب يومذاك أهل كسل وملل في الكلام والخصام، وقد تربوا في أحضان الخصومة وكانوا أهل لمد وجدل، كما وصفهم تعالى: «وَتُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا»^٣، وقال: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ»^٤، فلو كانت فيهم قدرة على المعارضة أو لسان لم يخرسه العجز والعي، لما صمتوا على ذل العار أو سكتوا على شتار الصغار، وقد أصاب منهم موضع عزهم ومحل فخارهم، وهزمهم بذات سلاحهم، ولم تكن الهزيمة الشنعاء إلا لأنهم وجدوا من أنفسهم ضالة وحقارة، تجاه عظمة القرآن وهيمته وكبريائه، «فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا»^٥.

هذا الوليد بن المغيرة المخزومي - كبير قريش ورائدهم وقائدهم - استأمره بشأن هذا الكلام الذي جاء به نبي الإسلام ﷺ فلم يستطع سوى الاعتراف بأنه فوق مقدور البشر: «فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهنزي جنون، وإن قوله من كلام الله...»^٦ وهو القائل: «والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعله، مخدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى»^٧ وهذا إنذار من راس الكفر بنزول العذاب سوف يكون مع القرآن!

وقد حاولوا الممانعة دون صيته والحوول دون شجاعته، وقالوا: «لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ»^٨ وكانوا يستغشون ثيابهم ويضعون أصابعهم في آذانهم

١ - يونس: ١٠، ٣٨. ٢ - البقرة: ٢، ٢٤.

٣ - مريم: ١٩، ٩٧. ٤ - الزخرف: ٥٣، ٥٨.

٥ - التكوير: ١٨، ١٧. إنهم حاولوا معارضة ومقابلة نصيح كلامه، غير أن انحطت ثم يداعدهم وتم يرافقهم التوفيق، فقد أعوزتهم التكفأة وتفاعست عنه مصيبتهم نظرًا واشمخ طود، الترفع، قال ابن رشيبي في التمهيد، ج ١، ص ٢١١: «وتنصرت أرواح قريش معارضة القرآن فكيف فصحاؤهم الذين تعاضوا ذنوب، على تباب التبر وسلاف التخرير وتحريم القضاء والتخلوة إلى أن بلغوا مجيئهم، فلما سمعوا قول الله عز وجل: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَحِي، وَغِيضَ الْمَاءُ، وَفُضِّي الْأَرْضُ، وَأَشْفَقَ عَلَى الْيَهُودِيِّ، وَقِيلَ بَعْدًا لِلْعَرَبِ الظَّالِمِينَ» هود: ١١، ٤٤، يشعروا مطاعصوا فيه، وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق». وراجع مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٥.

٦ - جامع البيان لظهير، ج ٢٩، ص ٩٨. ٧ - مستدرک الحاکم، ج ٢، ص ٥٧.

٨ - فضلت: ٤١، ٢٦.

خشية سماعه، أو يحشون مسامع الوفود بالخرق والكراسف لئلا يستمعوا إلى حديثه، لماذا؟ إنهم أدركوا هيمنتته ولمسوا من واقعه الناصع، فهابوه وخافوا سطوته، فقد أعجزتهم مقابلاته بالكلام وألجأتهم أخيراً إلى ركوب الصعب من مطايا الحثوف بمقارعة الأسنة والسيوف. لكن «وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ»^١.

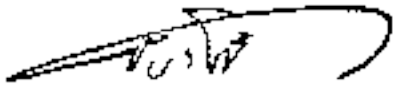
والآية الأغرب، والمعجزة الأعجب، ذلك حكمه البات على أنهم لن يأتوا بمنله «وَلَنْ تَفْعَلُوا» أبداً. إنه إعجاز في صراحة وجرة يفوق سائر الإعجاز، وإخبار عن غيب محتتم، لا يصدر إلا عن علام الغيوب، ولا يجراً على النطق به أحد من البشر مهما أوتي من علم وقدره وهيمنة.

بل وحكمه العام الشامل لكافة طبقات الأمم عبر الخلود، لا يستطيعون جميعاً أن يأتوا بمنله «وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^٢.

وهذه ركب البشرية وفيهم الجفاة والعتاة ممن مارسوا لغة المضاد، قد أخرسوا جميعاً عن معارضته وإمكان مقابلاته، وليس عن رحمة ولين عريكة، وإنما هو عجز وعي وضعف، صار دليلاً على إعجازه وبرهانه على خلوده.

وقد بحث العلماء قديماً وفي العصر الترميزي، عن سرّ هذا الإعجاز وعن سبب خلوده، وحاولوا قصارى جهدهم لكشف النقاب عن وجهه ولمس أعتابه، فكانت أبحاثاً جلالاً وآراء ونظرات قيّمة، سجلتها صحائف التاريخ في سطور مضيئة وكلمات مشرقة، كان تراننا النمين في هذا المضممار ورصيدنا الوفير في هذا العرض (أحسن الله جزاءهم). ونحن إذ نسير على منهجهم لا نألو جهداً في سبر أغواره والتحقيق من مبانيه، جرياً مع التنظّر في الأفكار والأنظار، عساه أن يكون خدمة صالحة لمباني الدين القويم والترويح من شريعة سيّد المرسلين، عليه وعلى آله الأطيبين صلوات ربّ العالمين.

تم - محمد هادي معرفة



شرة ربيع الأشهر ١٤٠٨

الإعجاز القرآني

الإعجاز في مفهومه

الإعجاز: مصدر مزيّد فيه من «عجز» إذا لم يستطع أمراً، ضدّ «قدر» إذا تمكّن منه. يقال: أعجزه الأمر، إذا حاول القيام به فلم تسعه قدرته، وأعجزت فلاناً: إذا وجدته عاجزاً أو جعلته عاجزاً.

والمُعجزة - في مصطلحهم - تطلق على كل أمر حارق للعادة، إذا قرن بالتحديّ وسلم عن المعارضة، يظهره الله على يد أنبيائه ليكون دليلاً على صدق رسالتهم. وهي تتنوّع حسب تنوّع الأمم المرسل إليهم في المواهب والمعطيات، فتتناسب مع مستوى رقيّهم في مدارج الكمال، فمن غليظ شديد إلى رقيق مرهف، ومن قريب مشهود إلى دقيق بعيد الآفاق. وهكذا كلّما تقدّمت الأمم في الثقافة والحضارة فإنّ المعاجز المعروضة عليهم من قِبل الأنبياء ﷺ ترقّ وتلطّف. وكانت آخر المعاجز رقةً ولطفاً هي أرقاها نمطاً وأعلاها أسلوباً، ألا وهي معجزة الإسلام الخالدة، عرضت على البشرية جمعاء مع الأبد، مهما ارتقت وتضاعدت في آفاق الكمال، الأمر الذي يتناسب مع خلود شريعة الإسلام.

ولقد صعب على العرب - يومذاك وهم على البداوة الأولى - تحمّل عبء القرآن

الثقل، فلم يطيقوه. ومن ثمّ تمّوا لو يُبدّل إلى قرآن غير هذا، ومعجزة أخرى لا تكون من قبيل الكلام: «قال أنذين لا يرجون لقاءنا انت بقراّن غير هذا أو بدّله قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي». ^١ إنها لم تكن معجزة للعرب فقط، وإنما هي معجزة للبشرية عبر الخلود، لكن نبي لأمة جهلاء أن تلمس تلك الحقيقة وأن تدرك تلك الواقعة سوى أنها اقترحت عن سفه: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، أو تكون له جنة من نخيل وعنب ويفجر الأنهار خلالها تفيض، أو يستط السماء عليهم كسفاً، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لمبيت من زخرف ويرقى في السماء، ولا يؤمنوا لرقية حتى ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه... وقد عجب النبي ﷺ من مقترحهم ذلك التافه الساقط، ممّا يتناسب ومستواهم الجاهلي، ومن ثمّ رفض اقتراحهم ذاك «قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً». ^٢ أي ليس هذا من شأنكم وإنما هي حكمة بالغة يعلمها الحكيم الخبير.

قال الراغب الإصفهاني: المعجزات التي أتى بها الأنبياء ﷺ ضربان: حسي وعقلي؛ فالحسي: ما يدرك بالبصر، كعاقبة صالح، وطوفان نوح، ونار إبراهيم وعصا موسى ﷺ.

والعقلي: ما يدرك بالبصيرة، كالأخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت عن غير تعلّم.

فأمّا الحسي: فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو أوقع عند طبقات العامة، وأخذ بمجامع قلوبهم، وأسرع لإدراكهم، إلا أنه لا يكاد يفرق بين ما يكون معجزة في الحقيقة، وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً، أو سبباً اتفاقياً، أو مواطاة، أو احتيالاً هندسياً، أو تمويهاً وافتعالاً إلا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء.

وأمّا العقلي: فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذي العقول الراجحة، والأفهام الناقبة، والروية المتناهية، الذين يغنيهم إدراك الحق.

وجعل تعالى أكثر معجزات بني إسرائيل حسياً لبلادهم، وقلّة بصيرتهم، وأكثر

معجزات هذه الأئمة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء. ولذلك قال ﷺ:

«كادت أُمِّي تكون أنبياء»^١.

ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ، وكانت العقليات باقية غير متبدلة جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية. وما أتى به النبي ﷺ من معجزاته الحسية، كتسبيح الحصا في يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاها أصحاب الحديث.

وأما العقليات: فمن تفكر فيما أورده ﷺ من الحكم التي قصرت عن بعضها أفهام حكماء الأمم بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة.

ومما خصه الله تعالى به من المعجزات القرآن: وهو آية حسية عقلية صامتة ناطقة باقية على الدهر مبهوتة في الأرض، ولذلك قل تعالى: «وَقَالُوا نَوْا لَأَنزِلَ عَلَيْه آيَاتُ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ»^٢ ودعاهم ليلاً ونهاراً مع كونهم أولي بسطة في البيان إلى معارضته، بنحو قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ. وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ»^٣ وفي موضع آخر: «وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^٤ وقال: «قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِنِعْضِ ظَهِيرًا»^٥.

فجعل عجزهم علماً للرسالة، فلو قدرُوا ما أقصروا، إذ قد بذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره، فلما رأيناهم تارة يقولون: «لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْعَوَا فِيهِ»^٦ وتارة يقولون: «لَوْ نَشَاءُ نُلْقِيهِ مِثْلَ هَذَا»^٧ وتارة يصفونه بأنه «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^٨ وتارة يقولون:

١ - مسند أحمد، ج ١، ص ٢٩٦.

٢ - التكهوت ٥٩، ٥٠، ٥١.

٣ - يونس ١٠، ٣٨.

٤ - فصلت ٢٤، ٢٦.

٥ - النحل ١٦، ٢٤.

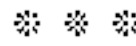
٦ - التكهوت ٥٩، ٥٠، ٥١.

٧ - البقرة ٢٣.

٨ - الإسراء ٨٨، ٨٩.

٩ - الأنعام ٨، ٣٦.

«لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» وتارة يقولون: «إِنِّي يَقْرَأُ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ»^١ كل ذلك عجزاً عن الإتيان بمنله، علمنا قصورهم عنه، ومحال أن يقال: إنه عورض فلم ينقل فالفنوس مهترئة لنقل مادق وجل. وقد رأينا كتباً كثيرة صُنفت في الطعن على الإسلام قد نقلت وتداولت.^٢



ويمتاز القرآن على سائر المعاجز بأنه يضم إلى جانب كونه معجزاً جانب كونه كتاب تشريع، فقد قُرن التشريع بإعجاز و وُحد بينهما، فكانت دعوة يرافقتها شهادة من ذاتها، دل على ذاته بذاته.

قال العلامة ابن خلدون: اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد ﷺ. فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقته، والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى، وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه ولا يفتر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة، لاتحاد الدليل والمدلول فيه.

قال: وهذا معنى قوله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحِيًّا أَوْحِيَ إِلَيَّ، فَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المنابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة.^٣



وقال الجاحظ: بعث الله محمد ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأبد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وزال الشبهة وصار الذي يمنعهم من الإقرار، الهوى

١ - الفرقان ٣٢، ٣٣

٢ - يونس ١٠، ١١

٣ - عن مقدمته على التكميل، ص ١٠٢-١٠٤

٤ - المقدمة (المقدمة)، ص ٩٥

والحمية دون الجهل والحيرة، حملهم على حفظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من عليهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً، بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريراً لعجزهم عنها، تكشف من نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا. قال: فها توها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلفه لظهر ذلك، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابره فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض، فدل ذلك العاقل على عجز القوم، مع كثرة كلامهم، واستجابة لغتهم، وسهولة ذلك عليهم، وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت تنقض لقوله، وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس، والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال.

وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بظبقات، ولهم التقصيد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة والتقصار الموجزة، ولهم الأسجاع والمزدوج والملفظ المنثور، ثم تحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم، فمحال - أكرمك الله - أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البين مع التقرير بالنقص، والتوقيف على العجز، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيّد عملهم، وقد احتاجوا إليه، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة، وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة (مدّة رسالته ﷺ) على الغلط في الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفون ويجدون السبيل إليه، وهم يبدلون أكثر منه.

١ - الإنفاق، ج ٤، ص ٥. وفيه كلام تفصيلي آخر في إنبات إعجاز القرآن، ذكره في رسالته (صحج النبوة)، ص ١٤٤ فما بعدها. وقد نقله صاحب الإعجاز في دراسات المتأخرين، ص ١٤٨ - ١٦٢.

الإعجاز ضرورة دفاعية

الإعجاز ضرورة، ولكنها دفاعية وليست ضرورة دعائية!

لَمَّا أَنَّ المعجزة ضرورة، فَلِأَنَّ الدعوة لَمَّا كَانَتْ مستندة إلى الغيب، وهو وحي السماء، فلا بد أن يدعمها آية تعانسها، تنفي كل احتمال خلاف، وتدحض شبه المعارضين! وأما أنها ضرورة دفاعية وليست دعائية، فَلِأَنَّ رسالة الأنبياء جميعاً، على وضوح من الحق الصريح، لا غبار عليها ولا كانت حاجة إلى إقامة برهان. «لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ»^١. «نَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبُّنَا بِالْحَقِّ»^٢.

كانت دعوة الأنبياء تهدف إلى إيقاظ النظرة وإتارة دافئ العقول،^٣ دعوة إلى ما يتجاوب مع الفطرة السليمة وتتجاوبه العقول الرشيدة! فلا حاجة إلى إقامة برهان على وضوح النور المبين. «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ»^٤. أي فلتكن على ثقة من أمرك، فإنّ لديك الحق ساطعاً كالشمس اللائحة، تسطو بأنوارها على الآفاق! والحق لا يلتبس بالباطل أبداً! تلك سنة الله جرت في الخلق، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «ولو لم يجعل هذا هكذا ما عرف حق من باطل»^٥. أي: الحق بذاته واضح، والباطل بنفسه فاضح، وهو أمر فطري مجبول عليه الناس في فطرتهم الأولى... ولو لم يكن تمييز الحق عن الباطل فطرياً - في بدهة العقول - لم يكن هناك معيار آخر لهذا التمييز، إذ أي معيار يجعل مقياساً لتمييز الحق غير الحق نفسه؟! قال الصادق عليه السلام: «كل قوم يعملون على ريبة من أمرهم، ومشكلة من رأيهم، وزاري

١ - الترمذ ١٩٣، ١٤. ٢ - الأعراف ١٧، ٥٣.

٣ - راجع: نهج التبليغ، الخطبة ١. ٤ - التعليل ٥٧، ٧٩.

٥ - روى التبرقي بإسناده إلى ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام: «أبى الله أن يعرف باطلاً حقاً، أبى الله أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً لا شك فيه، وأبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر الصالح حقاً لا شك فيه. وتوهم يجعل هذا هكذا ما عرف حق من باطل». وفي حديث آخر: «ليس من باطل يقوم بإزاء الحق إلا غلب، الحق الباطل. وذلك قوته تداني: «عَلَى نَفْسِكَ بِأَقْوَى عَلَى الْبَاطِلِ فَيُدْفَعُ وَإِذَا هُوَ زَائِقٌ». الأنبياء ٢١، ١٨. راجع: كتاب المحاسن - «صايرح نظام، ج ١، ص ٤٣٢، برقم ٩٩٨ و ٩٩٩.

منهم على من سواهم. وقد تبين الحق من ذلك، بمقايضة العدل عند ذوي الألباب». ^١ أي الفئات المحايدة للحق، ليسوا على طمأنينة من أمرهم، بل في ريبهم يترددون. فهناك زارئ - أي عاتب - منهم عليهم، حيث وميض النور لا يبقى منطفئاً أبداً.

ومن ثم لا ترى الدعوة في سبيل رسالتها مشكلة مع العلماء وأصحاب العقول السبهاء، إنما مشكلتها مع الجهلة السفهاء «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ، وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». ^٢ «وَيُعَلِّمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ». ^٣

ولم يشهد التاريخ أن نبهاء الأمم طالبوا أنبياءهم البرهان على صحة دعواهم، كسلمان وأبي ذر والمقداد. نعم كانت السفلة الأدناس هم الذين عارضوا رسلهم وطلبوا منهم البيّنات، وبعد لم ينتهوا عن سقنهم على كل حال. «وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ» ^٤ «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتُورًا». ^٥ «نَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لَذِقُوا كَارِهُونَ». ^٦ أي كان جحودهم وارتبابهم في الحق ناشئاً عن كراهيته لا عن نكرانه واقعاً. ^٧ نعم كانت مطالبة المعجزة نوراً لها، بعد مواجهة التكرار أو إيذاء الارتباب من قبل الملأ والسادة من أهل الترف، لا العامة وأصحاب العقول الراجعة.

فكما أن السيف لعب دور الدفاع عن كيان الإسلام في منازعة هجمات العدو عسكرياً، كذلك الآية المعجزة دافعت عن حريم الإسلام وناذرت هجمات العدو فكرياً. وهذا هو القرآن يتحدى بإعجازه أولئك المرتابين «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ». ^٨ وهكذا سائر آيات التحدي موجهة إلى الذين ارتابوا أو

١ - المصدر، برقم ١٠٠٠/٤٠٢.

٢ - سبأ ٣٤، ٣٥.

٣ - طه ٢٠، ٢٣.

٤ - الحج ٥٢، ٥٤.

٥ - الزخرف ٥٣، ٥٨.

٦ - فصل ٢٧، ١٤.

٧ - راجع في ذلك محاضرة دارت بين موسى وفرعون ذكرها القرآن في طرفة بيان، التبراه ٢٦، ٢٧ فما بعد والأعراف ٧.

٨ - البقرة ٢، ٢٣.

١٠٣ - ١١٠.

أبدوا أرتياهم - ظاهرياً - في صحة الدعوة.^١

التحدي في خطوات

لقد تحدى القرآن عامة العرب، مدّ نשא بين ظهرانيهم، وهم لمسوه بأناملهم فوجدوه صعباً على سهولته وممتنعاً على يسره، فحاولوا معارضته ولكن لا بالكلام، لعجزهم عنه، بل بمقارعة السيوف وبذل الأموال والنفوس، دليلاً على فشلهم عن مقابله بالبيان.

وربما كانوا بادئ ذي بدء، استقلوا من شأنه، حيث قالوا: «نَوْ نَشَاءُ نَقُلُّا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^٢ وقالوا: «إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ»^٣. وقالوا: «إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ»^٤ وقالوا: «مَا أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ»^٥ إلى أمثالها من تعابير تنم عن سخف أوهامهم. لكن سرعان ما تراجع العرب على أعقابها، فانقلبوا صاعرين، وقد ملكتهم روعة هذا الكلام وطغت عليهم سطوته، متبهكماً بموقفهم هذا الفاشل، ومتحدياً في مواضع.

«أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيَاخُذُوا بَحَدِيثِ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ»^٦ وحدد لهم لو يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فيما كانوا يزعمون «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ»^٧.

وتصاغراً من شأنهم تنازل أن لو استطاعوا أن يأتوا بسورة واحدة من مثله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَمَا يَأْتِيهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»^٨.

وأخيراً حكم عليهم حكمه البات «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»^٩ أن ليس باستطاعتهم

١ - راجع طه: ١٣٣، هود: ١١١، يونس: ١٠، الأنعام: ٣٦، وغيرهم.

٢ - الأنعام: ٢٥، ٢٦.

٣ - القصص: ٢٤، ٢٥.

٤ - الأنعام: ٩١.

٥ - القصص: ٢٤، ٢٥.

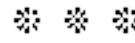
٦ - يونس: ٣٨-٣٩.

٧ - القصص: ٢٤، ٢٥.

٨ - القصص: ٢٤، ٢٥.

٩ - القصص: ٢٤، ٢٥.

ذلك مهما حاولوه وأعدّوا له من حول وقوّة، لأنّه كلام يفوق كلام البشر كافّة.
والآن وقد حان إعلان التحدّي بصورته العامّة، متوجّهاً به إلى البشريّة جمعاء،
تحدّياً مستمراً عبر الأجيال: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^١.



وهل وقع التحدّي بجميع وجوه الإعجاز، أم كان يخصّ جانب فصاحته وبلاغته
وبديع نظمته وعجيب أسلوبه فحسب؟
ولعلّه يختلف حسب اختلاف الخطاب. فحيث كان التحدّي متوجّهاً إلى العرب
خاصّة، ولا سيّما ذلك العهد، الذي كانت مهنة العرب فيه خاصّة بجانب البيان وطلاقة
اللسان. فلا جرم كان التحدّي حينذاك أيضاً خاصّاً بهذا الجانب في ظاهر الخطاب.
أمّا وبعد أن توجّه النداء العام إلى كافّة البشريّة على الإطلاق، فإنّه لابدّ أن يتّسع
التحدّي بمجموعة وجوه الإعجاز من حيث المجموع. حيث اختلاف الاستعدادات
والقابليّات، والقرآن معجزة الإسلام، لجميع الأدوار وعامّة الأجيال، ولمختلف طبقات
الناس، في النون والمعارف، والعلم والثقافات.

التحدّي في شموله

وهذا التحدّي في عمومته يشمل كلّ الأمم وكلّ أدوار التاريخ، سواء العرب وغيرهم،
وسواء من كان في عهد الرسالة أم في عهود متأخّرة حتّى الأبد. اللفظ عامّ والخطاب
شامل^٢ ولأنّ التحدّي لم يكن في تعبيره اللفظي فقط ليخصّ لغة العرب، وإنّما هو
بمجموعته من كميّة الأداء والبيان والمحتوى جميعاً. كما أنّه لم يخصّ جانب فصاحته

١ - الإسراء ١٧: ٨٨.

٢ - وبتعبير اصطلاحى أمّونى: أنّ هذا الخطاب يضمّ إلى جانب عمومته الأفرادى إطلاقاً أحوالياً وإطلاقاً زمانياً مدّاً، إذن
فالخطاب شمول من اتّواحي الثلاث: الأفراد المتوجودين والأقوام الذين يأتون من بعد. وإنّما كانت حالتهم وعلى أيّ
صفحة كانوا...

فحسب، ليكون مقصوداً على العهد الأول، حيث العرب في ازدهار الفصاحة والأدب. على أن الفصاحة والبلاغة لم تختص بلغة دون أخرى ولا بأمة دون غيرها.

لكن هناك من حاول اختصاص التحدي بالعهد الأول وإن كان الإعجاز باقياً مع الخلود زعماء بأن عجز ذلك الدور يكفي دليلاً على كونه معجزاً أبداً. هكذا زعمت الكاتبة بنت الشاطي، قالت: مناط التحدي هو عجز بلغاء العرب في عصر المبعث، وأما حجة إعجازه فلا تخص عصراً دون عصر وتعم العرب والعجم، وكان عجز البلغاء من العصر الأول وهم أصل الفصاحة برهاناً فاصلاً في قضية التحدي...

قلت: ولعلها في ذهباها هذا المذهب، خشيت أن لو قلنا بأن التحدي قائم ولا يزال، أن سوف ينبري نائرة الكفر والإلحاد، ممن لا يقل عددهم في الساطقين بالضاد، فيأتي بحديث منله، وبذلك ينقض أكبر دعامة من دعائم الإسلام.

لكنها فلتطمئن أن هذا لن يتبع ولن يكون، لأن القرآن وضع على أسلوب لا يدانيه كلام بشر البتة، ولن يتمكن أحد أن يحاربه لا تحيراً وأداءً ولا سبكاً وأسلوباً، مادام الإعجاز قائماً بمجموعة اللفظ والمعنى، رفعة وشموخ في المحتوى، وجمال وبهاء في اللفظ والتعبير، فأني متكلم أو ناظر يمكنه الإتيان بهكذا مطالب رفيعة، لم تسبق لها سابقة في البشرية وفي هكذا قالب جميل! اللهم إلا أن يفضح نفسه.

وفي التاريخ عبرت عن أناس حاولوا معارضة القرآن، لكنهم أتوا بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة، بادعواؤه، باق عاره وشناره، فمن حدثه نفسه أن يعيد هذه التجربة، فلينظر في تلك العبر، ومن لم يستح فليصنع ما شاء.

وتلك شهادات من أهل صناعة الأدب، اعترفوا - عبر العصور - بأن القرآن فذ في أسلوبه لا يمكن لأحد من الناس أن يقاربه فضلاً عن أن يماثله.

قال الدكتور عبدالله دراز: من كانت عنده شبهة، زاعماً أن في الناس من يقدر على

اللاتيان بمتله، فليرجع إلى أدباء عصره، وليسألهم: هل يقدر أحد منهم على أن يأتي بمتله؟ فإن قالوا: نعم، لو نشاء لقلنا مثل هذا، فليقل لهم: هاتوا برهانكم. وإن قالوا: لا طاقة لنا به، فليقل لهم: أي شيء أكبر شهادة على الإعجاز من الشهادة على العجز؟ ثم ليرجع إلى التأريخ فليسأله ما بال القرون الأولى؟ يبتك التأريخ أن أحد لم يرفع رأسه أمام القرآن الكريم، وأن بضعة نفر الذين أغضوا رؤوسهم إليه، باؤوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان.^١

التحدّي بفضيلة الكلام

قد يقول قائل: إن صناعة البيان ليست في الناس بدرجة واحدة، وهي تختلف حسب اختلاف القرائح والمعطيات، ولكل إنسان مواهبه ومعطياته. وكل متكلم أو كاتب إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ومواهبه، ومن ثم يختلف الناس في طرق التعبير والأداء، ولا يمكن أن يتشابه اتنان في منطقتيهما وفي تعبيرهما، اللهم إلا إذا كان عن تقليد باهت. إذن فكيف جاز تحدّي الناس لو يأتوا بحديث في مثل القرآن، وهم عاجزون أن يأتوا بمثل كلام بعضهم؟!

لكن غير خفي أن لشرف الكلام وضعته مقاييس، بها يعرف ارتفاع شأن الكلام وانحطاطه وقد فصلها علماء البيان، وبها تتفاوت درجات الكلام ويقع بها التفاضل بين أنحاء من رفيع أو ضيع، نعم وإن كانت القرائح والمعطيات هي المادة الأولى لهذا التفاوت، ولا نماري أن يكون كلام كل متكلم هي وليدة فطرته وحصيلة مواهبه ومعطياته بحيث لا يمكن مشاركة أي أحد فيما تمليه عليه ذهنيته الخاصة، لكن ذلك لا يوهن حجتنا في التحدي بالقرآن، لأننا لا نطالبهم أن يأتوا بمثل صورته الكلامية، كلاً، وإنما نطلب كلاماً - أيّاً كان نمطه وأسلوبه - بحيث إذا قيس مع القرآن، بمقاييس الفضيلة البيانية، حاذاه أو قاربه، على شاكلة ما يقاس كلمات البلغاء بعضهم مع بعض، وهذا هو القدر الذي

يتنافس فيه الأدباء، ويتماثلون أو يتقاربون، لا شيء سواه.

وقد أشار السكاكي إلى طرف من تلك المقاييس التي هي المعيار لارتفاع شأن الكلام وانحطاطه، قال - بعد أن ذكر أن مقامات الكلام متفاوتة، ولكل كلمة مع صاحبها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام - : وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك، بحسب مصادفة الكلام لما يليق به.

قال: فحسن الكلام تحليله بشيء من هذه المناسبات والاعتبارات بحسب مقتضى، ضعفاً وقوة على وجه من الوجوه (التي يفصلها في فني المعاني والبيان).

ويقول: - بعد ذلك - : وإذا قد تقرر أن مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال والاعتبار المناسب، وعلى لا انطباقه، وجب عليك - أيها الحريص على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك، المتفحص عن تفاصيل المزاي التي بها يقع التفاضل، ويعتد بين البلغاء في شأنها السابق والتفاضل - أن ترجع إلى فكرك الصائب، وذهنك الثاقب، وخاطرك اليقظان، والتباعد العجيب الشأن، ناظرًا بنور عقلك، وعين بصيرتك، في التصفح لمقتضيات الأحوال، في إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة، وصور متنافية، حتى يتألف من كل صورة من هذه الصور في معرضها، فهو الرهان الذي يجرب به الجياد، والنضال الذي يعرف به الأيدي الشداد فتعرف أيما حال يقتضي كذا... وأيما حال يقتضي خلافه... الخ.^١

وعليه فترداد قوة الكلام وصلابته وكذا روعة البيان وصولته، كلما ازدادت العناية بجوانبه اللفظية والمعنوية من الاعتبارات المناسبة، ورعاية مقتضيات الأحوال والأوضاع، وملاحظة مستدعيات المقامات المتفاوتة، على ما فصله القوم، وقل من يتوفق لذلك بالنحو الأتم أو الأفضل، بل الأكثر، مادام الإنسان حليف السيان، أمّا بلوغ الأقصى والكمال الأوفى، الذي حد الإعجاز، فهو خاص بذي الجلال المحيط بكل الأحوال.

١ - مفتاح العلوم، ص ٨٠-٨١ و ٨٤.

وفي ذلك يقول السكاكي: «البلاغة تتزايد إلى أن تبلغ حد الإعجاز، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه»^١، ومنه أخذ الخطيب التزويني: «وللبلاغة في الكلام طرفان، أعلى وهو حد الإعجاز وما يقرب منه، وأسفل وهو ما إذا غيّر الكلام إلى ما دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات»^٢.

إذن فالطرف الأعلى وما يقرب منه، كلاهما حد الإعجاز، على ما حدّده السكاكي، وبذلك يكون اختلاف مراتب آيات القرآن في الفصاحة والبيان، كلّها داخلاً في حد الإعجاز الذي لا يبلغه البشر. وهذا هو الصحيح، على ما سنبيّن.

وبعد، فالمتلخص من هذا البيان: أنّ التفاضل بين كلامين أو التماثل بينهما إنما يتحقّق بهذه الاعتبارات - التي هي مقاييس لدرجة فضيلة الكلام - وهي من قبيل المعنى أكثر من كونها من قبيل اللفظ، فليس المقصود بالتحدي، المعارضة في التشاكل اللفظي والتماثل في صورة الكلام فحسب، كما حشبه مسيلمة الكذاب ومن حدّاه من أغبياء النوم.



مركز تحقيقات كتب وعلوم إسلامي

سرّ الإعجاز

وجوه الإعجاز في مختلف الآراء والنظرات

اختلفت أنظار العلماء في وجه إعجاز القرآن، بين من أنهاه إلى عدّة وجوه ومن اقتصر على وجه واحد، ولا يزال البحث مستمراً عن هذا السرّ الذي هو دليل الإسلام:

١ - ذهب أرباب الأدب والبيان إلى أنّها الفصاحة البالغة والبلاغة الفائقة، إن في بديع نظمته أو في عجيب رصفه، الذي لم يسبق له نظير ولن يخلفه بديل...

قد نُضِدّت عباراته نُضْداً مؤثلاً، ونظّمت فرائده نظماً متلائماً، وُضِعَتْ كلّ لفظه منه في موضعها الملائق بها، ورصفت كلّ كلمة منه إلى كلمات تناسبها وتوائمها، وضِعاً دقيقاً ورصفاً تاماً، يجمع بين أناقة التعبير وسلاسة البيان، وجزالة اللفظ وفخامة الكلام، حلواً

١ - المصدر، ص ١٩٦-١٩٩.

٢ - الأصول اللغوية، ص ٣٦ (ط استنباط).

رشيقاً وعذباً سائغاً، يستلذه الذوق ويستطيبه الطبع... مما يستشف عن إحاطة واسعة
ومعرفة كاملة بأوضاع اللغة ومزايا الألفاظ والكلمات والتعابير... ويتقصر دونه طوق البشر
المحدود!

قالوا في دقة هذا الرصف والنضد: لو انتزعت منه لفظة تم أدير بها لغة العرب كلها على
أن يوجد لها نظير في موضعها الخاص، لم توجد البتة...

٢- وزادوا: جانب أسلوبه البديع وسبكه الجديد على العرب، لا هو شعر كشعرهم،
ولا هو نثر كنثرهم، ولا فيه تكلف السجع ولا رطانة أهل الكهانة. فهو في سبكه بديع، لكنه
ليس بغريب: قد جمّع مزايا أنواع الكلام: فيه أناقة الشعر، وطلاقة النثر، وجزالة السجع
الرصين، في حلاوة وطلاوة وزهٍ وجمال: إن له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة... وإنه يعلم وما
يعلى. كلام قاله عظيم العرب وفريدها الوليد...

أو كما قال الراغب: القرآن حاوٍ لمحاسن أنواع الكلام بنظم ليس هو نظم شيء منها.
٣- وتوسّع المحدثون في البحث وراء نظامه الصوتي العجيب:
أنغام وألحان تبهر العقول وتذهل النفوس، نظمت كلماته على أنظمة صوتية دقيقة،
ورصفت ألفاظه وعباراته على تحريفات موسيقية رقيقة، متناسبات الأجراس،
متناسقات التواقيع، في تقاسيم وتراكيب سهلة سلسة، عذبة سائغة، ذات رنة وجذبة
شعرية عجيبة، واستهواء سحري غريب!

٤- وأضاف المحققون جانباً اشتماله على معارف سامية وتعاليم راقية تبسّك عن
لطيف سرّ الخليفة، وبديع فلسفة الوجود، في جلال وجمال وعظمة وكبرياء، بما يترفع
كثيراً عما راجت في تعاليم مصطنعة ذلك العهد، سواء في أوساط أهل الكتاب أم الوثنيين.
٥- وهكذا تشريعاته جاءت حكيمة ومثينة، متوافقة مع الفطرة ومتوائمة مع العقل
السليم... في طهارة وقداسة وسعة وشمول، كانت جامعة كاملة كافلة لإسعاد الحياة في
النشأتين.

٦- وكانت براهينه ساطعة ودلائله ناصعة، واضحة ولائحة، قامت على صدق

الدعوة وإثبات الرسالة... في بيان رصين ومنطقي رزين وفصل خطاب.

٧- واشتمأله على أنباء غيبية، إنما سألته كانت معرفة سقيمة، فجاءت محررة سليمة في القرآن الكريم، أو إخبار عما يأتي، تحقق صدقها بعد فترة قصيرة أو طويلة، كانت شاهدة صدق على صدق الرسالة.

٨- إلى جنب إشارات علمية، عابرة، إلى أسرار من هذا الكون الفسيح، وإلماعات خاطفة إلى حقائق من خفايا الوجود، مما لا تكاد تبلغه معرفة الإنسان العائش يومذاك.

٩- وأخيراً استنمته في البيان، وسلامته من أي تناقض أو اختلاف، في طول نزوله، وكثرة تكراره لسرد حوادث الماضين، كل مشتمل على مزية ذات حكمة لا توجد في أختها. وكذا خلوه عن الأباطيل وعما لا طائل تحتها.

تلك روائع آراء نتجتها أنظار الأدباء، وبدائع أسرار وصلت إليها أفكار العلماء، كانت من وجوه إعجاز القرآن ومزايده الوسيمة، سوف نسرد عليك تفصيلها في مجالها الآتي إن شاء الله.

١٠- لكن هناك وجه آخر يجعل من الإعجاز أمراً خارجياً عن جوهر القرآن بعيداً عن ذاته، وإنما هو لعجز أحده الله في نفس العرب والناس جميعاً، ومنعهم دون القيام بمعارضته قهراً عليهم. وهو القول بالصرفه، الذي عليه بعض المتكلمين الأوائل ومن لفّ لهم من الكتاب الأدباء.

وسنعرّض لتفنيده وتزييفه على منعة البحث والاختبار، بعونه تعالى.

وبعد، فإليك تفصيل آراء ونظرات حول إعجاز القرآن، من القدماء والمحدثين، لها قيمتها في عالم الاعتبار.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

آراء ونظرات عن إعجاز القرآن

أولاً: في دراسات السابقين

هناك للعلماء - سلفاً وخلفاً - بحوث ودراسات وافية حول مسألة إعجاز القرآن، منذ مطالع القرون الأولى فالى هذا الدور، ولهم كلمات ومقالات ضافية عن وجه هذا الإعجاز المتحدى به من أول يومه، ولا يزال مستمر عبر الخلود. ولهذه الأبحاث والدراسات قيمتها ووزنها العلمي النظري في كل عصر وفي كل دور، وأن الفضل يرجع إلى الأسبق ممن فتح هذا الباب وأسس أساس هذا البنيان، فكان من يأتي من بعد، إنما يجري على منواله ويضرب على ذات وتره، مهما تغير اللون أو تنوع الأسلوب... ونحن نقدم من آراء من سلف الأهم منها فالأهم، ثم نعتبها بطرف من آراء المتأخرين ومن قاربنا عصره، ولنبداً بأهل الأدب والبلاغة:

١- رأي أبي سليمان الخطابي

هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي^١ (٣١٧-٣٨٨) أديب لغوي

١ - ينتهي نسبه إلى زيد أخي عمر بن الخطاب. قال الترمذاني: إمام فاضل كبير الثمان. جليل القدر، صاحب التصانيف

وفقيه محدث. له كتب قيّمة منها في القرآن: كتاب معالم التنزيل ورسالة في إعجاز القرآن، هي على صغر حجمها كبيرة الفائدة.

يُعتبر الخطابي أسبق علماء المسلمين إلى البحث عن إعجاز القرآن، بحثاً فنياً منظماً في ضوء قواعد اللغة والأدب السامي.^١

يقرر الخطابي أن الناس قديماً وحديثاً ذهبوا في الموضوع كل مذهب من القول ولم يصدروا عن رأي. ويناقش فكرة الصرفة، وفكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلية، ولا يرتضيها شرحاً لأسرار الإعجاز، ثم ينتقل إلى موضوع البلاغة، ويعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد وعدم تحقيقهم، وقصور كلامهم عن الإقناع. ويعالج هو الموضوع على طريقتيه، فيذكر للكلام المحمود أقساماً ثلاثة: أعلى هو أرفع وأوسط هو أقصد وأدنى هو أقرب. ويقرر أن بلاغات القرآن قد أخذت من كل قسم من هذه حصّة ومن كل نوع شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الضخامة والعدوثة. وهما على الانفراد في نعتيهما كالمضادّين، لذلك كان اجتماعهما في نظم القرآن فضيلة خُصّ بها، يسهلها اللطيف الخبير، لتكون آية بيّنة لبيته. وإنما تعذر على

→ التحمّلة مثل اعلام الحديث في شرح البخاري، ومعالم التنين، وغريب الحديث، والعزّة وغيرها. سمع ابن الأعرابي بصحة وابن داسة انتشاراً بالبحرّة والتصوّف بعداد وغيرهم. روى عنه التحاكم والفارسي وجماعة. ذكره التحاكم في التاريخ قفاز: اقفية الأديب، البستاني أقام عندنا ببغداد سبع سنين وحديث بها وكثرت الفتاوى من علومه. أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٨٠.

والبستاني نسبة إلى «نمت» من بلاد كابل بين هراة وخرزنة نشأ بها ورجع إليها وأقام بقية حياته فيها وبها توفي.
١ - تكن ذكر ابن التديم محمد بن زيد الواسطي (ت ٣٠٧) كنبأ في إعجاز القرآن. وهو من جهة المتكلمين وكبارهم صاحب كتاب «الإمامة» القهرست ص ٦٣ و ٥٦، وراجع: التذريعة إلى تصانيف الشيعة لنظيراني، ج ٢، ص ٢٣٦، برقم ٩١٧.

وتقدّم في مقدّمة الجزء الأوّل من التمهيد: أن لأبي عمرو الباهلي (المتوفى سنة ٣٠٠) رسالة في إعجاز القرآن، وكان أوّل من بحث في هذا الموضوع وكانت رسالته أوّل رسالة ظهرت في الوجود بهذا العنوان!
غير أن الذي وصل إلينا من كتب المتقدّمين في إعجاز القرآن هي رسالة الخطابي «البيان في إعجاز القرآن» وطُبعت مع رسالتين أخريين في الإعجاز أحدهما ترماني والأخرى تسيخ عبد القاهر الجرجاني، باسم ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. دار المعارف بمصر: ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م الطبعة الثانية.

البشر الإتيان بمثله، لأنَّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها. ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جمع النظم التي بها اتلافها وارتباطها بعضها ببعض.

وإنَّما صار القرآن معجزاً، لأنَّه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظم التأليف، مضمناً أصحَّ المعاني، ومعلوم أنَّ الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتشق، أمر تعجز عنه قوى البشر.

وعמוד البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كلِّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام، موضعه الأخصَّ الأشكل به. ومن هنا كاع القوم وجبنوا عن معارضة القرآن، لما قد كان يؤودهم ويتصدَّهم منه.

وينتد الخطَّابي بعض ما أورده المعترضون من شبه ضدَّ أسلوب القرآن.

ومن الطريف في رسالة الخطَّابي ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلاً فنياً جميلاً، يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام.

وقد أثبت في آخر رسالته وجهاً آخر للإعجاز ذهب عنه الناس - كما يقول - وذلك صنيع القرآن بالخلوب، وتأثيره في النفوس. ويلاحظ أنَّ هذه الفكرة هي التي دار حولها بحث الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في أسرار البلاغة، إذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس.

والرسالة قيَّمة، فريدة في بابها، ولعلَّه لم يعهد مثلها فيما غبر وحضر، ومن ثمَّ اختارناها أولى رسالة عالجت الموضوع بشكله الفني، والله درر مؤلَّفها.

واستمع الآن إلى ما يقوله هو:

يقول: قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كلَّ مذهب من القول وما وجدناهم بعد صدروا عن رأيٍّ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كينونته. فأما أن يكون قد نقبت في النفوس نقبةً بكونه

١ - أي نقبت في النفوس إلقاء. وهو قول قريب من اتقوا بالتصرف. ومن ثمَّ رفضه.

معجزاً للخلق ممتنعاً عليهم الإتيان بمثله على حال، فلا موضع لها. والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندلّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه. وذلك أن النبي ﷺ قد تحدّى العرب قاطبة بأن يأتيوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه. وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهر لهم التكبر، زارياً على أديانهم، مسفهاً آرائهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلك في النفوس، وأريق المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال... ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقير المبيدة^١ ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول، إلى الحزن الوعر من الفعل^٢.

هذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذو لب. وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام ووفارة القول والألباب، وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المثلثون^٣ وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدن، فقال سبحانه: «ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون»^٤ وقال سبحانه: «وتنذركم قوماً لداً»^٥ فكيف كان يجوز - على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة - أن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه^٦ وأن يضربوا عنه صفحاً، ولا يجوزوا الفلج والظفر فيه، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه.

قال: وهذا - من وجوه ما قيل فيه - أيتها دلالة وأيسرها مؤونة. وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإعجاز فيه^٧.

١ - انقارعة: اندامية، والإبارة: الإهلات.

٢ - اندمان: اندهونة، يقال: أرض دمت أي ذتت، ضد التحزونة والتوعورة.

٣ - المثلثون: البليغ، وشاعر مقلد - بزنة اسم التفاعل - مبدع.

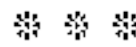
٤ - الزخرف ٥٣، ٥٨.

٥ - مريم ٩٩، ٩٧.

٦ - اهتبال الفرصة: اشتغالها.

٧ - أي وهذا أيسر التوجه لمن أراد الاقتناع بنفسه وتو ثقلاً وليس تحقيقاً.

ثم أخذ في بيان مذاهب آخر في بيان وجه الإعجاز، قال: وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، وإن كانت مقدوراً عليها، غير معجوز عنها، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات... قال: وهذا أيضاً وجه قريب، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه، قال سبحانه: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِنِعْضٍ ظَهِيراً) فأشار في ذلك إلى أمر طريقته التكلف والاجتهاد، وسبيله التأنيب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم.



قال: وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الأخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان، نحو قوله سبحانه: «وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَذَابِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ»^١ وكقوله سبحانه: «قُلْ لِلْمُخَلَّقِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرٌ عَوْنٌ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ»^٢ ونحوهما من الأخبار التي صدقت أقوالها مواقع كوائنها، قلت: ولا يشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالعلم الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ»^٣ من غير تعيين، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه.

وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة، وهم الأكثر من علماء أهل النظر، وفي كيفية عرض لهم الإشكال، ويعصّب عليهم منه الانفصال. ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة القرآن على نوع من التقليد، وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به. ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي

١ - الإسراء ١٧: ٨٨.

٢ - الزمزم ٣٠: ٤.

٣ - البقرة ٢: ٢٣.

٤ - الإسراء ١٧: ٨٨.

٥ - البقرة ٢: ٢٣.

اختصّ بها القرآن الفائقة في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام. قالوا: قد يخفى سببه (سبب التفاضل بين كلامين) عند البحث، ويظهر أثره في النفس، حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به.

قالوا: وقد توجد لبعض الكلام عدوثة في السمع وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علة... قلت: وهذا لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أُحيل به على إيهام.

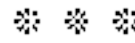
وبذلك ينتهي إلى إيداء رأيه الأخير في وجه الإعجاز، قائلاً:

فأما من لم يرض من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان، فإنه يقول: إن الذي يوجد لهذا الكلام من العدوثة في حسّ السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة، التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتعطل من أجله الآس على أنه كلام لا يبيحه كلام، وتحصر الأقوال عن معارضته، وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لا بدّ له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم، وبحصوله يستحقّ هذا الوصف.

قال: وقد استقرأنا أوصافه الخارجة عنه، وأسبابه النابتة منه، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر، أو يستقيم في القياس، ويترد على المعايير. فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته، ومستقصى من جهة نفسه، فدلّ النظر وشاهد العبر على أن السبب له والعلة فيه: أن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة البيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز الطلق الرسل.

وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة.

فالتسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه. والتسم الثاني أوسطه وأقصده. والتسم الثالث أدناه وأقربه، فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّةً، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبةً، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة وهما على الانفراد في نوعيهما كالمتضادين، لأنّ العدوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه، مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خصل بها القرآن.



قال: وإنما تعذر على البشر الإتيان بمنله لأمر، منها: أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربيّة وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفعالهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اختلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتيوا بكلام مثله.

.. وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور مندرجة في غاية الشرف والفضيلة، حتّى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه.

.. وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل، أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نوعها وصفاتها.

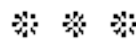
... وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع منه، فلم توجد إلّا في كلام العليم التقدير، الذي أحاط بكل شيء، علماً، وأحصى كل شيء، عدداً.



قال: فتشبهم الآن واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن

نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزّت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه. مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مَنَلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبهاً عن الكوائف المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان، جامعاً في ذلك بين الحجّة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

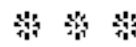
.. ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمنته أو مناقضته في شكله. ثم صار المعاندون لله يقولون مرة: إنه شعر، لما رآوه كلاماً منظوماً، ومرة سحر، إذ رآوه معجوزاً عنه غير مشدور عليه، وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس، يربيههم ويحيّرهم فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف. .. وكيفما كانت الحال ودارت القصة، فقد حصل باعترافهم قولاً، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً، أنّه معجز. وفي ذلك قيام الحجّة وتبوت المعجزة، والحمد لله.



وأضاف - قائلًا -: أعلم أنّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إقاراً تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإقاراً ذهاب الروق الذي يكون معه سقوط البلاغة. ذلك أنّ في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، غير أنّ الأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصيّة تميّز بها عن صاحبته في بعض

معانيها، وإن كانوا قد يشتركان في بعضها... ومن هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن، وتركوا القول فيه، حذراً أن يزلوا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللسان، فتنها في الدين.

.. فإذا قد عرفت هذه الأصول، تبين أن القوم إنما كانوا وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصددهم منه، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها، ويعلمون أنهم لا يبلغون بأوهائها فتركوا المعارضة لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم، فكان حظهم ممّا فرّوا إليه حظّهم ممّا فرّوا منه، فغلبوا هناك وانقلبوا صاغرين، والحمد لله رب العالمين.^١



وقال - في خاتمة الرسالة -: في إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذ قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرعاة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق. تتشعر منه الجلود، وتزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوّلوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمتهم ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاةً، وكثرهم إيماناً.

بحث الملاء من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليوافقوه على أمور أرسلوه بها فقرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من حم السجدة، فلما أقبل عتبة وأبصره الملاء من قريش،

١ - كاع عن النبي: هابه وخاف عن مقابله.

٢ - انشأوا الأمد، انقاية.

٣ - انصدر، من ٢٩-٣٥.

قالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.^١

ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن.^٢ وقد روي عن بعضهم أنه قال: فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن. ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت: «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الْرُشْدِ فَآمَنَّا بِهِ».^٣

ومصدق ما وصفناه في أمر القرآن في قوله تعالى: «نُزِّلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ نَرَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».^٤

وفي قوله: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ».^٥

وقال سبحانه: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ».^٦

وقال سبحانه: «وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا».^٧

وقال سبحانه: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ».^٨

في أي ذوات عدد منه، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد. وهو من عظيم آياته ودلائل معجزاته...^٩

٢ - اختيار ابن عطية

ولأبي محمد عبد الحق بن غالب المحاربي الغرناطي، النقيض المفسر (ت ٥٤٢) اختيار

١ - المصدر، ج ٢، ص ٧٠.

٢ - التحشير ٥٩: ٢١.

٣ - التلويح ٥٩: ٥١.

٤ - التائدة ٥: ٨٣.

١ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١٤.

٢ - التلويح ٧٢: ١.

٣ - الزمر ٣٩: ٢٤.

٤ - الأنفال ٨: ٢.

٥ - بيان إعجاز القرآن، ص ٧٠-٧١.

يشبه اختيار أبي سليمان البستي، ولعله اختزال منه، ذكره في مقدمة تفسيره (المحرر) ونقله الإمام بدر الدين الزركشي، مع تصرف واختصار.

قال ابن عطية: إن الذي عليه الجمهور والحدائق، وهو الصحيح في نفسه، أن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم - بإحاطته - أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، ويتبين المعنى دون المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره. والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشر لم يكن قط محيطاً، فهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من النصاحة، وبهذا النظر يطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها الإتيان بمثله، فلما جاءهم محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه! والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر، في أن النصيح منهم يصح خطبة أو قصيدة يستنرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينتحها حولاً كاملاً، ثم تعطي لآخر نظيره فبأخذها بقريحة خاصة فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبهل، وكتاب الله سبحانه لو نرعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد، ونحن نتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع لتصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام.

قال: وقامت الحجّة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة وفطنة المعارضة كما قامت الحجّة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي معجزة موسى بالأسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والنصاحة في مدة محمد ﷺ.

١ - المحرر التوجيه، المقدمة، ج ١، ص ٥٢-٥٣. وراجع: الزركشي في التمهيد، ج ٢، ص ٩٧.

٣- رأي عبد القاهر الجرجاني

يرى الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) - وهو الواضع الأول لأسس علمي المعاني والبيان - أنَّ إعجاز القرآن الذي تحدّى به العرب قائم بجانب فصاحته البالغة وبلاغته الخارقة، وبأسلوب بيانه ذلك البديع، ممّا هو شأن نظم الكلام وتأليفه في ذلك التناسق والتلاؤم العجيب. الأمر الذي لا يمسّ شيئاً من معاني القرآن وحكمه وتشريعاته، وهي كانت موجودة من ذي قبل في كتب السالفين، وقد أُطلق لهم المعاني من أيّ نمط كانت.

وقد وضع كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» تمهيداً لبيان وجوه إعجاز القرآن لمن مارس أسرار هذا العلم. وتلتهما برسالته «الشافعية» التي خصّصها بالكلام حول إعجاز القرآن والإجابة على أسئلة دارت حول الموضوع.

قال - في مقدّمة كتابه دلائل الإعجاز - بعد أن أشاد بشأن النظم في الكلام وتأليفه وتسيقه -: وإذا كان ذلك كذلك، فما جواب الخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلّق التي هي محصّل النظم، موجودة على حقائقها وعلى الصّحة وكما ينبغي في متون كلام العرب ومنظوماتهم قد استعملوها وتصرّفوا فيها وكمّلوا بمعرفتها، وكانت حقائق لا تبدّل ولا يختلف بها الحال، إذ لا يكون للاسم بكونه خبراً لمبتدأً أو صفة لموصوف أو حالاً لذي حال أو فاعلاً أو مفعولاً لفعل في كلام حقيقة هي خلاف حقيقته في كلام آخر..

.. فما هذا الإعجاز الذي تجدد بالقرآن من عظيم المزية، وباهر الفضل، والعجيب من الوصف، حتى أعجز الخلق قاطبةً، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القويّ والقدر، وقيد الخواطر والنكر، حتى خربت الشقاشق^١ وعدم نطق الناطق وحتى لم يجر لسان، ولم يبن بيان، ولم يساعد إمكان، ولم ينقذ لأحد منهم زند، ولم يمض له حدّ، وحتى أسأل

١ - الشقاشق: جمع شقيقة - بكسر الشين - وهي نهاية التعبير أو شيء كالتلّة يخرجها التعبير من فيه إذا هاج ويقال تصحيح: هدرت شقاشقه. يريدون الانطلاق في القول وقوة البيان ويقال في مقابل ذلك: خربت شقاشقه.

الوادي عليهم عجزاً، وأخذ منافذ القول عليهم أخذاً؟

.. أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونرده عن ضلاله، وأن نطب لدائه، ونزيل الفساد عن رائه؟^١ فإن كان ذلك يلزمنا، فينبغي لكل ذي دين وعقل أن ينظر في الكتاب الذي وضعناه (يريد نفس كتاب دلائل الإعجاز) ويستقصي التأمل لما أودعناه...^٢ وركز في الكتاب قائلاً: وإنه كما يفضل النظم، والتأليف التأليف، والنسخ النسخ، والعبارة العبارة، ثم يعظم الفضل، وتكثر المزية، حتى يشوق الشيء نظيره، والمجانس له درجات كثيرة، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد، كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً، ويتقدم منه الشيء، ثم يزداد من فضله ذلك، ويترقى منزلة فوق منزلة، ويعلو مرقباً بعد مرقب ويستأنف له غاية بعد غاية، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الفنون، وتسقط القوى وتستوي الأقدام في العجز...^٣

ثم قال: واعلم أنه لا سبيل إلى أن تعرف صحة هذه الجملة حتى يبلغ القول غايته، وينتهي إلى آخر ما أردت جمعه لك، وتصويره في نفسك، وتقديره عندك، إلا أن هاهنا نكتة، إن أنت تأملتها تأمل المتشبه، ونظرت فيها نظر المتأني، رجوت أن يحسن ظنك، وأن تنشط للإصغاء إلى ما أورده عليك وهي: **إلا إذا سقنا دليل الإعجاز فقلنا: لولا أنهم حين سمعوا القرآن، وحين تحدوا إلى معارضته، سمعوا كلاماً لم يسموا قط مثله، وأنهم قد رازوا أنفسهم^٤ فأحسوا بالعجز على أن يأتوا بما يوازيه أو يدانيه، أو يقع قريباً منه، لكان محالاً أن يدعوا معارضته وقد تحدوا إليه، وقرعوا فيه، وطولبوا به، وأن يتعرضوا لشبه الأسته^٥ ويقتحموا موارد الموت...**

فقل لنا: قد سمعنا ما قلتم، فخبرونا عنهم، عما ذا عجزوا، أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها في العقول؟ أم عن الفاظ مثل الفاظه؟.. فإن قلتم: عن الألفاظ، فماذا

١ - الترام: الترمي. ٢ - في مقدمة دلائل الإعجاز، من (ف - ح).

٣ - دلائل الإعجاز، من ٢٥ - ٢٦.

٤ - يقال: راز التحجر: أي وزنه يهرف فقله. وراز الرجل: جرب ما عنده يهتبره.

٥ - اشتبا: جمع شبهة. وهي إبرة تغرب، وحذ كل شيء.

أعجزهم من اللفظ، أم بهرهم منه؟..

فقلنا: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري المناظرة ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرًا عشرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى وأخلق، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظامًا والتمام، واتقانًا وإحكامًا، لم يدع في نفس بليغ منهم لو حاك بيافوخه السماء موضع طمع، حتى خرس الألسن عن أن تدعي وتقول وخلدت القروم.^١ فلم تملك أن تقول...^٢

ويعقب ذلك بأن هذه كانت دلالات إعجاز القرآن، ومزايا ظهرت في نظمه وسياقه، بهرت العرب الأوائل، فهل ينبغي للفناني الذكي العاقل أن يكون مقلدًا في ذلك، أم يكون باحنا ومتتبعًا كي يعلم ذلك بيقين؟

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها **مير علي محمد طبرستان** هاتوا حقائق لم يهتموا

ومن ثم وضع كتابه الحاضر (دلائل الإعجاز) ليبدل الناشدين على ضآلتهم، ويضع يدهم على مواقع الإعجاز من القرآن، ويدعم مدعاه في ذلك بالحجة والبرهان. والرائد لا يكذب أهله. قال: وبذلك قد قطعت عذر المتهاون، ودلت على ما أضع من حظه، وهديته لرشده...^٣

وقال في رسالته الشافية -: كيف يجوز أن يظهر في صميم العرب وفي مثل قريش ذوي الأنفس الأبية والهمم العلية والأئمة والحمية من يدعي النبوة ويقول: وحجتي أن الله قد أنزل علي كتاباً تعرفون الفاظه وتفهمون معانيه، إلا أنكم لا تقدر على أن تأتوا به مثله

١ - البيافوخ: مقدمة الدماغ في الرأس وهو مثل يضرب ثمن يستعالي ويتكبر.

٢ - انقروم - بانفتح -: الفعل إذا ترك عن التركوب والعمل. ٣ - دلائل الإعجاز، ص ٢٧ - ٢٨.

٤ - انبييت لأبي الأسود الدؤني. ٥ - المصدر، ص ٢٩.

ولا بعشر سور منه ولا بسورة واحدة، ولو جهدتم جهدكم واجتمع معكم الجن والإنس. ثم لا تدعوهم نفوسهم إلى أن يعارضوه ويبينوا سرفه في دعواه، لو كان ممكناً لهم، وقد بلغ بهم الغيظ من مقاتلته حدّاً تركوا معه أحلامهم وخرجوا عن طاعة عقولهم، حتى واجهوه بكلّ قبيح ولفظه بكلّ أذى ومكروه ووقفوا له بكلّ طريق. وهل سمع قطّ بذي عقل استطاع أن يخرس خصمه بكلمة يجيبه بها، فيترك ذلك إلى أمور ينسب معها إلى ضيق الذرع وأنه مغلوب قد أعوزته الحيلة وعزّ عليه المخلص، وهل مثل هذا إلا مثل رجل عرض له خصم فادّعى عليه دعوى خطيرة وأقام على دعواه بيّنة، وكان عند المدّعى عليه ما يطل تلك البيّنة أو يعارضها، فيترك إظهار ذلك ويضرب عنه الصفح جملة، ليصير الحال بينهما إلى جدال عنيف وإخطار بالمهج والنفس... قال: هذه شهادة الأحوال، وأما شهادة الأقوال فكثيرة...^١

ثم قال - في وجه التحدي -: لم يكن التحدي إلى أن يعتبروا عن معاني القرآن أنفسهم وأعيانها بلفظ يشبه لفظه ونظم يوازي نظمه، هذا تقدير باطل. فإنّ التحدي كان إلى أن يجيؤوا، في أيّ معنى شاؤوا من المعاني، بنظم يبلغ نظم القرآن، في الشرف أو يقرب منه. يدلّ على ذلك قوله تعالى: «قُلْ هَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ»^٢ أي مثله في النظم، وليكن المعنى مثرياً لما قلتم. فلا إلى المعنى دعيتم، ولكن إلى النظم...^٣

قال: ويجزم القول بأنهم تحدّوا إلى أن يجيؤوا في أيّ معنى أرادوا مطلقاً غير مقيد، وموسعاً عليهم غير مضيق، بما يشبه نظم القرآن أن يقرب من ذلك.^٤

٤- رأي السكاكي

يرى أبو يعقوب، يوسف بن محمد بن علي السكاكي، صاحب مفتاح العلوم، (ت ٥٦٧) أن الإعجاز في القرآن أمر يمكن دركه ولا يمكن وصفه، والمدرك هو الذوق،

٢- هود: ١١، ١٣.

١- انشافية، ج ١، ١٢٠، ١٢٢.

٤- المصدر، ج ١، ١٤٤.

٣- انشافية، ج ١، ١٤١.

الحاصل من ممارسة علمي الفصاحة والبلاغة وطول خدمتهما لاغير. فقد جعل للبلاغة طرفين، أعلى وأسفل وبينهما مراتب لا تحصى. والدرجة السفلى هي التي إذا هبط الكلام عنها شيئاً التحق بأصوات الحيوانات، ثم تتزايد درجة درجة متصاعدة، حتى تبلغ قممها وهو حد الإعجاز، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه... فقد جعل من الدرجة القصوى وما يقرب منها كليهما من حد الإعجاز.

ثم قال بشأن الإعجاز: واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحاة ومدرك الإعجاز - عندي - هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعاني والبيان)... ثم أخذ في تحديد البلاغة وإمالة اللتام عن وجوها المحتجبة، وكذا الفصاحة بتسميها اللفظي والمعنوي، وضرب لذلك مثلاً بآية «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ...»^١ وبيان جهاتها الأربع من جهتي المعاني والبيان، وهما مرجعا البلاغة، ومن جهتي الفصاحة المعنوية واللفظية وأسهب في الكلام على ذلك، وقال - أخيراً - : والله درّ التزليل، لا يتأمل العالم آية من آياته، إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر.^٢ وغرضه من ذلك: أن لحد الإعجاز ذروة لا يبلغها الوصف، ولكن يمكن فهمها إدراك سنامها، بسبب الإحاطة بأسرار هذين العلمين، فهي حقيقة تدرك ولا توصف.

٥ - رأي الراغب الإصفهاني

لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الإصفهاني (ت ٥٠٢) صاحب كتاب «المفردات» رأي في إعجاز القرآن يخصه، أنه يرى من الإعجاز قائماً بسببه الخاص ونظمه البديع الذي لم يألفه العرب لحد ذلك، فلا هو نثر كثيرهم المعهود، لأن فيه الوزن والثقافية وأجراس النغم. ولا هو شعر كثيرهم، لأنه لم يجر مجرى سائر أشعار العرب ولا على أوزانها المعروفة وإن كانت له خاصية الشعر، من التأثير في النفس بلحنه

٢ - مفتاح العلوم، ص ١٩٦-١٩٩.

١ - مود ١١: ٤٤، وسنذكرها في ج ٥.

الشعريّ النغميّ الغريب.

قال - بعد كلام له في وصف إعجاز القرآن قدّمناه آنفاً -:

وهذه الجملة المذكورة، وإن كانت دالة على كون القرآن معجزاً، فليس بمقتنع إلا

بتبيين فصلين:

أحدهما: أن يبين ما الذي هو معجز: اللفظ أم المعنى أم النظم؟ أم ثلاثتها؟ فإن كل كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة.

والثاني: أن المعجز: هو ما كان نوعه غير داخل تحت الإمكان، كإحياء الموتى وإبداع الأجسام.

فأما ما كان نوعه مقدوراً، فمحله محلّ الأفضل وما كان من باب الأفضل في النوع فإنه لا يحسم نسبة مادونه إليه. وإن تباعدت النسبة حتى صارت جزءاً من ألف، فإن التجار الحاذق وإن لم يبلغ سأوه لا يكون معجزاً إذا استطاع غيره جنس فعله، فنقول وبالله التوفيق:

إن الإعجاز في القرآن على وجهين: أحدهما: إعجاز متعلق بنصاحته، والثاني: بصرف الناس عن معارضته.

فأما الإعجاز المتعلق بالنصاحته، فليس يتعلق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى، وذلك أن ألفاظه ألفاظهم، ولذلك قال تعالى: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا»^١ وقال: «إِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ»^٢ تنبيهاً أن هذا الكتاب مركّب من هذه الحروف التي هي مادة الكلام.

ولا يتعلق أيضاً بمعانيه، فإن كثيراً منها موجود في «الكتب المتقدمة» ولذلك قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ»^٣ وقال: «أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بَيِّنَةً مَا فِي أَنْصُحِ الْأُولَى»^٤ وما هو معجز فيه من جهة المعنى، كالأخبار بالغيب، فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن، بل هو لكونه خبراً بالغيب، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره، وسواء كان مورداً

١ - يوسف ١: ٢.

٢ - طه ١: ١٣٣.

٣ - يوسف ١: ٢.

٤ - الشعراء ٢٦: ١٩٦.

بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى، أو بإشارة أو بعبارة.

فإذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآناً، كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً، والخطبة خطبة.

فالنظم صورة القرآن، واللفظ والمعنى عنصريه، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه لا بعنصره، كالحاتم والقرط والخلخال اختلفت أحكامها وأسمائها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة فإذا ثبت هذا تبين أن الإعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص.

وبيان كونه معجزاً هو أن نبين نظم الكلام، ثم نبين أن هذا النظم مخالف لنظم سائر، فنقول: لتأليف الكلام خمس مراتب:

الأولى: النظم: وهو ضم حروف التهجي بعضها إلى بعض، حتى يتركب منها الكلمات الثلاث: الاسم والفعل والحرف.

والثانية: أن يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها الجمل المفيدة وهي النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، ويقال له: المنثور من الكلام.

والثالثة: أن يضم بعض ذلك إلى بعض ضمّاً له مبادئ ومقاطع، ومداخل ومخارج، ويقال له: المنظوم.

والرابعة: أن يجعل له في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع، ويقال له: المسجع.

والخامسة: أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص، ويقال له: الشعر. وقد انتهى.

وبالحق صار كذلك: فإن الكلام إما منثور فقط، أو مع النثر نظم، أو مع النظم سجع، أو مع السجع وزن.

والمنظوم: إما محاوراة، ويقال له: الخطابة، أو مكاتبة، ويقال لها: الرسالة، وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة. ولكل من ذلك نظم مخصوص.

والقرآن حاوٍ لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها بدلالة أنه لا يصح أن

يقال: القرآن رسالة، أو خطابة، أو شعر، كما يصح أن يقال: هو كلام، ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم. ولهذا قال تعالى: «وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»^١ تنبيهاً أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاضاه البشر، فيمكن أن يزداد فيه كحال الكتب الأخر.

فإن قيل: ولم لم يبلغ بنظم القرآن الوزن الذي هو الشعر، وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبة أعلى من مرتبة المنظوم غير الموزون، إذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزوناً؟

قيل: إنما جنب القرآن نظم الشعر ووزنه لخاصية في الشعر منافية للحكمة الإلهية، فإن القرآن هو مقر الصدق، ومعدن الحق، وقصوى الشاعر؛ تصوير الباطل في صورة الحق، وتجاوز الحد في المدح والذم دون استعمال الحق في تحريري الصدق، حتى إن الشاعر لا يقول الصدق ولا يتحرى الحق إلا بالعرض. ولهذا يقال: من كانت قوته الخيالية فيه أكثر كان على قرض الشعر أقدر. ومن كانت قوته العاقلة فيه أكثر كان في قرصه أقصر. ولأجل كون الشعر مقر الكذب، نزه الله بيته عليه السلام عنه لما كان مرشحاً لصدق المقال، واسطة بين الله وبين العباد، فقال تعالى: «وما علمناه الشعر وما ينبغي له»^٢ فنفي ابتغاه له. وقال: «وما هو بقول شاعر»^٣ أي: ليس بقول كاذب. ولم يعن أن ذلك ليس بشعر فإن وزن الشعر أظهر من أن يشتبه عليهم حتى يحتاج إلى أن ينفي عنه. ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمى أصحاب البراهين، الأقيسة المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب، شعريّة، وما وقع في القرآن من ألفاظ مترتبة فذلك بحسب ما يتبع في الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس فيه.

وأما الإعجاز المتعلق بعصرف الناس عن معارضته: فظاهر أيضاً إذا اعتبر، وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة، إلا وبينها وبين قوم

٢ - يس ٦٩، ٧٠.

١ - فضلت ٤١، ٤٢.

٣ - انجازه ٦٩، ٤١.

مناسبات خفية، واتفاقات إلهية بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف فيشرح صدره بملاستها، وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب، ويتعاطاها بانسراح صدر، وقد تضمن ذلك قوله تعالى: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً» وقول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^١

فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمتله، وليس تهتر غرائزهم البتة للتصدي لمعارضته لم يخف على ذي لب أن صارفاً إلهياً يصرفهم عن ذلك. وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك. وما أيقنهم بإنشاد ما قال أبو تمام:

فإن نك أھمّلنا فأضعف بسعينا وإن نك أجبرنا فنم نلتع
والله ولي التوفيق والعصمة.^٢



٦- رأي الإمام الرازي

ولأبي عبدالله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦) المفسر المتكلم الأصولي الكبير، رأي في إعجاز القرآن طريف، وهو جمعه بين أمور شتى، كانت تستدعي هبوطاً في فصاحة الكلام، لو كان أحد من البشر حاول القيام بها أجمع، لولا أن القرآن كلام الله الخارق لمألوف الناس، فقد جمع بين أفنان الكلام، ومع ذلك فقد بلغ الغاية في الفصاحة، وتسم المذروعة من البلاغة، وهذا أمر عجيب!

قال: اعلم أن كونه (القرآن) معجزاً يمكن بيانه من طريقين:

الأول أن يقال: إن هذا القرآن لا يخلوا حاله من أحد وجوه ثلاث: إما أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة، أو

١ - انصاف: ٤٨.

٢ - مسند أحمد، ج ٤، ص ٦٧.

٣ - عن مقدمته على التكميل، ص ١٠٤-١٠٩.

زائداً عليه بقدر ينقض. والقسمان الأولان باطلان فتعيّن الثالث.

وإنما قلنا: إنهما باطلان، لأنّه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إما مجتمعين أو منفردين، فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول، فالشهود والحكام يزيلون الشبهة، وذلك نهاية في الاحتجاج، لأنّهم كانوا في معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية، حتّى بذلوا النفوس والأموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن، وكانوا في الحميّة والأئمة على حدّ لا يقبلون الحقّ فكيف الباطل. وكلّ ذلك يوجب الإتيان بما يقدر في قوله، والمعارضة أقوى التوادح. فلمّا لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم، وأنّ التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً، فهو إذن تفاوت ناقض للمعادة، فوجب أن يكون معجزاً.

.. واعلم أنّه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته، ومع ذلك فإنّه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها ورأى أنّ ذلك على كونه معجزاً. أحدها: أن فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات، مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء، فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ القصيدة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم.

وثانيها: أنّه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتزوّه عن الكذب في جميعه، وكلّ شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيّداً، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الإسلاميّ في الجودة كشعرهما الجاهلي. وأنّ الله تعالى مع ما تزوّه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحاً كما ترى. وثالثها: أن الكلام الفصيح والشعر الفصيح، إنّما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لا يكون كذلك. وليس كذلك القرآن، لأنّه كلّ فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

ورابعها: أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء، فإنه إذا كرّره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول؛ وفي القرآن التكرار الكثير، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية النصاحة ولم يظهر التفاوت أصلاً.

وخامسها: أنه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل النصاحة.

وسادسها: أنهم قالوا في شعر امرئ القيس: يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل. وشعر النابغة عند الخوف. وشعر الأعشى عند الطلب ووصف الخمر. وشعر زهير عند الرغبة والرجاء وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن، فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن. أمّا القرآن فإنه جاء فصيحاً في كل الفنون على غاية النصاحة:

«لَا تَرَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالٍ فِي التَّوْحِيدِ: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرْوٍ أُعْيُنٍ»^١ وقال تعالى: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ»^٢.

وقال في الترهيب: «أَقَامْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الزَّبَرِ»^٣.

وقال: «أَمْ أَمَلْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمَلْتُمْ»^٤.

وقال: «وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ - إِلَى قَوْلِهِ - وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»^٥.

وقال في الزجر ما لا يبلغه وهم البشر، وهو قوله: «فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا»^٦.

وقال في الوعظ ما لا مزيد عليه: «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَسَّعْنَاهُمْ يَسِينًا»^٧.

وقال في الإلهيات: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ»^٨.

وسابعها: أن القرآن أصل العلوم كلها، فعلم الكلام كله في القرآن، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن، وكذلك علم أصول الفقه وعلم النحو واللغة، وعلم الزهد في الدنيا

١ - التوحيات ٥٣: ٧٦.

٢ - التوحيد ٣٤: ١٧.

٣ - التوحيات ١٦٧: ١٧٦.

٤ - الإسراء ١٧: ٦٨.

٥ - التوحيات ٢٩: ٤٠.

٥ - إبراهيم ١٤: ١٧.

٦ - التوحيات ١٣: ٨.

٧ - التوحيات ٢٦: ٢٠.

٨ - التوحيات ١٣: ٨.

وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق.

ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز،^١ علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه النفاضة إلى النهاية المقصوى.

الطريق الثاني: أن نقول: إن القرآن لا يخلو إما أن يقال أنه كان بالغاً في النفاضة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة فكان ذلك معجزاً، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه.

وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب.^٢
وكلامه هذا الأخير لعله ترجيح للمقول بالصرف!



٧- كلام القاضي عبد الجبار

لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (له مكانته السامية في عالم الاعتزال، ت ٤١٥) كلام تحقيقي أصولي حول إعجاز القرآن، يبحث فيه بحثاً وافياً عن وجه هذا الإعجاز ومبلغ دلالة على نبوة نبي الإسلام على مدى الزمان، اقتضبنا منه ما يلي:

قال: فإن قيل: وما المعجز الذي ظهر على محمد؟ قلنا: معجزات كثيرة، من جملتها القرآن.

فإن قيل: وما وجه الإعجاز في القرآن؟ قلنا: هو أنه تحدى بمعارضة العرب، مع أنهم كانوا هم الغاية في النفاضة، والمشار إليهم في الطلاقة والذلاقة، وقرعهم بالمعجز عن الإتيان بمثله، فلم يعارضوه وعدلوا عنه، لا لوجه سوى عجزهم عن الإتيان بمثله. ولا يمكنك أن تعرف صحة هذه الجملة إلا إذا عرفت وجود محمد ﷺ وأنه قد ادعى

١ - انصلي بـ «نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» ط سنة ١٩٨٥م بيروت.

٢ - انظروا التكميل، ج ٢، ص ١١٤-١١٧، ذيل الآية رقم ٢٣ من سورة البقرة.

النبوة، وظهر عليه القرآن، وسمع منه ولم يسمع من غيره، وأنه تحدّي العرب بمعارضته وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله فلم يأتوا به، لا لوجه سوى عجزهم وقصورهم عن الإتيان بمثله.

فمتى عرفت هذه الوجوه كلها كنت عارفاً بنبوة محمد ﷺ.

أما وجوده، وادّعاء النبوة، وإن القرآن ظهر عليه، وسمع منه ولم يسمعوا من غيره فمعلوم ضرورة، ولا مانع يمنع من حصول العلم بهذه الأشياء وما جانسها اضطراراً، فإن العلم بالملوك والبلدان وبكون المصنّفات منسوبة إلى مصنّئيها ضرورة.

وأما تحدّي العرب بمعارضة القرآن، وتقريعه إياهم بالعجز عن ذلك، ففي أصحابنا من جعل العلم به ضرورياً، ومن جعله مكتسباً. ومن جعله مكتسباً قال: ليس المرجع بالتحدّي إلا أن يعتقد أن له مزية على غيره بسبب ما معه، وهذا كان حال النبي ﷺ مع النعم، فكان يعتقد أنه خير الناس لمكان ما جاء به من القرآن، فكيف يمكن إنكار أنه لم يتحدّاهم بمعارضته ولم يقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله؟

وأيضاً فكتاب الله تعالى مشحون بآيات التحدي، وهي مسموعة الآن والتحدّي قائم على وجه الدهر، وفي الفصحاء كثرة في هذه الأزمان، فيجب أن يأتوا بمثله. ومتى قالوا: أن الفصاحة تناقصت الآن كالشعر، قلنا: إن أمكن أن يقال ذلك في الشعر فلا يمكن في الفصاحة، ففي خطباء هذه الأزمنة من لا يداني كلامه كلام أفصح فصيح في ذلك الزمان. فهذا واصل بن عطاء ربما تفي خطبة من خطبه بكثير من كلام فصحاء أولئك العرب. وهذا أبو عثمان عمرو بن عبّيد، ففصل من كلامه ربما يزيد على كلام أبيهم كلاماً وأجزلهم لفظاً وأفصحهم لساناً، فكيف يصح ما ذكرتموه؟

وأما ترك العرب معارضة القرآن، وعدولهم عنه إلى المقاتلة، فظاهر أيضاً، فإنهم حين أحسوا من أنفسهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن، تركوه إلى المقاتلة، وذلك يؤذن بعجزهم عن ذلك، وإلا فالعاقل إذا أمكنه دفع خصومه بأيسر الأمور لا يعدل عنه إلى أصعبهما.

فإن قيل: ومن أين أنهم تركوا المعارضة ولم يعارضوه البتة؟ قيل له: إنهم لو عارضوه لكان يجب أن ينقل إلينا معارضتهم، فإنه لا يجوز في حادثين عظيمتين تحدثان معاً، وكان الداعي إلى نقل أحدهما كالداعي إلى نقل الأخرى، أن تخص أحدهما بالنقل، بل الواجب أن تنقلا جميعاً أو لا تنقلا، فأما أن تنقل أحدهما دون الأخرى فلا.

ولا يمكن إنكار ما قلناه من أن الداعي إلى نقل أحد الحادثين كالداعي إلى نقل الآخر، بل لو قيل: أن الداعي إلى نقل المعارضة أقوى لكان أولى، إذ المعارضة مما ينقلها المخالف والموافق. المخالف ينقله ليرى الناس أن فيه إبطال حجّة محمد ﷺ والموافق ينقله ليتكلم عليه ويبين أن ذلك ليس من المعارضة في شيء.

ويزيد ما ذكرنا وضوحاً، أنهم نقلوا من المعارضات ما هي ركيكة كمعارضة مسيئة وغيره، فلولا أن دواعيهم كانت متوقفة إلى ذلك، كان لا ينقل إلينا هذه المعارضة على ركنها.

قال: وبعد، فإن المعارضة لو كانت لكانت هي الحجّة، ولكان القرآن هو الشبهة، والله تعالى لا يجوز أن يسلط علينا الشبهة على وجه لا يسيل لنا إلى حلّها، ويمكن من إخفاء الحجّة على حدّ لا يمكن الظفر بها، بل كان يجب أن يقوي الدواعي إلى نقل المعارضة أن لو وقعت، فلمّا لم يفعل، دلّنا ذلك على أنها لم تقع البتة، وأن ذلك تمنّ.

فإن قيل: إن ما ذكرتموه ينسب على أن العرب كانوا حريصين على إبطال أمره وتوهين شأنه، وكان لم يمكنهم إلا بالمعارضة، ونحن لا نسلم ذلك.

قيل له: إن ذلك معلوم بالاضطرار، فمعلوم أن النبي ﷺ ادعى منزلة رفيعة عليهم، وهم كانوا في غاية الأنفة والحميّة والإباء، فكيف لم يحرصوا والحال هذه على إبطال أمره ورفع حجّته أن لو قدروا!

فإن قيل: لعلّ القوم لم يعلموا طريقة المعارضة والحجاج، ولو علموا ذلك فلعلّهم لم يعلموا أن أمره يبطل بالمعارضة!

قيل له: أمّا الأول فلا يصحّ، لأنّ المعارضة كانت عاداتهم، ولهذا لم يأت شاعر بقصيدة فيما بينهم إلّا وشاعر آخر يعارضه أو رام معارضته، وهذا معلوم من حال شعرائهم، نحو امرئ القيس وعلقمة وأشباههما.

وأمّا الثاني، فباطل أيضاً، لأنّ كلّ أحد يعلم أنّ خصمه إذا أتاه بأمر، وادعى لمكانه منزلة عظيمة عليه، وتحذّاه بمعارضته، فإنّه متى عارضه فقد أبطل دعواه، وهذا ممّا لا يخفى على الصبيان في مباراتهم بأمتال الطفرة وإشالة الحجر ونحوهما، فكيف على دهاء العرب!

فإن قيل: إنهم أرادوا الاستئصال بالمقاتلة. قلنا: لو لا عجزهم عن المعارضة لما أرادوا استئصاله، لأنهم لو قدروا على المعارضة كانت أسهل عليهم في استئصاله وإسقاطه من مكانه في العرب المكان الذي كان. ولا يليق بالعاقل العدول عن الأمر السهل إلى الأمر الصعب، وقد كانت المعارضة التي كانت عندهم - بزعمهم - بمنزلة الأكل والشرب والقيام والنعود.

فإن قيل: لعلمهم إنّما قاموا بالمقاتلة دون المعارضة، لإبطال دعواه وحسم مادّته، إذ ربّما لا تنقطع مادّته بالمعارضة، وأنّ الخلاف يبقى، ويكون الناس بين رجلين: رجل له ورجل عليه، فتطول المنازعة ولا تنقطع.

قيل لهم: إنّ هذا لو كان صارفاً عن معارضة القرآن، فليكن صارفاً عن سائر المعارضات الشرعيّة التي كانت متداولة عندهم، إذ يكون الناس بين متعصّب لهذا ومتعصّب لذاك، فليمسكوا عن المعارضة رأساً!

فإن قيل: لعلمهم أخطؤوا في العدول إلى المحاربة، كما أخطؤوا في عبادة الأصنام عن عبادة الله تعالى.

قيل له: إنّما أخطأتم أنتم في القياس، لأنّ ذلك أمر نظري يستدرك بطريقة الاستدلال والاستنباط، ممّا يمكن فيه الخطأ. وليس حال المعارضة كذلك، فإنّه ضروري لا يتصوّر فيه الخطأ.

فإن قيل: إنما تركوا المعارضة، لاشتغال القرآن على قصص كانوا يجهلون أمثالها.
قيل له: القرآن مشتمل على كثير من أنواع الكلام، فلو كانت المعارضة ممكنة لهم
لأتوا بسائر أنواع الكلام وجعلوها معارضة للقرآن. على أنه كان بإمكانهم أن يصنعوا من
عندهم قصصاً ويكسونها من العبارات الجيدة العظيمة أجزالة ما يقارب القرآن في
الفصاحة ويدانيه فيلبس الحال فيه.

وأيضاً فإن القرآن قد تحدى اليهود أيضاً، وفيهم العلماء بالأخبار والعارفون
بالأقاصيص كما أن العرب كانوا قد بعثوا إلى الفرس يطلبون منهم القصص، نحو قصة رستم
واسفنديار، وجمعوا من ذلك شيئاً كثيراً لكنهم عجزوا في النهاية أن يجعلوه معارضة
للقرآن.

فإن قيل: عجز العرب عن معارضته، لأنه كان من جهة أن القرآن كان من كلام
محمد ﷺ وكان متقدماً في الفصاحة على جميع العرب، ولهذا قال: «أنا أفصح العرب».
قيل له: ليس الأمر على ما ظننت، فإنه يستحيل فيمن نشأ بين جماعة يتعاطون
البلاغة ويتباهون بالفصاحة، أن يتعلموا ويأخذوا منهم، ثم يبلغ فيها حدّاً لا يوجد في
كلام واحد منهم، بل في كلام جماعتهم، فحصل يساوي كلامه في الفصاحة أو يدانيه أو
يقرب منه أو يشبهه الحال فيه!

فإن قيل: هب أن القرآن معجزة، وأن العرب علموا إعجازه، لعلمهم بأنه قد تناهى في
الفصاحة حدّاً، وأنتم فبأيّ طريق علمتم معناه فيه، يا معشر العجم!

قلنا: إن العلم بذلك على وجهين: أحدهما علم تفصيل، والآخر علم جملة، والعرب
علموا ذلك على سبيل التفصيل، ونحن فقد علمناه على سبيل الجملة وطريقته: هو أن
محمد ﷺ تحدى العرب بمعارضته، فلم يمكنهم الإتيان بمثله فلو لا كونه معجزاً دالاً
على نبوته، وإلا لما كان ذلك كذلك.

٨ - كلام الشيخ الطوسي

والشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، شيخ الطائفة (ت ٤٦٠) تحقيق مستوفٍ بشأن إعجاز القرآن، أورده في كتابه «الاقتصاد» الذي وضعه على أسس علم الكلام وحقق فيه أصول العقيدة على مباني الإسلام نذكر منه ما ملخصه:

قال: الاستدلال على صدق النبوة بالقرآن يتم بعد بيان خمسة أمور:

١ - إنه ظهر بمكة وادعى النبوة.

٢ - إنه تحدّى العرب بهذا القرآن.

٣ - إنه لم يعارضوه في وقت من الأوقات.

٤ - وكان ذلك لعجزهم عن المعارضة.

٥ - وإن هذا كان لتعذر خرق العادة.

فإذا ثبت ذلك أجمع دلّ على أن القرآن معجز، سواء كان لفصاحته البالغة أم لأن الله صرفهم عن ذلك. وأي الأمرين ثبت ثبت نبوته عليه السلام.

أمّا ظهوره بمكة وادعائه النبوة فضروري. وكذا ظهور القرآن على يده وتحديده للعرب أن يأتوا بمثله، لأنه صريح القرآن في مواضع عديدة.

وأمّا أنه لم يعارض فلائله لو كان عورض لوجب أن يُنقل، ولو نُقل لعلم، لأن المدواعي متوفرة إلى نقله، ولأن المعارض لو كان لكان هو الحجة دون القرآن، ونقل الحجة أولى من نقل الشبهة.

والذي يدعوا إلى المعارضة - لو أمكنت - ونقلها هو طلب التخليص ممّا ألزموا به من ترك أديانهم ومشاركة عاداتهم وبطلان ما ألفوه من الرئاسات، ولذلك نقلوا كلام مسيئمة والأسود العنسي وطليحة مع ركاكته وسخافته وبعده عن دخول الشبهة فيه.

ولا يمكن دعوى الخوف من أنصاره وأتباعه، إذ لا موجب للخوف مع ضعف المسلمين بمكة وعلى فرضه فلا يمنع نقله استسراراً، أو في سائر البلاد النائية كالروم والحبيشة وغيرهما، كما نقل هجاؤهم وسبهم وكان أفحش وكان أدعى للخوف إن كان.

وإذا ثبت أنهم لم يعارضوه، فإنما لم يعارضوه للعجز، لأن كل فعل لم يتبع مع توفر الدواعي لمفاعله وشدة تداعيه عليه، قطعنا على أنه لم يشعل للمتعدّر. وقد توفرت دواعي العرب إلى معارضته فلم يفعلوها، وقد تكلّفوا المشاق من أجله، فقد بذلوا النفوس والأموال وركبوا الحروب العظام ودخلوا الفتن، طلباً لإبطال أمره، فلو كانت المعارضة ممكنة لهم لما اختاروا الصعب على السهل، لأن العاقل لا يترك الطريق السهل، ويسلك الطريق الوعر الذي لا يبلغ معه الغرض، إلا أن يختل عقله أو يسفه رأيه، والقوم لم يكونوا بهذه الصنعة.

وليس لأحد أن يقول: إنهم اعتقدوا أن الحرب أنجح من المعارضة فلذلك عدلوا إليها. وذلك أن النبي ﷺ لم يدّع النبوة فيهم بالغلبة والفهر، وإنما ادّعى معارضة مثل القرآن، ولم يكن احتمال حرب إذ ذاك. ثم مع قيام الحرب كانوا في الأغلب مغلوبين مقهورين، فكان يجب أن يقوموا بالمعارضة، فإن انجعت وإلا عدلوا إلى الحرب.

فإن قالوا: خافوا أن يلتبس الأمر فيظن قوم أنه ليس مثله. قيل: قد حصل المطلوب، لأن الاختلاف حينذاك يوجب الشبهة، فكان أولى من الترك الذي يقوى معه شبهة العجز. وليس لهم أن يقولوا: لم تتوفر دواعيهم إلى ذلك. لأنهم تحمّلوا المشاق، والعاقل لا يتكلف ذلك إذا لم تتوفر دواعيه إلى إبطال دعوى خصمه.

فإن قالوا: إنما لم يعارضوه، لأن في كلامهم ما هو مثله أو مقاربه. قلنا: هذا غير مسلم. وعلى فرض التسليم فإن التحدي وقع لعجزهم فيما يأتي، فلو كان في كلامهم مثله فهو أبلغ لعجزهم في تحقّق التحدي بالعجز عن الإتيان بمثله في المستقبل.

فإن قيل: وإطاه قوم من النصحاء. قيل: هذا باطل، لأنه كان ينبغي أن يعارضه من لم يواطئه، فإنهم وإن كانوا أدون منهم في الفصاحة، كانوا يقدرّون على ما يقاربه - على الفرض - لأن التفاوت بين النصحاء لا ينتهي إلى حد يخرق العادة. على أن النصحاء المعروفين والبلغاء المشهورين في وقته، كلهم كانوا منحرفين عنه، كالأعشى الكبير الذي في الطبقة الأولى ومن أشبهه مات على كفره، وكعب بن زهير، أسلم في آخر الأمر، وهو

في الطبقة الثانية، وكان من أعدى الناس له عليه السلام وليد بن ربيعة، والناطقة الجعدي من الطبقة الثالثة، أسلما بعد زمان طويل، ومع ذلك لم يحظيا في الإسلام بطائل. على أنه لو كان لكان ينبغي أن يوافقتوه على ذلك ويقولون له: الفصحاء المبرزون واطؤونك ووافقوك، فإن الفصحاء في كل زمان لا يخفون على أهل الصناعة.

فإن قيل: لم لا يكون النبي ﷺ وهو أفصح العرب، قد تأتى منه القرآن، وتعدّر على غيره، أو عمله في زمان طويل فلم يتمكنوا من معارضته في زمان قصير؟ قيل: هذا لا يتوجّه على من يقول بالصرفه، لأنه يجعل صرف همهم عن ذلك دليلاً على الإعجاز، ولو فرض تمكنهم من المعارضة.

وأما من قال: إن جهة الإعجاز في الفصاحة والبيان، فإن كون النبي ﷺ أفصح، لا يمنع من أن يتقارنوه أو يدانوه، كما هو المتعارف بينهم في المعارضة ومقارضة الشعر. على أن العرب لم ينفثوها بذلك ولم يقولوا له: أنت أفصحنا، فلذلك يتعدّر علينا ما يتأتى منك. وأما احتمال التعمّل فباطل، لأنه ﷺ عارضهم في مدة طويلة أكثر من عشرين عاماً يتحدّاهم طول المدة.

قال: وإذا قد ثبت أن القرآن معجز، لم يضر أن لا يعلم من أي جهة كان إعجازه. غير أنّا نؤمى إلى جملة من الكلام فيه.

كان المرتضى علي بن الحسين الموسوي رحمته الله يختار أن جهة إعجازه الصرفة وهي: أن الله تعالى سلب العرب العلوم التي كانت تنأى منهم بها الفصاحة التي هي مثل القرآن متى راموا المعارضة، ولو لم يسلبهم ذلك لكان يتأى منهم. وبذلك قال النظام وأبو إسحاق النصيري أخيراً.

وقال قوم: جهة الإعجاز الفصاحة المفرطة التي خرقت العادة من غير اعتبار النظم، ومنهم من اعتبر النظم والأسلوب مع الفصاحة، وهو الأقوى.

وقال قوم: هو معجز لاختصاصه بأسلوب مخصوص ليس في شيء من كلام العرب.

وقال قوم: تأليف القرآن ونظمه مستحيل من العباد، كاستحالة الجواهر والألوان.

وقال قوم: كان معجزاً لما فيه من العلم بالغائبات.

وقال آخرون: كان معجزاً لارتفاع الخلاف والتناقض فيه، مع جريان العادة بأنه لا يخلو كلام طويل من ذلك.

وأقوى الأقوال عندي قول من قال: إنما كان معجزاً خارقاً للعادة لاختصاصه بالفصاحة المشرطة في هذا النظم المخصوص، دون الفصاحة بانفرادها، ودون النظم بانفراده، ودون العسرة.

وإن كنت نصرت في شرح الجمل^١ القول بالصرفة، على ما كان يذهب إليه المرتضى^٢ من حيث شرحت كتابه، فلم يحسن خلاف مذهبه.

قال: والذي يدل على ما قلناه واخترناه: أن التحدي معروف بين العرب بعضهم بعضاً، ويعتبرون في التحدي معارضة الكلام بمنزله في نظمه ووصفه، لأنهم لا يعارضون الخطب بالشعر ولا الشعر بالخطب، والشعر لا يعارضه أيضاً إلا بما كان يوافقه في الوزن والروي والثقافية، فلا يعارضون الطويل بالرجز، ولا المرجز بالكامل، ولا السريع بالمتنارب، وإنما يعارضون جميع أوصافه.

فإذا كان كذلك، فقد ثبت أن القرآن جمع الفصاحة المشرطة والنظم الذي ليس في كلام العرب مثله، فإذا عجزوا عن معارضته، فيجب أن يكون الاعتبار بهما.

فأما الذي يدل على اختصاصها بالفصاحة المشرطة، فهو أن كل عاقل عرف شيئاً من الفصاحة يعلم ذلك، وإنما في القرآن من الفصاحة ما يزيد على كل فصيح، وكيف لا يكون كذلك وقد وجدنا الطبقة الأولى قد شهدوا بذلك وطربوا له، كالوليد بن المغيرة والأعشى الكبير وكعب بن زهير وليبد بن ربيعة والنابعة الجعدي، ودخل كثير منهم في الإسلام ككعب والنابعة وليبد، وهم الأعشى بالدخول في الإسلام فمنعه من ذلك أبو جهل وفرّعه، وقال: إنه يحرم عليك الأتبيين الزنا والخمر. فقال له: أما الزنا فلا حاجة لي فيه، لأنني

١ - في كتابه (تمهيد الأصول) شرحاً على التفسير المنطقي من جعل التام والاتصال، وقد طبع أخيراً (١٣٦٢هـ) في جامعة طهران، وسنقل كلامه عند التعرض للقول بالصرفة.

كبرت، وأما الخمر فلا صبر لي عنه، وأنظر فأنته المنية واحترم دون الإسلام.

والوليد بن المغيرة تحيّر حين سمعه، فقال: سمعت الشعر وليس بشعر، والرجز وليس برجز، والخطب وليس بخطب، وليس له اختلاج الكهنة. فقالوا له: أنت شيخنا، فإذا قلت هذا ضعف قلوبنا، ففكر وقال: قولوا: هو سحر، معاندة وحسدٌ للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ - إِلَى قَوْلِهِ - إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ». فمن دفع فعساحة القرآن لم يكن في حيّز من يكلم!

وأما اختصاصه بالنظم فمعلوم ضرورة، لأنّه مدرك مسموع، وليس في شيء من كلام العرب ما يشبه نظمه، من خطبة أو شعر على اختلاف أنواعه وصفاته. فاجتماع الأمرين منه لا يمكن دفعهما...^٢

٩ - كلام القطب الراوندي

وللمولى قطب الدين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣) بحث مستوفى عن إعجاز القرآن، أتى على جوانبه بيان كافٍ شافٍ على أسلوب الكلام القديم، أورده في الباب الثامن عشر من كتابه «المعراج» الذي خصّصه بذكر المعجزات، وخصّ هذا الباب بأهم المعجزات القرآن العظيم. وقد أورده العلامة المجلسي بطوله في موسوعته الكبرى «بحار الأنوار - كتاب القرآن»^٣ حيث الوفاء والاستيفاء. وفيما يلي قبسات منه: قال: اعلم أن كتاب الله المجيد ليس معسداً للنبي الرحمة خاتم النبيين فقط، بل هو مصدق لسائر الأنبياء والأوصياء قبله، وسائر الأوصياء بعده، جملة وتفصيلاً. وليس جملة الكتاب معجزة واحدة، بل هي معجزات لا تحصى، لأن أقصر سورة فيه إنما هي الكوثر،^٤ وفيها إعجاز من جهتين: أحدهما: أنه قد تضمّن خبراً عن الغيب قطعاً قبل

١ - المذخر ١٨/ ٢٤ - ٢ - الاقتصاد في أصول الاعتقاد، ج ١، ١٦٦ - ١٧٤.

٣ - بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٢١ - ١٥٤.

٤ - ستواقيت رسالة الزمخشري في إعجاز سورة الكوثر بحثاً مستوفياً كائناً عن إعجاز القرآن أولاً، وعن خصوص هذه السورة المباركة ثانياً.

وقوعه، فوقع كما أخبر عنه من غير خلف فيه، وهو قوله: «إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَعْجَبُ»^١ لما قال قائلهم: أَنَّ محمداً رجل صنوبر^٢ فإذا مات انقطع ذكره، ولا خلف له يبقى به ذكره، فعكس ذلك على قائله، وكان كذلك.

والثاني من طريق نظمه، لأنه على قلّة عدد حروفه، وقصر آيه، يجمع نظاماً بديعاً، وأمرأ عجيباً، وبشارة للرسول، وتعبداً للعبادات، بأقرب لفظ وأوجز بيان. ثم أَنَّ السور الطوال متضمنة للإعجاز من وجوه كثيرة نظاماً وجزالة وخبراً عن الغيوب، فلذلك لا يجوز أن يقال: إِنَّ القرآن معجز واحد ولا ألف معجز، ولا أضعافه فلذلك خطأ قول من قال: أَنَّ للمصطفى ﷺ ألف معجز أو ألفي معجز، بل يزيد ذلك عند الإحصاء على الألوف.

ثم الاستدلال في أَنَّ القرآن معجز، لا يتم إلا بعد بيان خمسة أشياء: أحدها: ظهور محمد ﷺ وادّعاؤه أَنّه مبعوث إلى الخلق ورسول إليهم. وتانيها: تحدّيه العرب بهذا القرآن الذي ظهر على يديه، وادّعاؤه أَن الله أنزله عليه وخصّه به.

وتالثها: أَنَّ العرب مع طول المدّة لم يعارضوه. ورابعها: أَنّه لم يعارضوه للتعذّر والمعجز. وخامسها: أَنَّ هذا التعذّر خارق للعادة. فإذا ثبت ذلك، فإمّا أن يكون القرآن نفسه معجزاً خارقاً للعادة بنصاحتها، ولذلك لم يعارضوه، أو لأن الله صرفهم عن معارضته ولو لا الصرف لعارضوه، وأيّ الأمرين ثبت صحّت نبوته ﷺ لأن الله تعالى لا يصدق كاذباً، ولا يخرق العادة لمبطل. وإمّا ظهوره ﷺ بمكة ودّعاؤه إلى نفسه، فلا شبهة فيه، بل هو معلوم ضرورة لا ينكره

١ - التكوثر ١٠٨: ٣.

٢ - الصنوبر كمصنوع: المتخذة المنفردة من الخشب، والتي دثت من أسفلها وانجرد كثرها وقل حملها، ثم كُتي عن الرجل تضعيف التذليل، بلا أهل ولا عقب ولا ناصر.

عاقِل وظهور هذا القرآن على يده أيضاً معلوم ضرورة والشك في أحدهما كالثبات في الآخر.

وأما الذي يدل على أنه ﷺ تحدّي بالقرآن، فهو أن معنى قولنا أنه تحدّي، أنه كان يدّعي أن الله تعالى خصّه بهذا القرآن وأنبأه به، وأن جبرئيل عليه السلام أتاه به، وذلك معلوم ضرورة، لا يمكن لأحد دفعه. وهذا غاية التحدي، في المعنى.

وأما الكلام في أنه لم يعارض فلائله لو عارض لوجب أن ينقل، ولو نقل لعلم، كما علم نفس القرآن. فلما لم يعلم، دلّ على أنه لم يكن.

وإنما قلنا: أن المعارضة لو كانت لوجب نقلها، لأن الدواعي متوفرة على نقلها، ولأنها - حينئذ - تكون الحجّة والقرآن شبهة، لو كانت، ونقل الحجّة أولى من نقل الشبهة.

وأما الذي نعلم به أن جهة انتفاء المعارضة التعذر لا غير، فهو أن كل فعل ارتفع عن فاعله مع توفر دواعيه إليه، علم أنه ارتفع بالتعذر. ولهذا قلنا أن هذه الجواهر والأكوان ليست بمقدورنا. وخاصة إذا علمنا أن الموانع المعقولة مرتفعة كلها. فيجب أن نقطع على أن ذلك من جهة التعذر لا غير.

وإذا علمنا أن العرب تحدّوا بالقرآن فلم يعارضوه مع شدة حاجتهم إلى المعارضة، علمنا أنهم لم يعارضوه بالتعذر لا غير. وإذا ثبت كون القرآن معجزاً وأن معارضته تعذرت لكونه خارقاً للعادة، ثبت بذلك نبوته المطلوبة.



ثم إن القرآن معجز، لأنه ﷺ تحدّي العرب بمثله، وهم النهاية في البلاغة، وتوفرت دواعيهم إلى الإتيان بما تحدّاهم به، ولم يكن لهم صارف عنه ولا مانع منه، ولم يأتوا به. فعلمنا أنهم عجزوا عن الإتيان بمثله.

وإنما قلنا: أنه ﷺ تحدّاهم به؛ لأن القرآن نفسه يتضمن التحدي كقوله تعالى: «فأتوا بسورةٍ من مثله»، معلوم أن العرب في زمانه وبعده كانوا يتبارون بالبلاغة ويفخرون

بالنصاحة، وكانت لهم مجامع يعرضون فيها شعرهم، وحضر زمانه من يعدّ في الطبقة الأولى كالأعشى وليبد وطرفة، وزمانه أوسط الأزمنة في استعمال المستأنس من كلام العرب، دون الغريب الوحشي الثقيل على اللسان، فصيح أنهم كانوا الغاية في الفصاحة.

وإنما قلنا: اشتدّت دواعيهم إلى الاتيان بمثل، فإنه تحدّاهم ثم قرّعهم بالعجز عنه بقوله تعالى: «قُلْ نَبِئِ الْجَثَمَةِ الْإِنْسُ وَالْجِئْ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَبْغِي ظَهيراً»^١ وقوله تعالى: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»^٢.

فإن قيل: لعلّ صار فهمهم هو قلة احتشائهم به أو بالقرآن، لانحطاطه في البلاغة! قلنا لا شبهة أنَّهُ تَنَزَّلَ كان من أوسطهم في النسب، وفي الخصال المحموده حتى سمّوه الأمين الصدوق، وكيف لا يحتفلون به وهم كانوا يستعظمون القرآن حتى شهروه بالسحر ومنعوا الناس من استماعه، لتلا يأخذ بمجامع قلوب السامعين، فكيف يرغبون عن معارضته!^٣



وأما وجه إعجاز القرآن فقد اختلف المتكلمون في جهة إعجازه على سبعة أوجه: فأول ما ذكر من تلك الوجوه ما اختاره المرتضى، وهو أن وجه الإعجاز في القرآن أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلبهم العلم بكيفية نظمه وفصاحته، وقد كانوا يولوا هذا العرف قادرين على المعارضة متمكّنين منها.

والثاني: ما ذهب إليه الشيخ المفيد^٤ وهو أنه إنما كان معجزاً من حيث اختصّ برتبة في الفصاحة خارقة للعادة. قال: لأنّ مراتب النصاحة إنما تتفاوت بحسب العلوم التي يشعلها الله في العباد، فلا يمنع أن يجري الله العادة بقدر من العلوم فيقع التمكين بها من مراتب في الفصاحة محصورة متناهية، ويكون ما زاد على ذلك زيادة غير معتادة، معجزاً خارقاً للعادة.

١ - الإسراء ١٧: ٨٨.

٢ - البقرة ٢: ٢٤.

٣ - بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٢١ - ١٢٥.

٤ - تعلّمه في غير كتابه (أوائل التفاللات) فقد ذهب فيه مذهب النظام كما يأتي.

والثالث: وهو ما قال قوم: إن إعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستمرة على النظر وموافقة للعقل.

والرابع: أن جماعة جعلوه معجزاً من حيث زال عنه الاختلال والتناقض على وجه لم تجر العادة بمثله.

والخامس: أنه يتضمن الأخبار عن الغيوب.

والسادس: اختصاصه بنظم مخصوص مخالف للمعهود.

والسابع: ما ذكره أكثر المعتزلة: أن تأليف القرآن ونظمه معجزان، لا لأنه تعالى أعجز عنهما بمنع خلقه في العباد، وقد كان يجوز أن يرتفع فيقدر عليه، لكن محال وقوعه منهم كاستحالة إحداث الأجسام والألوان، وإبراء الأكهم والأبرص من غير دواء.

قال: ولو قلنا: إن هذه الوجوه السبعة كلها وجوه إعجاز القرآن على وجه دون وجه، لمكان حسناً.



ثم أخذ في بيان الاستدلال على هذه الأوجه، حسبما ذكره القائلون بها: قال: واستدل المرتضى رحمته الله تعالى على أنه تعالى خصهم عن المعارضة، وأن العدول عنها كان لهذا، لا لأن فصاحة القرآن خربت عاداتهم، بأن الفضل بين الشيئين إذا كثر، لم تقف المعرفة بحالها على ذوي القرائح الذكّية، بل يغني ظهور أمريهما عن الرؤية بينهما، وهذا كما لا يحتاج إلى الفرق بين الخمر والصوف إلى أحق البرازين، وإنما يحتاج إلى التأمل، الشديد التقارب الذي يشكل مثله. ونحن نعلم أننا على مبلغ علمنا بالفصاحة، نفرّق بين شعر امرئ القيس وشعر غيره من المحدثين، ولا نحتاج في هذا الفرق إلى الرجوع إلى من هو الغاية في علم الفصاحة، بل نستغني معه عن الفكرة، وليس بين الفاضل والمفضول من أشعار هؤلاء وكلام هؤلاء قدر ما بين الممكن والمعجز، والمعتاد والخارج عن العادة. وإذا استقرّ هذا، وكان الفرق بين سور المفضل وبين أفصح قصائد العرب غير ظاهر لنا الظهور الذي ذكرناه، ولعلّه إن كان تمّ فرق فهو ممّا يقف عليه غيرنا ولا يبلغه علمنا، فقد دلّ على

أن القوم صرفوا عن المعارضة وأخذوا عن طريقها.

قال: والأشبه بالحق والأقرب إلى الحقيقة - بعد ذلك القول - قول من جعل وجه إعجاز القرآن خروجاً عن العادة في النصيحة، فيكون ما زاد على المعتاد معجزاً، كما أنه لما أجرى الله العادة في القدرة التي يمكن بها من ضروب أفعال الجوارح، كالطفو بالبحر وحمل الجبل، فإنها إذا زادت على ما تأتي العادة، كانت لاحقة بالمعجزات، كذلك القول هاهنا.

ثم إن هؤلاء الذين قالوا: إن جهة إعجاز القرآن النصيحة المفرطة التي خرقت العادة صاروا صنفين:

منهم من اقتصر على ذلك ولم يعتبر النظم، ومنهم من اعتبر مع الفصاحة النظم المخصوص، وقال الفريقان: إذا ثبت أنه خارج للعادة بفصاحته، دلّ على نبوته... وأما القول الثالث والرابع فكلهما مأخوذ من قوله تعالى: «وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» فحمل الأولون ذلك على المعنى، والآخرون على اللفظ. والآية مشتملة عليهما عامة، ويجوز أن يكون كلا التولين معجزاً على بعض الوجوه، لا ارتفاع التناقض فيه، والاختلاف فيه، على وجه مخالف للعادة. وأما من جعل جهة إعجازه ما تضمنه من الإخبار عن الغيوب، فذلك لا شك أنه معجز، لكن ليس هو الذي قصد به التحدي، لأن كثيراً من القرآن خال من الإخبار بالغيب، والتحدي وقع بسورة غير معينة.

وأما الذين قالوا: إنما كان معجزاً لاختصاصه بأسلوب مخصوص، ليس بمعهود، فإن النظم دون الفصاحة لا يجوز أن يكون جهة إعجاز القرآن على الإطلاق، لأن ذلك لا يقع فيه التفاضل، وفي ذلك كفاية، لأن السابق إلى ذلك لا بد أن يقع فيه مشاركة لمجرى العادة

كما تبين.

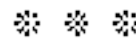
وأما من قال: إن القرآن نظمه وتأليفه مستحيلان من العباد، كخلق الجواهر والألوان فقولهم به على الإطلاق باطل، لأن الحروف كلها من مقدورنا، والكلام كله يتركب من الحروف التي يقدر عليها كل متكلم، وأما التأليف فإطلاقه مجاز في القرآن، لأن حقيقته في الأجسام، وإنما يراد من القرآن حدوث بعضه في أثر بعض، فإن أريد ذلك فهو إنما يتعذر لفتن العلم بالفصاحة وكيفية إيقاع الحروف، لا أن ذلك مستحيل، كما أن الشعر يتعذر على العجم لعدم علمه بذلك، لأنه مستحيل منه من حيث القدرة، ومتى أريد استحالة ذلك بما يرجع إلى فقد العلم فذلك خطأ في العبارة دون المعنى^١.

وأما القائلون بأن إعجازه الفصاحة، قالوا: إن الله جعل معجزة كل نبي من جنس ما يتعاطاه قومه، فقد كان الغالب على قوم موسى عليه السلام السحر، فكانت معجزة العصا واليد البيضاء، فعرفوا أنه فوق متعاطاهم فأمنوا وكذلك كان الغالب في زمن عيسى عليه السلام الطب، فأظهر الله على يده إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، مما لا يناله الطب فأمنوا به. فهكذا لما كان زمن محمد ﷺ الغالب على قومه الفصاحة والبلاغة حتى كانوا لا يتفخرون بشيء، كتفاخرهم بها، جعل الله معجزة من ذلك القبيل، فأظهر على يديه هذا القرآن، وعلم النصحاء منهم أن ذلك ليس من كلام البشر، فأمنوا به. ولهذا جاء المخصوصون فأمنوا برسول الله ﷺ كالأعشى مدح رسول الله ﷺ بقصيدة وأراد أن يؤمن، فدافعه قريش وجعلوا يحدّثونه بأسوأ ما يتدرون عليه، فلم يزالوا بالسعي حتى صدّوه. وجاء لبيد وآمن برسول الله ﷺ وترك قيل الشعر تعظيماً لأمر القرآن...

قالوا: ومن خالفنا في هذا الباب يقول: إن المعجز قد يلتبس بالحيلة لكنه إذا لم يكن طريق إلى انفصل بينهما، وهاتنا وجوه من انفصل، منها:
إن المعجز إنما يظهر عند من يكون من أهل هذا الباب ويروج عليهم، والحيلة إنما تظهر عند العوام وتروج على الجهال.

فإن قيل: النبي ﷺ مبعوث إلى العرب والعجم، فإذا كان إعجاز القرآن من حيث الفصاحة، فإن العجم لا يمكنهم ذلك.

قلنا: الفصاحة ليست بمقصورة على لغة دون أخرى. على أنه يمكنهم أن يعرفوا ذلك على سبيل الجملة، إذا علموا أنه تحدّي فصحاء العرب فأعجزهم، وفي ذلك كفاية.



وأما القائلون بأن إعجازه بالفصاحة والنظم معاً، قالوا: إننا رأينا النبي ﷺ أرسل التحدي إرسالاً وأطلقه إطلاقاً، والمتشاهم من الإطلاق هو التحدي بهما معاً، لأن العادة عند العرب جارئة في التحدي باعتبار طريقة النظم مع الفصاحة، كما في تحدي شعراء العرب وخطبائهم في الشعر والخطابة، ليس في الفصاحة فقط وإنما هي مع نظمه العروضي وأسلوبه الإيقاعي أيضاً. هذا هو المتبادر إلى الذهن حينذاك من التحدي.

على أن التحدي لو كان بمجرد الفصاحة لوقعت المعارضة ببعض فصيح شعرهم أو بليغ كلامهم، إذ قد يخفى الفرق بين قصائد السور وفصيح كلام العرب. فكان يجب أن يعارضوه، فإذا لم يفعلوا، فلاّتهم فهموا من التحدي مجموع الفصاحة وطريقة النظم معاً، إذ لم يجتمعوا لهم، واختصاص القرآن بنظم يخالف سائر كلام المعروفة عند العرب. وقد قال المرتضى: إن التحدي وقع بالآتيان بمثله في فصاحته وطريقته في النظم، ولم يكن بأحد الأمرين، فلو وقعت المعارضة بشعر منظوم أو برجز منظوم أو بمنثور من الكلام ليس له طريقة القرآن في النظم، لم تكن واقعة موقعها، والعسفة على هذا إنما كانت بأن يسلب الله كلّ من رام المعارضة، للمعلوم التي يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم. ولهذا لا يصاب في كلام العرب ما يقارب القرآن في فصاحته ونظمه.

وأما القائلون بأن إعجاز القرآن بالنظم المخصوص، قالوا: وجدنا الكلام منظوماً ومنثوراً والمنظوم هو الشعر، وأكثر الناس لا يقدرّون عليه، فجعل الله معجز نبيه النمط الذي يقدر عليه كلّ أحد ولا يتعذر نوعه في كلّهم، وهو الذي ليس بمنظوم، فيلزم حجته الجميع.

قال: والذي يجب أن يعلم - في العلم بإعجاز القرآن - هو أن يعلم مباني الكلام وأسباب الفصاحة في ألفاظها، وكيفية ترتيبها، وتباين ألفاظها، وكيفية الشرق بين الفصح والأفصح، والبليغ والأبليغ، وتعرف مقادير النظم والأوزان، وما به يبين المنظوم من المتنور وفواصل الكلام، ومقاطععه، ومبادئه، وأنواع مؤلفه ومنظومه.

ثم ينظر فيما أتى به حتى يعلم أنه من أي نوع هو، وكيف فضل على ما فضل عليه من أنواع الكلام، حتى يعلم أنه من نظم مبادئ لسائر المنظوم، ونمط خارج من جملة ما كانوا اعتادوه فيما بينهم، من أنواع الخطب والرسائل والشعر والمنظوم والمتنور والمرجز والمختص والمزدوج والعريض والتقصير.

فإذا تأملت ذلك وتدبرت مقاطعه ومفاتيحه، وسهولة ألفاظه، واستجماع معانيه، وأن كل واحد منها لو غيرت لم يمكن أن يؤتى بدلها بلفظة هي أوفق من تلك اللفظة، وأدلى على المعنى منها، وأجمع للنوائد والزوائد منها.

وإذا كان كذلك، فعند تأمل جميع ذلك، يتحقق ما فيه من النظم اللائق، والمعاني الصحيحة التي لا يكاد يوجد مثلها على نظم تلك العبارة، وإن اجتهد البليغ والخطيب.

قال: وفي خواص نظم القرآن وجوه:

أولها: خروج نظمه عن صورة جميع أسباب المنظومات، ولولا نزول القرآن لم يقع في خلد فصيح سواها، وكذلك قال عتبة بن ربيعة لما اختاره قريش للمصير إلى النبي ﷺ، قرأ عليه حم السجدة، فلما انصرف قال: سمعت أنواع الكلام من العرب، فما شبهته بشيء منها، إنه ورد علي ما راعني، ونحوه ما حكى الله عن الجن. فلما عدّ وجود شبيه القرآن من أنواع المنظوم، انقطعت أطماعهم عن معارضته.

والخاصة الثانية: في الروعة التي له في قلوب السامعين، فمن كان مؤمناً يجد شوقاً إليه وانجذاباً نحوه، وحكي أن نصرانياً مرّ برجل يقرأ القرآن فبكى فقليل له: ما أبكاك؟ قال: النظم.

والثالثة: أنه لم يزل غصاً طرئاً لا يخلق ولا يملّ تاليه. والكتب المتقدمة عارية عن رتبة النظم، وأهل الكتاب لا يدعون ذلك إليها.

والرابعة: أنه في صورة كلام هو خطاب لرسوله تارة ولخلقه أخرى.

والخامسة: ما يوجد من جمعه بين الأضداد، فإن له صفتي الجزالة والعدوية وهما كالمتضادين.

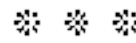
والسادسة: ما وقع في أجزائه من امتزاج بعض أنواع الكلام ببعض، وعادة ناطقي البشر تقسيم معاني الكلام.

والسابعة: أن كل فضيلة من تأسيس اللغة في اللسان العربي هي موجودة في القرآن.

والثامنة: عدم وجود التفاضل بين بعض أجزائه من السور، كما في التوراة كلمات عشر تشتمل على الوصايا، يستحلثون بها لجلالة قدرها. وكذا في الإنجيل أربع صحف، ومحاميد ومسابيح يتراونها في صلواتهم.

والتاسعة: وجود ما يحتاج العباد إلى علمه من أصول دينهم وفروعه، من التنبيه على طرق العقليات، وإقامة الحجج على الملاحدة والبراهمة والشوئية، والمنكرة للبعث القائلين بالطباع بأوجز كلام وأبلغه. ففيه من أنواع الإعراب والعربية، والمحكم والمتشابه، والحقيقة والمجاز، والناسخ والمنسوخ. وهو مهيم على جميع الكتب المتقدمة.

والعاشرة: وجود قوام النظم في أجزائه كلها، حتى لا يظهر في شيء من ذلك تناقض ولا اختلاف، وله خواص سولها كثيرة.



قال: واعلم أنه قد تضمن القرآن - والأحاديث الصحيحة - الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فأما الماضية فكالإخبار عن أقاصيص الأولين والآخرين. من غير تعلّم من الكتب المتقدمة، على ما ذكرنا.

وأما المستقبل فكالإخبار عما يكون من الكائنات، وكان كما أخبر عنها على الوجه الذي أخبر عنها على التفصيل، من غير تعلّق بما يستعان به على ذلك، من تلقين ملقّن وإرشاد مرشد، أو حكمم بتقويم أو رجوع إلى حساب. كالكسوف والخسوف، ومن غير اعتماد على اضطراب وطالع، وذلك قوله تعالى: «لَيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»^١.

وكقوله: «مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بَضْعِ سِنِينَ»^٢.

وكقوله: «سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»^٣.

وكقوله: «لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^٤.

وكقوله: «فَأَنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»^٥.

وكقوله: «وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَافِرَ كَثِيرَةٍ تَأْخُذُوهَا - إِلَى قَوْلِهِ - قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا»^٦.

ونحو ذلك من الآيات، وكان كلها كما قال:



ووجه آخر، وهو ما في القرآن - والأحاديث - من الإخبار عن الضمائر:

كقوله: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا»^٧، من غير أن ظهر منهم قول أو فعل بخلاف ذلك.

وكقوله: «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ»^٨.

وكقوله: «وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرْكَةِ

تَكُونَ لَكُمْ»^٩ يخبرهم بما يريدون في أنفسهم وما يهتمون به.

وكعرضه تمني الموت على اليهود في قوله: «فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا

٢ - الروم ٣٠، ٣١، ٣٢.

٤ - الإسراء ١٧: ٨٨.

٦ - القمح ٥٨: ٢٠، ٢١.

٨ - التجماداة ٥٨: ٨.

١ - التوبة ٩: ٣٣.

٣ - القصص ٥٤: ٤٥.

٥ - البقرة ٢٤: ٢٤.

٧ - آل عمران ٣: ١٢٢.

٩ - الأنفال ٨: ٧٢.

يَسْمَوْنَهُ أَبدَأَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ»^١ فعرفوا صدقه، فلم يجسر أحدهم أن يتمنى الموت،
لأنه يتبين^٢ قال لهم: إن تميتهم الموت مثم. فدلّ جميع ذلك على صدقه بإخباره عن
الضمائر.^٣

١٠ - كلام الزملكاني

ولكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (ت ٦٥١) كلام لطيف في وجه
إعجاز القرآن، يرى أنه من جهة سبكه ونظمه الخاص، من اعتدال مشرداته تركيباً وزناً،
واعتلاء مركباته معنى. ولعله يقرب من اختيار المتأخرين على ما سنذكر، أورده في صدر
كتابه الذي وضعه للكشف عن إعجاز القرآن^٤ قال: لما كانت ترجمة هذا الكتاب مؤدنة
بكونه كاشفاً عن إعجاز القرآن احتيج إلى بيان ذلك فنقول: «الأكثر على أن نظم القرآن
معجز خلافاً للنظام، فإنه قال: إن الله سبحانه صرف العرب عن معارضته وسلب علومهم،
إذ نثرهم ونظمهم لا يخفى ما فيه من الفوائد، ومن ثم قالوا: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^٥ وهذا على حد ما جعل الله سلب زكريّا (عليه أفضل السلام) النطق
ثلاثة أيام من غير علة آية، أو أنهم لم يحيطوا به علماً على ما قال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَيُحِيطُوا بِعَلَمِهِ»^٦.

وهذا خلف من القول، إذ لو كان كذلك لكان ينبغي أن يتعجبوا من حالهم دونه، فإن
من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين يحبس الله أيديهم لا يعجب منه بل من
حالهم. ولما ينبغي أن يعارضوه بما قبل صرفهم عنه من كلامهم النصيح، ولأن سلب
قدرهم يجريهم مجرى الموتى فلا يجدي اجتماعهم قوة وظهوراً على المعارضة، وهو
مخالف لقوله تعالى: «قُلْ نَبِيٌّ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

١ - النجدة ٦٤: ٦٧.

٢ - التبرائج والتجرائح، ج ٣، ص ١٠٢٧ - ١٠٢٩، وراجع مختصره، ص ٢٦٧.

٣ - وكتابه هو: التبرهان التكاشف عن إعجاز القرآن. ذكر ذلك في ص ٥٣ - ٦١.

٤ - الألفاظ ٨: ٣٦.

٥ - يونس ١٠: ٣٩.

مِثْلِهِ». وَأَمَّا قِصَّةُ زَكْرِيَّا فَحِجَّةٌ لَهُ فِيمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، إِذِ الْآيَةُ كَانَتْ فِي سَلْبِهِ النَّطْقُ لَا فِي نَفْسِهِ غَيْرُهُ...

وَإِذَا ثَبِتَ كَوْنُهُ مُعْجَزاً تَعَيَّنَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْ جِهَةِ الْإِعْجَازِ إِذْ لَا يَصِحُّ التَّحْدِي بِشَيْءٍ مَعَ جَهْلِ الْمُخَاطَبِ بِالْجِهَةِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا التَّحْدِي. وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأَمْكَنَ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَتَّحِدِي.

قَالَ: فَإِذَا نَ إِعْجَازُهُ إِثْمًا مِنْ جِهَةِ ذَوَاتِ الْكَلِمِ، أَوْ عَوَارِضِهِ مِنَ الْحَرَكَاتِ، أَوْ مَدْلُولِهِ، أَوْ الْمَجْمُوعِ أَوْ التَّأْلِيفِ أَوْ أَمْرٍ خَارِجٍ عَنْ ذَلِكَ. وَالْأَوَّلُ وَالثَّانِي بَاطِلَانِ، إِذْ صَغِيرُ الْعَرَبِ يُمْكِنُهُ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْمَدْلُولُ فَلَيْسَ صَنِيعُ الْبَشَرِ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِظْهَارِ الْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ. وَأَمَّا الْمَجْمُوعُ فَالْكَلَامُ عَلَيْهِ كَالْكَلَامِ عَلَى مَا سَبَقَ. وَأَمَّا الْخَارِجِيُّ فَبَاطِلٌ إِلَّا عَلَى رَأْيِ النَّظَامِ، وَقَدْ عَرَفَ...

قَالَ: فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْإِعْجَازُ نَشْأً مِنْ جِهَةِ التَّأْلِيفِ الْخَاصِّ بِهِ لَا مَطْلُوقِ التَّأْلِيفِ، وَذَلِكَ بِأَنْ اعْتَدَلَتْ مُفْرَدَاتُهُ تَرْكِيباً وَزَنْناً وَعَدَلَتْ مَرْكَبَاتُهُ مَعْنًى. وَهَذَا الْقِسْمُ الَّذِي عَقَدَ لَهُ عِلْمُ الْبَيَانِ، وَمَنْ تَمَّ سَلَاكُ مِنْ رَسَخَ قَدَمُهُ فِي الْحِمَاةِ التَّأْلِيفِ عِنْدَ قَصْدِ الْحِمَاةِ، مِنْ ذَلِكَ مَا حَكِي عَنْ مُسَيِّمَةِ أَنَّهُ قَالَ: «الْفِيلُ مَا الْفِيلُ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْفِيلُ، لَهُ ذَنْبٌ وَتِيلٌ وَخَرْطُومٌ طَوِيلٌ». وَحَكِي أَنَّ أَعْرَابِيًّا حَضَرَ صَلَاةَ جَمَاعَةٍ فَقَدَّمَ فَنُتِرَ فِي الْأَوَّلَى - بَعْدَ الْفَاتِحَةِ -: أَلَا يَا مَهْلِكَ الْفِيلِ، وَمَنْ سَارَ مَعَ الْفِيلِ، وَكَيْدَ الْقَوْمِ فِي تَبٍّ وَتَضْلِيلِ، بِطَيْرِ صَبَّهِ اللَّهُ عَلَى الْفِيلِ أَبَايِلَ، ضَحَى مِنْ طِينِ سَجِيلِ، فَصَارَ الْقَوْمُ فِي قَاعٍ كَعَصْفِ ثَمٍّ مَأْكُولِ. وَقُرَأَ فِي الثَّانِيَةِ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ هَيَّئَ فِي صَلَاتِهِ وَأَطْعَمَ الْمَسْكِينَ مِنْ مَخْلَاتِهِ وَاجْتَنَبَ الرَّجْسَ وَفَعَلَاتِهِ، بَوْرَكَ فِي بَقَرِهِ وَشَاتِهِ... وَلَمْ يَشْكُ الْجَمْعُ فِي أَنَّ مَا قَرَأَ سُورَتَانِ مِنَ الْقُرْآنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِعْجَازُهُ نَشْأً مِنْ جِهَةِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَنْبَاءِ السَّالِفَةِ وَالْآخِرَةِ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ شَأْنِ الْعَرَبِ...

قُلْتَ: قَدْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ قَوْمٌ، لَكِنْ لَيْسَ الْإِعْجَازُ مُنْحَصِراً فِي ذَلِكَ، بَلْ نَظْمُهُ

المخصوص معجز على ما قال تعالى: «لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»، والمراد النظم بدليل «فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ» وليس في كل سورة إخبار بالغيب، دلّ على أن المراد نظمه.

فإن قلت: الضمير في «مثلته» عائد إلى الله تعالى.

قلت: يضعفه قوله تعالى: «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ»^١ والسياق واحد.

فإن قلت: الواحد من العرب قد يؤلف الخطبة أو القصيد ويعجز غيره عن مثلها، ولم يعد ذلك معجزاً، كما تراه من خطب علي عليه السلام وكلام قسّ وشعر امرئ القيس والأعشى وغيرهما من المتقدمين والمتأخرين. ولقد ألف الناس كتباً في الفنون وصنّفوا خطباً اعترف بأنّها يتيمة دهر وفريدة عصر!

قلت: أين النبع من العرب، والصبر من الضرب^٢ وهل يحتوي كتاب أو يشتمل خطاب على ما اشتمل عليه كتاب الله تعالى من سهولة لفظ وجزالة وبلاغة معنى وغرابة، وعجائب لا تنقضي وعرائس في نفائس الحلبي تنجلي، ومن ثمّ قالوا: «إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أسنله لمعرق وإنّ أعلاه لمثمر». وعن ابن مسعود: «إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمنات أنانق فيهن». أي تتبع محاسنهنّ. لم يقل ذلك من أجل أوزان الكلمات ولا من أجل إعرابها ولا من أجل المواضع في أواخر الآيات، ولا من أجل التأليف فقط، بل ذلك راجع إلى دقّة النظم مع زيادة الفائدة.

هذا وإنّه لصادر على لسان من لم يمارس الخطّ والخطب وينافس في معرفة المدرّ من المخشّط^٣. وإذا جعلت الكلمات اليسيرة من عيسى عليه السلام آية، مع أنّها الجارية من الأكابر عادة، فلئن تجعل الغايات الكثيرة والسورة الطويلة المشتملة على أصناف فنون الآداب والفصاحة والبلاغة التي يعجز عنهما الوصف ويكلّ دونهما حدّ الطرف، من رجل حاله ما سبق، أخرى وأولى.

١ - مود: ١١: ١٣.

٢ - النبع: شجر تنفسي وانتهام ينبت في رؤوس التجمّات. والتغرب: نبت ضعيف ينبت على الأنهار. انصبر: عصارة شجر مرّ. انضرب: العمل.

٣ - يقال: أراء اندرّ مخشّطاً، وهو: يخرج من محارة البحر وليس بدرّ.

وسأوضح لك ذلك بشيء من دقيق المسالك، منه فوائح السور التي هي حروف هجاء وإذا نظرتها بيادي الرأي وجدتتها ممّا يكاد يمجّج السمع ويقلّ به النّفع، مع أنّها من الحسن ترفل في أثواب الحبر ويتعصر عنها دقيق النظر، وذلك من وجوه:

الأول: إنّها كالمهيّجة لمن سمعها من الفصحاء والموقظة للهمم الرائدة من البلغاء، لطلب التساجل والأخذ في التفاضل، ألا تراها بمنزلة زمجرة الرعد قبل الماطر في الأعلام لتعي الأرض فضل الغمام وتحفظ ما أفيض عليها من الأنعام وتخاف مواقع الانتقام بما فيه من العجمة التي لا تؤلف الكلام.

وما هذا شأنه خليق بالنظر فيه والوقوف على معانيه بعد حفظ معانيه. بل حكم الدواعي الجبليّة أن تبعث على ذلك اضطراباً لا اختياراً، لاسيّما وهي صادرة عن رجل عليه مهابة وجلالة قد قام مقام أولي الرسالة وكشف ما هم عليه من الجهالة والضلالة وتواعدهم بأنّ الهلكات نازلة بهم لا محالة.

الثاني: التنبيه على أنّ تعداد هذه الحروف ممّن لم يمارس الخطّ ولم يعان النظر فيه، على ما قال تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ» متّزلاً منزلة الأفاضل عن الأمم السالفة ممّن ليس له اطلاع على ذلك.

الثالث: انحصارها في نصف أسماء حروف المعجم، لأنّها أربعة عشر حرفاً وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون.

الرابع: مجيؤها في تسع وعشرين سورة بعدد الحروف.

الخامس: كما روعي تصنيفها باعتبار هجائها روعي تصنيفها باعتبار أجناسها، كالمجهورة، وهي ماعدا قولك: «ستشحتك خصمته» وهذه «المهموسة» والرخوة، وهي ماعدا قولك: «أجدك قطبت» وهي «الشديدة» وما بينهما، وهي قولك: «لم يرعونا» والمطبقة، وهي الصاد والطاء والصاد والطاء، والمنفتحة «وهي ماعداها»، والمستعلية،

وهي ما في قوله: «ضُغْطُ خَصِّ قَطْ» والمنخفضة «وهي ماعداها». وحروف التثنية وهي قولك: «قد طَبِجَ».

فإن قلت: هذه لا يمكن تنصيفها. قلت: إذا كان الجنس حروفه مفردة فأسقط منه حرفاً كما سبق في حروف الهجاء ثم نصفه فتجد نصفه الأخف والأكثر استعمالاً فيها. ومن وقف على ذلك علم أن هذا القرآن ليس من كلام البشر وحزم بأنه كلام خالق القوى والقدر. فإن المتبحر في معرفة الحروف وتصرف مخارجها الخفيف والثقيل وعدد أجناسها لا يهتدي إلى هذا النظر الدقيق.

ومما يشد من عضد ما ذكرناه أن الألف واللام والميم يكثرن في الفواتح ما لم يكثر غيرها من الحروف لكثرتها في الكلام. ولأن الهمزة من الرنة فهي من أعماق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من النسم، فصوتها يملأ ماورائها من فضاء النسم. والميم مطبقة لأن مخرجها من الشفتين إذا أطبقنا فرمز يهن إلى باقي الحروف... وكذلك لسائر الحروف الفواتح شأن ليس لغيرها.

قال: ووراء ذلك من الأسرار الإلهية ما لا تستقل بفهمه البشرية... ومن تدبر بعض آيات الكتاب العزيز علم أن جوهره فُتِي من الإبريز وأنه المعجز الجامع للمعاني الجمّة في اللفظ الوجيز...

قال: وإن أردت مثلاً في ذلك فعليك سورة الفاتحة فإنها عنوان مقاصد القرآن وبه سميت أم القرآن لجمعها مقاصده ولذلك جعلت مفتتحه وبه سميت الفاتحة والكافية.^١

١١ - اختيار ابن ميثم

قال كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (٦٣٦-٦٩٩) شارح نهج البلاغة: اختلف المتكلمون في سبب إعجاز القرآن، فذهب أكثر المعتزلة إلى أن سببه فصاحته البالغة. وذهب الجويني إلى أنه الفصاحة والأسلوب، ولذلك كان في شعر العرب وخطبهم

١ - تبرهان انكشاف عن إعجاز القرآن، ص ٥٣-٦٦.

ما فصاحته كفصاحة القرآن دون أسلوبه. وكان في كلامهم ما أسلوبه كأسلوبه دون فصاحته....

وذهب المرتضى رحمته إلى أن الله صرف العرب عن معارضته. وهذا الحرف يحتمل:

١- أن يكون لسب قدرهم.

٢- ويحتمل أن يكون لسب دواعيهم.

٣- ويحتمل أن يكون لسب العلوم التي يتمكنون بها من المعارضة.

ونقل عنه أنه اختار هذا الاحتمال الأخير.

والحق أن وجه الإعجاز هو مجموع الأمور الثلاثة، وهي الفصاحة البالغة، والأسلوب، والاشتغال على العلوم الشريفة.

فأما كلام العرب فيوجد في بعضه الفصاحة البالغة، وأما الأسلوب فنادر وممكن عند التكلف، وقلما يمكن اجتماعهما، لأن تكلف الأسلوب يذهب بالفصاحة.

وأما العلوم الشريفة الموجودة في القرآن فتعود إلى علم التوحيد، وعلم الأخلاق، و السياسات، وكيفية السلوك إلى الله، وعلم أحوال القرون الماضية. فربما وجد في كلام بعض حكمائهم كقس بن ساعدة ونحوه معنى قرأه الكتاب الإلهية السابقة، شيء من تلك العلوم، فيكون ذلك منه على سبيل النقل. ومع ذلك فلا يوجد معه أسلوب القرآن وفصاحته.

والحاصل: أن كلامهم قد يوجد فيه ما يناسب بعض القرآن في الفصاحة، وهو في مناسبتة له في الأسلوب أبعد.

وأما في العلوم والمقاصد التي اشتملت عليها فأشد بعد، فإن للقرآن باطناً وظاهراً كما قال رحمته: إن للقرآن ظهراً وبطناً وهدى ومضلعا، فيأخذ كل منه حسب فهمه واستعداده. وفيه آيات كثيرة بشرت وأذرت بحوادث مستقبلية، وذلك مما لا يفي به القوة البشرية إلا بتأييد ووحى إلهي، فتكون تلك ممتعة في كلامهم، فضلاً أن يعبروا عنها بما يناسب لفظ القرآن في فصاحته وأسلوبه...

١٢ - تحقيق الأمير العلوي

ولصاحب الطراز الأمير يحيى بن حمزة العلوي الزيدي (ت ٧٤٩) تحقيق مستوعب عن مسألة إعجاز القرآن وعن وجوهه المتنوعة على أسلوب أدبي كلامي لم يسبق لمثله نظير في مثل تحقيقه، والبحث عن مزايا المسألة وزواياها، بحثاً مستوفى مستقصى، فنقتطف منه ما يناسب المقام، ونؤجل تمامه إلى سائر المباحث من فصول قادمة إن شاء الله.

إنه رحمه الله وضع خاتمة كتابه (الطراز) لذكر التكميلات اللاحقة لفنون البديع - وهو الفن الثالث منها - وجعله على أربعة فصول: الأول: في فصاحة القرآن بالذات.

(وقد ألقينا هذا الفصل بحقل الدلائل على الإعجاز في القسم الثاني الآتي من الكتاب) والذي نذكره هنا هو الفصل الثاني في كون القرآن معجزاً. وكذا الفصل الثالث في بيان وجوه إعجاز القرآن.

ثمّا الفصل الرابع - في رد المطاعن على القرآن - فقد أجّلناه إلى مجاله المناسب الآتي. وإليك الآن الفصلين الثاني والثالث، قال:

الفصل الثاني: في بيان كون القرآن معجزاً

اعلم أنّ الكلام في هذا الفصل وإن كان خليقاً بإيراده في المباحث الكلامية والأسرار الإلهية، لكونه مختصاً بها ومن أهم قواعدها، لما كان علامة دالة على النبوة وتصديقاً لصاحب الشريعة حيث اختاره الله تعالى بياناً لمعجزته وعلماً دالاً على نبوته وبرهانه على صحة رسالته، لكن لا يخفى تعلّقه بما نحن فيه تعلّقاً خاصاً، والتصاقاً ظاهراً، فإنّ الأخلق بالتحقيق أنّا إذا تكلمنا على بلاغة غاية الإعجاز بتضمّنه لأفانين البلاغة، فالأحقّ هو إيضاح ذلك، فنظّم وجه إعجازه، وبيان وجه الإعجاز، وإبراز المطاعن التي للمخالفين، والجواب عنها، والذي يُقتضى منه العجب، هو حال علماء البيان، وأهل البراعة فيه عن آخرهم، وهو أنّهم أغفلوا ذكر هذه الأبواب في مصنفاتهم بحيث أنّ واحداً منهم لم يذكره مع ما يظهر فيه من مزيد الاختصاص وعظم العُلقَة، لأنّ ما ذكره من تلك الأسرار

المعنوية، واللطائف البيانية من البديع وغيره، إنما كانت وُصْلَةً وَذَرِيعَةً إلى بيان السرِّ واللباب، والغرض المقصود عند ذوي الألباب، إنما هو بيان لطائف الإعجاز، وإدراك دقائقه، واستنهاض عجائبه، فكيف ساع لهم تركها وأعرضوا عن ذكرها، وذكروا في آخر مصنفاتهم ما هو بمعزل عنها، كذكر مخارج الحروف وغيرها مما ليس مهيماً، وإنما المهيماً ما ذكرناه، ثم لو عذرنا مَنْ كان منهم ليس له حظ في المباحث الكلامية، ولا كانت له قدم راسخة في العلوم الإلهية، وهم الأكثر منهم كالسكاكي، وابن الأثير، وصاحب التبيان، وغيرهم ممن برز في علوم البيان، وصنغ بها يده، وبلغ فيها جده وجهده، فما بال مَنْ كان له فيها اليد الطولى، كابن الخطيب الرازي فإنه أعرض عن ذلك في كتابه المصنّف في علم البيان فإنه لم يتعرض لهذه المباحث، ولا شَمَّ منها رائحة، ولكنه ذكر في صدر كتاب النهاية كلاماً قليلاً في وجه الإعجاز لا ينفع من علته، ولا ينفع من علة، فإذا تمهد هذا فاعلم أن الذي يدل على إعجاز القرآن مستلكن:

المسلك الأول منهما: من جهة التحدي، وتقريره هو أنه ﷺ تحدّى به العرب الذين هم النهاية في النصاحة والبلاغة، والغاية في الطلاقة والدلالة، وهم قد عجزوا عن معارضته، وكلما كان الأمر فيه كما ذكرناه فهو معجز، وإنما قلنا: إنه ﷺ تحداهم بالقرآن لما تواتر من النقل بذلك في القرآن، وقد نزلهم الله في التحدي على ثلاث مراتب:

الأولى: بالقرآن كله، فقال تعالى: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^١.

الثانية: بعشر سور منه كما قال تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ»^٢.

الثالثة: بسورة واحدة كما قال تعالى: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» ثم قال بعد ذلك «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا»^٣ فنمى القدرة لهم على ذلك بقضية

٢ - مود ١١: ١٣.

١ - الأنعام ١٧: ٨٨.

٣ - الزمعة ٢: ٢٣-٢٤.

عامة، وأمر حتم لا ترد فيه.

فدلّت هذه الآيات على التحدي، مرّة بالقرآن كلّهُ، ومرّة بعشر سور، ومرّة بسورة واحدة، وهذا هو النهاية في بلوغ التحدي، وهذا كقول الرجل لغيره: هاتِ قوماً مثل قومي، هاتِ كِصفهم، هاتِ كَرْبَعهم، هاتِ كواحدٍ منهم.

وإنّما قلنا: إنّهم عجزوا عن معارضته لأنّ دواعيهم متوفّرة على الإتيان بها، لأنّه بالجملة كلّ العرب ترك أديانهم، وحطّ رئاستهم، وأوجب عليهم ما يُعيب أبدانهم، ويُنقص أموالهم، وطالبهم بعداوة أصدقائهم، وصداقة أعدائهم، وخلع الأنداد والأصنام من بين أظهرهم، وكانت أحبّ إليهم من أنفسهم، من أجل الدين، ولا شك أنّ كلّ واحدٍ من هذه الأمور ممّا يسقّ على القلوب تحمّله ولا سيّما على العرب مع كثرة حميتهم وعظيم نفّتهم، ولا شك أنّ الإنسان إذا استترّل غيره عن رئاسته ودعاه إلى طاعته، فإنّ ذلك الغير يحاول إبطال أمره بكلّ ما يقدر عليه ويجتهد فيه سبيلاً.

ولمّا كانت معارضة القرآن بتفكير وقوعها مبطلّة لأمر الرسول ﷺ علمنا لا محالة قطعاً توفّر دواعي العرب عليها، وإنّما قلنا: إنّ ما كان لهم مانع عنها لأنّه ﷺ ما كان في أوّل أمره بحيث تخاف قهره كلّ العرب، بل هو الذي كان خائفاً منهم، وإنّما قلنا: إنّهم لم يعارضوه لأنّهم لو أتوا بالمعارضة لكان اشتهارها أحقّ من اشتهار القرآن لأنّ القرآن حينئذ يصير كالشبهة وتلك المعارضة كالحجّة، لأنّها هي المبطلّة لأمره، ومتى كان الأمر كما قلناه وكانت الدواعي متوفّرة على إبطال البهّة المدّعى وإبطال روثته، وإزالة بهائمه، كان اشتهار المعارضة أولى من اشتهار الأصل، فلمّا لم تكن مشهورة علمنا لا محالة بطلانها، وأنّها ما كانت، وإنّما قلنا: إنّ كلّ من توفّرت دواعيه إلى الشيء ولم يوجد مانع منه، ثمّ لم يتمكن من فعله، فإنّه يكون عاجزاً، لأنّه لا معنى للعجز إلّا ذاك، وبهذا الطريق نعرف عجزنا عن كلّ مانعٍ عنده كخلق الصور والصفات، ويؤيّد ما ذكرناه من عجزهم ويوضحه، أنّهم عدلوا عن المعارضة إلى تعريض النفس للقتل، مع أنّ المعارضة عليهم كانت أسهل وما ذاك إلّا لما أحسّوا به من العجز من أنفسهم عنها، فثبت بما ذكرناه كون

القرآن معجزاً، وتام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة الواردة عليها والانفصال عنها...
ثم جعل يورد أسئلة ثمانية للملاحظة حاولوا فيها إخفاء وجه الإعجاز في القرآن.
وأجاب عن كل واحدة منها إجابة وافية على أسلوب منهجي رتيب، أبدى خلالها جواب
لامعة من إعجاز القرآن، قد أجلتها إلى بحث الدلائل على الإعجاز، فانتظر.

المسلك الثاني: في الدلالة على أن القرآن معجز من جهة العادة وتقريره أن الإتيان
بمثل كل واحدة من سور القرآن، لا يخلو حاله إما أن يكون معتاداً، أو غير معتاد، فإن كان
معتاداً كان سكوت العرب مع فصاحتهم وشدة عداوتهم للمرسول ﷺ ومع توفر دواعيهم
على إبطال أمره، والتدح في دعواه بمبلغ جهدهم وجدهم، يكون لا محالة من أبهر
المعجزات، وأظهر البينات على عجزهم عن الإتيان بمثل سورة منه.

وأما إن لم يكن معتاداً، كان القرآن معجزاً، لخروجه عن المألوف والمعتاد، فنبت بما
ذكرناه أن القرآن سواء كان خارقاً للعادة أو لم يكن خارقاً، فإنه يكون معجزاً، وهذه نكتة
شريفة حاسمة لأكثر أسئلة المنكرين التي يوردونها على كونه خارقاً للعادة كما ترى.

الفصل الثالث: في بيان الوجه في إعجاز القرآن

اعلم أن الكلام في الوجه الذي لا حيلة في القرآن معجزاً دقيق، ومن ثم كثرت فيه
الأقاويل واضطربت فيه المذاهب، وتفرقوا على أنحاء كثيرة، فنلذكر ضبط المذاهب، ثم
نردفه بذكر ما تحتمله من النساد، ثم نذكر على أثره المختار منها، فهذه مباحث ثلاثة:

المبحث الأول: في الإشارة إلى ضبط المذاهب في وجه الإعجاز فنقول: كون القرآن
معجزاً ليس يخلو الحال فيه إما أن يكون لكونه فعلاً من المعتاد، أو لكونه فعلاً لغير
المعتاد، فالأول هو القول بالصرفية، ومعنى ذلك أن الله تعالى صرف دواعيهم عن معارضة
القرآن مع كونهم قادرين عليها، فالإعجاز في الحقيقة إنما هو بالصرفية على قول هؤلاء،
كما سنحقق خلافهم في الرد عليهم بمعونة الله تعالى، ونذكر من قال بهذه المقالة، وإن كان
الوجه في إعجازه هو الفعل لغير المعتاد، فهو قسمان:

القسم الأول: أن يكون الأمر عائد إلى المناظرة من غير دلالتها على المعاني، ثم هذا

يكون على وجهين:

أحدهما: أن يكون مشترطاً فيهم اجتماع الكلمات وتأليفها، وهذا هو قول من قال: الوجه في إعجازه هو اختصاصه بالأسلوب المفارق لسائر الأساليب الشعرية والخطابية، وغيرهما، فإنه مختص بالفواصل والأسجاع، فمن أجل هذا جعلنا هذا الوجه مختصاً بتأليف الكلمات.

وثانيهما: أن يكون إعجازه لأمر راجع إلى مفردات الكلمات دون مؤلفاتها، وهذا هو رأي من قال: إنه إنما صار معجزاً من أجل الفصاحة، وفسر الفصاحة بالبراءة عن التقل والسلامة عن التعقيد، واختصاصه بالسلاسة في ألفاظه.

القسم الثاني: أن يكون إعجازه إنما كان لأجل الألفاظ باعتبار دلالتها على المعاني، وهذا هو قول من قال: إن القرآن إنما كان معجزاً لأجل تضمنه من الدلالة على المعنى، وهذا القسم يمكن تنزيله على وجه ثلاثة:

الوجه الأول: أن تكون تلك الدلالة على جهة المطابقة وفيه مذاهب ثلاثة:

أولها: أن يكون لأمر حاصل في كل ألفاظه، وهذا هو قول من قال: إن وجه إعجازه، هو سلامته عن المناقضة في جميع ما تضمنه.

وثانيها: أن يكون لأمر حاصل في كل ألفاظه وأبعاضها، وهذا هو قول من قال: إن إعجازه إنما كان لما فيه من بيان الحقائق والأسرار، والدقائق مما يكون العقل مستغلاً بذركها، فإن العلماء من لدن عصر الصحابة (رضي الله عنهم) إلى يومنا هذا ما زالوا يستنبطون منه كل سر عجيب، ويستنبطون من ألفاظه كل معنى لطيف غريب، فهذا هو الوجه في إعجازه على رأي هؤلاء.

وثالثها: أن يكون وجه إعجازه لأمر حاصل في مجموع ألفاظه وأبعاضها، مما لا يستقل بذركه العقل، وهذا هو قول من قال: إن الوجه في إعجازه ما تضمنه من الأمور الغيبية، واللطائف الإلهية، التي لا يختص بها سوى علاميها، فهذه هي أقسام دلالة المطابقة، تكون على هذه الأوجه الثلاثة التي رمزنا إليها.

الوجه الثاني: أن تكون تلك الدلالة على جهة الالتزام، وهذا مذهب من يقول: إن القرآن إنما كان معجزاً لبلاغته، وفسر البلاغة باشتمال الكلام على وجوه الاستعارة، والتشبيه المضمرة الأداة، والفصل، والوصل، والتقديم، والتأخير، والحذف، والإضمار، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك من فنون البلاغة.

الوجه الثالث: أن تكون تلك الدلالة من جهة تضمنه لما يتضمنه من الأسرار المودعة تحت ألفاظه التي لا تزال على وجه الدهر غصنة طرية يجتليها كل ناظر ويعلو ذروتها كل خريبت ماهر، فظهر بما لخصناه من الحصر أن كون القرآن معجزاً، إما أن يكون للصرفة، أو للنظم، أو لسلامة ألفاظه من التعقيد، أو لخلوه عن التناقض، أو لأجل اشتماله على المعاني الدقيقة، أو لاشتماله على الإخبار بالعلوم الغيبية، أو لأجل الفصاحة والبلاغة، أو لما يتركب من بعض هذه الوجوه أو من كلها، كما فصلناه من قبل، ونحن الآن نذكر كل واحد من هذه الأقسام كلها، ونبطله سوى ما نختاره منها والله الموفق.

المبحث الثاني: في إبطال كل واحد من هذه الأقسام التي ذكرناها سوى ما نختار منها.

وجملة ما نذكره من ذلك مذهب كميتر علوم رسي

المذهب الأول منها: الصرفة، وهذا هو رأي أبي إسحاق النخاس، وأبي إسحاق النسيبي، من المعتزلة واختاره الشريف المرتضى من الإمامية، واعلم أن قول أهل الصرفة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة، لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضحه.

(ذكرنا التفاسير الثلاثة عند الكلام عن مذهب الصرفة).

ثم قال: وحاصل الأمر في هذه المقالة، أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه، قال: والذي عرّ هؤلاء، حتى زعموا هذه المقالة، ما يروون من الكلمات الرشيدة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكل الأساليب البلاغية في كلام العرب الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة، لا يقصر عن معارضته، خلا ما عرّض من منع الله إياهم بما ذكرناه من الموانع، والذي يدل على بطلان هذه المقالة براهين.

(نقلنا براهينه الثلاثة ضمن دلائل العلماء على دحض شبهة الصرفة).

المذهب الثاني: قول من زعم أن الوجه في إعجازه إنما هو الأسلوب، وتقريره أن أسلوبه مخالف لسائر الأساليب الواقعة في الكلام، كأسلوب الشعر، وأسلوب الخطب والرسائل، فلمّا اختصّ بأسلوب مخالف لهذه الأساليب، كان الوجه في إعجازه. وهذا فاسد لأوجه:

أولها: أننا نقول: ما تريدون بالأسلوب الذي يكون وجهاً في الإعجاز، فإن عنيتم به أسلوباً أي أسلوب كان، فهو باطل، فإنه لو كان مطلق الأسلوب معجزاً، لكان أسلوب الشعر معجزاً، وهكذا أسلوب الخطب والرسائل، يلزم كونه معجزاً، وإن عنيتم أسلوباً خاصاً، وهو ما اختصّ به من البلاغة والفصاحة، فليس إعجازه من جهة الأسلوب، وإنما وجه إعجازه الفصاحة والبلاغة كما سنوضحه من بعد هذا عند ذكر المختار، وإن عنيتم بالأسلوب أمراً آخر غير ما ذكرناه فمن حقاكم إبرازه حتى ننظر فيه فنظهر صحته أو فساده.

وتانيها: أن الأسلوب لا يمنع من الإتيان بأسلوب مثله، فلو كان الأمر كما زعمتموه، جازت معارضة القرآن بمثله، لأن الإتيان بأسلوب يماثل له سهل ويسير على كل أحد. وتاليتها: أنه لو كان الإعجاز إنما كان من جهة الأسلوب لكان ما يحكى عن «مسيلمّة» الكذاب معجزاً وهو قوله: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وجاهر، وقوله: والطاجنات طحناً، والخايزات خبزاً، لأن ما هذا حاله مختصّ بأسلوب لا محالة، فكان يكون معجزاً، وأنه محال.

ومن وجه رابع وهو أنه لو كان وجه إعجازه الأسلوب، لما وقع التفاوت بين قوله تعالى: «ولكم في أنقصاص حياة» وبين قول الفصحاء من العرب «القتل أنفى للمقتل» لأنهما مستويان في الأسلوب، فلمّا وقع التفاوت بينهما دلّ على بطلان هذه المقالة والله أعلم.

المذهب الثالث: قول من زعم أن وجه إعجازه إنما هو خلوه عن المناقضة، وهذا فاسد لأوجه.

أما أولاً: فلأن الإجماع منعقد على أن التحدي واقع بكل واحدة من سور القرآن، وقد يوجد في كثير من الخطب والشعر والرسائل، ما يكون في مقدار سورة خالياً عن التناقض، فيلزم أن يكون معجزاً.

وأما ثانياً: فلأنه لو كان الأمر كما قالوه في وجه الإعجاز، لم يكن تعجبهم من أجل فصاحته، وحسن نظمه، ولوجب أن يكون تعجبهم من أجل سلامته عما قالوه، فلما علمنا من حالهم خلاف ذلك بطل ما زعموه.

وأما ثالثاً: فلأن السلامة عن المناقضة ليس خارقاً للعادات، فإنه ربما أمكن كثيراً في سائر الأزمان، وإذا كان معتاداً لم يكن العلم بخلو القرآن عن المناقضة والاختلاف معجزاً، لما كان معتاداً، ومن حق ما يكون معجزاً أن يكون ناقضاً للعادة.

وأيضاً فإنا نقول: جعلكم الوجه في إعجازه خلوه عن المناقضة والاختلاف ليس علماً ضرورياً، بل لابد فيه من إقامة الدلالة، فيجب على من قال هذه المقالة تصحيحها بالدلالة، لتكون مقبولة، وهم لم يفعلوا ذلك.

المذهب الرابع: قول من زعم أن الوجه في الإعجاز اشتماله على الأمور الغيبية بخلاف غيره، وهذا فاسد أيضاً لأمرين:

أما أولاً: فلأن الإجماع منعقد على أن التحدي واقع بجميع القرآن، والمعلوم أن الحكم والآداب وسائر الأمتال ليس فيها شيء من الأمور الغيبية، فكان يلزم على هذه المقالة أن لا يكون معجزاً وهو محال.

وأما ثانياً: فلأن ما قالوه يكون أعظم عذراً للعرب في عدم قدرتهم على معارضته، فكان من حقهم أن يقولوا: إنا متمكنون من معارضة القرآن، ولكنه اشتمل على ما لا يمكننا معرفته من الأمور الغيبية، فلما لم يقولوا ذلك دلّ على بطلان هذه المقالة.

المذهب الخامس: قول من زعم أن الوجه في الإعجاز هو الفصاحة، وفسر الفصاحة

بسلامة الفاظه عن التعقيد الحاصل في مثل قول بعضهم:

وَقَبْرِ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

وهذا فاسدٌ لأمرين:

أما أولاً: فلأن أكثر كلام الناس خالي عن التعقيد في الشعر، والخطب، والرسائل، فيلزم كونها معجزاً.

وأما ثانياً: فلأنه لو كان الأمر كما زعموه لم يفرق الحال بين قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ. إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَأُنْفَكُ عَنْ كَثِيرٍ»^١ وبين قول من قال: وأعظم العلامات الباهرة جري السفن على الماء، فإما أن يريد هبوب الريح فتجري بها، أو يريد سكون الريح فتترك على ظهره، أو يريد إهلاكها بالإغراق بالماء لأن ما هذا حاله من المعارضة سالم عن التعقيد، فكان يلزم أن يكون هذا الكلام معارضاً للآية، لاشتراكها في الخفة والبراهة عن الثقل والتعقيد.

ومن وجه ثالث: وهو أنه كان يلزم أن لا يقع تفاوت بين قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»^٢ وبين قول العرب «القتل أنفى للقتل» لاشتراكهما جميعاً في السلامة عن الثقل وهذا فاسدٌ.

المذهب السادس: قول من زعم أن الوجه في الإعجاز إنما هو اشتماله على الحقائق وتضمنه للأسرار والدقائق التي لا تزال غصةً طريئة على وجه الدهر، ما تنال لها غاية، ولا يوقف لها على نهاية، بخلاف غيره من الكلام، فإن ما هذا حاله غير حاصل فيه، فلهذا كان وجه إعجازه، وهذا فاسدٌ أيضاً لأمرين:

أما أولاً: فلأن الأصل في وجه الإعجاز أن يكون القرآن متميزاً به لا يشاركة فيه غيره، وما ذكرتموه من هذه الخصلة فإنها مشتركة، وبيانه هو أننا نرى بعض من صنف كتاباً

في العلوم الإسلامية واعتنى في قبضه^١ واختصاره، فإن من بعده لا يزال يجتني منه الفوائد في كل وقت ويستنبطها من ألفاظه وصرائحه كما نرى ذلك في الكتب الأصولية والكتب الدينية والفقهية، وسائر علوم الإسلام، وإذا كان الأمر كما قلناه، وجب الحكم بإعجازها وهم لا يقولون به.

وأما ثانياً: فلأن قوله تعالى: «وَالْهَكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ»، وقوله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»،^٢ وقوله تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»^٣ صريحة في إثبات الواحدانية لله تعالى بظاهرها وصريحها، وما عدا ذلك من المعاني لا يخلو حاله إما أن يستقل العقل بدركه أو لا يستقل بدركه، فإن استقل بدركه فقد أحاط به كغيره من سائر الكلام، فلا تفرقة بينه وبين غيره، وإن كان لا يستقل العقل بدركه، فذلك هو الأمور الغيبية، وهي باطلة بما أسلفناه على من قال بها، فحصل من مجموع ما ذكرناه هاهنا أنه لا وجه لجعل دلالة على الأسرار والمعاني وجهاً في إعجازه لأن غيره مشارك له في هذه الخصلة، وما وقعت فيه الشراكة فلا وجه لاختصاصه وجعله وجهاً في كونه معجزاً.

المذهب السابع: قول من زعم أن الوجه في إعجازه هو البلاغة، وفسر البلاغة باشماله على وجوه الاستعارة، والتشبيه، والفعل، والوصل، والتقديم، والتأخير، والإضمار، والإظهار، إلى غير ذلك، وهو لا إن أرادوا بما ذكرناه أنه صار فصيحاً بالإضافة إلى ألفاظه، وبلغاً بالإضافة إلى معانيه، ومختصاً بالنظم الباهر، فهذا جيد لا غبار عليه كما سنوضحه عند ذكر المختار، وإن أرادوا أنه بليغ بالإضافة إلى معانيه دون ألفاظه، فهو خطأ، فإنه صار معجزاً باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعاً، وغالب ظني أن هذا المذهب يحكى عن أبي عيسى الرماني.

المذهب الثامن: قول من زعم أن الوجه في إعجازه هو النظم، وأراد أن نظمته وتأليفه هو الوجه الذي تميز به من بين سائر الكلام فهو لا أيضاً يقال لهم: ما تريدون باختصاصه

٢ - البقرة ٢: ١٦٣.

١ - في جمعه.

٤ - الإخلاص ١١٢: ١.

٣ - محمد ٤٧: ١٩.

بالنظم، فإن عَيْتُكُمْ به أن نظمه هو المعجز من غير أن يكون بليغاً في معانيه، ولا فصيحاً في ألفاظه، فهو خطأ، فإن الإعجاز شامل له بالإضافة إلى كلا الأمرين جميعاً، وإن عَيْتُكُمْ أنه مختصّ بالبلاغة والفصاحة، خلا أن اختصاصه بالنظم أعجب وأدخل، فلهذا كان الوجه في إعجازه فهذا خطأ، فإن مثل هذا لا يُدْرِكُ بالعقل، أعني تميّزه بحسن النظم عن حسن البلاغة والفصاحة، وأيضاً فإن ما ذكره تحكّم لا مُسْتَنَد له عقلاً ولا نقلاً، وأيضاً فإننا نقول: هل يكون النظم وجهاً في الإعجاز مع ضمّ البلاغة والفصاحة إليه، أو يكون وجهاً من دونهما، فإن قالوا بالأوّل فهو جيّد، ولكن لم قصّروه على النظم وحده ولم يضمّوهما إليه، وإن قالوا: إنه يكون منفرداً بالإعجاز من دونهما، فهذا خطأ أيضاً، فإن نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزاً بحال.

المذهب التاسع: مذهب من قال: إن وجه إعجازه إنما هو مجموع هذه الأمور كلّها، فلا قول من هذه الأقاويل إلا هو مختصّ به، فلا جرم جعلنا الوجه في إعجازه مجموعها كلّها، وهذا فاسد، فإننا قد بطلنا رأي أهل الصّرفيّة وزيّفنا كلامهم، فلا وجه لعدّه من وجوه الإعجاز، وهكذا، فإننا قد بطلنا قول من زعم أن الوجه في إعجازه اشتماله على الإخبار بالأُمور الغيبيّة، وبطلنا قول أهل المسلّوك وغيره من سائر الأقاويل، فلا يجوز أن تكون معدودة في وجوه الإعجاز، لأنّ الأمور الباطنة لا يجوز أن تكون عللاً للأحكام الصحيحة، ومن وجه ثانٍ وهو أن الفصاحة والبلاغة إذا كانتا حاصلتين فيه فهما كافيتان في الإعجاز، فلا وجه لعدّ غيرهما معهما.

المذهب العاشر: أن يكون الوجه في إعجازه إنما هو ما تضمّنه من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في النواتج، والمقاصد، والخواتيم في كلّ سورة، وفي مبادئ الآيات، وفواصلها، وهذا هو الوجه السديد في وجه الإعجاز للقرآن كما ستوضح القول فيه بمعونة الله تعالى. فهذا ما أردنا ذكره من المذاهب في الوجه الذي لأجله صار القرآن معجزاً للمخلوق كلّهم.

المبحث الثالث: في بيان المختار من هذه الأقاويل.

والذي نختاره في ذلك ما عول عليه الجهابذة من أهل هذه الصناعة الذين ضربوا فيها بالنصيب الوافر، واختصوا بالقدح المعلى والسهم القامر، فإنهم عولوا في ذلك على خواص ثلاثة هي الوجه في الإعجاز.

الخاصة الأولى: الفصاحة في ألفاظه على معنى أنها بريئة عن التعقيد، والتقل، خفيفة على الألسنة تجري عليها كأنها السلسال، رقة وصفاء وعدوبة وحلاوة.

الخاصة الثانية: البلاغة في المعاني بالإضافة إلى مضرب كل مثل، ومساق كل قصبة، وخبر، وفي الأوامر والنواهي، وأنواع الوعيد، ومحاسن المواعظ، وغير ذلك مما اشتملت عليه العلوم القرآنية، فإنها مسوقة على أبلغ سياق.

الخاصة الثالثة: جودة النظم وحسن السياق، فإنك تراه فيما ذكرناه من هذه العلوم منظوماً على أتم نظام وأحسنه وأكملته، فهذه هي الوجه في الإعجاز والبرهان على ما ادعينا من ذلك هو أن الآيات التي يذكر فيها التحدي واردة على جهة الإطلاق ليس فيها تحدياً بجهة دون جهة، لأنه لم يذكر فيها أنه تحداهم، لا بالبلاغة، ولا بالفصاحة، ولا بجودة النظم والسياق، ولا بكونه مشتملاً على الأمور الغيبية، ولا لاشتماله على الأسرار والدقائق، وتضمنه المحاسن والعجائب، ولا لشار إلى شيء خاص يكون مقصداً للتحدي، وإنما قال: بمتله، وبسورة، وبعشر سور على الإطلاق. ثم إن العرب أيضاً ما استفهموه عما يريد بتحديهم في ذلك، ولا قالوا ما هو المطلوب في تحدينا، بل سكتوا عن ذلك، فوجب أن يكون سكوئهم عن ذلك لأوجه له إلا لما قد علم من اطراد العادات المقررة بين أظهرهم أن الأمر في ذلك معلوم أنه لا يقع إلا بما ذكرناه من البلاغة والفصاحة وجودة السياق والنظم، فإن المعلوم من حال الشعراء والخطباء وأهل الرسائل والكلام الواقع في الأندية المشهودة، والمحافل المجتمعة، أنهم إذا تحدى بعضهم بعضاً في شعر، أو خطبة، أو رسالة فإنه لا يتحداه إلا بمجموع ما ذكرناه من هذه الأمور الثلاثة ولم يعهد قط في الأزمنة الماضية والآحاد المتمادية، أن أحداً تحدى أحداً منهم برقة شعره، ولا باشتماله على أمور محجوبة، ولا بعدم التناقض فيها، وفي هذا دلالة كافية على أن

تعويلهم في التحدي إنما هو على ما ذكرناه، فيجب حمل القرآن في الآيات المطلقة عليه، وفي ذلك حصول ما أردناه، وتمام تقرير هذه الدلالة بإيراد الأسئلة عليها والانصاف عنها.

السؤال الأول منها: قد زعمتم أن وجه إعجاز القرآن إنما هو الفصاحة، والبلاغة، والنظم. وحاصل هذه الأمور كلها إنما أن تكون راجعة إلى مفردات الكلم، أو تكون راجعة إلى مركباتها. ولا شك أن العرب قادرون على المفردات لا محالة، ولا شك أن كل من قدر على المفردات فهو قادر على مركباتها، فلو كان كما ذكرتموه لكان العرب قادرين على المعارضة، وهذا يدل على أن وجه إعجازه ليس أمراً راجعاً إلى البلاغة، والفصاحة، والنظم، وهذا هو المطلوب.

وجوابه إنما يكون بعد تمهيد قاعدة وهو أن التفاوت بين الكتابين في الجودة والكتابة إنما يكون من جهة العلم بإحكام التأليف بين الحروف وتزيلها على أحسن هيئة في الإتيان، فمن كان منهما أجود علماً بإحكام التأليف كانت كتابته أعجب، ومن كان عادماً للعلم بما ذكرناه نقص إتيان كتابته، فكل واحد منهما قد أحرز ما تحتاج إليه الكتابة من الآلات كالقلم، والدواة، والبرطاس، واليد، وغير ذلك مما يكون شرطاً في الكتابة، ولم يسمي أحدهما عن الآخر إلا بما ذكرناه من العلم بإحكام التأليف، وهكذا حال أهل الحرف والصناعات، فإنهم كلهم متمكنون من أصول الصناعات وما تحتاج إليها، كالصناعة للذهبيات والفضيات، والحياكة للديباج، فإن تفاوتهم إنما يظهر في ما ذكرناه لا غير، فإذا عرفت هذا فالعرب لا محالة قادرون على مفردات هذه الكلم الموضوعة، وقادرون على حسن التأليف لهذه الكلمات، لكنهم غير قادرين على كل تأليف، فإن من التأليف ما لا زيادة عليه في الأعجاب، وهو المعجز، ومنه ما تنقص رتبته عن ذلك، وليس معجزاً، وعلى هذا يكون المعجز إنما كان من جهة عدم العلم بإحكام تأليف هذه الكلمات، فقد ملكوا القدرة على آحادها، وملكوا القدرة على نوع من تأليفها مما لم يكن معجزاً، فأما ما كان معجزاً من التأليف فلم يكونوا مالكين له، فحصل من مجموع

ما ذكرناه، أن الإعجاز ليس إلا تأليف هذه الكلمات على حد لا غاية فوقه، فإلى هذا يرجع الخلاف، ويحصل التحقق بأن عجزهم إنما كان من جهة عدم العلم بهذا التأليف المخصوص في الكلام. لا يقال: فحاصل هذا الجواب أن الله تعالى لم يخلق فيهم العلم بإحكام التأليف الذي يحتاج إليه في كون الكلام معجزاً، وهذا قول بمقالة أهل الصرفة، فإن حاصل مذهبهم هو أن الله تعالى سلبهم الداعي إلى معارضة القرآن، وأعدم عنهم العلوم التي لأجلها يقدر على المعارضة، وأنتم قد رتبتم هذه المقالة وأبطلتموها، فقد وقعتم فيما فررت من، لأننا نقول هذا فاسدٌ فإننا نقول إنهم عادمون لهذه العلوم قبل المعجز وبعده، ونها غير حاصلة لهم في وقت من الأوقات فلماذا استحال منهم معارضة القرآن كما قررناه من قبل، بخلاف مقالة أهل الصرفة فإن عندهم أن علوم التأليف كانت حاصلة معهم قبل ظهور المعجز، لكن الله تعالى سلبهم إياها كما مرّ تقريره، فلماذا كان ما ذكرناه مخالفاً لما قالوه.

السؤال الثاني: لو كانت الفصاحة هي الوجه في كون القرآن معجزاً كما كان فيه دلالة على صدق الرسول ﷺ وقد تقرّر كونه دالاً على صدقه، فيجب أن لا يكون الوجه في إعجازه هي الفصاحة، بل الصرفة كما تقول أصحابها، أو وجه آخر غير الفصاحة، وإنما قلنا: إنه لو كان الوجه في إعجازه الفصاحة لما كان فيه دلالة على الصدق، فلأن الدلالة على الصدق إنما تقع إذا كانت موجودة من جهة الله تعالى إلا أنه تعالى ليس فاعلاً للفصاحة من جهة أن الفصاحة المرجع بها إلى خلوص الكلام من التعقيد، والبلاغة ترجع إلى مطابقة الكلام وحسن تأليفه، وهذه كلها مقدورة لنا، ولهذا بطل أن يكون الإعجاز حاصلًا بها، فإذن لابد من أن يكون وجه الإعجاز متعلقاً بقدرة الله تعالى، لأنه هو المتولي لصدق أنبيائه، فكل ما كان من المعجزات لا يُقدَّر كونه من جهته، فإنه لا يكون فيه دلالة على صدق من ظهر عليه، وإنما قلنا: إن فيه دلالة على الصدق، وهذا ظاهر لا يمكن إنكاره، فإن القرآن من أبهر الأدلة على صدق صاحب الشريعة ﷺ فلو كان وجه إعجازه هو الفصاحة لم يكن فيه دلالة على الصدق، لأن الفصاحة والبلاغة المرجع بهما إلى النظام

الكلام على وجه مخصوص لا مزيد عليه، وما من وجه من وجوه النظم إلا وهو مقدور للعباد بكل حال، وهذا يُبطل كونه دالاً على صدقه، وقد تقرر كونه دليلاً على الصدق، فبطل كون إعجازه هو الفصاحة.

وجوابه أننا قد قررنا أن الوجه في إعجازه هو الفصاحة والبلاغة مع النظم بما لا مَطْمَع في إعادته.

قوله لو كانت الفصاحة وجهاً في إعجازه لما كان له دلالة على الصدق، قلنا: هذا فاسد فإن النظم وإن كان مقدوراً لنا، لكنه قد يقع على وجه لا يمكن كونه مقدوراً لنا، ولهذا فإن العلم مقدور لنا، والفعل من جنس العلوم، وقد استحال كونها مقدورة للعباد، لما كانت واقعة على وجه يستحيل وقوعه في حق العباد، فإن جنس الحركة مقدور لنا، وحركة المرتعش وإن كانت من جنس الحركة، لكنها لما وقعت على وجه يتعذر على العباد جاز الاستدلال بها على الله تعالى، فهكذا حال البلاغة، فإنها وإن كانت من قبيل النظم والتأليف وهو مقدور لنا، لكنه لما وقع على وجه يتعذر تحصيله من جهتنا، كان دليلاً على الصدق من هذه الجهة، فحصل من مجموع ما ذكرناه أن القرآن دال على صدق من ظهر على يده، وما ذاك إلا لكونه محققاً بالواقع من جهة الله تعالى مع كون جنسه من مقدور العباد، وفيه دلالة على صدقه كما نقوله في سائر المعجزات الدالة على صدقه، وإن لم يكن لها تعلق بمقدور العباد، كإطعام الخلق الكثير من الطعام اليسير، ونوع الماء من بين أصابعه، إلى غير ذلك من المعجزات الباهرة لمحمد ﷺ.

السؤال الثالث: هو أن الصحابة (رضي الله عنهم) لما اهتموا بجمع القرآن بعد الرسول ﷺ وكانوا يطلبون الآية والآيتين، ممن كان يحفظها منهم، فإن كان الراوي مشهوراً العدالة قبلوها منه، وإن كان غير مشهور العدالة لم يقبلوها منه، وطلبوا على ذلك يثبت فلو كان الوجه في إعجازه هو الفصاحة كما زعمتم، لكان متميزاً عن سائر الكلام وكان لا وجه للسؤال، لما يظهر من التمييز، وفي هذا دلالة على أن وجه إعجازه هو الصرفة، أو غيرها، دون الفصاحة.

وجوابه من وجهين:

أما أولاً: فلأننا لا نسلم أن الرسول ﷺ توفاه الله تعالى ولم يكن القرآن مجموعاً، بل مامات عليه السلام إلا بعد أن جمعه جبريل، وهذه الرواية موضوعة مختلفة لا نسلمها، ولهذا قال لما نزل صدر سورة براءة: «أثبتوها في آخر سورة الأنفال» فما قالوه منكر ضعيف.

وأما ثانياً: فلأن الاختلاف إنما وقع في كتب القرآن وجمعه في الدفاتر، فأما جمعه فمما لم يقع فيه تردد أنه كان في أيام الرسول ﷺ وإنما كان مجموعاً في صدور الرجال، فأما كتبه فلعله إنما كان بعد الرسول ﷺ ولهذا فإن المصاحف قد كانت كثر بعد الرسول ﷺ فلما وقع فيها الخلاف، فعل «عثمان» في خلافته ما فعل من محوها كلها، وكتبه مصحفه الذي كتبه.

السؤال الرابع: هو أن ابن مسعود رضي الله عنه عليه الفاتحة والمعوذتان، هل هن من القرآن أو لا، فلو كان الوجه في الإعجاز هو النصيحة لكان لا يلتبس عليه شيء من ذلك.

وجوابه من وجهين:

أما أولاً: فلأن ابن مسعود لم ينكر كونها نزلت من اللوح المحفوظ، وإن جبريل أتى بها من السماء، فهن قرآن بهذه المعاني، وإنما أنكر كتبها في المصاحف وقال هن واردات على جهة التبرك والاستعاذة، فهذا كن قرآن بما ذكرناه من المعاني، ولم يكن قرآن لورودها لهذا المقصد الخاص، وهذا في التحقيق يؤول إلى العبادة.

والمقاصد المعنوية متفق عليها كما ترى.

وأما ثانياً: فلأن هذا رأي لابن مسعود فلا يكون مقبولاً، والحق في المسألة واحد، فخطؤه فيها كخطأ غيره ممن خالف دلالة قاطعة، ولتقتصر على هذا التدر من الأسئلة ففيه كفاية لغرضنا، واستقصاء الكلام على مثل هذه القاعدة إنما يليق بالمباحث الكلامية والمقاصد الدينية، وإن نفس الله لنا في المهلة، وتراخت مدة الإمهال، ألفنا كتاباً نذكر فيه كيفية دلالة المعجز على صدق من ظهر على يده، ونجيب فيه عن شكوك المخالفين

بمعونة الله تعالى، فالتيّة صادقة في ذلك إن شاء الله تعالى.^١

١٣ - كلام السيد شبر

ولخاتمة المحدثين السيد عبد الله شبر (ت ١٢٤٢) كلام مستوفٍ بوجوه إعجاز القرآن حسبما فصله المحققون من علمائنا الإمامية وورد في المأثور عن الأئمة المعصومين عليهم السلام أورده في كتابه «حقّ اليقين في معرفة أصول الدين». قال: قد وقع الخلاف بين العلماء في أن وجه إعجاز القرآن هل هو لأجل كونه في أعلى مراتب الفصاحة ومنتهى مرتبة البلاغة، بحيث لا يمكن الوصول إليه ولا يتصور الإتيان بمثله، أو من جهة صرف قلوب الخلائق عن الإتيان بمثله وإن كان ممكناً؟ وبالتالي قال السيد المرتضى رحمته الله والأكثر على الأول. والحق أن إعجاز القرآن لوجوه عديدة نذكر جملة منها:

١ - أنه مع كونه مركباً من الحروف الهجائية المفردة التي يقدر على تأليفها كل أحد، يعجز الخلق عن تركيب مثله بهذا التركيب العجيب والنمط الغريب.

٢ - من حيث امتيازه عن غيره مع اتحاد اللغة، فإن كل كلام وإن كان في منتهى الفصاحة وغاية البلاغة إذا زين ورصع بجواهر الآيات القرآنية وجدت له امتيازاً تاماً وفرقاً واضحاً يشعر به كل ذي شعور.

٣ - من جهة غرابة الأسلوب وأعجوبة النظم. فإن من تتبّع كتب الفصحاء وأشعار البلغاء وكلمات الحكماء، لا يجدها شبيهة بهذا النظم العجيب والأسلوب الغريب والملاحة والفصاحة ويكفيك نسبة الكفار له إلى السحر لأخذه بمجامع القلوب.

٤ - من حيث عدم الاختلاف فيه، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، فلا تجد فيه مع هذا الطول كلمة خالية من الفصاحة خارجة عن نظمه وأسلوبه. وأفصح الفصحاء إذا تكلم بكلام طويل تجد في كلامه أو أشعاره غاية الاختلاف في الجودة

١ - انظر، ج ٤، ص ٣٦٧، ٤١٣. وقد أوردها كلامه بطونه، لاشتماله على فوائد جمة جليلة أحببنا تبليها وعرضها على انقارئ التكميم.

والرداءة. وأيضاً لا اختلاف في معانيه ولا تناقض في مبانيه. ولو كان منتحلاً ومفترياً - كما زعمه الكفار - لكثرت فيه التناقض والتضاد، فإن الكاذب تخونه ذاكرته ويبدو عواره.

٥ - من حيث اشتماله على كمال معرفة الله وذاته وصفاته وأسمائه مما تحير فيه عتول الحكماء والمتكلمين.

٦ - من حيث اشتماله على الآداب الكريمة والشرائع القويمة والطريقة المستقيمة، في نظم البلاد وسياسة العباد في المعاش والمعاد.

٧ - من حيث اشتماله على إخباره بخفايا قصص الماضين مما لم يعلمه الخواص فكيف بالعوام. كما في الحديث عن أصحاب الكهف، وما دار بين موسى والخضر، وقصة ذي القرنين وقصص إبراهيم ولوط ويوسف عليهم السلام.

٨ - من حيث اشتماله على الإخبار عن الضمائر وإبداء ما في الصدور، مما لا يطلع عليه إلا علام الغيوب. وهي كثيرة في القرآن بشأن الكفار والمنافقين.

٩ - من حيث اشتماله على الإخبار بمستقبل الأيام في مواطن كثيرة.

١٠ - من حيث أنه لا يخلق على طول الزمان ولا يملئ على كثرة التكرار. كلما تلاوته أو تلى عليك وجدته غصّاً طريّاً مما لا يوجد في غيره...^١

١٤ - العلامة هبة الدين

وسار على منهاجه وزاد عليه علامة بغداد السيّد هبة الدين الشهرستاني (ت ١٣٨٦) في أثره الباقي «المعجزة الخالدة»^٢ قال: إن أكبر ميزة في القرآن - وهي التي جعلته فوق المعجزات كلها - هي أنها مجموعة فصول ليست سوى صباغة أحرف عربيّة، من جنس كلمات العرب، بل ومن أيسر أعمال البشر. وقد فاقته مع ذلك عبقرية كل عبقر، ولم

١ - حقّ اليقين، ج ١، ص ١١٣ - ١١٤.

٢ - كان التمهيد في تقديم نظرة علامتنا الشهرستاني إلى حفل آراء القدماء هو اقتداءه بمذهب التمسك أولاً، وامتداد نظريته لاختيار التمهيد سرّاً وتكميلاً له في استقصاء وجوه الإعجاز ثانياً، فكان من المناسب إردافه معه في هذا التمهيد.

يخلق ربّ الإنسان للإنسان عملاً بعد الافتكار، أيسر لديه من الكلام... وكلّما كان العمل البشريّ أيسر صدوراً وأكثر وجوداً، قلّ النبوغ فيه، وصعب افتراض الإعجاز والإعجاب منه. غير أنّ التفصيل القرآنيّ على أنّها صياغة أحرف العرب ومن جنس أيسر أعمالهم، تجد العبقريّة فيها ظاهرة بأجلى المظاهر السامية على عبقرية كلّ شاعر وساحر... وتراها على أعظم جانب من التأخير، مع أنّها كما أشار إليها القرآن عبارة عن «أَل.م.ن.ك.ه.ي.ع.ص..الخ» هي الأحرف العربية المبدولة. ولكن تأليف أمثال آية منها فوق وسع العرب والعجم.

وقد قيل - وهو الصحيح -: الناس كالناس والأيتام واحدة... فأصدق محك لمعرفة أحوال الأولين... هو مطالعة أحوال الآخرين، وقياس الماضي على الحال. ونرى الناس في عهدنا مطبوعين على استحباب الشهرة والائثرة وطلب التفاضل والتفاخر... والشعب العربي المعاصر لزوال القرآن كان ولا شك منطوياً على هذا الشعور تماماً... فلماذا لم يندفع إلى مباراته، ولم لم يعارضوه إن كانوا يرونه من كلام محمد ﷺ وهو فرد منهم وتربى مثلهم على تربة الحجاز الخصبة منبت الفصاحة والبلاغة؟! ليت شعري، ممّ وبهم أعجزت عبقرية ذلك الفرد الوافهم المعترّ بألوف، وكيف عجزت عنهم أسطرّ وكلمات وحرّوف؟!

قال: للقرآن مزايا جمّة هي ذات شأن كبير نذكر منها ما يلي كرؤوس أقلام:

- ١ - فصاحة ألفاظه، الجامعة لكل شرائطها.
- ٢ - بلاغته: رعايته التامة لمقتضى الحال والمقام.
- ٣ - سمو المعنى وعلو المرمى واستهدافه الكمال الأسمى والجمال الأرقى.
- ٤ - أنبأؤه الغيبيّة وأسراره العلميّة.
- ٥ - قوانينه الحكيمّة وتشريعه القويم.
- ٦ - سلامته عن التعارض والتناقض والاختلاف.
- ٧ - طراوته مع كلّ زمان كلّما تلي وأينما تلي.

٨ - قوّة حججه وسلطان برهانه.

٩ - اشتماله على رموز مذهبة للفكر ومذهلة للعقول.

١٠ - جذبته الروحية وجذوته القدسيّة الملكوتيّة، ذات خلاصة للألباب وسحر العقول وافتنان النفوس.

قال: هذه بعض مزايا القرآن ممّا هو من وجوه الشفوق والإعجاز...

أمّا أنا فقد وقع اختياري - بعد طول اختباري - على الوجه الأخير فيما عدّدناه، مع البلاغة الجامعة، فهما وجه الإعجاز المقصود من آيات التحدي.
أجل إنّ جذباته الروحية، الناشئة عن كونه كلام خالقنا الربّ الحكيم، محسوسة للمشرقي والغربي، والعجمي والعربي، لا ينافرنا فيه أحد.

أمّا سائر وجوه الحسن والامتياز، فهي من آثار كونه كلام الله، ومؤثّرات معدّة في تكوين إعجازه، وجذباته الروحية... وحتى أنّ جمهور العلماء، الذين عبّروا عن إعجاز القرآن ببلاغته، لعلمهم أرادوا ما أردنا: من جاذبيته الروحية فوق جمال أسلوبه وحسن نظمته وغريب سبكه وعجيب نضده.  مكتبة تكملة علوم إسلامي

قال الأستاذ الفكيكي: وممن لاحظ هذه المزيّة العجيبة (المجذبة الروحية) أيضاً علامة الزمان الشيخ محمّد الحسين كاشف الغطاء في كتابه «الدين والإسلام». والعلامة الأستاذ السيد رشيد رضا صاحب المنار في كتابه «الوحي المحمدي» ونايعة الأدب والبيان مصطفى صادق الرافعي في كتابه «إعجاز القرآن».^١

سنعرض نماذج من كلماتهم الرشيقّة بهذا الشأن تباعاً إن شاء الله.

١ - نقلاً عن رسالته (التمجزة الخاتمة)، ص ٨ - ٣٤ مع تصريف واختصار.

٢ - مجلة رسالة الإسلام، تصادرة عن دار التفرير، بالقاهرة، نسلتها الثانية، رمضان ١٣٧٠ هـ / يونيو ١٩٥١ م: العدد الثالث.

ثانياً: الإعجاز في دراسات اللاحقين

من علماء وكتاب معاصرين

قد يقال: كم ترك الأول للآخر! وأخرى يقال: ما ترك الأول للآخر. فإن كان في المثل الأول جراف، فإن في المثل الثاني مبالغة ظاهرة. نعم كان الأوائل قد مهدوا السبل لدراسات الآخرين وأسسوا وأبدعوا وحازوا قصب السبق. وجاء اللاحقون ليستمروا على أثرهم على الطريقة المعتمدة من ذي قبل، لكنهم زادوا ونقحوا وهذبوا، وبذلك نضجت الأفكار وتوسعت العتول واكتملت الآراء والأنظار.

أما الذي زاده الخلف على السلف في مسألة إعجاز القرآن، فهو الذي لمسوه من تناسق نظمه البديع وتناسب نغمه الرفيع، كانت لأجراس صوته الرصيف رنة، ولألحان موسيقاه اللطيف نسمة ونفحة قدسية ملكوتية ذات جذوة وجذبة، لا يوجد لها منيل في أي توقيع من توقيع الموسيقى المعهودة ذات الأشكال والألوان المعروفة.

إنه منتظم على أوزان لا كأوزان الشعر، وعلى قوافي السجع وليس بسجع، ففيه خاصية النظم وهو نثر، فهو كلام منظوم ومشهور في نفس الوقت، كما هو مسجع ومقفى أيضاً في عين الحال. ومع ذلك فهو ليس بهجاء، وإنما هو كلام فريد في نوعه وفذ في أسلوبه، إنه كلام الله فوق كلام المخلوقين.

هذا هو الذي أحسسته أرباب النون وأصحاب الأذواق الطريفة بشأن القرآن الكريم، إذا تليت آياته على نهجها الأصيل، ذات روعة وخلابة، كما قال قائلهم: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة.

١ - كتب سيد قطب في كتابه «التصوير الفني» فصلاً عن الإيقاع الموسيقي في القرآن، وذكر أن الموسيقي المبدع الأستاذ «محمد حسن الشجاعى» تفضل بمراجعته وضبط بعض المصطلحات الفنية الموسيقية عليه... جاء فيه:

إن هذا الإيقاع متعدد الأنواع، ويتناسق مع الجو، ويؤدي وظيفة أساسية في البيان. قال: ولما كانت هذه الموسيقي القرآنية إشعاعاً للنظم الخاص في كل موضع، وتابعة

لتنصر الفواصل وطولها، كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة... فإننا نؤثر أن نتحدث عن هذه الظواهر كلها مجتمعة.

جاء في القرآن الكريم «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ»^١ وجاء فيه حكاية عن كفار العرب: «بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ»^٢.

وصدق القرآن الكريم، فليس هذا النسق شعراً، ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين ولا جاهلين بخصائص الشعر، يوم قالوا عن هذا النسق العالي: إنه شعراً! لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل. وتلك خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا الثقافية والتفاعيل.

على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً. فقد أعنى التعبير من قيود الثقافية الموحدة والتفعيلات النامة، فبذل حُرِّية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة. وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر، الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية التي تغني عن القوافي؛ وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا، فسان النثر والنظم جميعاً^٣.

وحيثما تلا الإنسان القرآن أحسَّ بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه؛ يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة؛ ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال، ولكنه - على كل حال - ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني^٤.

وسأتي على أمثلة ضربها لذلك في فصل قادم^٥ إن شاء الله.

١ - الأنبياء ٢١، ٥.

٢ - يس ٣٦، ٦٩.

٣ - يقول الدكتور طه حسين: إن القرآن ليس شعراً وليس نثراً، إنما هو قرآن! ولعلنا في حاجة إلى هذا التعريف، بالتعبيرات، فالقرآن نثر مني استكسنا تلاحظ لاجات التعرّية كما ينبغي. وتلكه نوع ممتاز مبدع من النثر القلبي الجميل المنفرد.

٤ - التصوير القلبي في القرآن، ص ٧٩ - ٨٠.

٥ - عند التعرّض لمزايا النظم القوائم في القرآن وخصائصه العجيبة.

٢- وقال الأستاذ مصطفى محمود: «لقد اكتشفت منذ الطفولة دون أن أدري، حكاية الموسيقى الداخلية الباطنة في العبارة القرآنية. وهذا سرٌّ من أعمق الأسرار في التركيب القرآني... إنه ليس بالشعر وبالشعر ولا بالكلام المسجوع... وإنما هو معمار خاص من الألفاظ صُنّت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة فيها.

وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة.

وكمثل نأخذ بيتاً لشاعر مثل عمر بن أبي ربيعة، اشتهر بالموسيقى في شعره... البيت الذي ينشد فيه:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أتحبّ القتل أخت الرباب؟

أنت تسمع وتطرب وتهتزّ على الموسيقى... ولكن الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام في أشرطة متساوية تمّ تقطيل كل عبارة تقطيلًا واحدًا على الباء الممدودة.

الموسيقى تصل إلى أذنك من خارج العبارة وليس من داخلها، من التقطيلات (القافية) ومن البحر والوزن.

أما حينما تتلو: «وَانْضَحِي. وَاللَّيْلُ إِذَا حَجَى...» فأنت أمام شطرة واحدة... وهي بالتالي تخلو من التقنية والوزن والتشطير، ومع ذلك فالموسيقى تنظر من كل حرف فيها، من أين، وكيف؟

هذه هي الموسيقى الداخلية، والموسيقى الباطنة، سرٌّ من أسرار المعمار القرآني، لا يشاركه فيه أيّ تركيب أدبي.

وكذلك حينما تقول: «الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»^١ وحينما تتلو كلمات زكريا لربه: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا»^٢ أو كلمة الله لموسى: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى»^٣ أو كلمته تعالى

١- التضحى ٩٣: ١، ٢. ٢- طه ٢٠: ٥.

٣- مريم ١٩: ٤. ٤- طه ٢٠: ١٥.

«وهو يتوعد المجرمين - : «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ»^١
كل عبارة ببيان موسيقي قائم بذاته ينبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن
ورائها ومن بينها، بطريقة محيرة لاتدري كيف تنم؟!

وحينما يروي القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب السيمفوني المذهل:
«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ
دَرْكًا وَلَا تَعْشَىٰ، فَاَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُودِهِ فَعُشِيَهم مِّنْ أَنِمْ مَا غَشِيهم. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ
وَمَا هَدَىٰ»^٢.

كلمات في غاية الرقة مثل «يسا» أو لاتخاف «دركا» بمعنى لاتخاف إدراكا. إن
الكلمات لتدوب في يد خالقها وتصطف وتتراص في معمار ورصف موسيقي فريد، هو
نسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية سابقا ولا حقا لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلي، ولا
بينه وبين الشعر والنثر المتأخر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ، برغم كثرة
الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن.

في كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماما، وكأنها ظاهرة بلا
تبرير ولا تفسير، سوى أن لها معسكرا آخر غير ما نعرف.

اسمع هذا الإيقاع المنعم الجميل:

«وَفِيعَ الْأَدْرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ
الْتَّلَاقِ»^٣. «فَانِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ... فَانِقُ
الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا»^٤. «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الْصُّدُورَ»^٥. «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»^٦. «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا»^٧.

ثم هذه العبارة الجديدة في تكوينها وصياغتها... العميقة في معناها ودلالاتها على

١ - طه ٨٠، ٨١، ٨٢.

٢ - الأنعام ٩٥، ٩٦.

٣ - الأنعام ٩٣.

٤ - طه ٨٠، ٨١.

٥ - طاهر ٨٠، ٨١.

٦ - طاهر ٨٠، ٨١.

٧ - الأنعام ٨٩.

العجز عن إدراك كنه الخالق:

«عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»^١ «يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ»^٢.

ثم هذا الاستطراد في وصف القدرة الإلهية:

«وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ»^٣.

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هي كل ما انفردت به العبارة القرآنية، وإنما مع الموسيقى صفة أخرى هي الجلال!

وفي العبارة البسيطة المقتضبة التي روى بها الله نهاية قصة الطوفان، تستطيع أن تلمس ذلك الشيء «الهائل» «الجليل» في الألفاظ:

«وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ»^٤.

تلك اللمسات الهائلة... كل لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود... تنزل فإذا كل شيء صمت.. سكون، هدوء، وقد كُفَّت الطبيعة عن الغضب ووصلت القصة إلى ختامها: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ».

إنك لتشعر بشيء غير بشري تماماً في هذه الألفاظ الهائلة الجليلة المنحوتة من صخر صوان، وكأن كل حرف فيها جبل الألب. لا يمكنك أن تغير حرفاً أو تستبدل كلمة بأخرى، أو تؤلف جملة مكان جملة، تعطي نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة.. وحاول وجرب لنفسك في هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر، أن تغير حرفاً أو تستبدل كلمة بكلمة!

ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة!

ولم يكن مستغرباً من جاهلي مثل الوليد بن المغيرة، عاص ومات على كفره، أن

٢ - الرعد ١٣: ١٣.

٤ - هود ١١: ٤٤.

١ - الرعد ١٣: ٩.

٣ - الأنعام ٦: ٥٩.

يذهل، وأن لا يستطيع أن يكتسب إعجابه بالقرآن، برغم كثره فيقول، وقد اعتبره من كلام محمد:

«والله إن ثقله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعقد، وإنه يعلو ولا يعلى عليه».

ولما طلبوا منه أن يسهه قال: «قولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته».

إنه السحر حتى على لسان العدو الذي يبحث عن كلمة يسهه بها.

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول، فالسبب هو التعود والألفة والمعاشة منذ الطفولة والبلادة والإغراق في عاصفة مبتدلة بعدتنا عن أصول لغتنا. تم أسلوب الأداء الرتيب الممل الذي نسمعه من مرثلين محترفين يكررون السور من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح من موقف الوعيد من موقف البشري من موقف العبرة. نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتنسحق العبارات.

وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل الملعة دون أن ينبض شيء في قلبه... تم المناسبات الكثيرة التي يقرأ القرآن فيها روتينياً... تم الحياة العصرية التي تعددت فيها المشاغل وتوزع الانتباه وتحجر القلب وتعقدت النفوس وحدثت الأرواح. وبرغم هذا كله فإن لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة ويرتد فيها طفلاً بكراً وترتد له نفسه على شفافيته، كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل في القرآن... وكفيلة بأن توقفه مذهولاً من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتوها.

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذبة فريدة لا تجد لها منيلاً ولا بديلاً في أية لغة: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً». هذه

الكلمة «تغشاها»... تغشاها رجلها... أن يمتزج الذكر والأنثى كما يمتزج ظلان وكما يغشى الليل النهار وكما تذوب الألوان بعضها في بعض، هذا اللفظ العجيب الذي يعبر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين، هو ذروة في التعبير.

ولفاظ أخرى تقرأها في القرآن فتترك في السمع رنيناً وأصداءً وصوراً حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول: «وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّعَسَ. وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ»^١... هذه الحروف الأربعة «عسس» هي الليل معسوراً بكل ما فيه. «والتصبيح إذا تنفس» أن ضوء الفجر هنا مرئي ومسموع... أنك تكاد تسمع زقزقة العصفور وصيحة الديك...

فإذا كانت الآيات نذير الغضب وإعلان العقاب فإنك تسمع الألفاظ تتفجر... وترى المعمار القرآني كله له جلجلة. اسمع ما يقول الله عن قوم عاد:

«وَأَمَّا عَادُ فَأَهْدِكُمْ أَصْحَابَ الْمُنَى صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْجَلْنَاهُمْ لِنُكَلِّمَهُمْ فِيهِمْ سَاعَتَيْنِ لَيَالٍ وَنَهَارٍ فِي يَوْمٍ هُمْ فِي شِقَاقٍ. فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُفِطِرُوا نَارًا. وَإِنَّ الْآيَاتِ لَكُنَّ فِيهَا لِبَرَارٍ. وَتَسْمَعُ فِيهَا اصْطِفَافَ الْخِيَامِ وَأَعْجَازَ الْبُخْلِ الْخَالِي وَصُورَةَ الْأَرْضِ الْخَرَابِ.

والصور القرآنية كلها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والألفاظ التي لها جرس وصوت وصورة.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن كتاباً لا يترجم. إنه قرآن في لغته، أما في اللغات الأخرى فهو شيء آخر غير القرآن... «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا»^٢ وفي هذا تحديد فاصل.

وكيف يمكن أن تترجم آية مثل: «الزَّحَّانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»^٣، «إِنَّا لَنَسْنَأُ مُمَامَ مَعْنَى فَقَطْ، وَإِنَّمَا نَحْنُ بِالدرجَةِ الْأُولَى أُمَامَ مَعْمَارٍ. أُمَامَ تَكْوِينٍ وَبِنَاءٍ تَتَبَعُ فِيهِ الْمَوْسِيقَى مِنْ دَاخِلِ الْكَلِمَاتِ، مِنْ قَلْبِهَا لَا مِنْ حَوَاشِيهَا، مِنْ خِصَائِعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَسْرَارِهَا وَظِلَالِهَا وَخَوَافِيهَا..

ولهذا التفردت الآية القرآنية بخاصية عجيبة... إنها تحدث الخشوع في النفس بمجرد

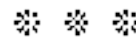
٢- اتحاقة ٦٩: ٦، ٧.

٤- طه ٢٠: ٥.

١- التكاوير ٨١: ١٧، ١٨.

٣- يوسف ١٢: ٢.

أن تلامس الأذن وقبل أن يتأمل العقل معانيها.. لأنها تركيب موسيقي يؤثر في الوجدان والقلب لتؤه ومن قبل أن يبدأ العقل في العمل، فإذا بدأ العقل يحلل ويتأمل فإنه سوف يكتشف أشياء جديدة وسوف يزداد خشوعاً.. ولكنها مرحلة ثانية.. قد تحدث وقد لا تحدث وقد تكشف لك الآية عن سرّها وقد لا تكشفه.. وقد تؤتي البصيرة التي تنسّر بها معاني القرآن وقد لا تؤتي هذه البصيرة.. ولكك دائماً خاشع، لأن القرآن يخاطبك أولاً كعمار فريد من الكلام.. ببيان.. فورم.. طراز من الرصف يبهّر القلب.. لقاء عليك الذي خلق اللغة ويعرف سرّها...^١



٢- وللدكتور محمد عبدالله دراز، نظرة مشابهة، يجعل من إعجاز القرآن في قشرته السطحية، في جانبي جماله التوقيعي وجماله التسيقي، إلى جنب محتواه من جلائل أسرار. فإنه جعلت قدرته أجرى سننه في نظام هذا الكون أن يغشى جلائل أسرار به أستار زاهية بمتعة وجمال.

قال: إنك إذا استمعت إلى القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله، نازلاً بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه... يستجد اتساقاً واتساقاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر. ويستجد شيئاً آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر. ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تشابه أهواؤها وتذهب مذهباً متقارباً. فلا يلبث سمعك أن يمجّها، وطبعك أن يملّها، إذا أعيدت وكرّرت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوّع متجدّد، تنقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل^٢ على أوضاع مختلفة يأخذ

١- القرآن، محاولة تفهم عصري، مصطفى محمود - دار المعارف بمصر - سنة ١٩٧٦، فصل: (العمارة القرآنية)، ص ١٩، ١٢.

٢- مصطلحات موسيقية: الحرف المتحرّك يتلو: حرف ساكن يقال لها «سبب، خفيف»، والحرفان المتحرّكان يتلوها ساكن «وقد مجموع»، والحرفان المتحرّكان لا يتلوها ساكن «سبب، ثقيل»، والحرفان المتحرّكان يتلوها ساكن «وقد مفروق»، وثلاثة أحرف متحرّكة «فاصلة صغيرة»، وأربعة أحرف متحرّكة يعقبها ساكن «فاصلة كبيرة».

منها كلٌّ وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعرفونك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم. بل لا تفتأ تطلب منه المزيد.

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب، فكيف يخفى على العرب أنفسهم؟

إنَّ أوَّل شيء أحسَّته تلك الأذان العربية في نظام القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قسّمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدّد نشاط السامع لسماعه، ووزّعت في تضاعيفه حروف المدِّ والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادى النفس فيه آن بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى. وهذا النحو من التنظيم الصوتي إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدِّ الإسراف في الاستهواء ثم إلى حدِّ الإملال في التكرير، فإنها ما كانت تعهده قط ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة في منشور كلامها سواء المرسل والمسجوع، بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوب لغض من سلاسة تركيبه ولا يمكن معها إجادة ترتيبه إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

لا عجب إذ أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن - في خيال العرب - أنه شعر، لأنّها وجدت في توقيعه هزّة لا تجد شيئاً منها إلا في الشعر. وعجب أن ترجع إلى نفسها فتقول ما هو بشعر؛ لأنه - كما قال الوليد - ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده. ثم لا عجب أن تجعل مردّ هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر، لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدّ وسط، فكان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته.

أنت إذا ما اقتربت بأذنك قليلاً، فطرقت سمعك جواهر حروفه، خارجة من مخارجها الشحيحة، فأجائك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وتالّث يهمس، ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النفس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلمّ جرّاً. فترى الجمال اللغوي ماثلاً أمامك في مجموعة مختلفة

مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاطلة، ولا تناكر ولا تنافر. وهكذا ترى كلاماً ليس بالحصري الفاتر، ولا بالبدوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلاستها، وقدر فيه الأمران تقديرأ لا يبغى بعضهما على بعض، فإذا مزيج منهما، كأنما هو عصارة اللغتين وسلاتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه - جلّت قدرته - أجرى سنته في نظام هذا العالم أن يغشي جلال أسرار به أستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقيائها، بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها... فقد سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، ومن ثم قصت حكمته أن يختار لها صوائغ يجتذبها إلى الناس بعدوبته، ويغريهم عليها بظلاوته، ويكون بمنزلة «الحذاء» يستحث النفوس على السير إليها، ويهوّن عليها وعناء السفر في طلب كمالها، لا جرم اصطفي لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل. ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبدياً في أفواه الناس وآذانهم مادامت فيهم حاسة تذوق وحاسة تسمع، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرّه، وينفذون بها إلى بعيد غوره «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^١.

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عزة وغرابة؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الضياع؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين، وأن ذلك الجمال ما كان ليكفي

١ - من وقف على صفات الحروف ومخارجها ازداد بهذا المعنى علماً. سيأتي تفصيل أكثر في كلام التراقي، كما أشار إليه الترمذاني من ذي قبل فيما مر من كلامه الآنف. وهذا جانب دقيق من سر إعجاز القرآن انتباهي قنّيه.

٢ - التاج ١: ١٤٩.

وحده في كَفِّ أَيْدِيهِمْ عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به، ذلك أن الناس - كما يقول الباقلاني - إذا استحسنوا شيئاً اتبعوه، وتنافسوا في محاكاته بباعث الجبلة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يشبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب، وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو ربي عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. وما أساليب الناس على اختلاف طرائقها في النثر والشعر إلا مناهل مورودة ومسالك معبدة، تؤخذ بالتعلم، وتراض الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم وهم شرع في استحسان طريقتهم، وأن أكثرهم الطالبون لإبطال حجته.

ماذا لك إلا أن فيه منعة طبيعية كَفَّت ولا تزال تكف أَيْدِيهِمْ عنه، ولا ريب أن أول ما تلاقى هذه الصناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في بنيته، وما اتخذته في رصف حروفه وكلماته وجملته وآياته، من نظام له سميت وحده وطابع خاص به، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه، فلا جرم لم يجدوا له مثلاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تدليل منهجه.

وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيين والمرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ واجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع، وإذا نادى الداخل على نفسه بأنه وانغل دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكبير خبث الحديد. «وإنه لكتاب عزيز. لا تأتیه انباطل من بین یدیه ولا من خلفه نازل من حکیم حمید».

وأنت إذ لم يلهك جمال الغطاء عما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الأستار عما ورائها من السر المصون، بل فليت القشرة عن لبها وكشفت الصدفة عن درها، فنشأت من هذا النظام اللغزي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيت منه ما

هو أروع وأبدع.

لا تريد أن نحدثك هاهنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإن لهذا الحديث موضعاً آخر يجيء - إن شاء الله تعالى - في بحث الإعجاز العلمي وحديتنا الآن كما ترى في شأن الإعجاز اللغوي، وإنما اللغة الألفاظ.

بيد أن هذه الألفاظ ينظر فيها تارة من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها... وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها، وهذه الناحية لاشك أنها هي أعظم الناحيتين ترواً في الإعجاز اللغوي، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام، والفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء كان ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً، وأن يكون هدى أو ضلالاً، فقد كانت حكايات القرآن لأقوال المصلين لا تقتصر في بلاغتها عن سائر كلامه، لأنها تصف ما في أنفسهم على تتم وجهه

انظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمحملة التفسير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقيّة وافية، نقيّة لا يشوبها شيء، مما هو غريب عنها، وافية لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولو احقها الكمالية. كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه. ففي كل جملة منه جهاز من أجهزة المعنى، وفي كل كلمة منه عضو من أعضائه، وفي كل حرف منه جزء بقدره، وفي أوضاع كلماته من جملة، وأوضاع جملة من آياته سر الحياة الذي ينظم المعنى بأداته. وبالجملة ترى - كما يقول الباقلاني - محاسن متوالية وبدائع تترى.

ضع يدك حيث شئت من المصحف، وعد ما أحصته كمك من الكلمات عدّاً، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذلك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها من هذا الكلام دون إخلال بغرض قائله؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك؟ فكتاب الله تعالى

- كما يقول ابن عطية -: «لو نزلت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد».

بل هو كما وصفه تعالى «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»^١. وميزة أخرى تفوق بالقرآن الكريم على سائر الكلام: أنه خطاب مع العامة كما هو خطاب مع الخاصة، وهاتان غايتان متباعدتان عند الناس. إنك لو خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلت بالكلام إلى مستوى لا يرضونه. ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الخاصة للجاتهم إلى ما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك - إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حقها كاملاً من بيانك - أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال... فإما أن جملة واحدة وتعبيراً واحداً تلقي إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء وإلى السوقة والأدباء، فيزاح كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فذلك ما لا تجده - على أنه - إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون منه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد «وَلَقَدْ يَمْرُنَا أَنْقُرْآنَ لِنَذَكِّرَ فَهْلٌ مِنْ مَذَكِّرٍ»^٢.

وميزات أخرى أيضاً ذكرهن بهذا الشأن، سوف نوافيك بها في فصل قادم عند الكلام عن دلائل الإعجاز، في الحقل الثاني من الكتاب إن شاء الله.



٤ - وقال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: وقد كان من عادة العرب أن يتحدث بعضهم بعضاً في المساجلة والمقارضة بالقصيد والخطب، ثقة منهم بقوة الطبع، ولأن ذلك مذهب من مناخرهم، يستعلون به ويذيع لهم حسن الذكر وعلو الكلمة، وهم مجبولون

١ - مود ١١: ١.

٢ - انصر ٥٤: ١٧. راجع: انبا العظيم (نظرات جديدة في القرآن)، ج ١، ص ٩٤-٩٦.

عليه فطرة. ولهم فيه المواقف والمقامات في أسواقهم ومجامعهم. فتحداهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمنله أو بعضه، وسلط إلى ذلك طريقاً كأنها قضية من قضايا المنطق التاريخي، فإن حكمة هذا التحدي وذكره في القرآن، إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد والفصحاء اللسن، وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للفتنهم خير منه ولا خير منهم في الطبع والقوة، فكانوا مظنة المعارضة والقدره عليها. حتى لا يجي، بعد ذلك فيما يجي، من الزمن، مولد أو أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة، فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله...

أما الطريقة التي سلكها إلى ذلك، فهي أن التحدي كان مقصوراً على طلب المعارضة بالمثل، ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك جملة واحدة، كما ينفج الرماد الهامد، فقال: «وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ»^١ فقطع لهم أنهم لن يفعلوا، وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله ولا يقولها عربي في العرب أبداً، وقد سمعوها واستقرت فيهم ودارت على الألسنة، وعرفوا أنها تنفي عنهم الدهر تنفي وتعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا ولا طمعوا قط أن يفعلوا. وضارت الآية بعجزهم وأسجلته عليهم ووسمتهم على ألسنتهم...

تأمل نظم الآية تجد عجباً، فقد بالغ في احتياجه واستفزازهم ليثبت أن القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميت على أعمال الحياة، لن تكون ولن تقع! فقال لهم: لن تفعلوا! أي هذا منكم فوق القوة وفوق الحيلة وفوق الاستعانة وفوق الزمن، ثم جعلهم وقوداً، ثم قرنهم إلى الحجارة، ثم سمّاهم كافرين. فلو أن فيهم قوة بعد ذلك لانفجرت، ولكن الرماد غير النار...

فلما رأوا همهمهم لا تسموا إلى ذلك، ولا تقارب المضمة فيه، وقد انقطعت بهم كل سبيل إلى المعارضة، بذلوا له السيف، كما يبذل المخرج آخر وسعه «آخر الدواء الكي»

وأخطروا بأنفسهم وأموالهم، وانصرفوا عن توهن حجته إلى تهوينها على أنفسهم بكلام من الكلام، فقالوا ساحر، وشاعر، ومجنون، ورجل يكتتب أساطير الأولين، وإنما يعلمه بشر، وأما ذلك مما أخذت به الحجة عليهم وكان إقراراً منهم بالعجز...^١

قال: وكان أسلوب الكلام عند العرب قبيلاً واحداً وجنساً معروفاً، ليس إلا الحرّ من المنطق والجزل من الخطاب، وإلا أطراد النسق وتوثيق السرّ وفصاحة العبارة وحسن اتلافها... فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، ليس في ذلك إعنات ولا معاينة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملتها، ونسق هذه الجمل في جملته، ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسوا بضعف الفطرة وتخلّف الملكة، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه فاستيأسوا من حق المعارضة، إذ وجدوا من القرآن ما يغمر القوّة ويحيل الطبع ويخادّل النفس، مصداقاً لأحيلة ولاخدعة... ولهذا انتطعوا عن المعارضة...^٢

ثم أخذ في بيان وجه هذا الإعجاز ومفره الكامن وراء جمال لفظه وروعة بيانه، قال: ذلك بعض ما تهياً لنا من القول في الجهات التي اختص بها أسلوب القرآن، فكانت أسباباً لانقطاع العرب دونه واتخذهم عنه. وتلك أسباب لا يمكن أن يكون شيء منها في كلام بلغاء الناس من أهل هذه اللغة، لأنها خارجة عن قوى العقول وجماع الطبائع، ولا أثر لها في نفس كلّ بليغ إلا استشعار العجز عنها والوقوف من دونها... وإنما تلك الجهات صفات من نظم القرآن وطريقة تركيبه، فنحن الآن قائلون في سرّ الإعجاز الذي قامت عليه هذه الطريقة وانفرد به ذلك النظم، وهو سرّ لا ندعي أننا نكشفه أو نستخلصه أو ننظم أسلوبه، وإنما جهدنا أن نوميئ إليه من ناحية ونعيّن بعض أوصافه من ناحية، فإنّ هذا القرآن هو ضمير الحياة، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقرّ في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره

٢ - المصدر، ص ١٨٨-١٨٩.

١ - إعجاز القرآن توافعي، ص ١٦٩-١٧٠.

الخلود...

... والكلام بالطبع يتركب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم. وقد رأينا سر الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلها... ولهذا النظم طريقة خاصة اتبعها القرآن الكريم كانت غريبة على العرب وفي نفس الوقت رائعة تستأنس إليها النفوس! إن طريقة النظم التي اتسقت بها ألفاظ القرآن، وتألقت لها حروف هذه الألفاظ إنما هي طريقة يتوخى بها إلى أنواع من المنطق وصفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، ولكنها ظهرت فيه أول شيء على لسان النبي ﷺ فجعلت المسامح لا تنبو عن شيء من القرآن، ولا تلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن سمعه بدء من الاسترسال إليه والتوقر على الإصغاء، لا يستمهله أمر من دونه وإن كان أمر العادة، ولا يستنسه الشيطان وإن كانت طاعته عندهم عبادة، فإنه إنما يسمع ضرباً خالصاً من «الموسيقى اللغوية» في المجامع وأطراد نسقه واتزانه على أجزاء النفس مقطعاً متطعاً ونبرة نبرة كأنها توقعه توقعاً ولا تتلوه تلاوة.

وهذا نوع من التأليف لم يكن منه في منطق أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء إلا الجمل القليلة التي إنما تكون روعتها وصيغتها وأوزان توقعها من اضطراب النفس الحاصل في بعض مقامات الحماسة أو النحر أو العزل أو نحوها فتنتري بكلام تلفظه العاطفة أحياناً. وكان العرب يترسلون أو يخدمون في منطقهم كيفما اتفق لهم لا يراعون أكثر من تكييف الصوت، دون تكييف الحروف اللهم إلا بتعمل يأتونه على نمط الموسيقى وهي غاية ما عرفوه من نظم الكلام.

فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألحاناً لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقعها - (وكل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية - اليوم - لا يرون في الفن العربي بجملة شيء يعدل هذا التناسب الذي طبع في كلمات القرآن وأصوات حروفها، وما منهم من يستطيع أن يغتمز

في ذلك حرفاً واحداً، ويعلو القرآن على الموسيقى، أنه مع هذه الخاصية العجيبة ليس من الموسيقى) - والعرب لم ينتههم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى أن من عارضه منهم، كمسيلمة، جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظاماً موسيقياً أو باباً منه وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، وإنما هي في أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عداها، وليس يتشقق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع.

... وأنت تتبين ذلك إذا أنشأت ترتل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، مما تراعى فيه أحكام القراءة وطرق الأداء، فإنك لابداً ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء وانحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكرت الكلام وغيّرتَه، فأخرجته من صفة الفصاحة، وجردته من رينة الأسلوب... لأنك تزنه على أوزان لم يتشقق عليها.

... وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، وأنه مما لا يتعلق به أحد، ولا يتشقق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتنشيط والتكرير، وغير ذلك مما جاء في صفات الحروف.

... ولقد كان هذا النظم عينه هو الذي صنّى طباع البلغاء بعد الإسلام، وتولى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم - مما يرجع إلى تساوق النظم واستواء التأليف - ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم، وحتى خرجوا عن طرق العرب في السجع والترسل، على جفاء كان فيهما، إلى سجع وترسل تتعرف في نظمهما آثار الوزن والتلحين...

وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته

إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرج فيه مدًّا أو غنةً أو ليناً أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها. ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبُعد المدى ونحوها، ممّا هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى.

... وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة... وقد انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً يبيّن، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرايت لذلك هجئة في السمع...

... ومما انفرد به القرآن على سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار، ولا تملّ منه الإعادة، وكلّما أخذت فيه على وجهه ولم تخل بأدائه، رأيته غصّاً طريّاً وجديداً موقناً وصادفت من نفسك نشاطاً مستأنفاً وحساً موفوراً... وهذا المحمّر الله أمر يوسع فكر العاقل ويملأ صدر المفكر، ولا نرى جهة تعليقه ولا نصحح منه تفسيراً إلا ما قدّمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقية، وتساوق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقلة والصفير والمد والغنة... على اختلاف أنحائها بسطاً وإيجازاً وابتداءً وردّاً وإفراداً وتكريراً...

... والكلمة في حقيقة وصفها إنما هي صوت للنفس، لأنها تلبس قطعة من المعنى فتختص به على مناسبة لحظتها النفس فيها حين فصلت تركيب الكلام.

وصوت النفس أول الأصوات الثلاثة التي لا بدّ منها في تركيب النسق البليغ، حتّى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها، وبين هذه المعاني وصورها

النفسية والأصوات الثلاثة هي:

١ - صوت النفس، وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه...

٢ - صوت العقل، وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام ومن الوجوه البيانية التي يدور بها المعنى في أي جهة انتحى إليها.

٣ - صوت الحس، وهو أبلغهن شأنًا، لا يكون إلا من دقة التصوّر المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرّة وموادعتها أخرى.

وعلى مقدار ما يكون في الكلام البليغ من هذا الصوت، يكون فيه من روح البلاغة، بل صار كأنه روح للكلام ذاته. يبادرك الروعة في كل جزء منه كما تبادرك الحياة في كل حركة للجسم الحي، كأنه تمثيل بالفاظ لخلقة النفس، في دقة التركيب وإعجاز الصنعة... ولو تأملت هذا المعنى فضلاً من التأمل، وأحسننت في اعتباره على ذلك الوجه،

لرأيت روح الإعجاز في هذا القرآن الكريم... وأعجب شيء، في أمر هذا الحس الذي يتمثل في كلمات القرآن، أنه لا يسرف على النفس ولا يستفرغ مجهودها، بل هو مقصود في كل أنواع التأثير عليها، فلا تضيق به ولا تنفر منه ولا يتخونها الملل، وهو يسونها من لذتها ويرفقه عليها بأساليبه وطرقه في النظم والبيان.

... ولو تدبرّت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها العسفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها، وإن تجدها إلا مؤلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي. حتى أن الكلمة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تساغ وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبيًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقًا في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا

خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.

من ذلك لنظ «النذر» جمع نذير، فإن الضمة ثبيلة فيها لتواليها على النون والمذال معاً فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاءت فاصلة للكلام. فكل ذلك مما يكشف عنه وينصح عن موضع النقل فيه، ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ»^١ فتأمل هذا التركيب وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتذوق مواقع الحروف واجر حركاتها في حس السمع وتأمل مواضع الثقل في ذال «لقد»، وفي الطاء من «بطشنا»، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا»، مع الفصل بالمد، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر».

وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه والغصد به.

قال: إنما تلك طريقة في النظم قد انفرده القرآن، وليس من بليغ يعرف هذا الباب إلا وهو يتحاشى أن يلزم به من تلك الجهة أو يجعل طريقة عليها، فإن اتفق له شيء منه كان إلهاماً ووحياً، لا تقتحم عليه الصناعة ولا يتيسر له الطبع بالفكر والنظر... فلا ينبغي لأحد من البلغاء في عصور العربية كلها من معارض الكلام وألفاظه، ما يتصرف به هذا التصرف في طائفة أو طوائف من كلامه، على أن يضرب بلسانه ضرباً موسيقياً، وينظم نظماً مطرداً. فهذا إن أمكن أن يكون في كلام ذي ألفاظ، فليس يستقيم في ألفاظ ذات معان، فهو لغو من إحدى الجهتين. ولو أن ذلك ممكن لقد كان اتفق في عصر خلا من ثلاثة عشر قرناً، ونحن اليوم في القرن الرابع عشر من تاريخ تلك المعجزة.

... تم أخذ في ضرب أمثلة من ألفاظ وكلمات كانت غريبة وثقيلة، لكنها جاءت في القرآن في مواقعها الخاصة الأليفة وخفيفة في أبداع ما يكون وأروع ما يتصور، «كتاب

أُخِصَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ». ^١ وسندكر تفاصيلها في مجاله الآتي إن شاء الله.

٥- وللاستاذ محمد فريد وجدي كلام في وجه إعجاز القرآن، يشبه بعض الشيء من كلام الرافعي فيما نقلناه آنفاً «فإن هذا القرآن هو ضمير الحياة، وهو من اللغة كالروح الإلهية التي تستقر في مواهب الإنسان فتضمن لأثاره الخلود...» ^٢ فقد أخذ الأستاذ وجدي هذا المعنى وشرحه شرحاً، قال:

حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته، وإنا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلا أننا نرى أنها ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه سلطاناً على النفس، فإن لمبلغاً على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها. وليس هذا شأن القرآن، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته مزيده تأثيراً، ولكنه معجز لتسلطه على النفس والمدارك، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان ولا يزال للقرآن على عقول الآخذين به!

العلّة في نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير تأمل، وهي أن القرآن روح من أمر الله، «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا» ^٣ فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على هوائها. وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرائها والحصول على إعجابها.

فقله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا» يكفي وحده في إرشادنا إلى جهة

١- مود ١١: ١. راجع: إعجاز القرآن لرافعي، ص ٢٠٩-٢٩٩.

٢- إعجاز القرآن لرافعي، ص ٢٠٩. ٣- انشورئ ٥٢: ٥٢.

إعجاز القرآن، وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمتله، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة تتلألأ في نورها الإلهي، وتتألق في جمالها القدسي. ذلك لما كان القرآن روح من أمر الله، فلا جرم كانت له روحانية خاصة، هي عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر لانقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائض الصناديد والجبابرة عند سماعه، وناهيك بروحانية الكلام الإلهي!

نعم أن جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك الروحانية العالية التي قلبت شكل العالم، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه، وأرغمت لهم معاطس الجبابرة والفساورة، ووطأت لهم عروش الأكاسرة والقياصرة... «يُلْقِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».

لامشاحة في أن القرآن فصيح قد أخرج بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان، وهو حكيم بهر سماسرة الحكمة والفلسفة وأدهش أساطين القانون والشرعة وحيّر أراكين النظام والدستور. وهو حقّ ألزم كلّ عالّ الحجة ودلّ كلّ باحث على الحجة ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وهو هديّ ورحمة ونور وشفاء لما في الصدور.

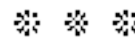
كلّ هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول، فتتحكم فيها تحكم الملك في ملكه ولكنه فوق ذلك كلّ (روح من أمر الله) تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان، ولا سيّالات الحكمة والعرفان، وتسري من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر، ولا يتخيّله خيال شاعر.

هذه الروحانية تنفذ إلى سرّ سريرة الإنسان وسويداء ضميره، وتستولي منها على أصل حياته، ومهبط عواطفه وإحساساته، وتخلقه خلقاً جديداً وتصوّره بصورة لا يتخيّلها ولو قيّد له لما أدركها. ألا ترى كيف فعلت بأولئك العرب الذين لبّوا الوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحوّلون عنها ولا يسأمون منها، فشختهم بروح عالية قاموا

بواسطتها يحملون الملوك سلطانهم حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها إلى أقصاها...
أي حجة أكبر من هذه الحجة على أن القرآن روح إلهي وأمر سماوي، وأي وجه من
وجوه الإعجاز بعد مشاهدة هذا الأثر النخم أوقع في النفس وأنقى للمشك وأولى بالقبول
من وجه روحانيته؟

إن للقرآن فوق البلاغة والعدوبة والحكمة والبيان، روحانية يدركها من لاحظ له في
فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة، حتى الطفل والعامي يعتريهما تهيب عند
تلاوته، ويكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن، فيما لو أراد التالي أن يغشهما.
وهذا يظهر جلياً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس،
فإنها تتجلى لك من بين السطور وخلال التراكيب كالشمس في رائعة النهار...

قال: هذا رأينا في جهة إعجاز القرآن، وهو فيما نعلم يحل مشاكل هذا البحث،
ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع، كما ما أولع به الناس من أنه لبلاغته وتجاوزه
حدود الإمكان، فلم تنف له على أثر في ذات القرآن، ولم يأت ذكره في آياته مما جاء
وصف القرآن فيها، وليس فيها ما يشير إلى جهة بلاغته اللفظية، التي هي من الصناعات
الثانية التي لا يصح أن يمدح بها الله في كتابه...



٦- وللشيخ محمد عبده رأي لم يتعد فيه رأي القدماء، وهو شبه بالاستدلال العقلي
الكلامي على نمط دلائل المتكلمين، قال في رسالة التوحيد: جاء الخبر المتواتر أن
النبي ﷺ نشأ أمياً، كما تواترت أخبار الأمم على أنه جاء بكتاب قال أنه أنزله الله عليه.
كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلية. نقب على
الصحيح منها وغادر الأباطيل التي لحقت الأوهام بها... وشرع للناس أحكاماً تنطبق على
مصالحهم... وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة... ففاقت بذلك جميع الشرائع
الوضعية... وجاء بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول.

نزل القرآن في عصر كان أرقى الأعصار عند العرب، وأغزرها مادة في الفصاحة، وبذلك تواترت الأخبار، كما تواترت بمبلغ حرصهم على معارضة النبي ﷺ والتماسهم الوسائل قريبتها وبعيدها لإبطال دعواه، وقد تحداهم لو يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن لو استطاعوا فما استطاعوا، فمع طول زمن التحدي ولجأ القوم، أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحققت للكتاب العزيز الكلمة العليا...

ليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي، أعظم معجزة وأدل برهان على أنه كلام الله وليس من صنع البشر؟

هذا وقد جاء في القرآن من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون... ومنه ما جاء في تحدي العرب مع سعة بلادهم وتباعد أطرافها، ولم يسبق له ﷺ السياحة في نواحيها للتعرف على رجالها... فهذا القضاء الحاسم (ولن تنعلوا) ليس قضاء بشرياً في العادة... إذ لا يمكن أن يصدر من إنسان عاقل مثل هذا التحدي بأن لا يوجد على وجه الأرض من يكون على مثيله، سوى أنه كلام صادر من الله العليم الخبير.



٧ - ولعلامة الأدباء وفقهاء الحكماء، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (ت ١٢٧٣) كلام تحقيقي عميق، وبيان تفصيلي رشيق حول إعجاز القرآن، أتى به على أسلوبه الفني البديع وسبك إنشائه الأدبي الرفيع حبي به موسوعته القيمة (الدين والإسلام) التي وضعها لترخيص قواعد الدعوة وترصيف مباني الشريعة، في ضوء الحكمة العالية وهدى العقل الرشيد. فكان من الحرى أن تقتطف من رياحين حدائقه الغناء أزهاراً، ونجتني من رياض حقوله الخصباء أنواراً؛

قال ﷺ: قد تبنت التواترات القطعية، وقامت الضرورة البتية، أن صاحب الشريعة الإسلامية، محمد بن عبد الله ﷺ قد ادعى النبوة، وتحدي بالمعجزة وطلب المعارضة، وأتى بما هو الشائع على أهل زمانه، والمتنافس عليه عند قومه، وكانت بلدته أخصب

البلاد لإيناع تلك التمرة المنضحة، وتربية أساطين تلك الصنعة الرائجة... ولما دعاهم إلى تلك الدعوة المقدسة، طعوا وبغوا عليه، وشق عليهم ذلك حتى تخاوصوا بحماليق الحق إليه.^١ وما تحداهم إلا بالمأوف لهم، المأخوذ عنهم والمسوق إليهم، ولم يزل يلح عليهم بأنحاء شتى وعبارات متفاوتة، حتى اعترف بالعجز عريفتهم، وتلدّد تليدهم وطريفتهم، وصقع مصاقعهم،^٢ وعاد لييدهم بليداً، وشيبتهم وليداً، وقائمهم حصيداً، وعالمهم أباجهلاً، وسهيلهم على السهل، وعثبتهم أعتاهم، وأبولههم أخدمهم وأخزاهم، وعبد شمسهم أفلا، ونابعثهم خاملاً، وحيّ أخطبهم ميّتا، وهشامهم مخزوماً، ومخزومهم مهشوماً، وسراهم أسارى وكتارهم من الصغار صفاراً...

ثم قنع منهم بعشر سور من سوره المنزلة، ثم تنزل معهم - وهو الرفيع - إلى أدنى منزلة، فقنع منهم بأن يأتوا بعشر آيات، رضي منهم بسورة واحدة... فالتجأوا إلى مفاوضة المحتوف، عن معارضة الحروف، وعقلوا الأئسنة والعقول، واعتقلوا الأئسنة والنصول. ورضوا بكلم الجراح، عن الكلم الفصاح. وفزوا إلى سعة آجالهم من ضيق مجالهم... فما انجلت غبرة الضلال عن جبهة الحق إلا وهم بأسرهم أسرى أو قتلى، إلى أن عادت كلمة الله هي العليا، وكلمة أعدائه هي السفلى...

وهكذا ماتصدّي في الأزمنة المتأخّرة لمعارضته، إلا مأفون الرئي، مايق العقل.^٣ ومن الأعاجيب أنك ترى الرجل في جميع المقامات فارس يليلها^٤ حتى إذا تصدّي - من ضعف في دينه، أو خور في عود يقيته، أو زندقه في هواه، أو وصم عهاري في عصاه - إلى مقاومة ذلك المقام ومعارضة معجز ذلك النظام، أفحم وتبلّد، وأبكم وتلدّد^٥ هذا مسيلمة وسجاح من الأوّلين... والمتنبّي والمعرّي وأضراهم من الآخرين... كل يزعم أنه أتى بما

١ - اتخاوصوا: انظر التمر، واتصفت: اتحديق وانظر بشدة.

٢ - التلدّد: التحير. التليد: الأحميل. والتطريف: التحذير. صقع: صرع. والمتصقع: التبليغ في خطابه.

٣ - أفن: ضعف. رايه فهو أفين ومأفون. وماق الرجل: حلق في غبارة.

٤ - يليل: اسم جبل معروف بالبادية، وموضع قرب وادي الصفراء من أعمال المدينة. وإليه نسب عمرو بن عبد ود: فارس

٥ - تلّد: تاجع وأفحم عن التكلّم.

يضاهي القرآن، فهل تجد فيه إلا ما يضحك الصبيان... «ما قدروا الله حقَّ قدره إنَّ اللهَ
تَقْوِيَّ عَزِيزٌ...»^١

ثم أخذ في بيان أوجه إعجازه:

أولاً: ارتفاع فصاحته واعتلاء بلاغته، بما لا يدانيه أي كلام بشري على الإطلاق...
وضرب الله لذلك أمثلة من جلائل آياته العظام وأطنب بما بلغ الغاية القصوى.

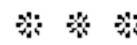
ثانياً: صورة نظمته العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج
نظمها ونثرها، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت
فيه عقولهم، وتدلّحت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم
أو سجع أو رجز أو شعر... هكذا اعترف له أفذاذ العرب وفصحاؤهم الأولون...

ثالثاً: ما انطوى عليه من الإخبار بالمعجزات مما لم يكن فكان كما قال، ووقع كما
أخبر، في آيات كثيرة معروفة...

رابعاً: ما أنبأ من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة، مما كان
لا يعلم به إلا القليل من أخبار أهل الكتاب في صورة ناقصة ومشوهة، فأتى به القرآن على
وجهه الناصح المضيء بما يشهد صدقه وحسنه كل عالم وجاهل. في حين أنه ﷺ لم يقرأ
ولم يكتب، ولم يعهد دراسته لأحوال الماضين.

وأخيراً أتم كلامه ببيان البلاغة وشأنها الرفيع وشأوها البعيد، وأن العرب مهما أوتوا
من إحكام مبانيها وإتقان رواسيها، فإن القرآن هو الذي روج من هذا الفن وأشاد من
منزلته بل وعرف البلغاء البلاغة والكتابة والبيان. وبذلك أسدى إلى العربية جسيم نعمه،
وأسبح عليها عميم رحمة وفضل وكرامة.^٢

وفي تعقيب كلامه تعرّض لشبهات هي نزعات بل نزغات، سوف نعرضها في مجالها
المناسب الآتي إن شاء الله.



٨ - وللمحجة البلاغي الشيخ محمد جواد صاحب تفسير الآلاء، اختيار مذهب السلف في وجه الإعجاز: فقد خصّ العرب بجانب بيانه السحري العجيب في مثل نظمه البديع وأسلوبه الغريب وإن اشتركوا مع سائر الناس بوجوه أخرى غيره:

١ - منها: سرده حوادث تاريخية ماضية كانت معروفة في كتب السالفين بوجه محرف، فجاء بها القرآن نقيّة لامعة، ممّا لا يمكن الإتيان به من مثل النبي الأُمّي العربي. وسنذكر نماذج منها عند مقارنة القرآن مع كتب العهدين.

٢ - ومنها: احتجاجاته المضيفة وبراهينه الحكيمة، التي كشفت النقاب عن حقائق ومعارف كانت خفية ومستورة لذلك العهد، حجبتها ظلمات الضلال المتراكمة في تلك العصور المظلمة، تلك الظلمات التي استولت على أرجاء العالم.

٣ - ومنها: استقامة بيانه وسلامته من النقص والاختلاف: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ»^١ «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا»^٢ فقد خاض القرآن في فنون المعارف وتحتل العلوم ممّا يتخصّص به الممتازون من علماء البشر، فقد طرق أبواب الفلسفة والسياسة والإدارة وأصلح من علم اللاهوت والأخلاق والسنن والآداب، وأتمى بالتشريع المدني والنظام الإداري والفنّ الحربي، وأرشد وذكر ووعظ، وهدّد وأنذر، في أحسن أسلوب وأقوم منهج وأبلغ بيان، لم تشه زلّة ولم تنقصه عشرة ولا وهن ولا اضطرب ولا سقط في حجة وبرهان. الأمر الذي لا يمكن صدوره من مثل إنسان عاش في تلك البيئة الجاهلة البعيدة عن معالم الحضارة وأسس الثقافات.

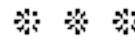
٤ - ومنها: إعجازه من وجهة التشريع العادل ونظام المدنية المراقية، ممّا يترقّع بكثير عن مقدرة البشر الفكرية والعقلية ذلك العهد. ولا سيّما إذا قارناه مع شرائع كانت دارجة في أوساط البشر المتديّنة أو المتمدّنة فيما زعموا.

٥ - ومنها: استقصاؤه للأخلاق الناضلة ومبادئ الآداب الكريمة، ممّا كانت تنبو عن

مثل تلك العادات والرسوم التي كانت سائدة إلى ذلك العهد.

٦ - ومنها: إخباراته الغيبية وإرهاصاته بتحكيم هذا الدين وإعلاء كلمة الله في الأرض في سراحة ويقين...

قال: هذا شيء قليل من البيان في الوجهات المذكورة، وهب أن الوسواس تقتحم على الحقائق وتخالط الأذهان بواهيات الشكوك، ولكن الزبد يذهب جفاء فأما ما ينفع الناس فيمكنك في الأرض... وهل يسوغ لذي شعور أن يختلج في ذهنه الشك - بعد هذا - في إعجاز القرآن، وهو الكتاب الجامع بنضيلته لهذه الكرامات الباهرة وخروجه عن طوق البشر مطلقاً، وخصوصاً في ذلك العصر وفي تلك الأحوال، وهل يسمح عقله إلا بأن يقول: «إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى».



٩ - وهكذا ذهب سيّدنا الطباطبائي مذهب شيخه البلاغي في وجوه الإعجاز، قال: وقع التحدي الصريح بوجه عام، ولم يخص جانب بلاغته فحسب ليختص بالعرب العرباء، أو المخضرمين قبل أن يفسد لسانهم بالاختلاط مع الأجانب. وكذا كل صفة خاصة اشتمل عليها القرآن، كالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة والأحكام التشريعية وإخباره بالمغيبات وغيرها مما لم تبلغها البشرية ولم يمكنها بلوغ كنهها إطلاقاً. فالتحدي يشمل الجميع وفي جميع ما يمكن فيه التفاضل من الصفات.

فالقرآن آية للبلغ في بلاغته، وللحكيم في حكمته، وللعالم في علمه، وللمتشرعين في تشريعاتهم وللسياسيين في سياساتهم، وللحكام في أحكامهم وقضاياهم، ولجميع أرباب الننون والمعارف فيما لا يبلغون مداه ولا ينالون قصواه.

وهل يجترئ عاقل أن يأتي بكتاب يدّعي فيه هدى للعالمين وإخباراً عن الغيب ويستطرق أبواباً مختلفة من دون ما اختلاف أو تناقض بدءاً، فلا يشك ليب أن تلك مزايا كلّها فوق مستطاع البشرية ووراء الوسائل الماديّة البحتة.

فقد تحدّى بالعلم والمعرفة الخاصة «تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ»^١.
 وتحدّى بمن أنزل عليه «قُلْ نُوْشَاءُ اللّهُ مَا تَكُوْنُهُ عَلَیْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ نَبِئْتُ فِیْكُمْ
 عَمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ»^٢.
 وتحدّى بالإخبار بالغیب «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِیْهَا إِلَیْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا
 قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ»^٣.
 وتحدّى بعدم الاختلاف «وَلَوْ كُنَّا مِنْ عِنْدِ غَیْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِیْهِ اخْتِلَافًا كَثِیْرًا»
 وتحدّى ببلاغته «أَمْ یَقُوْنُوْنَ افْتَرَاهُ قُلٌّ فَأُنْزِلُوا بَعْثِرْ صُورَ مِثْلِهِ مُفْتَرِیَاتٍ وَادْعُوا مَنْ
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ ذَوْنِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِیْنَ. فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیْبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّهَا أَنْزَلُ بِعِلْمِ اللّهِ»^٤.
 وقد مضى القرون والأحقاب ولم یأت بما ینظره آت ولم یعارضه أحد بشيء إلا
 أخزى نفسه وافتضح فی أمره»^٥.



١٠ - وعلى نفس المنهج ذهب سيدنا الأستاذ الخوئي رحمته الله قال: وإذا قد عرفت أن
 القرآن معجزة إلهية، في بلاغته وأسلوبه، فاعلم أن إعجازه لا ینحصر في ذلك، بل هو
 معجزة ربّانية، وبرهان صدق على الثبوت من جهات شتى: من جهة اشتماله على معارف
 حقیقیة نزیهة عن شوائب الأوهام والخرافات، التي كانت رائجة ذلك العهد ولاسيما عند
 أهل الكتاب... ومن جهة استقامته في البیان وسلامته عن الاختلاف، مع كثرة طرقه
 لمختلف الشؤون. وتكرّر التنصص والحكم فيه مع الاشتمال كل مرة على حكمة ومزیة
 فيها لذّة ومتعة... ومن جهة ما أتى به من نظام قويم وتشريع حكيم... ومن جهة إتقانه في
 المعاني وإحكامه في المباني... ومن جهة إخباره عن معیيات وأنباء عمّا سلف أو یأتي
 وظهور صدقه للملأ... وكذا من جهة اشتماله على بیان أسرار الخلیقة ممّا یرتبط وسمن

٢ - یونس: ١٠، ١٦.

١ - النحل: ٨٩.

٤ - مود: ١١، ١٣، ١٤.

٣ - مود: ١١، ٤٩.

٥ - التبیان فی تفسیر القرآن، ج ١، ص ٥٧-٦٧.

الكون ونواميس الطبيعة، ممّا لاسبيل إلى العلم به ولا سيما في ذلك العهد...
وأخيراً قال ﷺ: بل أعود فأقول: إنّ تصديق مثل أمير المؤمنين علي عليه السلام - وهو بطل
العلم والمعرفة والبيان - لإعجاز القرآن، لشاهد صدق على أنّه وحي إلهي، تصديقاً
حقيقياً مطابقاً للواقع وناسئاً عن الإيمان الصادق، وهو الحق المطلوب.^١



١ - البيان في تفسير القرآن: تصفحة، ص ٤٣-٩١.

القول بالصرفه

هناك قول في وجه الإعجاز، لعله يخالف رأي الجمهور، هو: أن الآية والمعجزة في القرآن إنما هي لجهة صرف الناس عن معارضته، صرفهم الله تعالى أن يأتوا بحديث مثله، وأمسك بعزيمتهم دون القيام بمقابلته. ولو لا ذلك لاستطاعوا الاتيان بسورة مثله. وهذا التبيط في نفسه إعجاز خارق للعاده، وآية دالة على صدق نبوته ﷺ وهذا المذهب - فضلاً عن مخالفته لآراء جمهور العلماء - فإنه خطير في نفسه، قد يوجب طعناً في الدين والتشيع بمعجزة سيد المرسلين ﷺ أن لا آية في جوهر القرآن ولا معجزة في ذاته، وإنما هو لأمر خارج هو الجبر وسلب الاختيار، وهو ينافي الاختيار الذي هو غاية التشريع والتكليف. وغير ذلك من التوالي الفاسدة.^١

الأمر الذي استدعى تفصيل الكلام حوله والتحقيق عن جوانبه بما يتناسب مع وضع الكتاب:

١ - قال اترافعي - بشأن الآثار الدنيئة التي خلغها القول بالصرفه -: «على أن القول بالصرفه هو المذهب الذي من شأنه أن ينشأ به النظام، يصوبه فيه قوم ويشايحه عليه آخرون، ونولا احتجاج هذا التبليغ نصيخته، وقيامه عليه، وتقلده أمره، فكان لنا اليوم كتب ممتنة في بلاغة القرآن وأسلوبه وإعجازه القلبي وما إلى ذلك. ولكن القوم - عدا الله عنهم - أخرجوا أنفسهم من هذا كله، وكفوها مؤونته بكلمة واحدة قلغوا عليها، فكانوا فيها جسيماً كقول هذا الشاعر الفطريف الذي يقول:

كان لنا واتمنا من حوتنا قسوم جالوس - مؤونهم مناه

إعجاز القرآن تراتفي، ص ١٤٦.

حقيقة مذهب الصرف

الصرف: مصدر «صرفه» بمعنى رده، والأكثر استعماله في ردّ العزيمة، قال تعالى: «نَاصِرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ»^١.

قال السيد شبر: أي عن إبطال دلائلي. ومعناه - كما ذكره الطبرسي في المجمع -: سأفسخ عزائمهم على إبطال حججني بالقدح فيها وإمكان تكذيبها، وذلك بوفرة الدلائل الواضحة والتأييد الكثير، بما لا يدع مجالاً لتشكيك المعاندين ولا ارتياب المرتابين. كما يقال فلان أخرس أعداءه عن إمكان ذمّه والطعن فيه، بما تحلى من أفعاله الحميدة وأخلاقه الكريمة...

ومنه قوله تعالى - بشأن المنافقين -: «ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ»^٢. وهذا دعاء عليهم بصرف قلوبهم عن إرادة الخير، لكونهم قوماً حاولوا التعمية على أنفسهم فضلاً عن الآخرين...



وعلى ذلك فقد اختلفت الأنظار في تفسير مذهب الصرف على ما أراده أصحابه، قال الأمير يحيى بن حمزة العلوي الزبيدي (ت ٧٤٩هـ): وأعلم أن قول أهل الصرفية يمكن أن تكون له تفسيرات ثلاثة لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال:

التفسير الأول: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستئصال عن المراتب العالية والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه.

ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين، أحدهما أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاسنها عنهم.

وتانيهما أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها مخافة أن تحصل المعارضة.

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفه أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة التفسير عن المعارضة، مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك، فلاجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة، وحاصل الأمر في هذه المقالة: أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه...

وحاصل الفرق بين هذه التفسيرات الثلاثة، أن الصرف - على الأول - عبارة عن عدم إنارة الدواعي الباعنة على المعارضة، كانوا مع القدرة عليها، ووفرة الدواعي إليها، خائري القوى وخاملي العزائم عن القيام بها، وهذا التبييط من عزائمهم وصرف إرادتهم، كان من لطيف صنعه تعالى، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وعلى التفسير الثاني، كانوا قد أعوزتهم عمدة الوسائل المحتاج إليها في معارضة مثل القرآن، وهي العلوم والمعارف المستعمل عليها آياته الحكيمه، حتى أنهم لو كانت عندهم شيء منها فقد أزيلت عنهم ومحيت آثارها عن قلوبهم، أو لم تكن عندهم ولكنهم صرفوا عن تحصيلها من جديد خشية أن تقوم قائمتهم بالمعارضة.

وعلى الثالث، أن الدواعي كانت متوقفة، والأسباب والوسائل المحتاج إليها للمعارضة كانت حاضرة لديهم، لكنهم منعوا عن القيام بالمعارضة منع إلجاء، وقد أمسك الله بعنان عزيمتهم قهراً عليهم رغم الأنوف.

قلت: والمعتول من هذه التفسيرات - نظراً لموقع أصحاب هذا الرأي من الفضيلة والكمال - هو التفسير الوسط، لكن بمعنى أنهم افتقدوا وسائل المعارضة لقصورهم بالذات من جانب، ونموذج موضع القرآن من جانب آخر... ومن المحتمل القريب إرادة هذا المعنى، حسبما جاء في عرض كلامهم ولا سيما في كلام الشريف المرتضى ما ينبت عليه. وهكذا رجح ابن ميثم البحراني (ت ٦٧٩) إرادة هذا المعنى من كلام السيّد، قال:

وذهب المرتضى رحمه الله إلى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وهذا الصرف يحتمل أن يكون لسلب قدرهم، ويحتمل أن يكون لسلب دواعيهم، ويحتمل أن يكون لسلب العلوم التي يتمكنون بها من المعارضة. ونقل عنه أنه اختار هذا الاحتمال الأخير...^١

وقد تنظر سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٣) في صحة التفاسير الثلاثة جميعاً. قال: الصرفة إما بسلب قدرتهم، أو بسلب دواعيهم، أو بسلب العلوم التي لا بد منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنها لم تكن حاصلة لهم، أو بمعنى أنها كانت حاصلة فأزالها الله.

قال: وهذا (الأخير الذي هو أوسط التفاسير) هو المختار عند المرتضى. وتحقيقه أنه كان عندهم العلم بنظم القرآن والعلم بأنه كيف يؤلف كلام يساويه أو يدانيه، والمعتاد أن من كان عنده هذان العلمان يتمكن من الإتيان بالمثل، إلا أنهم كلما حاولوا ذلك أزال الله تعالى عن قلوبهم تلك العلوم، وفيه نظر.^٢

قال عبد الحكيم السيالكوتي الهروي رحمه الله في تعليقه على شرح المواقف بعد نقل كلام التفتازاني هذا: - لعل وجه النظر استبعاد بعض الأقسام، أو كون سلب القدرة عبارة عن سلب العلوم.^٣

وعلى أي حال، فالأجدر هو النظر في تفصيل مقالته، ماذا يريدون؟

٢ - شرح المفاتيح، ج ٥، ص ٢٨.

١ - قواعد النظم، ص ١٣٢.

٣ - شرح المواقف (بإتمام)، ج ٨، ص ٢٤٩-٢٥٠.

مقالة أبي إسحاق النظام

١ - هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار بن هاني البصري ابن أخت أبي الهذيل العلاف شيخ الصنرة (ت ٢٣٦) كانت له معرفة بالكلام وكان رأساً في الاعتزالي، وكانت له آراء تخصه، منها رأيه في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأن النبي صلى الله عليه وآله نص عليه بالإمامة وكنيته الصحابة. ورفض حجبة الإجماع، وقال: الحجبة هو نص المصنوم. وقد اشتهر قوله في أمير المؤمنين: «علي بن أبي طالب عليه السلام محنة على المتكلم، إن وفي حقه خلافاً وإن يخمه حقه أساء والصنرة الوسطى دقيقة الوزن، حائرة الشان، صعب الصراحي إلا على التحاذق اتدين...» نقله صاحب المناقب.

وذكر اشتهر سباني ميله إلى التشيع ورفضه بدع الطوائف، قائلاً: لا إمامة إلا بالنسب والتعيين ظاهراً مكشوراً. وقد نص النبي صلى الله عليه وآله على علي عليه السلام في مواضع، وأظهر إظهاراً ثم يشتبه على الجماعة، إلا أن عمر كتم ذلك تصانح أبي بكر يوم الطفيفة، ونعم، إلى عمر شكه في الرسالة وقال: إنه هو الذي ضرب فاطمة عليها السلام يوم هجم على دارها لأخذ النبي من علي، وكان متحصلاً في ائدار، فجاءت فاطمة تتحول دون هجومه عليها فأصاب بطنها فاستطعت جليتها (محمداً)، وكان عمر يومذاك يصيح: أخرجوا دارها بمن فيها، وكان في ائدار الحسنان سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله... إلى آخر ما سرده من مطاعن ابن الخطأب. التمل والتحل، ج ١، ص ٥٧. وراجع: التوافي بالتوفيات تصفدي، ج ٦، ص ١٥.

قلت: ويتأكد قوله في قضية ائدار بما ذكره ابن عدي في «التقدريد»: ج ٤، ص ٦٢، ط ٢، القاهرة، المطبعة الأزهرية (١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م) في آيات الأربع عشر (في التعليل وتواريتهم وأخبارهم) في الذين تغلفوا عن بيعه أبي بكر (وهم علي والعباس والزبير وسعد بن عباد) قال: «فأما علي والعباس والزبير ففعدوا في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب فيخرجهم من البيت، وقال: إن أبا فاطمة، فأقبل عمر بنفس من دار علي أن يضرم عليهم ائدار، فلقينه فاطمة فقالت: يا ابن الخطاب رجعت تحرق دارنا؟ قال عمر نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأئمة... فخرج علي حتى دخل علي أبي بكر فبايعه...»

وبما ذكره ابن قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة)، ج ١، ص ١٩ - ٢٠، في باب «كيف كانت بيعة علي بن أبي طالب»، قال: «وإن أبا بكر تغلف قوماً تغلفوا عن بيعته عند علي (كرم الله وجهه) فبعث إليهم عمر، فجاء فذاهم وهم في دار علي فأبوا أن يخرجوا فدعا بالحطب، وقال: والذي نفس عمر بيده، تخرجن أو لأحرقن علي من فيها، فقيل له: يا أبا حطب، إن فيها فاطمة! فقال: وإن فخرجوا فبايعوا إلا علياً، لأنه خلف أن لا يضع نيابه علي عاتقه حتى يجمع القرآن، فوجدت فاطمة عليها السلام علي بابها فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا، وقطعت أركانكم بينكم، ثم تمناؤونا وتم تردوا لنا حقاً فأتى عمر أبا بكر، فقال له: ألا تأخذ هذا الصنف عندك باتبعة؟ يريد علياً عليه السلام فأرسل أبو بكر قلنا مولاه نيابه دعوته، فأبى علي عليه السلام أن يخرج، فكرر عليه حتى رفع علي صوته، فقال: سبحان الله، لقد ادعى ما ليس له، فرجع قلنا، ثم قام عمر ومشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة فدقوا الباب، فاعدا سمعت أصواتهم قالت يا علي صوته! يا أبت يا رسول الله، ماذا تقينا بذلك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة! قلنا سمع انقوم صوته! ويكادها، انصرفوا باكين، وكادت قلوبهم تنصدع، وأكبواهم تنطير، وبقي عمر وسعه قوم (من الرجال) فخرجوا علياً فمضوا به إلى أبي بكر، فقالوا له: يا أبت، إن أبا تم أقبل فم؟ قالوا: إذن والله... تضرب عاتقك، فقال: إذن تغفلون عبد الله وأخا رسوله، قال عمر: أما عبد الله نعم، وأما أخو رسوله فلا، وأبو بكر ساكت لا يتكلم، فقال له عمر: ألا تأمر فيه بأمر؟ فقال: لا أكرمه علي شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه... ثم انطلقا إلى فاطمة وقالوا: إنا قد أخطبناهما،

لم نعر على مقالته بالتفصيل، سوى ما ينقل عنه هنا وهناك من مقتطفات، منها ما ذكره الزمكاني - في كلامه الآنف - قال: الأكثر على أن نظم القرآن معجز، خلافاً للنظام، فإنه قال: إن الله سبحانه صرف العرب عن معارضته وسلب علومهم، إذ نثرهم ونظمهم

→ فلما نادى عليهما، فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكأماه، فدخلهما عليهما... فلما قعدا عندهما حوت ووجهها إلى اتحائط، فسلما عليهما، فلم ترد عليهما السلام... إلى آخر ما جرى بينهما عليه السلام وبينهما.

وقال المسعودي: وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه عبدالله في حصر بني هاشم في الشعب، وجمعه انعطاب يحرقهم، ويقول: إنما أراد بذلك أن لا تنتشر الكلمة، ولا يختلص الصامون، وأن يدخلوا في الطاعة، فتكون الكلمة واحدة، كما فعل عمر بن الخطاب ببني هاشم لما تأخروا عن بيعة أبي بكر، فإنه أحضر انعطاب يحرق عليهم ائدار، شرح نهج ابلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ١٤٧، عن مروج الذهب، ج ٤، ص ٨٦.

وذكر أبو القداء: إن أبا بكر بعث عمر إلى علي ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة وقال: إن أبوا عليين فقاتلهم، فقبل عمر بشيء من نار علي أن يضرم ائدار، فلقبته فاطمة وقالت: إلى أين يا ابن انعطاب أجبت تنحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخل فيه هذه الأمة. (المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ١٥٦) ونقل الأميني عن تاريخ ابن شحنة ذلك أيضاً في حوادث سنة ١١، المذبح، ج ٣، ص ١٠٤.

ونقل أبو جعفر عن بعض الزيدية احتجاجاً جاء فيه: «وصار ككشف بيت فاطمة واندخلوا عليها منزلها وجمع حطب يربوها وتهادوها بالنحريق من أوكذ غري الدين»! (شرح نهج ابلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ١٧).

وفي مصنف ابن أبي شيبة (ج ٨، ص ٥٧٦) كتاب المغازي، جاء عمر يهدد فاطمة عليها السلام بإحراق ائدار عليها توهم يفرج هؤلاء (علي ومن معه) إلى الشيعة.

وذكر أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ / ٨٩٢م) في كتابه «أنساب الأشراف» (ج ١، ص ٥٨٦، ت دار المصادر بمصر) ج ٢، ص ٢٨، رقم عام ٧٧٠، ت دار الفكر - بيروت، أن أبا بكر أرسل إلى علي يريد الشيعة فلم يبايع، فجاء عمر وسه قتيلاً فقاتلته فاطمة عليها السلام على الباب، فقالت: يا ابن انعطاب، أترك محرقاً علي بابي؟ قال: نعم، وذلك أقوى فيما جاء به أبوك! وجاء علي فبايع وقال: كنت عزمت أن لا أخرج من منزلي حتى أجمع القرآن.

وهكذا ذكر الطبري في تاريخه (ج ٢، ص ٤٤٣)، أن عمر بن الخطاب أتى منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجل من المهاجرين. فقال: والله لأحرقن عليكم أو تخرجن إلى الشيعة. فخرج عليه الزبير مصيراً بالميمنة فمطر فمقط الميمنة من يده فوثبوا عليه فأخذوه.

وذكر الذهبي في ميزان الاعتدال (ج ١، ص ٦٣٩) في ترجمة أحمد بن محمد التميمي المتحدث الكوفي (برقم ٥٥٦)، عن محمد بن أحمد بن حماد الكوفي - بعد أن ذكر أنه كان مستقيم الأمر عامة دهره - أنه حضر مجلسه يوماً وكان يقرأ عليه رجل: إن عمر رفس فاطمة حتى أسقطت بصرها!

وقد ذكر الكثير من المؤرخين أسف أبي بكر حينما حضرته الوفاة، توهم يكشف بيت فاطمة بضعة رسول الله عليه السلام وتم يهيج روعها، فماتت وهي واجدة عليه وعلى ابن انعطاب.

راجع: المعجم الكبير للطبراني، ج ١، ص ٦٦، والتقد القريد، ج ٤، ص ٩٣، ومروج الذهب، ج ٢، ص ٣٠٨، والبرق في الكامل (شرح نهج ابلاغه لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٦-٤٧)، وغيرهم.

لا يخفى ما فيه من الفوائد، ومن ثم قالوا: «لَوْ نَشَاءُ نَقُلُّهُ هَذَا إِنَّ هَذَا إِلَّا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^١ وهذا على حد ما جعل الله سلب زكريا (عليه أفضل السلام) النطق ثلاثة أيام من غير علة آية، أو أنهم لم يحيطوا به علماً على ما قال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ»^٢.

يبدو من ذلك أنه أراد المعنى الثاني من التفاسير الثلاثة، وهو سلب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، أو فقدهم لتلك العلوم، حسبما به عليه في آخر مقاله متمسكاً بقوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ»...

لكن جاء في شرح المواقف للمسيّد شريف الجرجاني (ت ٨١٦) ما يبدو منه خلاف ذلك وإنه أراد المعنى الأوّل. قال الشريف: معنى الصرفة: أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة، لكن الله صرفهم عن معارضته. واختلف في كيفية الصرف. فقال الأستاذ أبو إسحاق النّظام: صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها، خصوصاً عند توقّر الأسباب الداعية في حقهم كالشّرع بالعجز والاستئصال عن الرئاسات والتكليف بالانقياد. فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزاً...

وأما إرادة سلب العلوم فنسبه إلى المرتضى علم الهدى. قال: وقال المرتضى: بل صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة: يعني أن المعارضة والإتيان بالمثل يحتاج إلى علوم يتتدر بها عليها، وكانت تلك العلوم حاصلة لكنه تعالى سلبها عنهم فلم يبق لهم قدرة عليها...^٣

وفي مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٠) تصريح بأنه المعنى الثالث، وهو المنع بالإلجاء والفهر. قال: وقال النّظام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من

١ - الأنعام ٨: ٣٦

٢ - يونس ١٠: ٣٩. راجع: البرهان في إعجاز القرآن، ص ٥٣.

٣ - شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٤٦. واتمتن تفتاخي غرض الآية في توفي سنة ٧٥٦.

الإخبار عن الغيوب. فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدهما فيهم.^١

وأما عبد الكريم الشهرستاني فقد خلط بين المعنى الأول والأخير، قال: التاسعة: قوله في إعجاز القرآن، أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً. حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً...^٢

غير أن الأرجح في النظر هو ما ذكره القاضي عضد الدين الشافعي والسيد شريف الجرجاني، في تفسير مذهبه، فقد فصلاً رأيه عن رأي الشريف المرتضى القائل بسلب العلوم، والتفصيل قاطع للشركة - على ما قيل -.

ويتأكد هذا المعنى أيضاً بما جاء في عرض كلام تلميذه المتأثر برأيه أبي عثمان الجاحظ، قال: «ورفع الله من أوهام العرب وحرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن...»^٣ وسننقل كلامه:



مركز تحقيقات كتب وعلوم اسلامی

اختيار أبي عثمان الجاحظ^٤

يرى الجاحظ في الإعجاز ما يراه أهل العربية، وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها. وقد تقدم بعض كلامه في ذلك.^٥

قال الراعي: غير أن الرجل كثير الاضطراب، فإن هؤلاء المتكلمين كانوا في عصرهم في محل... ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بالصرف، وإن كان قد أخفاها وأوماً إليها عن عرض. فقد سرد في موضع من كتاب «الحيوان» طائفة من أنواع المعجز، وردّها في العلّة إلى أن الله صرف أوهام الناس عنها ورفع ذلك القصد عن صدورهم، ثم عدّها منها: «ما

١ - مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٢٩٦. ٢ - التلّ والتحل، ج ١، ص ٥٦ - ٥٧.

٣ - كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٣٦.

٤ - هو التكاثر، أبو عثمان عمرو بن بحر، كان من عثمان النظام، وتعلّم عليه، توفي سنة ٢٥٥.

٥ - عند الكلام عن مفهوم الإعجاز.

رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة لقرآنه بعد أن تحداهم الرسول بـ «نظمه». وقد يكون استرسل بهذه العبارة، لما في نفسه من أثر أستاذته، وهو شيء ينزل على حكم الملاسة، ويعتري أكثر الناس إلا من تنبه له أو نبه عليه، أو هو يكون ناقلاً، ولا ندري.^١

قال الجاحظ في تنمّة كلامه: ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الأعراب وشبه الأعراب... فتد رأيت أصحاب مسيلمة إنما تعلّقوا بما ألف لهم كلاماً يعلم كل من سمعه أنه عدى على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه، فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد، ولو اجتمعوا له...^٢

وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من أعلام السنّة من الأشاعرة وأهل الاعتزال، منهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني الفقيه الشافعي،^٣ وكان متكلماً أصولياً من أصحاب أبي الحسن الأشعري (ت ٤١٨ هـ) وقد ذكر الشهرستاني عند الكلام عن الأشاعرة: أن من أصحاب أبي الحسن الأشعري من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع عن المعارضة، ومن جهة الأخبار عن الغيب.^٤ وقد تعرّض كل من ذكر النظام قوله بالصرفه، مواكبة الإسفراييني له في هذا الرأي.

وهكذا تبع النظام كثير من أصحابه، منهم أبو إسحاق النصيبى، وعباد بن سليمان الصيمري وهشام بن عمرو الفوطي، وغيرهم...

قال أبو الحسن الأشعري: وكان الفوطي والصيمري ينكران كون القرآن معجزاً، لكونه من الأعراض، ويقولان: لا نقول أن شيئاً من الأعراض يدل على الله سبحانه، ولا نقول أيضاً أن عرضاً يدل على نبوة النبي ﷺ. قال: ولم يجعل القرآن علماً للنبي ﷺ وزعماً أن

١ - إعجاز القرآن تراثي، ص ١٤٧.

٢ - كتاب الحيوان، ج ٤، ص ٣٦، والإعجاز في دراسات المتأخرين، ص ٣٦٨.

٣ - قال الشريف التبرجاني: ومثّل ذهب إلى هذا الرأي من أهل السنّة هو الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني. شرح التصانيف.

ج ٨، ص ٢٤٦. ٤ - التلّ والتحل، ج ١، ص ١٠٣.

القرآن أعراض...

ونحن نعذرهم في هذا التعليل العليل، بعد أحداث عهدهم بتراجم فلسفة اليونان، وعدم التشخيص لديهم بين الأعراض والجواهر حسب ما اصطلاح عليه أهل الفن الاختصاصيون. إذ لا يخفى الفرق البائن بين باب الدلالات ومسألة النسخة المعبرة في باب العلل والمعاليل. والكلام مهما كان فهو عرض حادث والمدلول قد يكون حقيقة جوهرية وأخرى غيرها من الأمور الاعتبارية المحضة أو الانتزاعية، ولا ضرورة تدعو إلى لزوم التسانح بين الدال والمدلول إطلاقاً.

مقالة ابن حزم الظاهري

وأما المذهب الذي سلكه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦) فلا يعدو مذهب الجبر وسلب الاختيار عن العباد. فإنه شطب على الرأي القائل: «إن القسط الأوفر من إعجاز القرآن كما من وراء بلاغته الخارقة...» وحكم عليه حكمه القاسي؛ أنه من شعب الاختيار... زاعماً أنه لمجرد صرف الناس عن معارضته ومنعهم منها منع قهر وجبر، قال: فهذا هو دليل الإعجاز، وفي ذلك كتابه!

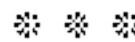
قال: إن القائلين بأن وجه الإعجاز في بلاغته، قد شعبوا في هذا الاختيار، لأنهم ذكروا لذلك أمثال آية القصص، فيقال لهم: فلم خصصتم بالذكر هذه الآيات دون غيرها، وهل هذا منكم إلا إيهام لأهل الجهل أن من القرآن معجزاً وغير معجز؟ قال: ثم نقول لهم: قول الله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا»^١ أمعجز هو على شروطكم في كونه في أعلى درج البلاغة أم ليس معجزاً؟ فإن قالوا: ليس معجزاً، كفروا. وإن قالوا: إنه معجز صدقوا، وسئلوا: هل على شروطكم في أعلى درج البلاغة؟ فإن قالوا: نعم، كاهروا، وكفوا مؤونتهم، لأنها أسماء رجال فقط ليس على شروطهم في البلاغة. وأيضاً فلو كان إعجاز

القرآن لأنه في أعلى درج البلاغة لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هارون والجاحظ وشعر امرئ القيس، ومعاذ الله من هذا، لأن كل ما يسبق في طبقتهم لم يؤمن أن يأتي من مماثلته ضرورة.

وأخيراً قال: فلا بد لهم من هذا الخطئة، أو من المصير إلى قولنا: إن الله تعالى منع من معارضته فقط - إلى أن يقول - فصيح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً، وأن الله تعالى منع الخلق من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق...

قال: وأيضاً فإن في القرآن كثيراً من حكاية أقوال الآخرين^١ فكان هذا كله إذ قاله غير الله عز وجل غير معجز بلا خلاف، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته. قال: وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره، والحمد لله^٢.

وقال - أيضاً -: إن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت أنها من القرآن، فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبداً، لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك، كمن قال: إن آية النبوة أن الله تعالى يطلقني على المشي في هذه الطريق الواضحة، ثم لا يمشي فيها أحد غيري أبداً، أو مدّة يسميها، فهذا أعظم ما يكون من الآيات... والذي عجز عنه أهل الأرض مذ أربع مائة عام وأربعين عاماً (١٤٠٠) هي سنة تأليفه للكتاب^٣.



وقد سخر الرافعي من كلام ابن حزم هذا، قائلاً: لم نر أحداً فسر هذه الكلمة (الصرفة) كابن حزم الظاهري، وذلك قوله: «لم يقل أحد أن كلام غير الله معجز، لكن لما قاله الله تعالى وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً ومنع من مماثلته... قال: وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره» نقول: بل هو فوق الكفاية، وأكثر من أن يكون كافياً أيضاً لأنه لما قاله ابن حزم وجعله رأياً له، أصاره كافياً لا يحتاج إلى غيره...^٤

١ - كقوله تعالى: «فَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَمَّرٌ، إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ» الصدّ: ١٧٤، ٢٤، ٢٥. وقوله: «وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا مِثْلَ الْبُرْجَانِ» الإسراء: ٩٠.

٢ - انفصل في الفصل والتحل، ج ٣، ص ١٧، ١٩. ٣ - المتصدر، ص ٢١.

٤ - إعجاز القرآن لرافعي، ص ١٤٦.

قلت: هو كذلك ما دام الرجل مترمماً هذا التزمّت المفصوح، إذ لم يكتف بالتزامه بمبدأ الجبر حتى سلب القرآن كل مميزات الجوهرية وخلعه من جميع صفاته ونعوته الكريمة! ياله من تقشّب وجمود!

وقد تحسّس الشيخ علي محمد حسن العماري (مبعوث الأزهر في السودان) لدلائل ابن حزم فقلّتها متوفرة وكثيرة لم يهتد إليها الرافعي أو لخصها تلخيصاً هو أقرب إلى المسخ. قال: نحن لا نترّ الرافعي على هذا المسلك الذي سلكه، وعلى هذا التناول الذي تناول به كلام ابن حزم فإن الرجل أطلّ الكلام في تأييد مذهبه، ولو كان الرافعي منصفاً لتناول أقوى ما في كلام ابن حزم ولم يأخذ بعض كلامه ويترك بعضاً، على أنه أخذ لا يتقارع الحجّة بالحجّة، ولا يسط المسألة كما ذكرها صاحبها، وإنما يلخصها تلخيصاً هو أقرب إلى المسخ...

ونحن قد سبرنا دلائل ابن حزم كلّها فوجدناها سراياً يحسبه الظمآن ماء!! وسوف نضع اليد على أهم دلائله ليعلم الباحث مدى شأوها في عالم الاعتبار!

مركز تحقيق كتاب توير علوم راسدي

كلام ابن سنان الخفاجي

هو الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سنان الشاعر الشيعي مقلّق صاحب صيت وسوط له مواقف مشهودة^١ (ت ٤٦٦ مسموماً). له كلام مع أبي الحسن الرقائي (ت ٣٨٦)

١ - مجلة رسالة الإسلام، سنة ٤، عدد ١، ص ٧٠.

٢ - من شعره دفاعاً عن ولاء آل بيت الرسول ﷺ:

يا أمة كفرت وضي أضواها

أعاني الصابر تعانون بسبه

تلك الخلائق بينكم بصرية

انقرآن فيه غلاتها ورشادها

وبديعه نصبت لكم أعوادها

قتل الحسين وما خبت أحقادها

الخلائق: جمع خليفة بمعنى سجيّة ومن ظريف تنبيه ما يحكي أنه كان قد تحصّن بقرية «اعزاز» من أعمال حلب، وكان بينه وبين أبي نصر محمد بن النحاس اتّفاق أنوفر المحمود بن صالح مودة مؤكدة، وكان محمود يريد القبض عليه فأمر أبا نصر أن يكتب إلى الخفاجي كتاباً يستعلمه ويؤمنه، قال: إنه لا يؤمن إلاّ إنيك ولا يثق إلاّ بك. فكتب، بمحضره

بشأن إعجاز القرآن، فلم يرتض مذهبهم بأن الإعجاز قائم بفصاحته وبلاغته وتلاؤم نظمه، ورجح كونه من جهة صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة وقت مرامهم ذلك. وبذلك قد وافق رأي الشريف المرتضى حسبما يأتي.

قال - تعليقاً على كلام الرماني -^١

وأما قوله: «إن القرآن من المتلائم في الطبقة العليا وغيره في الطبقة السفلى» - وهو يعني بذلك جميع كلام العرب - فليس الأمر على ذلك، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية. ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار، وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه. ولعل أبا الحسن (الرماني) يتخيل أن الإعجاز في القرآن لا يتم إلا بمثل هذه الدعوى الفاسدة، والأمر - بحمد الله - أظهر من أن يعضده بمثل هذا القول الذي ينفر عنه كل من شدا من الأدب شيئاً^٢ أو عرف من نقد الكلام طرفاً.

قال: وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته، بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك، وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب إليه (أي الرماني) من أن بين تأليف حروف القرآن وبين غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم. ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن النصاحته، وادعينا أنه أفصح من جميع كلام العرب، بدرجة ما بين المعجز والمحتمل، لم يقتصر في ذلك إلى ادعاء ما قاله من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف

→ وأضاف في آخره «إن شاء الله» تكفه شداتون... فلما أن قرأ التغلبي خرج قاصداً حلب، فلما كان في بعض الطريق أعاد النظر في الكتاب، فلما رأى التشديد على اتون أسكن بستان فرسه، وذكر في نفسه أن ابن التماس لا يخطئ في كتابته، فلم يضع التشديد هنا عبداً، فلاح له أنه أراد قوته تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ بِكَ لَيَتَفَكَّرُونَ»! التكملة ٢٨: ٢٠، ففعل راجعاً إلى حصنه، وكتب في الجواب: أنا التغلبي المعترف بالعدم... فكسر الألف من «أنا» وفتح اتون وشددها، فلما وقف عليه أبو نصر سر وعلم أنه قصد به قوته تعالى: «إِنَّمَا لَوْ كَذَّبْنَا أَبَدًا فَأَذَانُوا دَعَا»! الصائفة ٥: ٢٤. والتغلبي نسبة إلى خلفا - بالتفتح - حي من بني عامر.

١ - راجع كلامه في رسالته التلكت في إعجاز القرآن، ص ٧٥.

٢ - يقال: شدا من العلم شيئاً أي أخذ منه.

الواقعة في الفصح من كلام العرب، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف فقط فصيحاً، وإنما الفصاحة لأُمور عدّة تقع في الكلام، من جملتها التلاؤم في الحروف وغيره، وقد بينا بعضها وسنذكر الباقي، فلم ينكر على هذا أن يكون تأليف الحروف في القرآن وفصح كلام العرب واحداً؟ ويكون القرآن في الطبقة العليا، لما ضامّ تأليف حروفه من شروط الفصاحة التي التأليف جزء يسير منها.

فقد بان أن على كلا القولين لاجتاجة بنا إلى ادعاء ما ادعاه، مع وضوح بطلانه وعدم الشبهة فيه.

ثم يقال له: أليس التلاؤم معتبراً في تأليف حروف الكلمة المفردة، على ما ذكرناه فيما تقدّم فلا بدّ من نعم، فيقال له: فما عندك في تأليف كل لفظة من ألفاظ القرآن بانفراده؟ أهو متلائم في الطبقة العليا أم في الطبقة السفلى؟ فإن قال: في الطبقة العليا، قيل له: أليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده؟ ولو لا ذلك لم يكن القرآن عربياً، ولا كانت العرب فهمته. فقد أقررت الآن أن في كلام العرب ما هو متلائم في الطبقة العليا، وهو الألفاظ المفردة، ولم يتوجّه عليك في ذلك ما ينسد وجه إعجاز القرآن. فهلاً قلت في كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضاً كذلك؟ فإن علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر.

وإن قال: إن كل لفظة من ألفاظ القرآن متلائمة في الطبقة الوسطى، قيل له أولاً: إن مشاركة القرآن لطبقة ألفاظهم على هذا الوجه أيضاً باقية، ثم ما الفرق بينك وبين من ادعى أن التلاؤم من ألفاظ القرآن في الطبقة الوسطى، فإن أحد الموضعين كالآخر. على أن اللفظة المفردة يظهر فيها التلاؤم ظهوراً يبيّن بتلّة عدد حروفها واعتبار المخارج وإن كانت متباعدة كان تأليفها متلائماً، وإن تقاربت كانت متنافراً، ويلتزم ذلك بما يذهب إليه من اعتبار التوسط دون البعد الشديد والقرب المفرط. فعلى القولين معاً اعتبار التلاؤم منهموم، وليس ينارعنا في كلمة من كلم القرآن إذا أوضحنا له تأليفها، ويقول ليس هذا في الطبقة العليا، إلا ونقول مثله في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض، لأنّ الدليل على الموضعين واحد.

فقد بان الذي يجب اعتماده أن التأليف على ضربين: متلائم ومتنافر، وتأليف القرآن وفصيح كلام العرب من المتلائم. ولا يتدح هذا في وجه من وجوه إعجاز القرآن، والحمد لله.

وقال - في موضع آخر - : والصحيح أن وجه الإعجاز في القرآن هو صرف العرب عن معارضته، وأن فصاحته قد كانت في مقدورهم لو لا الصرف. وهذا هو المذهب الذي يعول عليه أهل هذه الصنعة وأرباب هذا العلم. وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره.

مذهب الشريف المرتضى

المعروف من مذهب الشريف المرتضى (ت ٤٣٦) في الإعجاز هو القول بالصرفه، نسبه إليه كل من كتب في هذا الشأن، قولاً واحداً. وكذا شيخه أبو عبد الله المشيد (ت ٤١٣) في أحد قولييه^١ وتلميذه أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠) في كتابه «تمهيد الأصول» الذي وضعه شرحاً على القسم النظري من رسالة «جمال العلم والعمل» تصنيف المرتضى. لكنه رجع عنه في كتابه «الاقتصاد بتحقيق تهاني الاعتقاد» كتبه متأخراً، واعتذر عن تأييده

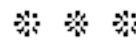
١ - سرّ الفصاحة، ص ٨٩ - ٩٠. ٢ - المصدر، ص ٢١٧.

٣ - قال بذلك في كتابه (أوائل المقالات، ص ٣١) جاء فيه: «إن جهة ذلك هو تصرف من الله تعالى لأهل الفصاحة والانداس عن مدارفة النبي صلى الله عليه وآله في النظام عند تحديه لهم. وجعل تصرفهم عن الإتيان بصله وإن كان في مقدورهم، ذليلاً على نبوته ﷺ. واتصف من الله تعالى مستمر في تصرف عنه إلى آخر الزمان. وهذا من أوضح برهان في الإعجاز وأعجب بيان. وهو مذهب النظام، وخالف فيه جمهور أهل الاعتزان».

غير أن المعروف عنه في كتب الإمامية هو موابته مع جمهور العلماء. قال المتجسسي (في البحار، ج ١٧، ص ٢٢٤) - في باب إعجاز أمّ الصغرات: «القرآن الكريم: «ما وجه إعجازه؟» فاجمهور من العامة والخاصة ومنهم الشيخ الصديقي عليه السلام على أن إعجاز القرآن بكونه في الطبقة العليا من الفصاحة، والدرجة القصوى من البلاغة، هذا مع اشتغاله على الإخبار عن الصغيات الماضية والآتية، وعلى دقائق العلوم الإلهية، وأحوال المبدأ والتمداد، ومكارم الأخلاق، والإرشاد إلى فنون الحكمة العلمية والعمالية، والمصالح الدنيوية والدينية، على ما يظهر للمعتبرين».

وهكذا ذكر عنه القطب الراوندي (في الفرائج والتجرائج، ص ٩٨١)، قال - بعد أن جعل توجه الأول - وهو القول بالصرفه - قولاً لتسديد المرتضى - : «وإثاني: ما ذهب إليه الشيخ المتعبد، وهو أنه كان معجزاً من حيث الخلق برتبة في الفصاحة بخارقة تعادله».

للسيد في شرح الجمل باحتشام رأي شيخه عند شرح كلامه.
 قال: كنت نصرت في شرح الجمل (تمهيد الأصول) القول بالصرفه، على ما كان
 يذهب إليه المرتضى رحمه الله حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه.^١
 وأما تلميذه الآخر، أبو الصلاح تقي الدين الحلبي (ت ٤٤٧) فقد سار على منهج
 الأستاذ وارتضاه وجعله الأوجه من وجوه إعجاز القرآن. واستدل بما يكون تلخيصاً
 لدلائل السيد، ولم يزد عليه.^٢



ويبدو من كلام السيد - وفيما نقل عنه الشيخ وغيره -^٣ أنه أراد المعنى الوسط من
 التفسير المتقدم عن صاحب الطراز. وهو: أن العرب سلبوا العلوم التي يحتاج إليها في
 معارضة مثل القرآن، فخامة وضخامة، في وجازة المنطق وظرافته، في سمو معناه ورفعته...
 من أين كانت العرب تأتي بمثل معانيه، حتى ولو فرض قدرتها على صياغة مثل لفظه ولو
 يسيراً؟!

ومعنى السلب: عدم المنح، على ما سبق في تفسير الآية الكريمة: «ثُمَّ أَصْرَفُوا
 صَرْفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» نوحياً قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ
 يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ»^٤ أي أنهم لشرط جهلهم وصمودهم في رفض الحق، حرموا من فيضه
 تعالى فلم يحظوا ببركات رحمته: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»^٥ وذلك هو الخذلان
 والحerman المقيت.

قال الطبرسي: سلب قدرتهم على التكذيب، بمعنى توفير الدلائل والبراهين القاطعة
 بحيث لا تدع مجالاً للشك فضلاً عن الرد وإمكان التكذيب، «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ»^٦.

١ - الاختصار، ص ١٧٣، وسنقل كلامه في تمهيد الأصول. وهو المصدر الوحيد لتعريف مذهب التمهيد في التصرف ودلائله
 وبراهينه.

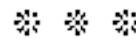
٢ - في كتابه «تقريب المعارف» الذي وضعه في أصول المعتقدات، ص ١٠٥ - ١٠٨.

٣ - تقدم عن القطب الزاوي برقم ٩، ص ٦٧، وعن ابن عبيد برقم ١١، ص ٨٠.

٤ - التوبة ٩، ١٢٧. ٥ - الأعراف ٧، ١٤٦.

٦ - التصف ٦١، ٥. ٧ - البقرة ٢، ٢.

فقد توقّرت المعاني الضخمة، وازدحمت المعارف الجليّة، بين أحضان القرآن الكريم، بما بهر العقول وطار بالألباب... الأمر الذي سلب قدرة المعارضة عن أيّ معارض متى رامها، ولم يدع مجالاً للتفكير في مقابلته لأيّ صنيعة عنيده، مادام هذا الكتاب العزيز قد شمع بأثنته على كلّ مستكبر جبّار عارض طريقته إلى الإمام.



فلعلّ الشريف المرتضى أراد هذا المعنى، وأنّ اللنظ مهما جُلّ نظمه وعزّ سبكه، فإنّه لا يبلغ مرتبة المعنى في جلاله وكبريائه، والتحدّي إنّما وقع بهذا الأهمّ الأشمل، قال: «فإن قال: العرف عمّا ذا وقع؟ قلنا: عن أن يأتوا بكلام يساوي أو يقارب القرآن في فصاحته وطريقة نظمه، بأن سلب كلّ من رام المعارضة، العلوم التي يتأتّى ذلك بها. فإنّ العلوم التي بها يتمكّن من ذلك ضرورة من فعله تعالى بمجرى العادة...»^١

تأمل هذه العبارة وأمعن النظر فيها، تجدّها صريحة - تقريباً - في إرادة القدرة العلميّة، التي هي حكمة الهيّة بها لمن يشاء من عباده، ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً. فهو لا حرموها مغبّة لجاحهم وعنادهم مع الحقّ.

وهكذا فهم الأستاذ الرافعي تفسير مذهب السيد في الصرفة، قال: وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم... التي يحتاج إليها في المعارضة ليسجيؤوا بمثل القرآن... فكأنه يقول: أنّهم بلغاء يقدرّون على مثل النظم والأسلوب، ولا يستطيعون ما وراء ذلك ممّا لبسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم.^٢

ومن قبل قال التفتازاني: أو بسلب العلوم التي لا بدّ منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنّها لم تكن حاصلة لهم... أو بمعنى أنّها كانت حاصلة فأزالها الله. قال: وهذا (سلب العلوم) هو المختار عند المرتضى...^٣

قلت: ظاهر قول المرتضى هو الشقّ الأوّل من المعنيين: (أنّها لم تكن حاصلة لهم).

١ - ينقل الشيخ في التمهيد، وسياقي تفصيله. وهكذا جاء في عبارة التمهيد من كتابه «الذخيرة»، ص ٣٨٠.

٢ - إنجاز القرآن للرافعي، ص ١٤٤. ٣ - شرح انصاف، ج ٥، ص ٢٨.

وللأستاذ توفيق الفكيكي البغدادي محاولة مشكورة بشأن الدفاع عن موقف السيد في مذهب الصّرفة. إذ استبعد أن يأخذ مثل الشريف المرتضى وهو علم الهدى موضعاً يتعد عن موضع الشيعة الإمامية وإجماع محققهم وهو رأسهم وسيدهم، وكذا شيخه أبو عبدالله المفيد الذي هو أستاذ الكل ومفخر المتكلمين.

قال: إن أقوال أئمة الإمامية المعتمدة المعتبرة، لا تختلف عن كلام أهل التحقيق من أساطين العلم وزعماء البيان في حقيقة الإعجاز، حتى لقد اشتهر قولهم: «القول بالصدقة كالقول بالصرفة» في الامتناع. كما نبّه عليه العلامة الحجة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء.^١ قال: فنسبة القول بالصّرفة - بمعناها الباطل - إلى العلامة الجليل (المفيد) وإلى تلميذه (الشريف المرتضى) لا يحتملها النظر الصحيح بعد كون هذا الاحتمال مخالفاً لعقيدة الشيعة الإمامية ولأصول مبانيها.

قال: والذي نحتمله بل ونعتقده أن الشيخ المفيد معروف بقوة الجدل والتمرس بفنون المناظرة، وكان كسقراط يلقي على تلاميذه مسائل دقيقة ويناقشهم فيها لاختبار عقولهم، ولا سيما شبهات المعتزلة كآراء النظام وأصحابه القائلين بالصّرفة، وهي إحدى المسائل التي ناظر بها أقطاب المعتزلة، فليحتمل وقوعه في نفوس البعض أنه يقول بها، وهو اشتباه لا يستند إلى تحقيق.^٢

وهكذا احتمل بشأن الشريف المرتضى - العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني - أنه كان معروفاً بقوة الجدل والتحوّل في حوار المناظرين إلى هنا وهناك، فلم يعلم كونها عقيدة له ونظرية ثابتة عليها...^٣

وبعد... فالإيفاء بأمانة البحث يستدعي نقل كلام المرتضى بكامله، حسبما وصل إلينا من كتبه وعن طريق تلميذه الأكبر الطوسي وغيره من الأقطاب:

قال السيد - في كتابه (الجمال) في باب ما يجب اعتقاده في النبوة -: «وقد دلّ الله

١ - في موسوعته الفقهية (الدين والإسلام)، ج ٢، ص ١٤٧.

٢ - رسالة الإسلام انقلابية، أمانة الأمانة، العدد ٣، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

٣ - المعجزة الخاتمة للسيد هبة الدين الشهرستاني، ص ٩٧ - ٩٨.

تعالى على صدق رسوله محمد ﷺ بالقرآن، لأن ظهوره معلوم ضرورة، وتحديده العرب والعجم معلوم أيضاً ضرورة، وارتفاع معارضته أيضاً بقريب من الضرورة، فإن ذلك التعذر معلوم بأدنى نظر، لأنه لو لا التعذر لعرض، فإما أن يكون القرآن من فعله تعالى على سبيل التصديق له، فيكون هو العلم المعجز، أو يكون تعالى صرف القوم عن معارضته، فيكون الصرف هو العلم الدال على النبوة، وقد بينا في كتاب «الصرف» الصحيح من ذلك وبسطناه^١.

وقد أوضح السيد من مذهبه في مختلف كتبه ورسائله، التي تعرض فيها لمسألة الإعجاز، منها ما جاء في كتابه «الذخيرة» في علم الكلام، قال فيه:

الذي نذهب إليه أن الله تعالى صرف العرب عن أن يأتوا من الكلام بما يساوي أو يضاهي القرآن في فصاحته وطريقته (أي سبكته في البيان) ونظمه، بأن سلب كل من رام المعارضة - العلوم التي يتألف ذلك بها، فإن العلوم التي بها يمكن ذلك ضرورية من فعله تعالى فينا بمجرى العادة.

وهذه الجملة إنما تنكشف بأن يدل على أن التحدي وقع بالفصاحة بالطريقة في النظم. وأنهم لو عارضوه بشعر منظوم لم يكونوا قائلين ما دعوا إليه. وأن يدل على اختصاص القرآن بطريقة في النظم مخالفة لنظم كل كلامهم، وعلى أن النظم لو لم يصرفوا لعارضوا.

والذي يدل على الأول أنه ﷺ أطلق التحدي وأرسله، فيجب أن يكون إنما أطلق تعويلاً على عادة القوم في تحدي بعضهم بعضاً، فإنها جرت باعتبار الفصاحة وطريقة النظم. ولهذا ما كان يتحدى الخطيب الشاعر، ولا الشاعر الخطيب، وأنهم ما كانوا يرتضون في معارضة الشعر بمثله إلا بالمساواة في عروضه وقافيته وحركة قافيته. ولو شك القوم في مراده بالتحدي لاستفهموه، وما رأيناهم فعلوا، لأنهم فهموا أنه ﷺ جرى فيه على عاداتهم.

١ - جعل العلم والعمل لتسديد المرتضى (ط ١٢٨٧)، ص ٤١ وطُبعت مع المجموعة الثالثة من رسائله راجع: ص ١٩.

ومما يبين أن التحدي وقع بالنظم - مضافاً إلى الفصاحة - أننا قد بينا مقارنة كثير من القرآن لأفصح كلام العرب في الفصاحة. ولهذا خفي الفرق علينا من ذلك، وإن كان غير خافي علينا الفرق فيما ليس بينهما هذا التفاوت الشديد. فلو لا أن النظم معتبر لمعارضوا بفصيح شعرهم وبلغ كلامهم.

فأما الذي يدل على أنهم لو لا الصرف لمعارضوا أننا قد بينا في فصاحة كلامهم ما فيه كفاية، والنظم لا يصح فيه التزايد والتفاضل، ولهذا يشترك الشاعران في نظم واحد لا يزيد أحدهما فيه على صاحبه وإن زادت فصاحته على فصاحة صاحبه.

وإذا لم يدخل في النظم تفاضل فلم يبق إلا أن يكون الفضل في السبق إليه. وهذا يقتضي أن يكون السابق ابتداءً إلى نظم الشعر قد أتى بمعجز، وأن يكون كل من سبق إلى عروض من أعارضه ووزن من أوزانه كذلك... ومعلوم خلافه.

وليس يجوز أن يتعذر نظم مخصوص بمجرى العادة على من يتمكن من نظوم غيره، ولا يحتاج في ذلك إلى زيادة علوم، كما قلنا في الفصاحة. ولهذا كان كل من يقدر من الشعراء على أن يقول في الوزن الذي هو الطويل قدر على البسيط وغيره ولو لم يكن إلا على الاحتذاء وإن خلا كلامه من فصاحة.

وهذا الكلام قد فرغناه واستوفيناه في كتابنا في جهة إعجاز القرآن^١.

وهذا الذي ذكره هنا تلخيص مما جاء في الرسالة، والتي يبدو منها أنها إجابة على سؤال المعترض: «...إن كانوا - أي العرب ممن حاول المعارضة - سلبوا العلوم، فليس يخلو إما أن يكونوا سلبوها عند ظهور القرآن والتحدي به، أو يكونوا لم يزالوا فاقدين لها.

١ - يريد به رسالته التي كتبها في التصرف (راجع التذكرة في علم الكلام: تحقيق السيد أحمد الحسيني، ص ٣٨٠-٣٨٢). وقد تعرض فيها للإجابة على عدة مسائل لها صلة بمسألة التصرف في الإعجاز. وقد أقر في أجوبة مسائله الرئيسية كلام حول مسألة التصرف. (راجع المجموعة الثانية من رسائل الشريف المرتضى، ص ٣٢٣-٣٢٦، المسألة الثالثة من المسائل الرئيسية الأولى).

أما رسالة التصرف فقد عثر عليها وصحبت ونشرت بتحقيق الأستاذ محمد رضا الأنصاري وإشراف مجمع البحوث الإسلامية التابع لإستانة القدس الرضوي بمشهد الرضا (١٤٢٤هـ).

فإن أريد الثاني فهو مؤكد لقولنا بعجزهم عن معارضته، إذ لم يكن بلغوا مرتبته المخارقة للمعادة، وإن أريد الأول، فقد كان يجب أن يقع لنا ولغيرنا تبيان الفرق بين حالتي العرب قبل ظهور القرآن وبعده».

وأجاب بما حاصله: أن التفاوت إنما حصل في الشخص المريد للمعارضة لا كل العرب ولا كل الفصحاء. فقد كان يحصل عنده الصوارف أي صرف الدواعي للمعارضة ولو بالتهائه بمختلف الصوارف أو إخماد نائرة سعارها أو خمولها ونحو ذلك، ممّا يجده المعارض في ذات نفسه دون غيره.

غير أن المحاولين للمعارضة على طول الخط، إنما تقاعسوا بعد الإقدام، لما وجدوا من أنفسهم العجز الذاتي تجاه ذلك الشموخ القرآني العظيم. ولم يقل أحد منهم: أن قواي قد انهارت بعد الاستداد، وأن علمي سلبت بعد توفر الاجتماع. سوى أنهم أذعنوا بأنه كلام فوق كلام البشر أي فوق طاقات البشر المحدودة.

وهكذا تجد دلائل هذه الرسالة ومساثلها فيما لخصه الشيخ أبو جعفر الطوسي فيما شرح مذهب السيّد، أورده في شرح الجمل بتفصيل وتبيين.^١ كما تعرّض القطب الراوندي للحديث المصروف على ما ذهب إليه المرتضى، واستوفى البحث حوله على أسلوبه الكلامي الجذلي.^٢

وكذلك أبو الصلاح الحلبي، سار على منهج شيخه المرتضى وارتضاه، فراجع كتابه الذي وضعه في أصول المعتقدات،^٣ حسبما أشرنا إليه.

١ - راجع: تهذيب الأصول في جمل التعلم والعمل، ص ٣٣٤ - ٣٤٥.

٢ - راجع: التخرائج والتخرائج، ج ٣، ص ٩٨١ - ٩٨٤ و ٩٨٧ - ٩٩٢ و ١٠٠٧ - ١٠١٠. ومختصره المطبوع سنة ١٣٠٥.

ص ٢٦٩. ونقله في التبحر، ج ٨٩، ص ١٢٧ - ١٢٨ و ١٣٩ - ١٤١.

٣ - تقريب المعارف، ص ١٠٤ - ١٠٨.

فذلّكة القول بالصرفة

يتلخص مذهب الصرفة - على ما قاله وجوه أصحاب هذا الرأي - حسبما يلي:
 أولاً: قوله النظم (مبتدع هذه الفكرة): أن في نثر العرب ونظمهم ما لا يخفى من
 الفوائد، يعني: فصاحة باللغة تضاهي فصاحة القرآن. وقد صرح بذلك الخفاجي والشريف
 المرتضى. استناداً إلى قوله تعالى - حكاية عن العرب -: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا...»^١ يدلّ
 على أن العرب حسبت من نفسها القدرة على الإتيان بمثل سبكها وصياغة. لولا أنه تعالى
 صرف همهم عن النهوض لمقابلته، وأمسك بعزيمتهم دون القيام بمعارضته.

ثانياً: ربط ابن حزم مسألة الإعجاز بمسألة الجبر في الاختيار، وأن لاميّة جوهريّة
 في القرآن لولا المنع الخارجي. واستند إلى ما يوجد في القرآن من تفاوت في درجة
 البلاغة، ومن سرد أسماء زعم أن لا عجيبة في نضدها بما يفوق كلام العرب. كما أن فيه
 حكاية أقوال آخرين لم تكن معجزة، فلما حكاه الله تعالى في القرآن أصارها معجزة
 ومنع من مماثلته وحال دون إمكان النطق بمثلها أبداً. قال: وهذا برهان كافٍ لا يحتاج إلى
 مزيد منه... وحمد الله أن هداه إلى هذا البرهان الكافي الشافي... لولا أن الأستاذ الرافعي
 سخر من عقليته هذه الساذجة، قائلاً: بل هو فوق الكفاية، وأكثر من ذلك أنه لما جعله
 ابن حزم رأياً له أصاره كافياً ولا يحتاج إلى مزيد بيان!

ثالثاً: استند السيّد وأصحابه إلى عدم ظهور فرق بين قصار السور والمختار من
 كلام العرب، وإلا لما احتيج إلى مراجعة الأذكياء من العلماء.

والنظم لا يصح فيه التزايد والتفاضل. كما لا يصح معارضة المنتور بالمنظوم. وقاس
 الخفاجي تلاؤم الكلمات في الجمل بتلاؤم حروف الكلم، ليكون خارجاً عن اختيار
 المتكلم.

ودليلاً على ذلك قالوا: لا شك أن العرب كانوا قادرين على التكلم بمثل مفردات
 الجمل وقصار تراكيبها مثل «الحمد لله» و«رب العالمين» وهكذا، فأجدر بهم أن يكونوا

قادرين على تراكيب أكبر وجمل أطول.

وأيضاً فإن الصحابة الأولين ربما تردّدوا في آية أنها من القرآن؟ وكذا بعض السور
التصار كالعمودتين، رفض ابن مسعود كونهما منه! فلو كان النظم والبلاغة هما الكافيين
للمشاهدة على القرآنية، فما وجه هذا التوقف وذلك التردد أو الرفض؟!
وأخيراً قوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ»^١ أي أصرّفهم
عن إيثارها بالمعارضة. هكذا رعموا.

وقد تقدّم الكلام عليها عند توجيه مذهب السيّد في الصرفة.

مناقشة القول بالصرفة

تلك دلائل استند إليها أصحاب القول بالصرفة في ظاهر الأمر. لكننا نعتقد أن السبب
الداعي لاختيارهم هذا الرأي أمر آخر وراء هذا الظاهر المريب. إذ ليس فيما استمسكوا
به ما يبعث على هذا الاختيار، ولا سيما وأصحاب هذا القول هم جهابذة أفاض وأئمة نقد
وتمحيص، ليسوا أهل تعسف في الرأي أو وهن في العقيدة والاختيار! ومن ثم فإنها دلائل
ظاهريّة ومعاذير شكلية كان خلفها شيء آخر لعلّه رصين، لأمر ما جدد قصير أنفه!
نعتقد أنهم واجهوا أولئك الذين قعسوا وجه الإعجاز في جانب لفظ القرآن وحروفه
وجودة سبكه وأسلوبه. وهو جانب جدّ خطير، يعلو به شأن الكلام ويرتفع قدره. إلا أنه
ليس بمثابة بحيث يخرجهم عن حدّ المعتاد غير الممكن على فصحاء الكلام وبلغاء البيان.
ففي كلام العرب وغيرهم من أمم ذات لغة راقية متطعات رائعة، من بديع النظم ورفيع النثر
مثلاً يبهّر ويعجب!

ونرافقهم في هذا الشأن، غير أن جهة الإعجاز البياني للقرآن - على ما سنذكر - لا
تنحصر في جودة سبكه وروعة نظمه، والوفير من بدائع المحسنات اللفظية. إن هذا كله
إنما هو جزء سبب لروعة القرآن الباهرة. وإن وراءه سبباً آخر أقوى هو كامن وراء هذا

١ - ذكرهما القمّي في شرح المفاتيح، ج ٥، ص ٢٨ - ٢٩.

٢ - الأعراف ١٤٦، ١٤٧.

القالب الجميل، هي: خلاصة رُوحه، ونسمة رُوحه. فخامة معنى في أُناقة تعبير. وهما مجتمعين وليدان توأمين، الأمر الذي يعزّ وجوده، بل يندم في كلام غيره، ولا سيما مع هذا الإطناب في الكلام والتنوع في المرام، ميزة خُصّ بها القرآن الكريم. وبعد... فإليك بعض النقاش مع دلائل القوم في ظاهر المقال:

١ - ليس في كلام العرب ما يضاهاه القرآن

فإذ كانت روعة القرآن منبثقة من تلاحم في جمال لفظه مع جلال معناه، ومن بديع صورته مع كبرياء محتواه، فأين - ياترى - يوجد له مثل في مثل هذه الرفعة وذلك الشموخ؟! نعم سوى شؤون كانت مبتدلة، ومعان كانت هابطة وساقطة إلى حد بعيد، كانوا يتداولونها! ومقارنته عبري بين آيات من الذكر الحكيم، وأروع مقطعات العرب لتكفي شاهداً على ذلك البون الشاسع!

جاء القرآن بسبك غريب على العرب، وعجيب على الناس أجمعين، لا هو شعر ولا هو نثر كنثرهم، نثر في خاصية الشعر، لا هذر سجع، ولا هذر كهانة، حلو رشيق، وخلوب رفيع. إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمحمول أصلاً، مغدق أسفله، إنه يعلو وما يعلو. وإنه ليحظم ما تحته! كلام قائله عظيم العرب وخلاصتها الفذ الفريد الوليد!

كانوا كلّمًا حاولوا مضاهاته، افتضح بهم الأمر، وفسلوا في نهاية المطاف، وهكذا

١ - نعم نسب إلى اتّجه بن درهم (مؤدّب مروان بن محمد الصّليب بالحصار. آخر خلفاء بني أميّة) لقول بأن فصاحة القرآن غير معجزة، وأنّ أناس يقدرّون على مثله، وعلى أحسن منها...

قيل: هو أوّل من صرح بذلك، وتجرّأ عليه.

قال الأستاذ الزّاجي: ولم يقل بذلك أحد قبله. إعجاز القرآن، ص ١٤٤.

وهو مقالات أخرى أيضاً أنكرها عليه. قال امرؤ القيس صبراً، ذبحه - كما يذبح النّكش - فأنشد القسري أمير العراق من قبل هشام بن عبد الملك بأمره.

ذكر ذلك ابن الأثير في حوادث (سنة ١٢٥)، ج ٥، ص ٦٦٣. وراجع: ص ٤٢٩ أيضاً.

وقد جعل الأستاذ عرفة ذلك ذنباً على قوته بالتصرف. فهو أوّل من ذهب هذا المذهب... وهو وهم... لأنّه - على فرض صحّة التّسمية - إنّما حاول بذلك إنكار أصل الإعجاز... كما وهم في علي بن عيسى التّرماني أيضاً قوته بالتصرف... في حين أنّه جعله أحد التّوجّه للإعجاز... راجع: التّكث في إعجاز القرآن، ص ١١٠. قضية الإعجاز القرآني، ص ١٤٨-١٤٩.

على مرّ العصور. الأمر الذي سجّل على محياه الكريم: أنّه لم يسبق له نظير، ولا يخلفه أبداً
بديل!

فإن كان النظام و أصحابه إنما أرادوا المضاهاة في مجموع هذه الجوانب و المزايا
اللفظية و المعنوية، فحن نطالبهم أن يأتوا بشاهد من كلام العرب أو غيرهم من باب
المثال، ولكنهم أعجز من أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا له.

وإن أرادوا المباهاة ببذائع بعض روائع الكلام، فهذا شيء لا نذكره، ولكنه ليس كل
شأن الإعجاز، ولا وقع التحدي بمثله.

و قوله تعالى: «وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنَّا هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^١.

قوله قالها النضر بن الحارث بن كلدة كان من زعماء قريش ومن شياطينهم الأفاكين،
صاحب تروة ونفوذ كلمة. كان يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم، فلما قدم
مكة سمع كلام النبي ﷺ والقرآن، فزعم أنه من قبيل ذلك، فحسب من نفسه القدرة على
مماثلته. كما كان قد تعلّم بعضاً من أحاديث ملوك فارس (أساطير رستم وإسفنديار)
فكان يقصّها على جهلاء العرب استحوذت عليهم ليلتهم عن حديث الإسلام وذكريات
القرآن، زاعماً أنّه بذلك يقابل رسول الله في كلامه وتلاوة قرآنه. كان إذا جلس رسول
الله ﷺ مجلساً يدعو الناس إلى الله ويتلو عليهم آياته ويحذر قريشاً ممّا أصاب الأمم
الخالية، خلفه النضر في مجلسه إذا قام عنه، ليحدثهم عن حديث رستم وإسفنديار وملوك
فارس، ويقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما أحاديثه إلا «أساطير الأولين»^٢.

قيل: فزلت فيه: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ. فَلَا تُطِعِ
الْمُكَذِبِينَ. وَذُوا نَفْسٍ فَكِدْهُنُونَ. وَلَا تُطِعْ كُلَّ خَلَّافٍ مَّهِينٍ. هَذَا مَشَاءُ بَنِيهِمْ. مَتَاعٌ لِّذَخِيرٍ
مُعْتَدٍ أُنِيمٍ. عُلِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ. أَنْ كَانَ دَآمَالٍ وَبَيْنَ. إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

الْأَوْنَيْنِ. سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ. إِنَّا بَلَغْنَاكُمْ كَمَا بَلَغْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَشْئِرُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَأَنْتَصَرِمٍ^١. فكانت الآيات صواقع قوارع هذمت عليهم بنيانهم وأضرمت ناراً هكذا جابهم القرآن بصوته المدوي الصارخ العنيف، وذرأوهمهم هباءً منثوراً. فلو كانت لهم بقية باقية لقاموا في وجهه، ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد؟!

وقع أسيراً يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: يا عليّ عليّ بالنصر، فأخذ عليّ بشعره وجذّره، وكان رجلاً جميلاً متجملًا بشعره، فجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أسألك بالرحم بيني وبينك إلا أجريتنني كرجل من قريش إن قتلتهم قتلتنني وإن فاديتهم فاديتنني. فقال ﷺ: لا رحم بيني وبينك، قطع الله الرحم بالإسلام. قدمه يا عليّ واضرب عنقه، فقدّمه وضرب عنقه صبراً. لعنه الله.^٢

وبعد... فلا يؤخذ من قولته صاحب نخوة وأوهام شاهداً على برهان!



٢ - الإطراد من روائع البديع

زعم ابن حزم أن لا أعجوبة في تكرار أسماء ولكن يكذبها رائعة «الإطراد»^٣ في باب البديع. وهو: أن يطرّد الشاعر أو المتكلم - عند صياغة الكلام إن نظماً أو نثراً - في سرد أسماء متعاقبة من غير كلفة ولا حشو فارغ. قال ابن رشيق: فإنها إذا اطرّدت كذلك، دلت على قوة طبع الشاعر وقلة كلفته ومبالاته بالشعر. قال الأعشى:

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل^٤

١ - انعام ٢٨، ٢٧، ٢٦.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٤، ومجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٨، واندر المنثور، ج ٣، ص ١٨٠.

٣ - قال ابن أبي الأصم: هو أن يطرّد المتكلم أسماء لأبناء ممدوحه منسوب بنظيراتها بطن، مرتبة على حكم ترتيبها في التيلاد. من ذلك قوله تعالى: «وَأَسْمَعْتُ مَلَأَ آبَائِي إِبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ»، يوسف ١٢: ٣٨. فإن: فأنطق ما اتفق في هذه التلطات التلات من أنواع البلاغة، تنقدّر نظم القرآن التميز قدره وتعرف فرق ما بينه في هذا الباب وما جاء فيه من أشعار فصحاء العرب... ثم جعل يعدد موارد التروعة في الآية... بديع القرآن، ص ١٤١.

٤ - التوائل: صاحب الحاجة وطائب الذخيرة من التنازل.

فأتى كالماء الجاري أطراداً وقلةً كلفمة، وبين النسب حتى أخرجه عن مواضع اللبس والشبهة.

ولما سمع عبد الملك قول ابن صمعة:

أَبَاتَ بِعِدَانِهِ خَيْرَ لِدَاتِهِ ذُوَابُ بْنُ أَسْمَاءَ بْنِ زَيْدٍ بْنُ قَارِبٍ^١

قال - كالمتعجب -: لولا القافية لبلغ به إلى آدم.

وقال أبو تمام:

عبد المليك بن صالح بن علي بن قسيم النبي في نسبه

فهذا سهل العنان، خفيف على اللسان. قال ابن رشيق: وإن كانت الياء في «المليك» ضرورة وتكلفاً.

وقال بعضهم:

من يكن رام حاجة بعدت عنه وأعييت عليه كل العياد

فلها أحمد المرجى بن يحيى بن معاذ بن مسلم بن رجاء

فجاء كلامه نسقاً واحداً، إلا أنه قد شغل البيت وفصل بين الكلام بقوله: «المرجى».

غير أن مجانسة «رجاء» هونت خطيبته وغفرت ذنبه.

ثم جعل ابن رشيق يعدد من أنواع الاطراد وفيها تكلف من شعراء فصحاء^٢.

وزعم أيضاً أن في حكاية أقوال الآخرين تحوُّلاً من الممكن إلى المعجز! كلام

غريب، ولعلّه حسبه نقلاً بالحرف! ولا شك أنه نقل بالمعنى، لاسيما مع النظر إلى لغاتهم

غير العربية، ويدلّك عليه سرد قضية واحدة في مواضع من القرآن في مختلف العبارات،

وإن كانت في كل مرة ذات مزية حكمية لا تشترك فيها أختها. وعليه فالكلام كلامه تعالى،

لأنه من نظمه وتأليفه بالذات. ونسبة الكلام إنما يتحقق بالتضد والتأليف. الأمر الذي

يكون الإعجاز فيه، أيّا كان لفظ المنقول عنه.

وأخيراً فإن التفاوت في درجة فضيلة البيان، هي أيضاً آية أخرى، تحلّت بها آيات

١ - أبيه اتقاهل بالقتيل: أقاده به. وانثد: انثرب ومن تربي معك. وأخمله: وقد بكسر التواو.

٢ - المعجدة، ج ٢، ص ٨٢، رقم ٦٥.

القرآن الكريم، فكان هناك بليغ وأبلغ وفصيح وأفصح، حسب تفاوت المقامات واختلاف المناسبات. وقد جعل السكاكي حدّ الإعجاز من بلاغته طرفها الأعلى وما يقرب منه، فلا تستوي مرتبة البلاغة في الآيات، وإن كان الجميع بالغاً حدّ الإعجاز.

٣- إنّما يعرف ذا الفضل من العلم ذوو د

ليست معجزة نبي الإسلام ﷺ بدعا من معاجز سائر الأنبياء ﷺ إذ كان نبهاء الأمم وأصحاب الاختصاص هم الذين كانوا يلمسون واقع الإعجاز. وامتنياز المعجز عن الممكن - فيما يقدمه الأنبياء - إنّما يعرفه أفذاذ الناس. كانت سحرة فرعون هم الذين لمسوا الحق في العصا واليد البيضاء فآمنوا به وتبعهم الآخرون وهكذا. فكان سبيل القرآن - وهو أرقّ المعاجز وأرقاها - سبيل سائر المعاجز يعرفه ذوو الاختصاص من أهل الفن، والأذكياء من العلماء، ومن ثمّ فإنّهم هم المراجع في وضع الحق ودحض الباطل «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

ما الفضل إلّا لأهل العلم أنّهم على الهدى لمن استهدى أدلاء ومن ثمّ كانت شهادات أفذاذ العرب الأتجّاح، هو القول الفصل، بشأن القرآن الكريم وأنها ميزة حارقة فاق بها سائر الكلام.

تلك شهادة طاغية العرب وعظيمها الوليد بن المغيرة: «يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر... وإنّ قوله لمن كلام الله...»^٢. وأيضاً قوله: «والله لقد سمعت من محمّد أنّاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لحلاوة... وإنّه يعلو وما يعلو، وإنّه ليحطم ما تحته...»^٣.

وشهادات فصحاء العرب وسادات قريش من هذا القبيل كثيرة، كلّها تنمّ عن واقعية فخيمة لمسها أولئك الخواص، فسار من ورائهم العوام.

٢- جامع البيان، ج ٢٩، ص ٩٨.

١- التلخيل ١٦: ٤٣.

٣- مستدرک الحاکم، ج ٢، ص ١٧٠.

ذكروا أن فصحاء قريش أزمعت على معارضة القرآن، فجمعت لها جمعها، حتى إذا ما نزلت «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^١ نظر بعضهم إلى بعض حيارى مذهولين. فقد يسوا مما طمعوا فيه وعرفوا أنه ليس بكلام مخلوق.^٢

وبذلك تبين أن لا موضع لقوله: «جميع ما شهد به النصحاء فواقع موقعه، إذ لا تذكر مزية القرآن على غيره، وإنما هي ليست مما تخرق العادة»؛ إذ شهادةتهم إنما كانت بكونه فوق مستوى البشر، وأنه ليس من كلام المخلوقين، وكفى به دليلاً على كونه معجزاً خارقاً للعادة، إذ لا يقصد من الإعجاز سوى كونه فوق مقدور الإنسان، هذا لا غير!

قوله: والنظم لا يصح فيه التزايد والتناضل...

ولعله على العكس فإن التناضل في النظم والأسلوب شيء معروف، وبذلك قد فاق شعر شاعر عتيق على شعر شاعر جديد، وكان أهل الصناعة المضطلعون بالروى والتعصيد قد فاقوا في نظمهم على المبتدئين المتكئين، وكان الأسلوب هو الذي أشال بهؤلاء وأطاح بهؤلاء!

قال أبو عثمان الجاحظ: أجود الشعر ما رأيت مثلاً لهم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان.

قال ابن رسيق: وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سمعه، وخفّ محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلى في فم سامعه. فإذا كان متشافراً متبايناً عسر حفظه، وتقل على اللسان النطق به، ومجته المسامع فلم يستقرّ فيها منه شيء.^٣

وأشد الجاحظ:

وبعض قريض القوم أبناء علة يكذب لسان الناطق المتحفظ

١ - مود ١١: ٤٤. ٢ - النملة، ج ١، ص ١١١ ومجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٥.

٣ - النملة، ج ١، ص ٢٥٧.

وأيضاً:

وشعر كبير الكبش فرّق بينه لسان دعيّ في القريض دخیل
واستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لحقته وسهولته، واللفظة كأنها
حرف واحد، وأنشد قول التقي:

من كان ذا عضد يدرك ظلامته إن الدليل الذي ليست له عضد
تنبو يدها إذا ما قلّ ناصره ويأنف الضيم إن أترى له عدد^١

إذن فالنظم نظم، ووزنه وزن شعر، لكن شتان ما بين النظمين، هذا عذب فرات، وذاك
ملح أجاج، في هذا سهولة وفي ذاك وعورة. وهكذا القرآن، فاق سائر الكلام في عذوبة
نظمه، وسهولة أسلوبه، في روعة وأناقة وجلال، وهذا من سرّ إعجازه الخارق.

وأما الدليل الذي أقاموه، من أن القادر على الأبعاد قادر على الجملة... فقد أجاب
عنه التفاتراني بأن حكم الجملة يخالف حكم الأجزاء، ولو صح ما ذكر لكان كل من آحاد
العرب قادراً على الإتيان بمثل قصائده فصحايتهم كما مرّ القيس وأضرابه.

وأما تردد الصحابة في بعض الآيات والسور، فلعله كان لرعاية الاحتياط والاحتراز
عن أدنى ملاسة. على أن الإعجاز في جميع مراتبه وفي جميع الآيات، ليس ممّا يظهر
لكل أحد على سواء...^٢

قوله: لو عارضوه بشعر منظوم لم يكونوا معارضين...

هذا إذا كان التحديّ ناظرًا إلى جانب النظم والأسلوب فحسب، أمّا إذا كانت فضيلة
الكلام هي الملحوظة في هذه المباراة، والمقصودة من تلك المباحاة، فهذا ممّا لا يفترق فيه
بين منظوم الكلام ومنثوره، شعره وخطبه، في أيّ صيغة بني عليها الكلام أو رصفت
حروفه وكلماته، ما دامت العبرة بجودة التعبير وحسن الأداء، هذا... ولا سيّما قد أطلق
التحديّ في القرآن إطلاقاً: لو يأتوا بحديث مثله... أي في شرف الكلام وفضيلته. شعراً
منظوماً أو كلاماً منثوراً. أيّا كان نمطه إذا كان يماثله في الأبهة والبهاء. ومع ذلك فقد كلّت

١ - ينبو التميغ: يكل ولا يكون قاطعاً. وأنرى: كثر وتوفّر.

٢ - شرح المفاهيد، ج ٥، ص ٢٩.

قرائحهم أن يتقابلوه وضئت أذهانهم أن يعارضوه لما رأوه فوق مستواهم الصحيح، فقصرت الأيدي أن تناله وهو في مستواه ذلك الرفيع.

وفي الختام نعود على ما بدأنا به من توجيه كلام الشريف المرتضى في الصرفه، بأنها من جهة فقد العرب للإمكانات اللازمة في صياغة كلام مثل القرآن، فقد سلبوا التوفيق عليه وخذلهم الله على إصرارهم في معاندة الحق. «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ».

دحض شبهة الصرفه

هذا وقد ذهب العلماء جميعاً قديماً وحديثاً يفندون مزاعم القول بالصرفه، إما برهاناً عقلياً أو خطابة وجدلاً بالتي هي أحسن، في دلائل ومساائل نعرض أهمها ونقتصر عليها، لأن فيها الكفاية والوفاء.

وقبل أن نرد التنصيص نقدم خلاصة من تلك الردود والدلائل:

أولاً: مخالفة هذا المذهب لظاهرة التحدي القائمة على المباهاة، ولا مباهاة على صنيع لا ميزة فيه سوى سلطة صانع على صنع الآخرين فكرياً من مماثلته!

كمن باهى بوضع يده على رأسه وتحدي الآخرين أن يصنعوا بمثله، لكنهم لما أرادوا مماثلته أخذ بيدهم ومنعهم من ذلك منعاً، فهل يعد ذلك من المباهاة؟!

أو كمن استهدف غرضاً دقيقاً مباهياً، لكنه سلب صاحبه بندقته، ولولاه لتمكن من مماثلته... ليس هذا تحدياً ولا مباهاة البتة.

والخلاصة: أن المباهاة بالصنيع إنما تتعقل إذا كان الصنيع ذاته مشتملاً على ميزة خارقة وبديعة عجيبة، ليس إلا.

ثانياً: لكان ينبغي أن يتعجبوا من أنفسهم هذا التحول المفاجئ لهم، بالأمس كانوا قادرين واليوم أصبحوا عاجزين. فلم يكن موضع إعجاب بالقرآن الكريم، ولأن تبهرهم

روعته، في بديع نظمه وعجيب رصفه.

وَأَنْ شَهِادَتَهُمْ بِرِشَاقَةِ أُسْلُوبِهِ وَأُنَاقَةِ سَبْكِهِ وَتَأَلُّفِهِ، فَضْلاً عَنْ فُخَامَةِ مَعَانِيهِ وَرِصَانَةِ مَبَانِيهِ لِأَعْظَمِ دَلِيلٍ عَلَى سَمُوٍّ وَسُمُوخٍ لِمَسْوِهِ فِي جَوْهَرِ الثَّرَآنِ وَوَجْدُوهِ فِي ذَاتِهِ، لَا شَيْءَ سِوَاهُ.

ثالثاً: لامباهاة مع أسلوب القدرة، هو والميت سواء، ولا تحدّي مع الأموات، قلّوا أم كثروا فإن كثرتهم لا تجدي شيئاً بعد كونه من ضمّ الحجر إلى المدر، ولا حرانك في الجماد. ومن ثمّ فمن المستغرب ما زعمه ابن حزم من قياس ما هنا بمسألة الجبر وسلب الاختيار «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»! فقد ذهب عنه أن لالعلاقة بين المسألين ولا تناسب بين المنهومين: المباهاة وسلب الاختيار!

أما السيّد وأصحابه، وكذا النّظام - في احتمال - فلم ينكروا اعتلاء جانب القرآن بما فاق سائر الكلام، إنّما في فصاحته البالغة، كما ذكره السيّد، أو لاشتماله على الأمور الغيبية، كما ذكره النّظام. وإنّما عجز القوم عن مماثلته، لنقصهم العلوم التي كان يمكنهم بذلك مقابلتها، ولعلّ البشرية أجمع تعجزه تلك القدرة المحيطة على جمع الامتيازات المشتمل عليها القرآن الكريم. وقد بيّنت ذلك مسبقاً.
وبعد... فإليك موجز أهمّ كلمات الأعلام في المقام.

كلمة أبي جعفر الطوسي

وَأَوَّلُ مَنْ رَدَّ عَلَى الْمُرْتَضَى قَوْلَهُ بِالصَّرْفَةِ، هُوَ تَلْمِيزُهُ الْأَكْبَرُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الطُّوسِيِّ فِي كِتَابِهِ «الْاِقْتِصَادُ» مُعْتَذِراً لِنَصْرَتِهِ السَّيِّدَ فِي «شَرْحِ الْجَمَلِ» بِأَنَّهُ حَيْثُ شَرَحَ كِتَابَهُ فَلَمْ يَحْسِنْ خِلَافَ مَذْهَبِهِ! قَالَ:

«وَأَقْوَى الْأَقْوَالِ عِنْدِي قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا كَانَ مُعْجِزاً خَارِقاً لِلْمَعَادَةِ، لِاخْتِصَاصِهِ بِالنِّصَاحَةِ الْمُرْتَبِطَةِ فِي هَذَا النِّظْمِ الْمَخْصُوصِ، دُونَ الْفَصَاحَةِ بِانْتِرَادِهَا وَدُونَ النِّظْمِ بِانْتِرَادِهِ وَدُونَ الصَّرْفَةِ، وَإِنْ كُنْتُ نَصَرْتُ فِي شَرْحِ الْجَمَلِ الْقَوْلَ بِالصَّرْفَةِ، عَلَى مَا كَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهِ

المرتضى رحمه الله من حيث شرحت كتابه فلم يحسن خلاف مذهبه»^١.

ثم أخذ في الرد على القول بالصرفه، قال:

«واعلم أنه لو كان وجه الإعجاز سلب العلوم، لكانت العرب إذا سلبوا هذه العلوم خرجوا عن كمال العقل... قال: وبهذا أجبتنا من قال: لم لا يجوز أن يكون من تأتى منه الفعل المحكم، معتقداً أو ظاناً دون أن يكون عالماً. بأن قلنا: ما لأجله تأتى الفعل المحكم هو أمر يلزم مع كمال العقل، فلا يخرج عنه إلا باختلال عقله. والعلم بالنصاحه من هذا الباب، فلو سلبهم الله هذه العلوم لكانوا خرجوا من كمال العقل، ولو كان كذلك لظهر واشتهر، وكان يكون أبلغ في باب الإعجاز من غيره. ولما لم يعلم كونهم كذلك وأن العرب لم يتغير حالهم في حال من الأحوال، دل ذلك على أنهم لم يسلبوا العلوم، وإذا لم يسلبوها وهم متمكنون من مثل هذا القرآن كان يجب أن يعارضوا، وقد بينا أن ذلك كان متعذراً منهم، فبطل هذا القول»^٢.



كلمة الإمام يحيى العلوي

وقد فصل الكلام في تنفيذ هذا المذهب، الإمام الزيدي يحيى بن حمزة العلوي، في كتابه «الطراز». احتمل أولاً في تفسير المذهب وجوهاً ثلاثة - حسبما قدمنا - ثم أقام على بطلانه أيضاً براهين ثلاثة نذكرها باللفظ:

قال: «والذي يدل على بطلان هذه المقالة براهين:

البرهان الأول منها: أنه لو كان الأمر كما زعموه، من أنهم صرفوا عن المعارضة مع تمكّنهم منها، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأن يميزوا بين أوقات المنع، والتخليّة، ولو علموا ذلك لوجب أن يذكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجب، ولو تذكروا لظهر وانتشر على حدّ التواتر، فلما لم يكن ذلك، دلّ على بطلان مذهبهم في الصرفه.

لا يقال: إنه لا نزاع في أن العرب كانوا عالمين بتعذر المعارضة عليهم، وأن ذلك

٢ - المصدر، ص ١٧٤-١٧٦.

١ - الاقتصاد، ص ١٧٢-١٧٣.

خارج عن العادة المألوفة لهم، ولكنّا نقول: من أين يلزم أنّه يجب أن يتذكروا ذلك ويظهروه، حتّى يبلغ حدّ التواتر، بل الواجب خلاف ذلك، لأنّا نعلم حرص القوم على إبطال دعواه، وعلى تزييف ما جاء به من الأدلة، فاعترفهم بهذا المعجز من أبلغ الأشياء في تقرير حجّته، فكيف يمكن أن يقال بأنّ الحريص على إخفاء حجّة خصمه يجب عليه الاعتراف بأبلغ الأشياء في تقرير حجّته، وهو إظهاره وإشهاره.

لأنّا نقول: هذا فاسد، فإنّ المشهور فيما بين العوام، فضلاً عن دهاة العرب، أن بعض من تعذّر عليه بعض ما كان مقدوراً له، فإنّه لا يمتالك في إظهار هذه الأعجوبة والتحدّث بها، ولا يخفى دون هذه القضية، فضلاً عنها، فكان من حقّهم أن يقولوا: إنّ كلّ واحد ممّا يقدر على هذه الفصاحة، ولكن صار ذلك الآن متعذراً علينا لأنك سحرته عن الإتيان بمنزله، فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على فسادها.

البرهان الثاني: لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموه، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلمّا ظهر منهم التعجّب ببلاغته وحسن فصاحته، كما أتر عن الوليد بن المغيرة حيث قال: إنّ أعلاه لمورق، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ له لطلاوة، وإنّ عليه لحلاوة، فإنّ المعلوم من حال كلّ بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه فإنّه يدهش عقله ويحيّر لبّه، وما ذاك إلّا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كلّ موعظة، وحكاية كلّ قصّة، فلو كان كما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك، ولهذا فإنّ نبياً لو قال: إنّ معجزتي أن أضع هذه الرمانة في كني، وأنتم لا تقدرّون على ذلك، لم يكن تعجّب القوم من وضع الرمانة في كنهه، بل كان من أجل تعذّره عليهم، مع أنّه كان مألوفاً لهم ومقدوراً عليه من جهتهم، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة، لم يكن للتعجّب من فصاحته وجه، فلمّا علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دلّ على فساد هذه المقالة.

البرهان الثالث: الرجوع بالصرفة التي زعموها، هو أن الله تعالى أنساهم هذه الصيغ فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله، ولا شك: أن نسيان الأمور المعلومّة في مدّة يسيرة، يدلّ على نقصان العقل، ولهذا فإنّ الواحد إذا كان يتكلّم بلغة مدّة عمره، فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئاً من تلك اللغة، لكان ذلك دليلاً على فساد عقله وتغيّره، والمعلوم من حال

العرب أن عقولهم ما زالت بعد التحدي بالقرآن وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل، فبطل ما عوّل عليه أهل الصرفه، وكلامهم يحتمل أكثر ممّا ذكرناه من الفساد، وله موضع أخصّ به، فلا جرم اكتفينا بها هنا بما أوردناه^١.

كلمة عبد القاهر الجرجاني

والشيخ عبد القاهر الجرجاني ردّ لطيف على القائلين بالصرفه، أوردته في رسالته «الشافية» وقد أوفى المطلب حقّه، فأجدر به أن ينقل بلفظه قال:

«اعلم أن الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفه أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهم أن التحدي كان إلى أن يعبر عن نفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه دون أن يكون قد أطلق لهم وخبروا في المعاني كلّها. ذلك لأنّ في القول بها على غير هذا الوجه أموراً شنيعة، يبعد أن يرتكبها العاقل ويدخل فيها. وذلك أنّه يلزم عليه أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفي جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعُدّوا الكثير ممّا كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها - وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحى إلى النبي ﷺ - وتحدّوا إلى معارضة القرآن - قاصرة عمّا سمع منهم من قبل ذلك، المتصور الشديد. وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم، ونضبت عنهم موارد قد كانت تغرر، وخذلتهم قوى قد كانوا يعصّلون بها، وأن تكون أشعار شعراء النبي ﷺ التي قالوها في مدحه، وفي الردّ على المشركين، ناقصة متقاصرة عن شعرهم في الجاهلية..

ثمّ أورد اعتراضاً بأنهم إذا لم يشعروا بهذا النقصان الحاصل في فصاحتهم، فكيف عرفوا مزيّة القرآن على كلامهم، وإذا لم يعرفوا مزيّة القرآن، فكيف اعترفوا بعجزهم عن نبيلها!

وأما إذا احتسوا بنقصان حدث في أنفسهم، فعند ذلك فاللزام أن لا يعترفوا بمزيّة

١ - انظر في أسرار البلاغة وحقائق الإيجان، ج ٣، ص ٣٩٢-٣٩٥.

القرآن على كلامهم، بل بهذا العجز النفسي الحاصل لهم قهراً، فيتذكروا - ولو عندما يخلو بعضهم لبعض - ما لنا قد نقصنا في قرائنا، وما هذا الكلول الحادث في أذهاننا!

ثم قال: وفي سياق آية التحدي ما يدل على فساد هذا الزعم، إذ لا يقال عمّا إذا منع الإنسان عن الشيء، قهراً عليه، مع قدرته عليه قبل المنع - إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مناله، بل كان يجب أن يقال: إن لي القدرة على أن أحول بينكم وبين مقدوركم، وأسلبكم القدرة على أمر كان متعارفاً عندكم.

ويقول - في خاتمة الفصل - ينبغي أن يقال لهم ما هذا الذي أخذتم به أنفسكم، وما هذا التأويل منكم في عجز العرب عن معارضة القرآن؟ وما دعاكم إليه؟ وما أردتم منه؟ أو هل يكون لكم قول يحكى، فتكونوا أئمة على حدة أم قد أتاكم في هذا الباب علم لم يأت الناس؟...



كلمة الإمام الرازي

ولنخر الدين أبي عبدالله الرازي كلمة موجزة في دحض شبهة القول بالصرفة، قالها رداً على مقالة النظام بأن القرآن كسابر الكتب المزملة لبيان الأحكام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به.

قال الرازي: ويدل على فساد ذلك وجوه ثلاثة:

الأول: أن عجز العرب عن المعارضة - لو كان - لأن الله أعجزهم عنها، بعد أن كانوا قادرين عليها، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، بل يجب أن يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم، بعد أن كان مقدوراً عليه لهم، كما أن نبياً لو قال: معجزتي نبي أضع يدي على رأسي هذه الساعة ويكون ذلك متعذراً عليكم - ويكون الأمر كما زعم - لم يكن تعجب التوم من وضعه يده على رأسه، بل من تعذر ذلك عليهم. ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها بطل ما قاله النظام.

الثاني: أنه لو كان كلامهم مقارباً في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدي والقرآن، ولما لم يكن كذلك بطل ذلك.

الثالث: أن نسيان الصيغ المعلومة في مدة يسيرة يدل على زوال العقل، ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدي، فبطل ما قاله النظام^١.

كلمة كمال الدين الزملكاني

وقال الزملكاني - تعقيباً على ما نسبته إلى النظام من القول بالصرفة حسبما نقلناه عنه -: وهذا خلف من القول، إذ لو كان كذلك لكان ينبغي أن يتعجبوا من حالهم دونه، فإن من يضع يده على رأسه دون سائر الحاضرين، بأن يحبس الله أيديهم، لا يعجب منه، بل من حالهم...

ولكان ينبغي أن يعارضوه بما قبل صرفهم من كلامهم الفصيح... ولأن سلب قدرهم يجريهم مجرى الموتى، فلا يجدي اجتماعهم قوة وظهوراً على المعارضة وهو مخالف لقوله تعالى: «قُلْ لِّعَنِ الْجَمْعِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا عِثْلَ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ»^٢.

قال: وأما قصة زكريا عليه السلام - صمته ثلاثة أيام - فحجة له فيما نحن بصدده، إذ الآية كانت في سلبه النطق، لا في نطق غيره...^٣

سعد الدين التفتازاني

وقال التفتازاني: قد استدل على بطلان الصرفة بوجوه: الأول: أن فصحاء العرب إنما كانوا يتعجبون من حسن نظمهم وبلاغته وسلاسته في جزائه، ويرقصون رؤوسهم عند سماع قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ...»

١ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام الترازي، ص ٧٩ - ٨٠.

٢ - الإسراء ١٧: ٨٨.

٣ - التبرهان للكاشف عن إعجاز القرآن، ص ٥٣ - ٥٤.

الآية لذلك، لالعدم تأثي المعارضة مع سهولتها في نفسها!

الثاني: أنه لو قصد الإعجاز بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلو طبخته...

الثالث: قوله تعالى: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ».. الآية فإن ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير في مقام التحدي إنما يحسن فيما لا يكون مقدوراً للبعض ويتوهم كونه مقدوراً للملك فيقتصد نفي ذلك...

كلمة العلامة كاشف الغطاء

وقال العلامة كاشف الغطاء - بعد إبطال القول بالصدفة بشأن الأنبياء عليهم السلام بأن اتفق لهم العلم بأسباب سحر لم يعثر عليه سحرة عصرهم، وأن هذا يشبه القول بأن وجود العالم بالصدفة والبخت والاتفاق لأعن صنيع صانع وتدبير واضح - قال: كما اتضح من جميع ذلك منتهى فساد القول بأن إعجاز القرآن ليس هو بجوهره وذاته، بل بالحجز عنه والصرفة دونه. إن ذلك إلا رأي عازب، وقول كاذب، قول من لم يجعل الله له من معرفة البلاغة حظاً، ولا حصل من شرائف حقائقها ومعانيها إلا حكاية ولفظاً، فمد ضايقه المعجز والجهالة لجماً إلى هذه المقالة، وضلّ يخط في أمثال هذه الضلالة. ولست أرى لهذه الشبهة صورة صدق ولباس حق، يدعو إلى توفر العناية في شأنها وإيضاح بطلانها، لاسيما وكل من عنى بهذا الشأن وتصدى لعلم بلاغة القرآن، قد شتّع على هذا القول وبالع في بطلانه وإحالة على أن من نسب إليه ذلك لم ينقل عنه الاستناد إلى حجة ولا ضعيفة، والتعويل على شبهة ولا سقيمة، وإنما هو رأي رآه، أو احتمال أبداه.

كلمة هبة الدين الشهرستاني

وقال السيد هبة الدين الشهرستاني: نعم، جنح أناس إلى القول بالإعجاز لسبب منعة إلهية، ولصرف «الصرفة». وأرادوا من الصرفة أن الله سبحانه كما قديهم العباد أحياناً،

كذلك قد يصرف الهمم والأفكار عن أن يباري القرآن أحد. مذهب أعوج أعرج أو كما قيل: حرفة عاجز وحجة كسول، لا يليق إسناده إلى علمائنا الفحول. لأن الله عز شأنه فياض عدل، ذو رفة وفضل، فهو أرفع شأنًا من أن يأمر الإنس والجن أن يباروا القرآن، ويرضى منهم بمباراة بعضه لو تعذر عليهم مباراة كله. ثم يعترض سبيلهم ويصرف منهم القوة والهمة، ويمنعهم من أن يأتوا بما تحداهم به...

والظاهر من ظواهر الآيات أن القرآن في ذاته، متعال بميزاته، حائز أرقى المميزات وأبلغ المعجزات، وينبغي أن يكون كذلك إن أريد مدحه وفضله. أمّا لو حصرنا وجه الإعجاز في نقطة الصرفة... فيتم حتى مع كونه كلاماً مبذولاً مردولاً للغاية، ففي الوجهه الوجهية السالفة غنية وكفاية...

كلمة مصطفى صادق الرافعي

وكلمة أخيرة قالها الأستاذ الرافعي، فذهب شيطان المتكلمين أبو إسحاق النظام إلى أن الإعجاز كان بالصرفه، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خارقاً للعاده... فكلنا وكلمة على هذا القبيل هو المعجزة لا القرآن. وهذا الذي يروونه عنه أحد شطرين من رأيه، أمّا الشطر الآخر فهو الإعجاز إنما كان من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية.

وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفه أن الله سلبهم العلوم.. التي يحتاج إليها في المعارضة ليحيوا بمتل القرآن. فكأنه يقول: إنهم بلغاء يتقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما ليسته ألفاظ القرآن من المعاني، إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم... وهذا رأي بين الخلط كما ترى.

غير أن النظام هو الذي بالغ في القول بالصرفه حتى عرفت به، وكان هذا الرجل من شياطين أهل الكلام، على بلاغة ولسن وحسن تصرف... وقد جاء رأيه في مذهب

الصرفة دون قدره، بل دون علمه، بل دون لسانه...

... وهو عندنا رأي لو قال به صبيبة المكاتب وكانوا هم الذين افتتحوه وابتدعوه، لكان ذلك مذهباً من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليومهم أو أنهم قد عرفوا!

والأفان من سلب القدرة على شيء بانصراف وهمه عنه، وهو بعد قادر عليه مقرر له، لا يكون تعجزه بذلك في البرهان إلا كعجزه هو عن البرهان، إذ كان لم يعجزه عدم القدرة. ولكن أعجزه القدر وهو لا يغالب والمرء ينسى ويذكر، وقد يتراجع طبعه فترة لا عجزاً، وقد يعتريه السأم ويتخونه الملل، فينصرف عن الشيء وهو له مطيق، وذلك ليس أحق بأن يسمى عجزاً من أن يسمى تهاوناً، ولا هو أدخل فيما يحمل عليه الضعف منه فيما يحمل عليه فضل ثقة.

وعلى الجملة فإن القول بالعسفة لا يختلف عن قول العرب فيه: «إن هذا إلا سحر»^١ وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضرباً من العمى «أفيسحرو هذا أم أنتم لا تبصرون»^٢ فاعتبر ذلك بعضه ببعضه فهو كالشيء الواحد...^٣ وفي الختام لا بأس أن نعرف أن الشيخ العماري (مبعوث الأزهر في السودان) حبيب من كلمات أمثال الرافعي والشهرستاني وكاشف الغطاء، وحتى المتقدمين كصاحب الطراز والتفتازاني والجرجاني وأضرابهم... خطابات لا تنفي دليلاً، فحاول ترجيح قوله ابن حزم لكثرة دلائله (التي سردها في الفصل ونقلها العماري في مجلة الأزهر)^٤... قلت: يالها من رزية، إذ أصبحت سفاسف الأوهام دلائل، وأما شواهد العقول فدلائل!! ولا سيما ما أسهبه ابن حزم، لم نجد فيها ما يروي الخليل أو يشفي العليل... فإن كان القوم لا يملكون دليلاً - على ما زعمه العماري - فإن خصومهم أفلس ودلائلهم أضمر... بلا كلام.

١ - المصدر ١٧٤: ٢٤.

٢ - المصدر ١٧٤: ٢٤.

٣ - إعجاز القرآن، ج ١، ١٤٤: ١٤٦.

٤ - راجع: رسالة الإسلام تسليتها الرابعة: العدد الأول، ج ١، ٥٩-٧٢.

شهادات وإفادات

لم تكن العرب لتجهل موضع الرسول ﷺ وصدقته وإخلاصه في دعوته كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وقد لمسوا من حقيقة القرآن أنه الكتاب الذي لا ريب فيه، وقد بهرهم جماله وحسن أسلوبه وعجيب بيانه نعم سوى حميئة جاهلية حالت دون الاستسلام للحق الصريح والاعتراف بصدق رسالته الكريمة. فلم تكن محاولاتهم تلك إلا تملّصات هزيلة وتخلّصات معوجة عن سحر بيانه وانفلاتاً من روعة جلاله وهيمنة كبريائه.

كانت قضية الإعجاز القرآني بدأت تفرض ثقلها على كاهل العرب، شاءت أم لم تشأ. وقد أدركت قريش من أول يومها ما لهذا الكلام السماوي من روعة وسحر وتأثير، ولم يكف يملك أي عربي صميم - إذ يجد ذوقه الأصيل سليقة وطبعاً - إلا أن يرضخ لأبهة بيانه الخارق، معترفاً بأنه كلام الله وليس من كلام البشر:

الوليد بن المغيرة المخزومي

هذا هو طاغية العرب وكبيرها الأسنّ وعظيمها الوليد بن المغيرة المخزومي يقول:

«يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي جنون، وإنّ

قوله لمن كلام الله...»^١

قاله على ملاً من قريش وذلك بعد أن سمع القرآن لأول مرة، على أفواه المسلمين
يرتلونه ترتيلاً، فأعجبه قرآنه وبهرته جذبته.

وإن قريشاً لهايت تلك المفاجأة الخطيرة، ومن ثم تأمرت على أن تحول دون إشاعة
النبا، فقالوا: لئن صبا الوليد - وهو ذو حسب ومال - لتصبأ قريش كلها.

قال أبو جهل: أنا كفيكم شأنه، فانطلق حتى دخل على الوليد بيته، فقال له: ألم تر أن
قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ (يريد التأنيب عليه بأنه إنما قال كلامه الآنف طمعاً في
المال) قال: أليست أكثرهم مالاً وولداً؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على
أصحاب محمد ﷺ لتصيب من طعامهم! قال الوليد: أقد تحدثت به عشيرتي؟! فلا تقصر
عن سائر بني قصي... فعزم أن لا يقرب أحداً من المسلمين بعد ذلك.

وله شهادة أخرى نظيرتها، قالها عندما مرَّ على رسول الله ﷺ وهو يتلو في صلاته
بضع آيات من سورة المؤمن، فانتقل إلى مجلس قومه مندهشاً قائلاً:
«والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله
إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى
عليه»^٢.

وفي رواية أخرى - ذكرها القاضي عياض - : لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ
يقراً: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
يُعْظَمُ لَكُمْ تَذَكُّرُونَ»^٣ أعجبه فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله
لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما هذا بقول بشر.^٤

ورواها أبو حامد الغزالي ناسباً لها إلى خالد بن عقبة، ولعله أخو الوليد بن عقبة بن

١ - جامع البيان، ج ٢٩، ص ٩٨.

٢ - المعجزة العظيمة، ص ٥١. والطلاوة - مثاقفة الكلام - انبجعة وانتضارة. والمغدق - الخصيب والبنات بالمغدق وهو

انضطر المنزر.

٣ - التحف، ١٦: ٩٠.

٤ - انشأ بتعريف حقوق المصطفى ﷺ القاضي عياض، ج ١، ص ٢١٠، وراجع التشرح تصلاً علي القاري، ج ١، ص ٣٦٦.

أبي معيط. جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: اقرأ عليّ القرآن! فقرأ عليه: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ»... الخ.

فقال له خالد: أعيد! فأعاد ﷺ فقال خالد: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفل له مغدق، وإن أعلاه لمتمر، وما يقول هذا بشر».^١

وهكذا جاء في الإصابة وفي الذيل «وما هذا بقول بشر». أمّا الاستيعاب وأسد الغابة فمتوافقان مع نسخة الغزالي.

قال أبو عمر: لا أدري هو خالد بن عتبة بن أبي معيط أو غيره وظني أنه غيره.^٢ وأيضاً روى الحاكم بإسناده الصحيح أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكانت رقّة له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمّ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال الوليد: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتتعرض لما قبله! قال: قد علمت قريش أنني من أكثرهم مالاً! قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له. قال: وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا. «والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمتمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم (أو ليحكم) ما تحته». قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر، فلمّا فكر قال: هذا سحر يؤتر، يأتريه عن غيره، فنزلت: «ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً».^٣

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري.^٤ وهكذا ائتمروا فيما يصنعون عندما تفد العرب في مواسم الحج فيستمعوا إلى قرآنه فينجذبون إليه انجذاباً. فتوافقوا على أن يترصدوا لقبائل العرب عند وفودها للحج في

١ - إحياء العلوم، باب تلاوة القرآن، ج ١، ص ٢٨٦.

٢ - الإصابة لابن حجر، ج ١، ص ٤١٠؛ والاستيعاب بهامشه، ج ١، ص ٤١٢؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ج ٢، ص ٩٠.

٣ - المصدر ١١: ٧٤.

٤ - المستدرک علی التصحیحین، ج ٢، ص ١٧٠؛ وراجع: اندر المنثور، ج ٦، ص ٢٨٣؛ وجامع التبيان، ج ٢٩، ص ٩٨.

مداخل مكة، ويأخذوا بسبل الناس، لا يمر بهم أحد إلا حذّروه من الإصغاء إلى ما يقوله محمد بن عبد الله ﷺ فيقولوا: إنه لسحر يفرّق به بين المرء وأخيه وأبيه وبين المرء وزوجه وولده وعشيرته!

كان الوليد قد حضر الموسم فاستغلت قريش حضوره فاستماروه بشأن دعوة محمد ﷺ فأشار عليهم بتهمة السحر لما لم يجدوا سبيلاً إلى رميه بجنون أو شعر أو كهانة! قال: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً!

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس قتل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا، أسمع. قالوا: نقول: كاهن!

قال: لا والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمرة الكاهن ولا سجعته.^١

قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا المجنون وعرفناه. فما بخنقه.^٢ ولا تعالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر، قال: وما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّ رجز وهزج وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم.^٣

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: «والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق،^٤ وإن فرعه لجنّاة وما أنتم بقائلين من

١ - زمزمة الكاهن: رثّة صوته عند قراءة الأوراد على نحو ما فعله الفرس عند شرب الخمر من صوت مصيصة.

٢ - خلق المجنون كناية عن بحة صوته. وقد اتجه: تعاطيه أموراً غير منتظمة كناية عن هذبه.

٣ - إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يحدّ خيطاً ثم ينفث فيه أي ينفخ ما يدممه من أوراد.

٤ - قال التمهيلي: العذق يفتح التين الثخلة. استدارة من الثخلة التي تبت أصلها وقوي، وطاب فرعها إذا أجنبي أي انعطفت نصرها. الترويض الأنف، ج ٢، ص ٢٦.

هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل». وإن أُقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إِيّاه، وذكروا لهم أمره.^١

وكانوا إذا رفع النبي ﷺ صوته بالقرآن، جعلوا يصفقون ويصفرون ويخلطون بالكلام لئلا تسمع قراءته «وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ نَعْمَ لَكُمْ تَغْيُونَ».^٢ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه. قال: بالتصغير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، قريش تفعله.^٣

الطفيل بن عمرو الدوسي

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي شاعراً نبياً من أشراف العرب، كان قد قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد حصل بها، وقد فرّق جماعتنا وشئت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمع منه شيئاً. وكانت قريش قد تخوّفت من إسلام الطفيل، الشاعر المفلّق، وللشعر عند العرب مكانة سامية، فإذا أسلم اندفعت العرب وراءه.

قال الدوسي: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلّمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً، فرّقاً من أن يبلغني شيء من قوله. قال: فغدوت إلى المسجد وإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فتمت قريباً

٢ - فضائل ٥٦: ٢٦.

١ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

٤ - أي أوجد معضلة فيها، والمعضلة هي المسئلة.

٣ - اندر المنثور للسيوطي، ج ٥، ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واتكل أمي، والله إنني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فتبعته إلى بيته، وحدثته الحديث، وقلت له: فأعرض عليّ أمرك! قال: فعرض عليّ الإسلام وتلا عليّ القرآن. «فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه» فأسلمت وشهدت شهادة الحق... فرجع إلى قومه وكان داعية الإسلام، وأسلمت معه قبيلة دوس.^١

هذه شهادة شاعر لبيب له مكانته عند العرب وله معرفته وذوقه وسليقته، جذبت روعة كلام الله وقلوبه من كافر وتيّ مشرك إلى داعية من دعاة الإسلام!

النضر بن الحارث

كان أبو جهل قد أزمع على أن ينال من محمد ﷺ فأخذ حجراً وجلس ينتظر قدومه ﷺ حتى إذا جاء وقام للصلاة بين المكني اليماني والحجر الأسود جاعلاً الكعبة بينه وبين الشام، فلما سجد احتمل أبو جهل الحجر وقبل نحوه، حتى إذا دنى منه رجع منهزماً منتقاً لونه^٢ مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، فقامت إليه رجال من قريش وقالوا له: مالك يا أبا الحكم، قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة - وكان قد عاهد الله لينفضن رأسه بحجر ما أطاق حمله -^٣ فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته^٤ ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يبتلعني!

فلما قال لهم ذلك أبو جهل، قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف وكان

١ - سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٦ - ٢٥، وأسد الغابة، ج ٣، ص ٥٤.

٢ - انقاع اللون: تغيره.

٣ - انفضح: انشده وانكسر.

٤ - انقصرة - بفتحين - انحلق.

من رؤساء قريش، فقال: يا معشر قريش، إني والله قد نزل بكم أمر ما أتيتكم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمناً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قتلتم: ساحراً! لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونشئهم وعقدتهم. وقلتم: كاهن! لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم^١ وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر! لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه. وقلتم: مجنون! لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنثه ولا وسوسته ولا تخليطه. قال: يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

قال ابن هشام: وكان الضر هذا من شياطين قريش وكان ممن ينسب العداء لرسول الله ﷺ ومن ثم لم تكن شهادته تلك اعترافاً بصدقه، ولا إيماناً بكتابته، وإنما هي إثارة لشحناء قريش وتأليباً لعدائهم نحو دعوة الإسلام.

وسأتي على بعض مواقف التعنت مع رسول الإسلام (في فصل القرعات). وقع أسيراً يوم بدر، فقتله رسول الله ﷺ فيمن قتلته صبراً.^٢

عتبة بن ربيعة

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنها؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه

١ - انتخاب: مواجس نديّة مضطربة.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٢٠، ٣٢١.

٣ - اندر المنثور، ج ٣، ص ١٨٠.

فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة^١ في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسنّيت به أحلامهم^٢ وعيّبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعذك تقبل منها بعضها!

فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع!

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً، سودناك علينا، حتى لا تقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا... قال: وإن كان هذا الذي يأتيك رتيماً^٣ تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع^٤ على الرجل حتى يداوى منه!

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقدر فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم! قال ﷺ: فاسمع مني! قال عتبة أفعلي! قال رسول الله ﷺ: يقرأ من مفتتح سورة فصلت:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا...» فمضى ﷺ يقرأها عليه، وهو منصت لها. قال: وكان عتبة ينصت لقراءته ﷺ وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت؟ فأنت وذاك!

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بخير

١ - سطة كعدة مصدر محذوف انداء مأخوذ من الوسط بمعنى اشرف، يقال وسط في حميه أي حمار شريف.

٢ - احلام: اتفيل. ٣ - الرتي: ما يتراعى للإنسان من اتجن.

٤ - التابع: من يتبع الإنسان من اتجن.

الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟
قال: ورأيتني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا
بالسحر ولا بالكهانة!

يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه
فاعتزلوه فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيته
بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا:
سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.^١
وهي أيضاً شهادة ضافية من كبار قريش وزعماء العرب وساداتهم.

أنيس بن جنادة

هو أخو أبي ذر الغفاري، كان أكبر منه، وكان شاعراً معارضاً يثوق أقرانه عند
المعارضة. يثبتك عن ذلك حديث إسلام أخيه أبي ذر جندب بن جنادة، قال: والله ما
سمعت بأشعر (أي أكثر شعراً وأحسن نظماً) من أخي أنيس، لقد ناقض (أي عارض)
اتني عشر شاعراً من معاريف شعراء الجاهلية، فغلهم، وكان قاصداً مكة فقلت له:
فليستخبر من حال رسول الله ﷺ فرأت عليّ أي بطل، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟
قال: «لقيت رجلاً بمكة على دينك - (إذ كان أبو ذر يعصلي إلى ربّه منذ ثلاث سنين) -
يزعم أن الله أرسله».

قلت: فما يقول الناس؟ قال: «يقولون شاعر، كاهن، ساحر»، قال أبو ذر: - وكان أنيس
أحد الشعراء - قال أنيس: «لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على
أقراء الشعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي، أنه شعراً والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون...»
قوله: أقرأ الشعر أي أوزانه وقوافيه.^٢

١ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١٤ - ٣١٥.

٢ - انشعا بتعريف حقوق المصطفى، ج ١، ص ٢٢٤؛ وشرح الانشعا، ج ١، ص ٣٢٠ - ٣٢١؛ وراجع: صحيح مسلم، ج ٧، ص

١٤٣؛ وانصتدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ٤٣٩؛ والإصابة، ج ١، ص ٧٦؛ و ج ٤، ص ٦٣.

ثلاثة من أشرف قريش يتسللون بيت الرسول

كانت قريش ربما تتسلل ليلاً إلى استماع القرآن من رسول الله ﷺ أو أحد أصحابه، لشرى ما في هذا الكلام من سرّ التأثير. فقد اتفق أن أبي سفيان بن حرب^١ وكذا أبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق التقي وكان لَمَازاً خبيثاً يتظاهر بغير ما يبطنه، خرجوا ليلاً إلى بيته ﷺ من غير أن يعلم كلٌ بصاحبه، فجلس كل واحد في محبته لا يعلم به أحد حتى مطلع الفجر، يستمعون إلى قرآنه وهو قائم يصلي في بيته ﷺ وعند الصباح أخذ كلٌ منهم طريقه إلى بيته حتى إذا جمّعهم الطريق، فشلوا وتلاوموا، وقال بعضهم لبعض، لا تعودوا لمثل ذلك، فلورآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في أنفسه شيئاً وكان ذلك تأييداً لموضع محمد ﷺ ثم انصرفوا، ولكن من غير أن ينقضي عجبهم أو يرتوي ظمؤهم إلى استماع هذا الكلام السحري العجيب، ومن ثمّ عادت مسيرتهم في الليلة الثانية والثالثة، وفي كل ليلة يفتضحون عند الصباح، حتى تعاهدوا فيما بينهم أن لا يعودوا أبداً.

وفي صباح اليوم الثالث جاء الأخنس إلى أبي سفيان يسترئيه فيما سمعه من محمد ﷺ فقال: «والله لقد سمعت أميراً أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها!» فقال الأخنس: وأنا كذلك، والذي حلثت به!

ثم رجع إلى أبي جهل ودخل عليه وقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد ﷺ فقال: ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان!

والآن قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقك. فقام عنه الأخنس وتركه!

هكذا تحكّم الحسد والعصبية في نفوس قريش، فحال دون قبولهم للحقّ الصريح،

١ - ويرى مكان أبي سفيان، التويز بن الصغيرة، قال القرطبي: وهؤلاء الثلاثة من أبناء قريش الذين لا يدخل بهم في الثلاثة أحد إجازة القرآن - في التهامش - ص ٢٦٣. ٢ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٣٧-٣٣٨.

فأخزاهم الله.

«قُلْ مَوْتُوْا بِعِظْكُمْ». ^١ «كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ». ^٢

فصحاء قریش تحاول معارضة القرآن

ذكر أبو الحسن ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦) بشأن ما يعين على جسد الشعر - وأن الطعام الطيب، والشراب الطيب، وسماع الغناء ممّا يرقّ الطبع، ويصفّي المزاج، ويعين على الشعر - : أن قریشاً لما أرادت معارضة القرآن، عكف فصحاءهم الذين تعاضوا ذلك على لباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم. فلما سمعوا قول الله عزّ وجلّ «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ، وَيَا سَمَاءُ اقْنَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» ^٣ يسّوا ممّا طمعوا فيه، وعلموا أنّه ليس بكلام مخلوق... ^٤

وفي المجمع: فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام ولا يشبه كلام المخلوقين، وتركوا ما أخذوا فيه واقتروا... ^٥ قال الرمخسري: ولما اشتملت عليه الآية من المعاني والنتكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم، لا لتجانس الكلمتين وهما قوله «ابلعي» و«أقلعي» وذلك وإن كان لا يخلي الكلام من حسن، فهو كغير المثلثات إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللبّ وما عداها قشور... ^٦

سنأتي على محاسن الآية ودقائق مزاياها - بتقرير من جهابذة الفن - عند ذكر الشواهد على النكت البلاغية في القرآن، في فصل قادم إن شاء الله.

١ - المجادلة ٥٨: ٢٦.

٢ - آل عمران ٥٣: ١١٩.

٣ - التمهيد، ج ١، ص ٢١١.

٤ - مود ١١: ٤٤.

٥ - التكملة، ج ٢، ص ٣٩٨.

٦ - مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦٥.

جذبات وجدوات

«اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مِثْلَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْسُونُ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَنْدِينُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ»^١.

نعم هو أحسن حديث سمعته العرب بل البشرية جمعاء، كتاباً متشابهاً، لا يختلف أسلوبه في التعبير والأداء، في أبدع لفظ وأفخم معنى، في روعة وأناقة وإكبار، لا يختلف أوله عن آخره ولا أطرافه عن وسطه.

مثاني، تتكرر قراءته من غير ملل ولا كسل، بل هو المسك ما كررته يتضوع. إنها الأنفس البشرية تهتز جداً عند استماعه، وتطرب خفة عند تلاوته، إنها جذبة روحية تنجذب النفس انجذاباً من داخلها حيث جذوات الروح الملهبة وليس وهماً أو خيالاً شعرياً في تيه الهيام.

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أُنْقِى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»^٢.

وعدّ القاضي عياض ذلك من دلائل إعجاز القرآن، قال:

«ومنها - من وجوه الإعجاز - الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتر بهم عند تلاوته، لقوة حاله وأناقة خطره، وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستقلون سماعه ويزيدهم نفوراً، ويودون انتقطاعه، لكرهتهم له. وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيئته إثارة مع تلاوته، توليه انجذاباً، وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به.

ويدل على أن هذا شيء خاص به أنه يعترى من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره. كما روي عن نصراني أنه مرّ بقارئ، فوقف يبكي! فقيل له: ممّ بكيت؟ قال: للمشجاء والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة

١ - من تلك الجذوة التي جذبت موسى عليه السلام نحو الشجرة «فكلاماً أناها توديني من شاطئ الوادي الأيمن في النقع المأزكة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين» انقص ٢٨: ٣٠.

٢ - ج ٣: ٥٠: ٣٧.

٢ - الترمذ ٣٩: ٢٣.

وآمن به، ومنهم من كفر...» فذكر حديث جبير بن مطعم وعتبة بن ربيعة، فيما يأتي.^١

نفوس مستعدة

«كِتَابٌ فَضَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا يُقَوْمُ يَعْلَمُونَ».^٢

نعم، تلك قلوب واعية تتفتح مساريها تلقاء آيات الذكر الحكيم، لا شيء سوى أنها نفوس مستعدة صنعها خالق السماء، وها هي كلماته المشرقة وجدت مواضعها فهبطت إليها.

«وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَا نَنَا لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ».^٣

وفد نصارى نجران

جاءت ركب النصارى عشرون رجلاً أو قريب من ذلك، إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أندية حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم شيئاً من القرآن، فإذا هم لما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، فاستجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا من أمره ما قد وصفت لهم كتبهم.

ولما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبتكم الله من ركب! بعنكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تظمن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال! ما نعلم ركباً أحق منكم! فقالوا لهم: سلام عليكم لانجاءكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا

١ - انشدا بتعريف حقوق المصطفى، ج ١، ص ٢٣٠ - ٢٣١، وراجع شرحه تلامذ علي القاري، ج ١، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

٢ - فضلت ٥: ٨٣-٨٤.

٣ - فضلت ٥: ٨٣.

خيراً^١.

قيل: ونزلت فيهم: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْيُسَيِّرَةَ وَرِمَا زَرَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا النَّغَاةَ أُعْرِضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَانَا وَلَكُمْ أَعْمَانُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ»^٢.

سويد بن الصامت الشاعر

قدم سويد بن الصامت، أخو بني عمرو بن عوف (وكان ابن خالة عبدالمطلب) مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد يسميه قومه: الكامل، لجلده وشعره^٣ وشرفه ونسبه، وكان له علم بكتب السالفين. فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام. فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: ما الذي معك؟ قال: مجلدة لقمان - يعني صحفاً فيها حكمة لقمان - فقال له رسول الله ﷺ: أعرضها علي، فعرضها عليه. فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى علي هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد

١ - أي تم نقشر لأفنديا في مكتبة التغير والتصلاح.

٢ - انقضى ٢٨: ٥٢-٥٤. راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٣٢.

٣ - ومن شعره الرقيق قوله:

ألا رب من تدعو صديقاً وتو تری	مقاتته بانغيب ساءك ما يفری
مقاتته كاتشهد ما كان شاهداً	وبانغيب ما نور عاني كسرة التمر
يمسرت بساديه وتحت أديمه	نسيمة غش تبتری عقب الظهر
تبين لك العينان ما هو كاتم	من التل والتبغضاء بالتظفر التمر
فرشني بنخير طائما قد برينني	فخير الصواني من يرين ولا يبري

قوله: ما نور، هو اتصيف الصوشي. ويقال: رائه أي قواد. وبراء أي أضعفه. سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٦٧.

٤ - قال التمهيلي: ولقمان هذا كان نوبياً لمن أهل نوباً من أهل مكة، وهو لقمان بن عطاء فيما ذكروا. وابنه الذي يذكره القرآن هو داران فيما ذكر الزجاج وغيره.

منه، وقال: إِنَّ هَذَا لَكَوْلٌ حَسَنٌ. ثُمَّ انصرف عنه وقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتلته الخزرج. وكان رجال من قومه يقولون: إِنَّا لَنَرَاهُ قَدْ قَتَلَ وَهُوَ مُسْلِمٌ.

إسلام سعد وأُسَيد

وكان رسول الله ﷺ قد بعث مصعب بن عمير بن هاشم مع وفد الأنصار (الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على نبذ الشرك واجتناب المحارم) وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفتحهم في الدين، فنزل على أبي أمامة سعد بن زرارة بن عدس، فكان يصلي بالقوم لأنَّ أوساً وخزرجاً كره بعضهم أن يؤمَّه بعض.

واتفق أنَّ سعد خرج بمصعب، يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر، على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

وكان سعد بن معاذ وأُسَيد بن حضير، يومئذ سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد لأُسَيد: لا أَبُاكَ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاً، فارجرهما وانتهما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لو لا أنَّ سعد مني حيث عرفت كفتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً.

فأخذ أُسَيد حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه سعد، قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلمه... فوقف أُسَيد عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاً؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره! قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما.

فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن.

قالا (أي أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير): فوالله لقد عرفنا الإسلام في وجهه قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهله!

ثم قال أسيد: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر نوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، ففعل وركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ...

ثم أخذ أسيد بن حضير حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك!

فقام سعد بن معاذ مغضباً مبكراً، فحلف بالله ما أذكر له. فأخذ الحربة من يد أسيد وقال: والله ما أراك أغنيت شيئاً! ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف أن أسيد إنما أراد منه أن يسمع بنفسه منهما، فوقف عليهما متشتماً، وقال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمانة أما والله، لو لا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره! فقال له مصعب: أو تتعد فتسمع... إلى آخر ما ذكره لأسيد.

فرغب سعد في الإسلام كأخيه أسيد وفعل مثل ما فعل وشهد الشهادتين. ثم أقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما وقف على القوم، قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة! قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة.^١

بكاء النجاشي

وفي الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة،^٢ أرسل إليهم النجاشي يستخبر أحوالهم فتقدم جعفر بن أبي طالب، وكان لسان القوم، وقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجار، ويأكل القويّ الضعيف، فكنا على ذلك حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله - إلى أن قال -: فلمّا ضيّقت علينا قريش وحالات بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيّها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك شيء ممّا جاء به عن الله؟

قال جعفر: نعم. قال: فاقرأه عليّ!

فقرأ جعفر صدرّاً من سورة مريم فيها حكاه الله من حديث زكريّا ويحيى وعيسى وأمه الصديقة العذراء، وكان قد تلي الآيات بثرتهم أخذ بمجامع قلوب السامعين. فلمّا استمع النجاشي إلى هذا الترتيم الموهّب، بكى بكاءً شديداً حتّى اخضلت لحيته، وبكت الأساقفة الذين كانوا حضوراً وكانت صحنهم بين أيديهم وقد ابتلت بدموعهم، حينما سمعوا ما تلي عليهم من آيات الذكر الحكيم.

ثمّ قال لهم النجاشي: إنّ هذا وما جاء به المسيح ليخرجن من مشكاة واحدة. وذكر ابن هشام أنّه أسلم ومات مسلم وصلى عليه النبي ﷺ واستغفر له.^٣

١ - سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٧٧-٨٠.

٢ - كانت الهجرة إلى أرض الحبشة ذات مرحلتين، كان في المرحلة الأولى تمسّل رجلاً من مكّة نواذاً في خمسة عشر نفماً (أحد عشر رجلاً وأربعة نسائاً)، وفي المرحلة الثانية كانوا ثمانين رجلاً غير نساءهم وأطفالهم، وكان قد ترأسهم جعفر بن أبي طالب، وكان لسان القوم وهو الذي تكلم مع النجاشي وأصحابه فيما تكلم. والهجرة إلى الحبشة في مرحلتها تسمى الهجرة الأولى تجاء الهجرة الكبرى إلى المدينة.

٣ - المصدر، ج ١، ص ٣٤٩-٣٦٥.

عند رجال العلم والأدب المعاصر

ويجدر بالذكر، اعتراف رجال العلم والأدب المعاصر بهذه الجاذبية السحرية للقرآن، ولا سيما الأجانب لا يملكون خضوعهم تجاه عظمتها الخارقة. يقول الأستاذ المحقق - بجامعة كمبريج - «كنت كريج» في كتابه «كيف عرفت القرآن»: الإنسان عندما يبدأ بقراءة القرآن يجد نفسه منجذباً إليه، وكلما يتقدم في القراءة يشتد هذا الانجذاب، بحيث لا يستطيع ترك قراءته إلا بصعوبة.

وإني لأول مرة عندما فتحت القرآن أقرأه، حسبت أنها حالة عرضتني بالذات، ولكنني عندما راجعت زملائي - ممن زاول ترجمة القرآن إلى اللغات الأوروبية - وكاتبهم، وجدتهم على مثل حالتي على سواء. وجدير بالذكر أنها جذبة خاصة بنص الأصل وليست كما هي في تراجمه.

إن هذا التأثير على المسلمين، لا بد أنه طبيعي، بفضل عقيدتهم بوحياية القرآن وأنه كلام الله العزيز الحميد. أما تأثيره على الرجل الأوروبي وكذا المرأة الأوروبية، فيبدو غير طبيعي، ومن ثم فلا بد من التريث لديه وتحليله تحليلًا علميًا.

لا حاجة إلى بيان أن لا تأثير للقرآن عقائدياً على الإنسان المسيحي الأوروبي تأثيره على المسلمين. لأنه لا يراه وحيًا ولا يصدق بكونه كتاباً سماوياً نزل على محمد رسول الله! فلا بد أن هذه التأثير لا يعود إلى معاني القرآن ومفاهيمه الحكيمة كما هي عند المسلمين.

وقد راجعت عامة الأوروبيين المشغولين بشؤون القرآن، ووجدتهم متفقين القول في أن للقرآن جذبة مغناطيسية ساحرة، تعمل شرارتها في النفوس كما يعمل حجر المغناطيس في برادة الحديد لا يدعها تفارقه إلا بشدة وعنف.

ولهذه الجذبة - كما سمعت الكثير من المحققين والمترجمين للقرآن - أثرها بحيث إذا بدأ أحدهم يفتح القرآن ويقرأ منه، لا يستطيع أن يشاركه ويزداد اشتياقاً في مداومة القراءة إلى غير نهاية.

وقد جربت على نفسي: هل هذا التأثير يعود إلى اشتياقي المفرط في فهم معاني القرآن؟ فوجدتُ الجواب: لا، وإن كان اهتمامي بمعرفة معاني القرآن كثيراً، لكنه ليس هو العامل الوحيد، بل المعاني إذا كانت غير متسلسلة تسلسلاً منطقيًا، وكانت متفرقة إلى حدٍّ ما، ليس لها ذلك التأثير والجاذبة الملحة. إنما هي في جرس الألفاظ وفي روعة الكلمات المنضدة ذلك النضد البديع، والمنظمة ذلك النظم العجيب. وفي نظامه الصوتي الغريب، الذي يأخذ بالألباب ويدوي برئته ملأ الآفاق.

ويمكن تحليل ذلك بنضد كلماته أولاً ذلك النضد الرائع، نضدٌ يفوق نظم الشعر ويسطو تأثيره على تأثير السحر. وثانيًا في استقامة سبكه وتأليف لفظه غير محايد على قواعد اللغة الأصح الأوضح الأفسى. وثالثًا جزالة الكلام وسلاسته، في صياغة عذبة يستسيغها كلُّ عربيٍّ صميم وكلُّ عارف بأصول اللغة. إنَّ هذه السهولة والسلاسة تجدها في عامة قصصه وأمثاله وحكمه، وحتى في ترسيماته وأحكامه، بحيث يهشُّ لها المسامع ويجلو لها الأذهان، فتراهم وهم يستمعون إليه إلا وتنتطح ترسيماته على صفحات الأذهان، وهو أثر متبقٍّ خالد للقرآن مدى الأقباب.



ويعجبني أن أذكر هنا حادثاً طريفاً عرض له سيّد قطب أثناء سفرته إلى «نيويورك» على ظهر باخرة، فيها الكثير من الأجانب المسيحيين. يقول هو عنه: إنَّ الأداء القرآني يمتاز من الأداء البشري: إنَّ له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً أن يؤثّر بتلاوته المجردة، على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً.. وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذي تقول - وإن لم تكن هي القاعدة - ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل.. ولئن أذكر نماذج ممّا وقع لغيري، ولكنني أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة، وكان ذلك منذ حوالي خمسة عشر

١ - راجع: كيف عرفت القرآن (قرآن را چگونه شناختم) ترجمة واقتباس ذبيح الله منصور، ص ٢٥ - ٢٦. الانتشارات مجيد - طهران ط ٣ / ١٣٦٩ هـ.ش.

عاماً..

كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجنب ليس فيهم مسلم.. وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم، أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاوّل عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاوّل تبشيريه معنا.. وقد يسر قائد السفينة - وكان إنجليزياً - أن نقيم صلاتنا، وسمح لبخارة السفينة وطهاثها وخدمها - وكلهم نوبيون مسلمون - أن يصلّي منهم معنا من لا يكون في «الخدمة» وقت الصلاة. وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجماعة على ظهر السفينة... وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب - معظمهم - متعلقون يرقبون صلاتنا... وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنّوننا على نجاح «القدّاس»!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيّدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم «تيتو» وشيوخه! - كانت شديدة التآثر والانفعال، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها، جاءت كشداً على أيدينا بحرارة، وتقول - في إنجليزية ضعيفة -: إنها لا تملك نفسها من التآثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح... وليس هذا موضع الشاهد في القصة... ولكن ذلك كان في قولها: أي لغة هذه التي كان يتحدث بها «قسيسكم»! فالمسكينة لا تنصوّر أن يقيم «الصلاة» إلا قسيس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة! وقد صحّحنا لها هذا النهم... وأجبناها.. فقالت: إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً.. ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه.. إن الموضوع الذي لفت حسي، هو أن «الإمام» كانت ترد في أثناء كلامه - بهذه اللغة الموسيقية - فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً.. هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعدة وقشعريرة! إنها شيء آخر!

كما لو كان - الإمام - مملوءاً من الروح القدس! - حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! -
وتنكرنا قليلاً، ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي
أثناء الصلاة! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيّدة لا تنهم ممّا نقول
شيئاً!

قال سيد قطب: إن وقوع هذه الحادثة - ووقوع أمثالها ممّا ذكره لي غير واحد - ذو
دلالة على أنّ في هذا القرآن سرّاً آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته. وقد يكون
إيمان هذه السيّدة بدينها، وفرارها من الجحيم الشيوعي في بلادها، قد أرفف حسّها
بكلمات الله على هذا النحو العجيب.. ولكن ما بالنا نعجب وعشرات الألوف ممّن
يستمعون إلى القرآن من عوائنا لا يطرق عقولهم منه شيء، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه
- وسره هذا - وهم لا يفتشون كثيراً من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيّدة
اليوغسلافية!!!^١



١ - في خلال القرآن - المجلد الرابع -، من ٤٢١-٤٢٣، انجزم ١١، من ١٤٩-١٥١.



مركز تحقيقات كالمپوٲر علوم اسامى

قرعات وقمعات

لم تكن قرعات كلامه تعالى القامعة بأقل تأثيراً في نفوس كافرة مضطربة، من جذبات جذواته لنفوس مؤمنة مطمئنة، وإن كانت قريش لسمع من سماع القرآن وتتنفر منه نفرة الوحش عند اضطياده! «كَأَنَّهُمْ هُمُ الْمُسْتَغْفَرُونَ فَكَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ»^١.

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِنُبَيِّنُوا وَلَهَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً»^٢.

«وَإِذَا ذُكِرَتْ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً»^٣.

«تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ. وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُوءاً أُوْنِثَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ. مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجِيمٍ أَثِيمٍ»^٤.

انظر إلى وقعات هذا الكلام الدامعة، إنها شديدة، تدهش وتذهل وتذيب:

.. وبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ!

٢ - الإسراء ١٧، ٤٦.

٤ - التاجية ٤٥، ٦-١١.

١ - القصص ٧٤، ٥٠، ٥١.

٣ - الإسراء ١٧، ٤٦.

.. فبشره بعذاب أليم!

.. أولئك لهم عذاب مهين!

.. من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً!

.. ولهم عذاب عظيم!

.. لهم عذاب من رجز أليم!

ست قرعات متتالية على رأس مستكبر أصبر على استكباره كأن لم يسمعها! لم تكن العرب الواهنة القوى، المتجزئة الأشلاء يومذاك، لتطبق تحمل هكذا قرعات عنيفة متتابعة شديدة، ومن ثم كان اللجوء إلى تولول وصراخ وصياح... استمع إلى الآيات التالية، ثم قايـس بين وقعاتها ونفوس منهاره كانت تحاول كفاح القرآن!

«يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ. وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْقَدُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ. وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ»^١.

«فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا نَسِيتُ يَا نَسِيتُ لَمْ أُوتِ كِتَابِيَةَ. وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَةَ. يَا نَسِيتُهَا كَانَتْ أَنْقَاضِيَةَ. مَا أُغْنِي عَنِّي مَانِيَةَ. هَذَلِكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةٌ»^٢.

«وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِلاً. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً. إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً»^٣.

٢ - التحاقة ٦٩، ٦٥، ٦٩.

١ - التمدارح ٨، ٧٤، ٧٤.

٣ - التمرمل ٨٣، ٦٠، ٦٣.

إلى غيرهنّ من آيات ذوات الأجراس المدويّة، وفي تقطيعات متقاربة ومتوازنة، تشبه قرعات الحدّادين المتواصلة ولاسيّما في نفوس آتمة ارتكبت مآسي وأجراما:

أبولهب وامرأته حمالة الحطب

أبولهب - واسمه عبد العزّي ابن عبد المطلب - وهو عمّ النبي ﷺ. وإنما سميّ أبولهب لإشراق وجهه ووضائه. وكان هو وامرأته «أمّ جميل» من أشدّ الناس إيذاءً لرسول الله ﷺ ومكافحةً للدعوة التي جاء بها.

قال طارق المحاربي: بينا أنا بسوق ذي المجاز، إذا أنا بشاب يقول: أيّها الناس، قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا! وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: أيّها الناس، إنّه كذاب فلا تصدّقوه! قلت: من هذا؟ قالوا: محمّد يزعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذاب.

روى ابن اسحاق بإسناده إلى ربيعة بن عباد، قال: إنّي، لمع أبي رجل شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذو وجهة (عليه شعر كثير). يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «يا بني فلان، إنّي رسول الله إليكم، أَدْعُوكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. وأن تصدّقوني وتمنعوني حتّى أنقذ عن الله ما بعثني به... وإذا بالرجل من خلفه يبادر فيقول: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزّي وحلفاءكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلال، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه... فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمّه أبولهب!

وكانت زوجته أمّ جميل في عونهِ في هذه الحملة الدائبة الظالمة - وهي أروى بنت حرب ابن أميّة أخت أبي سفيان - كانت تسعى عند القوم بالنميمة على رسول الله ﷺ لتفسد عليه قلوب القوم والعشيرة. والساعي بالنميمة: حامل حطب، كما قال الراجز:

إنّ بني الأدرم حمّالوا الحطب هم الوشاة في الرضاء والغضب

ولقد اتخذ أبولهب موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأوّل للدعوة. خرج

النبي ﷺ إلى البطحاء، فصعد الجبل ونادى: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش. فقال: «رأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تباً لك. فنزلت في شأنه: «تَبَّتْ يُدَا أُبَيُّ لَهَبٍ...».

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية رسول الله ﷺ خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشاً، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يُسلموا لهم محمد ﷺ.

وكان قد خطب بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يتقل كاهل رسول الله ﷺ بهما! وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل ينيرانها حرباً شعواء على النبي ﷺ وعلى الدعوة، لاهوادة فيها ولا هدنة. وكان بيت أبي لهب قريباً من بيت رسول الله ﷺ فكان الأذى شديداً!

نزلت سورة المسد لترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامراته، وتوكل الله - سبحانه - عن رسول الله ﷺ أمر المعركة:

«تَبَّتْ يُدَا أُبَيُّ لَهَبٍ وَتَبَّ...» والتباب: الهلاك والبوار والتقطع.

و«تَبَّتْ» الأولى دعاء، و«تَبَّ» الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء.

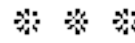
ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتحقق، وتنتهي المعركة ويسدل الستار!

واليدان هنا كناية عن القدرة والبطش، فإذا قيل: فلان خسر يده، أي قعد به الإفلاس فلا يقدر على شيء، وذكر اليمين أبلغ في الدلالة على هلاك الشخص وخسرانه نهائياً. ومعناه: إنه لم يكتسب يده خيراً يعود إليه وخسر مع ذلك هو نفسه.

«مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ» وكان ذاتروة طائلة وكان مريباً يكد على جمع المال ليُدخره ليوم الحاجة. لكن ماله الذي اكتسبه من حرام لم يف له، فقد ابتلى بقرحة

«العدسة» - وهي قرحة خبيثة معدية تشبه المجذام ذات نتن - فكان يعالج بنفسه لا يقترب منه أحد من أهله توقياً من القرحة، فترك ثلاثة أيام حتى أتنن في بيته فأهالوا عليه التراب ودفنوه لحاله.

«سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ» وعيد حتم بمآل الحال. «وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ» هي مقيدة بجرائمها وذمائمها قيداً وثيقاً.



وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوؤها، والذي أثر وقعه في نفس أم جميل التي دُعرت لها وجن جنونها:

«أبولهب، سيصلى ناراً ذات لهب...»

تناسق في اللفظ وتناسق في الصورة، فجهنم هنا نار ذات لهب يصلها أبولهب، وهو صاحبه أبداً.

«وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ...» والحطب مما يوقد به اللهب.

وتناسق آخر في جرس الكلمات، مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب الحنق بحبل من مسد!

وهذا التناسق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول ﷺ قد هجاها بشعر، وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأُم جميل خاصّة. تصوير يتبر السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مدّلة بحسبها ونسبها. تمّ ترسم لها هذه الصورة: «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ» في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب!

قال ابن اسحاق: إن أم جميل حمّالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن، خرجت تهرول وتولول صارخة كالمجنونة، تعوي في طرقات مكة وتقول: إن محمداً هجاني، وتستنجد بالشعراء أن يهجوا محمداً كما هجاها، ولكنها جعلت نفسها سخرية للناس. فأتمت رسول الله ﷺ وهو جالس بفناء الكعبة وفي يدها فهر (بمقدار ملى

الكف) من الحجارة، فلما وقفت عليه أخذ الله ببصرها من شدة هياجها فلم تبصر رسول الله، فجعلت تقول: أين محمد، أين الذي كان يهجوني؟! والله لو وجدته لشدخته بهذا الفهر. فجعلت تهجو النبي بقولها:

مُدُّمًا عَصِينَا وَأَمْرَهُ أَيْبِنَا. وَدِينَهُ قَلِينَا.

فانصرفت مدعورة مقهورة وكان آخر أمرها أن ماتت واجدة على أمرها في عاقبة

سورة^١.

أمية بن خلف

كان من أثرياء قريش معجباً بنفسه ومترفعاً برأيه ومن العتاة المستكبرين في الأرض. كان كلما رأى رسول الله ﷺ يسخر منه ومن المؤمنين به ويستهين بهم. وكان من خسسته الهمز واللمز بالناس وخاصة بالمستضعفين من المؤمنين، فيحاول التنقيص منهم والتعيب بشأنهم في دناءة ولؤم. فنزلت في شأنه:

«وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَّةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَا يَتَذَكَّرُ فِي الْحُطْمَةِ. وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ. نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ. إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ. فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ»^٢.

هذه الآيات تعكس صورة من الصور الواقعية التي تواجهها دعوة الحق أينما كانت، صورة التلذذ بالصغير النفس الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة، القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار. وهي صورة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان.

والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس، بحكم ترفعه الأخلاقي، وقد نهى عن السخرية واللمز والتعيب في مواضع شتى. إلا أن ذكرها هنا بهذا التشيع والتعيب

١ - راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٦، وترويض الألف تسهيلي، ج ٢، ص ١١١-١١٢ وغيرهما.

٢ - التهمزة ١٠٤، ١-٩.

مع الوعيد والتهديد، يوحى بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين، فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد، والتهديد الرعيب. والتهديد يجي، في صورة مشهد من مشاهد القيامة، كانت صورة منعكسة عن الحالة الرديئة التي زاولها أعداء الإسلام في هذه الحياة، فكانت صورة تمثّل للعذاب ماديّة ونفسية، وصورة للنار حسية ومعنوية. وقد لوحظ فيها التقابل بين الإجمام وطريقة الجزاء وجو العقاب.

فصورة الهمزة واللمزة، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تتأبها صورة «المنبوذ» المهمل المتردى في «الحطمة» التي تحطم كل ما يلقي إليها، فتحطم كيانه وكبريائه. وهي «نار الله الموقدة». وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحى بأنها نار فذة، غير معهودة. ويخلق عليها رهبة مفرعة رعوية. وهي «تطلع» على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والخروج. وتكملة لصورة هذا المحطم المنبوذ المهمل، جاء وصف النار هذه بأنها مخلقة عليه. ولا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام!

وفي جرس الألفاظ تشديد: «عدده، كلاً. لينبذن. تطلع. ممددة». وفي معاني العبارات تأكيد بشئى أساليب التوكيد: «لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ؟ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ...» فهذا الإجمال والإيهام، ثم سؤال الاستهوال، ثم الإجابة والبيان. كلّها من أساليب التوكيد والتضخيم. وفي التعبير تهديد: «ويل. لينبذن. الحطمة. نار الله الموقدة. التي تطلع على الأفئدة. إنها عليهم مؤصدة. في عمد ممددة».

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة «الهمزة واللمزة»! ولقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته وكان هو السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين. ويزلزل قلوب المعاندين. وينبت أرواح المؤمنين. وإنا نرى في عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين:

الأول: تقييح الهبوط الأخلاقي وتبشيع الحالة الهابطة من النفوس.
والثاني: المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة.
وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم
واستعلائها على الكيد اللئيم.^١

الوليد بن المغيرة المخزومي

كان طاغية العرب وكبيرها الأسن، صاحب جاه وثراء وبنيين وحفدة. لعبت به قريش
ليقوم بدور رئيسي خاص (الرمي بالسحر) في تكذيب رسول الله ﷺ والتبشيع للدعوة.
فنزلات بشأنه آيات مهددة ساحقة ماحقة، ترسم له صورة منكرة تتير الهزة والسخرية من
حالته وملامح وجهه التعيس ونفسه المنهزمة تجاه تلك القرعات العنيفة اللاذعة:
«ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا تَمْلُودَأ. وَبَنِينَ شُهُوداً. وَمَهْدَتْ لَهُ مُمَهِّداً.
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ! كَلَّا! إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَمِيداً. سَأَرْهَقُهُ صَغُوداً. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّر. فَقَبِلْ كَيْفَ
قَدَّر. ثُمَّ قَبِلْ! كَيْفَ قَدَّر؟ ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَسَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْتَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ. سَأُضْلِيهِ سَقَرًا. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر؟ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ. تَوَّاحَا
لِبَشَرٍ، عَلَيْهِمْ تِسْعَةُ عَشْرِ»^٢.

«ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً»: دعني وإيَّاه، سأكفيك دهاءه وأردبغيه على نفسه، فيأله
من مخلوق كفور لكبار نعم توحد فيها.
و«يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَمِيداً» وقف في وجه الدعوة وحارب رسولها
وصد عنها نفسه وغيره وأطلق حواليتها الأضاليل.

١ - راجع: في ظلال القرآن، المجلد ٨، ص ٦٦٢ - ٦٦٣.

٢ - هو أول من اقترح نظرية تكذيب النبي، رميه بالتمح وأشاع بين العرب، وكان تقترحه قاتل باتع بين الناس. ومن ثم
نزلت بشأنه الآيات اللاذعة دامية.
٣ - الصدوق ٧٤: ٦٦ - ٣٠.

«سَأُرْهِقُهُ ضَعُوداً»: عقبة شاقّة مرهقة والصَّعد: العقبة الصعبة (يشقّ سلوكها)، ويستعار لكل شاقّ «وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا»^١، ثم يرسم تلك الصورة الغريبة المتيرة للسخرية، والرجل يكدّ ذهنه، ويعصر أعصابه، ويقبض جبينه، وتكلح ملامحه وقسمائه... كل ذلك ليجد عيباً يعيب به هذا القرآن، وليجد قولاً يقوله فيه:

«إِنَّهُ فَعُكَّرَ، وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ! كَيْفَ قَدَّرَ؟ ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَ، ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ! فَقَالَ: إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ!!»

لحظة لحظة ترسمها ريشة التعبير القاسم، كما لو كانت حراباً يفتت، بل ومعولاً يدمر في ضربات متتابعات:

لحظة وهو يفكر ويدبر، ومعها دعوة هي قضاء «فقتل»! واستنكار كله استهزاء «كيف قدر»! ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالسكران. ولحظة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء.

ولحظة وهو يقطب حاجبيه عابساً، ويقبض ملامح وجهه بأسراً، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة!

وبعد هذا المخاض كله! وهذا الحزق كله! لا يفتح عليه شيء، سوى تفاهة فاضحة، فيقول: «إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ»!

فإذا انتهى عرض هذه اللمحات المخزية لهذا المخلوق المضحك، عقّب عليها بالوعيد المفرغ:

«سَأُصْنِيعَ سَقَرًا! وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ؟ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ» فهي تكس كساً، وتبلع بلعاً، وتمحو محوً، فلا يقف لها شيء، ولا يبقى وراءها شيء!!

ثم هي تتعرض للبشر وتلوح أي تغييره وتشوّهه من شدة الحرّ اللافح «لَنُؤَاخِذَنَّ الْبَشَرَ»

كما قال في سورة الماعارج: «تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى»^١ - وكألما تقصد إتارة الفرع في النفوس المعاندة بصولتها المخيفة المرعبة!!^٢

الأسود بن عبد يغوث

كان من عظماء قريش وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ وهو الذي تعرض له في نفر من قريش (هم: زمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، وأبي بن خلف، والعاص بن وائل، وخامسهم الأسود بن عبد يغوث)، قالوا - مستهزئين به -: «لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك (أو يروى معك)، فأنزل الله: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ...»^٣

قال محمد بن إسحاق: قام رسول الله ﷺ على أمر الله محتسباً مؤدياً إلى قومه النصيحة، على ما كان فيهم من النائرة والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزئين برسول الله ﷺ خمسة: الأسود بن عبد يغوث بن وهب، والأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والحارث بن الطلائة. فكانوا يهزئون برسول الله ﷺ ويغمزونه، قال: وفيهم نزلت: «إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»^٤

قال مجاهد: ونزلت الآيات (١٠-١٦) من سورة القلم بشأن الأسود بن عبد يغوث: «وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ، هَمَزٍ مَشَاءٍ بِمِيمٍ. مَنَاعٍ نَذِيرٍ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ...!»^٥

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميمة:

فهو حلاف... كثير الحلف، ولا يكثر الحلف إلا إنسان غير صادق، يدرك أن الناس يكذبونه ولا يشتقون به، فيحلف ويكثر من الحلف ليداري كذبه ويستجلب ثقة الناس، وهو

١ - الماعارج: ١٧، ١٨. ٢ - راجع: في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٣٦٦ - ٣٦٤.

٣ - الأنعام: ٦، ٨. راجع: سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٣٦.

٤ - التحجر: ١٥، ٩٥. راجع: سيرة ابن إسحاق، ص ٢٧٣، وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٥٠.

٥ - اندر المنثور، ج ٦، ص ٢٥٢.

مفضوح لا محالة.

وهو مهين... لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس شأنه. وهي صغارة في النفس ملصقة بها!

وهو هتار... يهزم الناس ويعيبهم بالقول والإشارة. وهي حقارة تتبعها مهانة!
وهو مشاء بنميم... يمشي بين الناس ويحاول إفساد قلوبهم وقطع صلاتهم والذهاب بموداتهم. خلق ذميم يجعل صاحبه ساقطاً مهيناً!

وهو مناع للخير... يمنع الخير عن نفسه وعن غيره. وهي غاية في الدناءة والخسة!
وهو معتد... متجاوز للحق والعدل إطلاقاً. ثم هو معتد على النبي وعلى أهله وعشيرته وعلى المؤمنين، حيث يحاول صدّهم عن الهدى ومنعهم الإيمان برسالة الله.

وهو أتيّم... يرتكب الآثام حتى حقّ عليه الوصف النابت. أتيّم... بدون تحديد لنوع الآثام التي يرتكبها. فاتّجاه التعبير إلى إثبات الصفة، وإساقها بالنفس كالطبع المقيم!

وهو - بعد هذا كله - عتل... وهي لفظة تعبّر بجرسها وظلّها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات، لا تبلغها مجموعة النماذج وصفات. وفسر بتفاسير كلّها تنم عن دناءة وخبث، غير أنّ لفظة «عتل» بوزانها وجرسها أدل على كلّ هذا وأبلغ تصويراً للشخصية الكريهة من جميع الوجوه!

وهو زنيّم... وهي خاتمة الصفات الذميمة الكريهة التي تجمّعت في عدوّ من أعداء الإسلام، لدود حبّ لئيم. والزنيّم: اللصيق الذي لفظته الناس وطرّدته من حاضرتها، لخبثه ولؤمه الفاحش، حتى ولو كان ذا نسب أصيل.

وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ عن العتلّ الزنيّم؟ قال: «هو الفاحش اللئيم». وأيضاً روي عنه أنّه قال: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كلّ عتلّ، جَوّاذ، جعظريّ، متكبر»^١.

الجَوّاذ: المختال المتكبر في مشيّه، الجافي الغليظ في خلقه، الرحيب البطن الواسع

الحلقوم، المنهوم الذي لا يشبع.

والجعظري: النط الغليظ. الأكل على غير شبع. القصير المنتفخ بما ليس عنده. الشره
النهم، الضخم لا يست إذا مشى حرّكها. القليل العقل الخرف.

والصفات الثلاث، تفسير للعتل الحاوي لذمائم الصفات وكرهيات السمات!

ثم يعقب على هذه الصفات الذاتية، بموقفه الشائئ من آيات الله، مع التشنيع بهذا
الموقف الذي يقابل به نعم الله عليه بالمال والبنين، شأن كل محتال فخور:

«أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ، إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»...

وما أقبح بالرجل يقابل نعمة الله عليه بالاستهزاء بآياته وسخرية من رسوله واعتداء
على شريعته. وهذه وحدها تعدل كل ما مرّ من وصف ذميم!

ومن ثم يجيء التهديد من الجبار القهار، يلتمس في نفسه موضع الاختيال والفخر
بالمال والبنين، كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه... ويسمع وعد
الله القاطع:

«نَسِيسْمُهُ عَلَى الْخَرْطُومِ»!

ومن معاني الخرطوم طرف الأنف الخنزير البري. وحلّه المقصود هنا كناية عن أنفه.
والأنف في لغة العرب يكتى به عن العزة، ومنه الأنفة: الترفع والتشوّ.

والتهديد بوسمه على الخرطوم، يحوي على نوعين من الإذلال والتحقير: الأول
الوسم، كما يوسم العبيد. والثاني جعل أنفه خرطوماً كخرطوم الخنزير!

وما من شك أنّ وقع هذه الآيات على نفس الأسود بن عبد يغوث أو الأخنس
بن شريق أو الوليد بن المغيرة أو غيرهم من أعداء الإسلام آنذاك المناوئين له، كان قاصماً
وقامعاً دامغاً، فإنهم من أمة كانت تعدّ هجاء شاعر - ولو بالباطل - مذمة يتوقاها الكريه!
فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض، بهذا الأسلوب الذي لا يبارى، وفي
هذا السجل الذي يتجاوب بكلّ لفظ من ألفاظه جنبات الوجود، ثم يستقرّ في كيان

الوجود... في خلود!

إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم.^١

روى ابن إسحاق في الخمسة الذين كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ ويغمزونه: أن جبرئيل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فوقف به عند الكعبة، وهم يطوفون به، فمرّ به الأسود بن عبد يغوث فأشار جبرئيل إلى بطنه فمات حبناً (وهوداء يرم كالدمل ويكون له خراج)، ومرّ به الأسود بن المطلّب فرمى في وجهه فعمى. ومرّ به الوليد فأشار إلى جرح في كعب رجله كان قد أصابه قبل ذلك ببسيرة، فانتفض به فأهلكه. ومرّ به العاصي فأشار إلى أخص رجله، فركب إلى الطائف على حمار فربض به على شبرقة (نبات شوكة) فدخلت في أخص رجله فقتلته. ومرّ به الحارث فأشار إلى رأسه فامتخص قيحاً حتى هلك.^٢ وبذلك كفى الله المؤمنين شرّ المستهزين.



الحكم بن أبي العاص

يبدو أن الآيات السابقة الدامغة، لم تخلص أنساباً بشخصهم، وإنما هي عمّت كلّ عات معاند حاول مقابلة الدعوة بالهزء والسخرية والامتهان بشأنها، فعاكسهم القرآن بالاستهزاء بشأنهم والإذلال والتحقير.

فقد أخرج ابن مردويه عن أبي عثمان النهدي أن مروان بن الحكم لما أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد وبايعه الناس كرهاً، قال: سنّة أبي بكر وعمر! فسمع ذلك عبدالرحمان بن أبي بكر - وكان قد امتنع من البيعة ليزيد -: إنها ليست بسنّة أبي بكر وعمر، ولكنها سنّة هرقل! فقال مروان: هذا الذي أنزلت فيه «وَالَّذِي قَالَ يُوَادُّهُ أُفٍّ نَكًا»^٣ وأراد القبض عليه، فلجأ عبدالرحمان إلى بيت أخته عائشة. وكانت قد سمعت قولة مروان. فقالت: إنها

١ - راجع: في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٢٢٩ - ٢٣٣. ٢ - سيرة ابن إسحاق، ص ٢٧٣.

٣ - الأنحاف ٤٦: ١٧.

لم تنزل في عبد الرحمان، ولكن نزلت في أبيك «وَلَا تُطِيعُ كُلَّ خَلَافٍ مَّهِينٍ، هَذَا مَشَاءُ بِمَعْنَى».

والحكم بن أبي العاص هذا كان من أحبب الناس وأسوأهم دناءة ولئامة. كان يحاول تحقير رسول الله والسخرية به. وكانت ابنته توبخه على صنيعه وصنيع قومه بني أمية بموضع رسول الله ﷺ قالت له: ما رأيت قوماً كانوا أسوأ رأياً وأعجز في أمر رسول الله ﷺ منكم يا بني أمية! ولم يستسلم إلا كرهاً عام الفتح فيمن استسلم من قريش وسكن المدينة. ولكنه بقي على حبه ولؤمه. روى ابن الأثير بإسناده إلى جبير بن مطعم، قال: كنا مع النبي ﷺ فمرّ الحكم بن أبي العاص، فقال النبي: ويل لأنتي ممّا في صلب هذا.

وهو طريد رسول الله ﷺ نفاه من المدينة إلى الطائف وخرج معه ابنه مروان. وكان السبب أنه كان يتسمع سرّ رسول الله ﷺ ويطلع عليه من باب بيته. فأراد النبي ﷺ أن يفتأ عينه بمدري (قطعة خزف حادة) في يده لما طلع عليه من الباب.

روى أبو سنان عن الزهري وعطاء الخراساني: أن أصحاب رسول الله ﷺ دخلوا عليه يوماً فرأوه يلعن الحكم بن أبي العاص، فبأوه عن السب؟ قال: دخل على شقّ الجدار وأنا مع زوجتي، فكلح في وجهي أي عبس وتكسّر.

وكان - من شدة خبته وضعة نفسه - يحكي مشية رسول الله وبعض حرركاته. وقد كان النبي يتكلم في مشيته (أي يمشد ويتمايل). فالتفت النبي يوماً فرآه وهو يتخلّج في مشيته (أي يضطرب ويميل يميناً وشمالاً) فقال له النبي: كن كذلك، فلم يزل يرتعش في مشيته من يومذاك. وقد ذكره عبد الرحمان بن حسان بن ثابت، في هجائه لعبد الرحمان بن الحكم:

إِنَّ اللَّعِينَ أَبُوكَ، فَأَرَمَ عَظَامَهُ إِنَّ تَرَمَ تَرَمَ مَخْلَجاً مَجْنُوناً

يُمَسِّي خَمِيعَ الْبَطْنِ مَنْ عَمِلَ الشُّقَى وَيُظِلُّ مَنْ عَمِلَ الْخَبِيثَ بَطِيناً

وقد قالت عائشة لمروان: أما أنت يا مروان، فأشهد أن رسول الله ﷺ لعن أباك وأنت

١ - انعام ٧٨، ١٠، ١١. راجع: اندر التنبؤ، ج ٦، ص ٢٥١.

٢ - الإصالة، ج ١، ص ٣٤٥.

في صلبه. قال ابن الأثير: وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة، لا حاجة إلى ذكرها، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي ﷺ مع حلمه وإعضائه على ما يكره ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم، ولم يزل منفيًا حياة النبي ﷺ. ولما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة، فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ وكذلك عمر. فلما ولي عثمان - وكان الحكم عمه - رده ومات في عهده.^١

وروي ابن حجر من حديث عبدالرحمان بن أبي بكر قال: كان الحكم بن أبي العاص يجلس عند النبي ﷺ فإذا تكلم النبي، اختلج الحكم، أي كان يحرك شفثيه تقليدًا وسخرية برسول الله. فبصر به النبي يومًا فقال: كن كذلك. فما زال يختلج حتى هلك حيث مستقره في ستر.

وروي أيضًا بإسناده إلى هند بن خديجة زوجة النبي ﷺ قال: مر النبي بالحكم، فجعل يغمز النبي بإصبعه، فالتفت فرآه، فقال: اللهم اجعله ورعًا، فزحف في مكانه. والروايات في مخازيه كثيرة.^٢

مركز تحقيقات كتابي علوم اسلامی

العاص بن وائل

وكان العاص بن وائل السهمي ممن أعجب بنفسه مستهزئًا بمواقف أصحاب النبي ﷺ في أقاتهم وصبرهم على الأذى، ولا سيما المنقطعين عن أهلهم لأعشيرة لهم في مكة ولاثروة، فقد كان الخطاب بن الأرت قينا^٣ بمكة يعمل السيوف وكان من الأصحاب المؤمنين. وكان له مال على العاص بن وائل قيمة سيوف باعها منه، فجاء يتقاضاه.

فقال له العاص: يا خطاب، أليس يزعم صاحبكم أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب

١ - أسد الغابة، ج ٢، ص ٣٤٤ والإصابة، ج ١، ص ٣٤٥.

٢ - راجع: الإصابة، ج ١، ص ٣٤٦ والاستيعاب لابن عبد البر، بهامش الإصابة، ج ١، ص ٣١٧.

٣ - القين: اتخذ.

ولقد صدق فيهم وعيدُ الله. فقد انتطع ذكرهم وانطوى. بينما امتدّ ذكر محمد واعتلا! إن الإيمان والحق والخير، لا يمكن أن يكون أبتر، فهو ممتدّ الفروع عميق الجذور. وإنما الكفر والباطل والشرّ هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبّر. إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويفترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرّر حقائق الأمور. وأماننا هذا المثل الخالد. وصدق الله وكذب الكائدون الماكرون!

النضربن الحارث

وتقدّم بعض الحديث عن مواقف النضربن الحارث، كان من عتاة قريش ومن شياطينهم، كان قد تعلّم بعض أحاديث ملوك فارس (أساطير رستم واسفنديار) وكان يقصّها على جهلاء العرب ليستحوذ عليهم، ويملئهم عن حديث الإسلام وذكريات القرآن. كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً يدعو فيه إلى الله ويتلو فيه القرآن، ويحدّر قريشاً ممّا أصاب الأمم الخالية، خلفه النضربن في مجلسه إذا قام عنه، فحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها. قيل: وبذلك جاءت الإشارة في الآية الكريمة «وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»^١.

قيل: ونزلت فيه: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ. فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَذُوا أُلُو تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ. وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشْأٍ بَنِمٍ. مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَلِيمٍ. عُلِّ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ. أَنْ كَانَ دَآمَالٍ وَبَيْنَ. إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. سَنَسِيحُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ. إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَشْنُونَ. فطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَانُصْرِيم»^٢.

إِنَّ لَوْ قَع هَذِهِ الْآيَاتِ الشَّدِيدِ لَتَأْتِيرُ بِالْغَا فِي نَفُوسِ مُضْطَرِبَةٍ لَا تَوْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ!
وكذلك آيات مرّت بهذا الشأن، قيل: نزلت تقرّيعاً عنيماً بمن يحادد الله ورسوله:
«وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُثْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»^١.

قيل: ونزلت فيه قوله تعالى: «وَإِذَا تُثْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَانُوا فَذَسَمْنَا لَوْ نَشَاءُ نَقْلُنَا مِثْلَ
هَذَا، إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^٢.

وقع أسيراً يوم بدر فقتله رسول الله ﷺ صبراً نعمة على المشركين.^٣

جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ

كان من أشرف قريش ومن علمائهم بالأنساب وطالما بغى على الإسلام
والمسلمين ونال من الواقعة بهم. وهو الذي دعا غلامه الحبشي الذي كان يدعى
«وحشياً» وكان قدافاً بحرية له قدف الحبشة، فلما يخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس،
فإن أنت قتلت حمزة عم النبي ﷺ (طعيمة بن عدي) فأنت عتيق.^٤

فخرج وحشي مع قريش حتى كان يوم أحد، يقول: فلما التقى الناس خرجت أنظر
حمزة وأتبعته حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأروق يهد الناس بسيفه هذأ، ما
يقوم له شيء، وإني لأتهيب له، أريده وأستتر منه بشجر أو حجر ليدينوني، حتى إذا دنى،
وهزرت حربتي ودفعتها عليه فوقعت في ثنائه حتى خرجت من بين رجله، وذهب لينوي
نحوي، فغلب، وتركته حتى إذا مات، ثم أتيته فأخذت حربتي... فلما قدمت مكة أعتقني
جبير على صنيعي.^٥

وبعد الفتح هرب وحشي إلى الطائف، ثم قدم المدينة وتظاهر بالإسلام، ولما علم به

١ - انجالية ٥: ٧٨، راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٤.

٢ - الأنفال ٨: ٣٦.

٣ - اندر المنور، ج ٣، ص ١٨٠.

٤ - سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٦٤.

٥ - المصدر، ص ١٦٠.

النبي ﷺ قال له: «أوحشي؟» قال: نعم. قال: ويحك، غيب عني وجهك، فلا أرىك. فتغيب عنه في البلاد.

قال ابن هشام: لم يزل وحشي يحدث في الخمر حتى خلع اسمه من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة^١.

وبذلك تعرف موضع الرجل (جبير) من إجماع قلب رسول الله ﷺ والنكاية بالإسلام. وهذا الرجل على جنائنه وقساوة قلبه وغيظه على الإسلام، لما سمع النبي ﷺ يقرأ في صلاته بالطور، لأن قلبه وشئت مساره لدخول الإسلام.

وذلك عندما أتى النبي ﷺ في فداء أسارى بدر، فلم يحب النبي ﷺ طلبه، وقال له: لو كان أبوك حيًّا وكلمني فيهم لو هبتهم له^٢.

يروى البخاري عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَائِقُونَ. أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُسْتَطِرُونَ»^٣ قال: كاد قلبي أن يطير^٤ قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان قلبي^٥.

وفي رواية: وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي^٦. وقر، أي أتر. ولكنه عاد إلى شقائه الأول حتى كان عام الفتح^٧ فأسلم على يد رسول الله ﷺ^٨.

١ - المصدر، ص ١٧٧.

٢ - الإصباة، ج ١، ص ٢٢٦. وفي أسد الغابة، ج ١، ص ٢٧١: «لو كان الشيخ أبوك حيًّا فأتانا فيهم تشفعنا»، قال: وكان له عند رسول الله ﷺ يد، وهي أنه كان أجار رسول الله ﷺ نفا قدم من الطائف حين دعا تقيداً إلى الإسلام. وكان أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة التي كتبها قريش على بني هاشم وإزاء علي أبو طالب بقوته.

أعطهم أن تقوم ساموك غبطة وأني متى أوكل فاستم بتكسل

٣ - الطور ١٥٢: ٣٥-٣٧.

٤ - الإصباة، ج ١، ص ٢٢٦.

٥ - أشعيا بن عريف حقوق المصطفى، ج ١، ص ٢٢١؛ وشرحه، ج ١، ص ٣٢٩.

٦ - أسد الغابة، ج ١، ص ٢٧١.

٧ - روى عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال ليلة قريه من مكة في الحزوة الفصح: إن بكعة أربعة نفر من قريش أربا بهم عن

وحضر يوم حنين.^١

ونقل البيهقي عن أبي سليمان الخطابي، قال: إنما كان الزعاج جبير بن مطعم عند سماع الآيات، لحسن تلقيه معانيها ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجّة، فاستدركها بلطف طبعه، واستشف معانيها بذكى فهمه.^٢



→ انشرك وأرغب، فهم في الإسلام: عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم وحكيم بن عزام وسهيل بن عمرو، أسد الغابة، ج ١، ص ٢٧٦.

١ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٩١.

٢ - الأسماء والصفات للبيهقي، ص ٣٩٠؛ وانظر المنصور، ج ٦، ص ١٢٠؛ والإتقان، ج ٤، ص ١٧.

مجاجات ومخاصمات

هناك للمشركين مخاصمات مع النبي ﷺ دحرتها حجج القرآن الداحضة، وقد أفضمتهم قوة برهانه وبهرتهم روعة بيانه، فكانت النهاية هي الرضوخ والاستسلام:



مع النضر بن الحارث

قال ابن إسحاق: وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش. فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر، فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفضمه. ثم تلا عليهم: «إِنَّكُمْ وَمَنْعَبِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانِ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَائِدُونَ. لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ».^١

مع عبدالله بن الزبيري^٢

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبدالله بن الزبيري السهمي، وكان زعيماً من زعماء

١ - الأنبياء ٩٨: ٩٨، ٩٩، ١٠٠، راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٤. وانحطص، هو انحطص: كل ما أوقدت به النار.

٢ - كان من شعراء العرب وخطباءهم التبغريين. وشعره في قصة أصحاب الفيل ومعروفه. راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٤٩.

قريش، حتى جلس معهم. فقال له الوليد بن المغيرة: والله ما قام ابن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم! قال ذلك في حالة تأثر شديد!

فقال ابن الزبيري: أما والله، لو وجدته لخصمته! فسلوا محمداً: أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟! فنحن نعبد الملائكة، واليهود نعبد عزيزاً، والنصارى تعبد المسيح!

فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبيري! ورأوا أنه قد احتج وخاصم! فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزبيري.

فقال رسول الله ﷺ: إن كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين، ومن أمرتهم بعبادته!

قيل: فنزلت بهذا الشأن: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ لَهُمْ مَعْرَضُونَ. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ. وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفَعُونَ. وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِكَ نُجِزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ»^٢.

مع أبي بن خلف

قال ابن إسحاق: ومضى أبي بن خلف بن وهب إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد أرفت^٣ فقال: يا محمد، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم؟^٤ ثم فتنه في يده، ثم نفخه في الريح

١ - أي إن الملائكة ومن ذكرهم ثم يدعوهم إلى عبادتهم، وإنما يدعوهم بأغواء الشياطين وتوسلاته الخبيثة.

٢ - الأنبياء ٢١: ٢٤ - ٢٩.

٣ - أي تحطم وتكسر.

٤ - أي بلني وقصد.

نحو رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: نعم، أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار! ^١

قيل: فأنزل الله تعالى فيه: «أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ^٢.

مع الأسود بن المطلب

واعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة، الأسود بن المطلب بن أسد، والوليد بن المغيرة، وأميمة بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوي أسنان في قومهم، فقاتلوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، ولنعبد ما تعبد، فليست لنا نحن وأنت في الأمر. فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه. وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه. قيل: فأنزل الله تعالى فيهم: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ» ^٣.

قال ابن إسحاق: أي إن كنتم لا تعبدون الله إلا أن أعبد ما تعبدون، فلا حاجة لي بذلك منكم. لكم دينكم ولي ديني. ^٤

٢ - يس ٥٦، ٧٧، ٨٣.

١ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٧.

٤ - الترويض للكف، ج ٢، ص ١٠٨.

٣ - الكافرون ٩، ١٠، ١٦-١٧.

مع أبي جهل بن هشام

قال ابن إسحاق: لما ذكر الله عز وجل «شجرة الزقوم» تخويفاً لمشركي قريش، في قوله: «أذلك خيرٌ نزلًا أم شجرة الزقوم». إنا جعلناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إنها شجرةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَا كَيْلَونَ مِنْهَا فَيَأْكُلُونَ مِنْهَا أَبْطُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ عَلَى غَلَبَةِ نَسُوبٍ مِنْ هَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ. إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ. فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ مُهْرَعُونَ. وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ»^١.

فقد أهاجت هذه الآيات القارعة من غلواء المشركين وجعلتهم حيارى مندهشين يخافون سوء العاقبة القريبة، فعمد أبو جهل - على عادته - يحاول تهدئة هياجهم المبرح، قائلاً: يا معشر قريش، أو تدرون ماهي شجرة الزقوم، التي يخوفكم بها محمد؟! إنها عجوة يشرب بالزبد.^٢ فوالله لئن استمكنّا منها، لننزلقنّها ترّقماً^٣ قالها مستهزئاً لهياجهم الشائر! قيل: فأنزل الله: «إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتَهُمْ أَجْمَعِينَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» - إلى قوله - إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَانَهُلٍ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ. خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ. ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ. إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ»^٤.

قال ابن هشام: المهل كل شيء أذنته من نحاس أو رصاص وما أشبه.^٥ إن هذا ليس بكلام، وإنما هي صواعق مرعدة وقوارع دامغة، تترى على أشلاء هامة وبقايا أجساد متفتتة، لا تطيق تحملها حتى وإن جهدت في المقاومة والعناد. «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ»^٦. وبذلك تتجسد معجزة هذا الكلام وسحره في أسلوبه هذا الباهر وسلطانه هذا القاهر!

١ - تصانيف ٣٧، ٦٢، ٦٣.

٢ - العجوة: ضرب من تمر الحجاز، فيها نذة.

٣ - الزقوم: الابتلاع.

٤ - السجدة ٤٤، ٤٥، ٤٦.

٥ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٨٨.

٦ - الزحاقة ٦٩، ٧٠، ٧١.

مفاخرات ومساجلات

كانت سنة التسع سنة الوفود، وذلك بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من غزاة تبوك، فجعلت وفود العرب تترى عليه مستسلمة منخرطة مع الكفّة العليا التي أخضعت قريش ومحالفيها وأحزاب العرب جميعاً.

فمن هؤلاء عطاردين حاجب التميمي وكان خطيب القوم، قدم على النبي ﷺ في أشراف بني تميم، منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر - وهو شاعر القوم - وعمر بن الأهتم، والحتات بن يزيد، وعيينة بن حصن وغيرهم. وكان الأقرع وعيينة أسلما من قبل وشهدا فتح مكة وحنينا والطائف، لكنهما صحبا الوفد.

فلما قدم الوفد ودخلوا المسجد، نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد! فأدى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم فخرج إليهم.

فقالوا: يا محمد، جتناك تفاخرت، فأذن لشاعرنا وخطيبنا! قال: قد أدت لخطيبكم فليقل، فقام عطاردين حاجب، فقال: (الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن وهو الهل، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظيماً، نفعل فيها المعروف. وجعلنا غرأهل المشرق وأكثره عدداً، وأيسره عدّة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدّ مثل ماعدّدنا! وإنا لو نشأ لأكثرنا الكلام، ولكننا نحيا من الإكتار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك! أقول هذا، لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا!...) ثم جلس.

فقال رسول الله ﷺ لتابت بن قيس: قم، فأجب الرجل في خطبته، فقام تابت وقال: (الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهنّ أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمته نسباً، وأصدقته حديثاً، وأفضله حسباً. فأنزل عليه كتابه وأثمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين. ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله ﷺ المهاجرون

١ - قيل: فترمت «إن الذين يتأذونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون» الحجرات ٤٩: ٤.

من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس حسباً، وأحسن وجوهاً، وخير الناس فعلاً. ثم كان أول الخلق إجابةً، واستجاب الله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله. فمن آمن بالله ورسوله، منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولِي هذا، وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم).

فقام الزبير بن بدر، وأنشد:

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا منّا الملوكة وفيها تنسم الرّبع^١
وجعل يعدّد من هذا القبيل من مفاخرات لاتعدّ وشعارات فارغة إلى أن يقول:
إنّا أئبينا ولا يأبى لنا أحد إنّا كذلك عند الفخر نرتفع^٢ الخ^٣
فلما فرغ الزبير بن بدر، قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: قم يا حسان، فأجب الرجل، وكان حسان يعرض قوله ويقول على منواله، فقام وقال:

إنّ الذوائب^٤ من فخر وإخوتهم قد بيّتوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كلّ من كانت سريرته تقوى الإله وكلّ الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجّية تلك منهم غير محدّثة إنّ الخلائق فاعلم شرّها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكلّ سبق لأدنى سبقهم تبع
إلى أن يقول:

إذا نصبتنا لم ندب لهم كما يدب إلى الوحشيّة الذرع^٥
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبتها إذا الرعائف^٦ من أظفارنا خشعوا
لا يشخرون إذا نالوا عدوّهم

١ - تقدم التزيح: كناية عن كونهم رؤساء، حيث كان الرئيس العربي يأخذ ربع اتعانه في التجاهلية.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ٥، ص ٢٠٨. ٣ - الذوائب: السداة، لأنّ ذوائب الصرّة تعلو رأسها.

٤ - نصبتنا: أظهرنا التداوة، والذرع: وتد البقرة الوحشية. ٥ - الرعائف: أطراف الناس وأتباعهم.

٦ - الشخرون: اتضعفوا، واتهلع: اتجازعون. واحده ملوع.

كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعْيِ وَالْمَوْتِ مَكْتَنَعٌ
خَذَ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوَاً إِذَا غَضِبُوا
فَإِنْ فِي حَرْبِهِمْ فَاتَرَكَ عَدَاوَتَهُمْ
أَكْرَمَ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شَيْعَتَهُمْ
أُهْدِيَ لَهُمْ مَدْحَتِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ
ثُمَّ إِنَّ الْمُزْبِرْقَانَ بْنَ بَدْرٍ شَعْرًا آخَرَ، قَامَ فَقَالَ:
أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمُ النَّاسُ فَضْلَنَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وَأَنْ لَنَا الْمَرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ
فَقَامَ حَسَّانُ بْنُ تَابِتٍ فَقَالَ:

هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودُّدُ الْعَوْدُ وَالتَّيْدُ
نَصَرْنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
بِحَيِّ حَرِيدٍ أَصْلُهُ وَفِرَاوَهُ
نَصَرْنَاهُ لَمَّا حَلَّ وَسَطَ دِيَارِنَا
جَعَلْنَا بَيْنَنَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا
وَنَحْنُ ضَرْبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قَرِيْشٍ عَظِيمِهَا
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّنْ دِمَائَكُمْ
وَأَمْوَالَكُمْ أَنْ تَقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ

١ - مَكْتَنَعٌ: دَانٌ، وَحَالِيَةٌ، مَأْسَدَةٌ فِي الْيَمَنِ، وَالْأَرَسَاخُ: جَمْعُ رَسْعٍ، مَوْضِعُ الْقَيْدِ مِنَ الرَّجْلِ، وَقَدَحٌ: اعْوِجَاجٌ إِلَى نَاحِيَةٍ.

٢ - عَفْوَاً: مِنْ غَيْرِ مَسْقُتَةٍ.

٣ - التَّمْلَعُ: نَبَاتٌ مَسْمُومٌ.

٤ - صَنَعَ: أَنْزَلَ، عَجِيدُ الْقَوْلِ وَيُحْمَلُ.

٥ - شَمَعُوا: هَزَنُوا، وَأَحْمَلَهُ مِنْ انْقِرَابِ وَالْتِهَامِ.

٦ - الْمَرْبَاعُ: أَخَذَ الرَّبْعَ مِنَ الْقَلْبِ.

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ولا تلبسوا زيّاً كزيّ الأعاجم
قال ابن إسحاق:

فلما فرغ حسان من قوله: قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له.
لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا...
فلما فرغ القوم، أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.



سَخَافَاتٌ وَخِرَافَاتٌ

على أنَّ التَّأْرِيفَ لَا يَخْلُو مِنْ أَسْمَاءِ قَوْمٍ قَدْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ عَارِضُوا الْقُرْآنَ، أَوْ رَأَوْا أَنَّ بَاسْتِطَاعَتِهِمْ أَنْ يَعَارِضُوهُ: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»^١ فَمِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى النَّبُوَّةَ وَجَعَلَ مَا يُلْقِيهِ مِنْ سَفَاسِفِهِ مَازِجَةً لِلْقُرْآنِ كَيْ لَا تَكُونَ صَنَعَتُهُ بِلَا أَدَاةٍ «أَوْ قَالَ أَوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ مَا نُزِّلَ مِثْلَ مَا أُنْزِلَ»^٢.

وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَاظَى مَعَارِضَتَهُ حَمَاقَةً وَظَلَّ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهَا، لَكِنَّهُ سَرَعَ أَنْ مَاتَرَاجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ إِمَّا صَافِرًا أَوْ مُسْتَغْفِرًا رَبَّهُ مِنْ سُوءِ مَا نَوَاهُ.

وَالْغَرِيبُ أَنَّ مَا يُؤْتَرَعَنْ نَاسٌ فِي التَّأْرِيفِ حَافِلُوا مَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ، أَنَّهُمْ أَتَوْا بِكَلَامٍ لَا يَشْبَهُ الْقُرْآنَ وَلَا يَشْبَهُ كَلَامَ أَنْفُسِهِمْ، بَلْ نَزَلُوا إِلَى ضَرْبٍ مِنَ السَّخْفِ وَالتَّفَاهُةِ، بَادِعُوهُ، بَاقِ عَارِهِ وَشَنَارِهِ. فَمِنْهُمْ عَاقِلٌ اسْتَحْيَى أَنْ يَتَمَّ تَجَرِبَتَهُ فَحَطَّمَ قَلَمَهُ وَمَرَّقَ صَحِيفَتَهُ، وَمِنْهُمْ مَا كَرَّ وَجَدَ النَّاسَ فِي زَمَنِهِ أَعْقَلَ مِنْ أَنْ تَرُوجَ فِيهِمْ سَخَافَاتُهُ، فَطَوَى صَحْفَهُ وَأَخْفَاهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّاطِرِينَ إِلَى حَبِينٍ، وَلَكِنْ مَتَى ذَلِكَ الْحَبِينُ، أَنَّهُ إِلَى أَبَدِ الْأَبْدِينَ! أَمَّا الَّذِينَ أَتَوْا بِسَخَافَتِهِمْ فَقَدْ أَبْدَوْا بِعَوْرَاتِهِمْ سَفَهًا وَحَمَقًا، وَإِلَيْكُمْ نَمَازِجٌ مِنْ كَلَامِ النَّمِطِيِّينَ، دَلِيلًا عَلَى صَدَقِ التَّحْدِيِّ إِعْجَازًا مَعَ الْخُلُودِ «وَلَكِنْ تَفْعَلُوا...»:

٢ - الْأَنْعَامُ: ٩٣.

١ - الْأَنْعَامُ: ٨، ٣٦.

١ - مسيلمة الكذاب

فمن أولئك مسيلمة بن حبيب، تنبأ باليمامة في بني حنيفة على عهد رسول الله ﷺ بعد أن وفد عليه وأسلم في ظاهر أمره، كان يصانع كل إنسان ويتألفه، ولا يبالي أن يطلع أحد منه على قبيح، إذ كان اتخذ النبوة مدعاة إلى الملك، حتى عرض على رسول الله ﷺ أن يشركه في الأمر. كان وفد بني حنيفة - في سنة تسع من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ وفيهم مسيلمة وقد ستروه بالنيات، ورسول الله ﷺ جالس بين أصحابه معه عسيب من سعف النخل، في رأسه خوصات. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالنيات، كلمه وسأله، فقال له الرسول ﷺ: لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه. وكان قد سأله تشريكه في أمر الرسالة.

ثم انصرفوا، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدّ عدو الله، وتنبأ وتكذب لهم، وقال: إني أشركت في الأمر مع محمد ﷺ. ثم جعل يشجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن:

«لقد أنعم الله على الحُبلى أخرج منها نَسَمَةً تسمى من بين صفاقي وحشى» ثم أحلّ لهم الخمر ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبي، لكنه شريكه، فأصفت معه بنو حنيفة على ذلك.^١

وكتب إلى رسول الله ﷺ في أخريات سنة عشر: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد، فإنني قد أشركت في الأمر معك وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قریشا قوم يعتدون».

وأرسله مع رجلين من قومه، فقدموا إلى رسول الله ﷺ وقدموا إليه الكتاب، فلما قرأه قال لهما: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال النبي ﷺ: «أما والله، لو لا أن الرُّسُل لا تُقتل، لضربت أعناقكما». ثم كتب إلى مسيلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد

١ - تصديق: التجلد الأسفل دون التجلد الأعلى الذي يباح.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ٥، ص ٢٢٣.

رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من اتبع الهدى. أمّا بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»^١.

وكان قد اتخذ باليمامة حرماً، وكانت قرى بني أسيد صارت في الحرم، ومن ثم كانوا يغيرون على تمار أهل اليمامة واتخذوا الحرم دغلاً، فقبل لمسيلمة في ذلك، فقال: أنتظر الذي يأتي من السماء، ثم أتاه فقال: «والليل الأظحم، والمذنب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد من محرم».

ثم عادوا للغارة وللمعدوى واستعدى عليهم، فقال مسيلمة: أنتظر الذي يأتيني فقال: «والليل الدامس، والمذنب الهامس، ما قتلعت أسيد من رطب ولا يابس». فقالوا له: أمّا النخيل مرطبة فقد جدّوها، وأمّا الجدران يابسة فقد هدموها، فقال: اذهبوا وارجعوا فلاحق لكم.

وكان فيم يقرأ لهم: «إنّ بني تميم قوم طهر الفحاح، لا مكروه عليهم ولا آتاوه، نجاورهم ما حببنا بإحسان، نمنعهم من كلّ إنسان، فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمان».

وكان يقول: «والشاء وألوانها، وأحجبتها السود وألوانها، والشاء السوداء واللبين الأبيض أنّه لعجب محض وقد حرم المذق، فما لكم لا تمجمعون».

وكان يقول: «الثيل ما الثيل، وما أدراك ما الثيل، له ذنب وبيل وخرطوم طويل...».

وكان يقول: «يا ضفدع ابنة ضفدع، نقي ما تنقي، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين».

وكان يقول: «والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والتاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتهم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتز فآووه، والباغي فناووه».

وجاءه طلحة النمرى فقال له: أنت مسيلمة؟ قال: نعم. قال: من يأتيك. قال: رحمان.

قال: أفي نور أم في ظلمة؟ قال: في ظلمة. فقال طلحة: أشهد أنك كذاب وأن محمدًا صادق.

ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر. فبیت معه حتى قتل يوم عقرباء فيمن قتل معه.^١

وكان من المسلمين رجل يقال له نهار الرجال^٢ قد هاجر إلى النبي ﷺ وقرأ القرآن وفقه في الدين، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة وليشد من أمر المسلمين، لكنه أصبح بعد وفاته ﷺ أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، إذ شهد أنه سمع محمد ﷺ يقول: إن مسيلمة قد أشرك معه! فصدقه واستجابوا له.

فكان الرجال لا يقول شيئاً إلا تابعه مسيلمة، وكان ينتهي إلى أمره ويستعين به على تعرف سيرة الرسول ﷺ ومعجزاته في العرب ليحاكيه ويتشبه به، لكنه ما عارضه في شيء قط إلا انقلبت الآية عليه وأخزاه الله.

قال الجاحظ في كتاب الحيوان عند القول في الضفدع: ولا أدري ما هيح مسيلمة على ذكرها ولم ساء رأيه فيها جثي جعل بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقيين، نصفت في الماء ونصفت في الطين، لا الماء تكذرين، ولا الشارب تمنعين.

وقال الراغب: وكل كلامه على هذا النمط وإليه سخييف لا ينهض ولا يتماسك، بل هو مضطرب النسيج، مبتذل المعنى مستهلك من جهتيه، وما كان الرجل من السخف بحيث ترى، ولا من الجهل بمعاني الكلام وسوء البصر بمواضعه.^٣

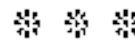
وقال الدكتور دراز - بشأن سخافة عقله -: فقد زعم أنه يوحى إليه بكلام مثل القرآن،

١ - تاريخ الطبري (حوادث سنة ١١)، ج ٢، ص ٥٠٤، ٥٠٨.

٢ - عن أبي هريرة قال: جلست مع النبي ﷺ في رهط من الرجال بن عتوه، فقال: إن فيكم رجلاً غرسه في أثمار أعظم من أحد، فهلك القوم وبقيت أنا والرجل، فكنت متخوفاً أنها حتى خرج الرجلان مع مسيلمة فشهدته بالنبوة، وقتل في حرب خاندن التوبيد تميمية وأهل اليمامة والرجل في الرواية المشهورة بالنجيم. وفي بعضها بالحاء المهملة.

٣ - إنجاز القرآن لرافعي، ص ١٧٤.

وما صنع شيئاً إلا أنه كان يعتمد إلى أي القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدّل بعضها، كقوله «إنا أعطيناك الجواهر فصل لربك وجاهر». أو يجيء على موازين الكلمات القرآنية بالفاظ سوقية ومعان سوقية، كقوله: «والطاحنات طحناً والعاجنات عجنناً والخابزات خبزاً». وهكذا لم يستطع وهو عربي قح أن يحتفظ بأسلوب نفسه، بل نزل إلى حد الإسفاف، وأتى العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم وتفكّهم بقلب الأشعار والأغاني عن وجهها. ولا يخفى أن هذا كله ليس من المعارضة في شيء، بل هو المحاكاة والإفساد. وما مثله إلا كمثل من يستبدل بالإنسان تمثالاً لأروح فيه، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن.^١



قلت: وبذلك يتبين فساد ما زعمه بعض أهل الخرف، من أنه لو كان ما أتى به باطلاً، لوجب على الله إرغامه، كما قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ». كما زعمه بعض الباطنية في سفسفهم.

إذ لا تعد أمثال هذه الخزعبلات تقولا على الله، مما لا يتناسب مع كلامه تعالى لافي لفظه ولا في أسلوبه ولا في شيء من معانيه. إنما هي ترهات تشبه أخطى بعير أو نهيق حمار.

قال ابن كثير: وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البعائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والتضيعة.

وكم من فرق بين قوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ...»^٢ وبين قول مسيلمة: يا ضمدع بنت ضمدعين... وقوله: لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج

١ - انبأ النظيم، ص ٧٤، اتهامى.

٢ - اتحاقة ٦٩، ٤٤، ٤٧.

٣ - اتبصرة ٢، ٢٥٤.

منه نسمة تسعى بين صفاق وحشى... وقوله: القيل وما أدراك ما القيل... وقوله: والعاجنات عجناء، والخابزات خبزاً، واللاقمات لقماً، إهالةً وسمناً، إن قريشاً قوم يعتدون... إلى غير ذلك ممّا يأنف الصبيان أن يثلقظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء.

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد. فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم - يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة! فقال: وما هي؟ فقال: «والعصر إن الإنسان لني خسر...» إلى آخر السورة. ففكر مسيلمة هيئته ثم قال: وأنا قد أنزل عليّ مثله. فقال عمرو: وما هو؟ فقال: «يا وهر، يا وهر، إنما أنت أذنان وصدر، سائرك حفر ونقر». كيف ترى يا عمرو؟! فقال له عمرو: والله إنك لتعلم نبي أعلم أنك تكذب.

قال ابن كثير: وقد رأيت أبا بكر الخرائطي يسند في كتابه المعروف بمساوي الأخلاق في الجزء الثاني منه شيئاً من هذا أو قريباً منه.

والوهر: دويبة تشبه الهرّ أعظم شيء فيه أذناه وصدره وباقيه دميم. فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابدي الأوثان في ذلك الزمان.^٢

٢ - سجاح بنت الحارث التميمية

كانت في بني تغلب (وهم أخوالها) راسخة في النصرانية، وكانت تعلّمت منهم بعضاً من شؤون الدين، فتنبأت فيهم بعد وفاة رسول الله ﷺ فاستجاب لها الهذيل وتركت النصر، ومالها جماعة من رؤساء القبائل، وكانت تقول لهم: إنما أنا امرأة من بني يربوع

١ - سورة النصر ١، ٢.

٢ - راجع: تفسير ابن كثير، ذيل الآية: ١٧ من سورة يونس. وتفسير سورة النصر. وذيل الآية: ٢٣ من سورة البقرة. (ج ٤).

١ من ٤١، ٢ من ٤٤٧، ٣ من ٤٤٧، ٤ من ٤٤٧.

وإن كان ملك فالحملك ملككم فخرجت بهم تريد غزو المسلمين، ومَرَّتْ تَقَاتِلَ بعض القبائل وتوادع بعضها، وكان أمر مسيلمة قد غلظ واشتدَّت شوكة أهل اليمامة، فهددت له بجمعها، وخافها مسيلمة، ثم اجتمعا وعرض عليها أن يتزوجها، قال: ليأكل بقومه وقومها العرب فأجابت وانصرفت إلى قومها فتألوا: ما عندك؟ قالت: كان على الحق فاتبعته فتزوجته...

ولها خلال قصتها كلمات وتسجيعات، لتوفر من أنفس العرب وتستدرجهم في الاستماع إلى هذه التعابير المسجعة التي تشبه كلام الكهان. وإليك إجمال قصتها: كانت عندما تريد الخروج قالت: «أعدوا الركاب، واستعدوا المنهاب، ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب». وكانت قد عدت الإغارة على قبيلة رباب، كانت من أضعف القبائل. لكنها فشلت ورجعت منهورة.

يقول أصم التميمي في ذلك:

أَتَيْنَا أُخْتَ تَغْلِبَ فَاسْتَهْدَتْ جَلَابٍ مِنْ سَرَاةِ بَنِي أَبِيْنَا^١
وَأُرْسَتْ دَعْوَةٌ فِينَا سَفَاهَاً وَكَانَتْ مِنْ عَمَائِرِ آخِرِينَا^٢
فَمَا كُنَّا لِنُرْزِيَهُمْ زَبَالاً وَمَا كَانَتْ لِنَسْلَمَ إِذَا تُتِينَا^٣
أَلَا سَفِهَتْ حُلُومَكُمْ وَضَلَّتْ عَشِيَّةٌ تَحْشُدُونَ لَهَا تَبِينَا^٤

ثم خرجت في جنود الجزيرة حتى بلغت السباج، فأغار عليهم أوس بن خزيمة، وهزمهم وقتل منهم وأسّر من أسر، فردّت على أعتابها. فاجتمع إليها رؤساء الجزيرة، وقالوا لها: ماذا تأمرين؟ قالت: اليمامة! فقالوا: إن شوكة أهل اليمامة شديدة وقد غلظ أمر مسيلمة، قالت:

«عليكم باليمامة، ودفعوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها

١ - استهد: استنصف. والجلاب: جمع التجلبية وهي الصجولة. وأنسري: أنشريف.

٢ - أُرْسِي: أُنْبِت. التميرة: خلايا النحل مجموعة. وتطلق على التحي العظيم المنفرد.

٣ - رزى فلاناً: قبل برء. وأنزبان: ماتحمله النملة بفمها. ٤ - التبين: حُرِفَ لِرْدَاهُ إِذَا تَبَّهَ أَي تَنَبَّه. وحشد: جمعه.

ملاحظة.

فنهدت لبني حنيثة، وبلغ ذلك مسيلمة، فهابها واحتال في استمالتها، فأرسل إليها بهديّة وطلب منها يستأمنها على نفسه حتى يأتها. فأمرت بنزول الجند على الأمواه^١ وأذنت له وآمنته فجاءها وافداً في أربعين رجلاً من الأحناف. فأول ما بدأها أن قال لها: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد ردّ الله عليك النصف الذي ردّت قريش، فحبائك به، وكان لها لو قبلت.

فقالت: «لا يردّ النصف إلّا من حنف، فأحمل النصف إلى خيل تراها كالسهم»^٢. فقال مسيلمة: «سمع الله لمن سمع، وأطمعه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع. رآكم ربكم فحيّاكم، ومن وحشة خلاكم، ويوم دينه أنجاكم. فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لأشقياء ولا فجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم الكبار، ربّ الغيوم والأمطار».

وقال أيضاً: «لما رأيت وجوههم حسنت، وأشارهم حسنت، وأيديهم طنّلت، قلت لهم: لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنكم معشر أبرار، تصومون يوماً وتكلفون يوماً، فسبحان الله، إذا جاءت الحياة كيف تحيون، وإلى ملك السماء ترقون، فلو أنّها حبة خردلّة لقام عليها شهيد، يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثبور»^٣.

ثم دعا مسيلمة سجاجاً إلى حصنه، فلما أتت ونزلت به أغلق الحصن دونها. فقالت له: انزل، قال: فنجي عنك أصحابك، ففعلت. فقال مسيلمة: اضربوا لها قبة وجمّروها، لعلّها تذكر الباء، ففعلوا، فلما دخلت القبة نزل مسيلمة، فقال: ماذا أوحى إليك؟ فقالت: هل تكون النساء يبتدئن؟ ولكن أنت قل، ماذا أوحى إليك؟ قال مسيلمة:

«ألم ترى إلى ربك كيف فعل بالحيلي، أخرج منها نسمة تسعي، من بين صفاق

١ - الأمواه: الصياح جمع ماء.

٢ - حنف: مائل. التمهف: حرسك التمهف أطلق على الخيل انصغار.

٣ - طنّلت: أي صارت ناعمة كالأفلاة، والنبور: التويل والتهلاك.

وحشي».

قالت: وماذا أيضاً؟ قال: أوحى إليّ:

«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ النِّسَاءَ أَفْرَاجاً، وَجَعَلَ الرِّجَالَ لَهُنَّ زُوجاً، فَنُوجَ فِيهِنَّ قُعساً^١ إِيْلَاجاً، ثُمَّ نَخَرَجَهَا إِذَا نَشَاءَ إِخْرَاجاً، فَيَنْتَجِنَ لَنَا سَخَالاً^٢ إِنْتَاجاً».

قالت: أشهد أنك نبيّ! قال: هل لك أن تزوّجك؟ فأكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، فقال:

ألاقـومي إلى... فقد هيئ لك المضجع

... إلى آخر أبيات ملؤها استهتار وخلاعة، يترقّع القلم عن نقلها.^٣

ذكر ابن حجر: أنها بعد مقتل مسيلمة عادت إلى الإسلام فأسلمت وعاشت إلى خلافة معاوية^٤ وما كانت نبوتها إلا زفافاً على مسيلمة!



٣ - طليحة بن خويلد الأسدي

كان من أشجع العرب وكان يعدّ بألف فارس، قلم على النبي ﷺ في وفد أسد بن خزيمه سنة تسع فأسلموا، ثم لما رجع تنبأ طليحة وعظم أمره بعد أن توفي رسول الله. وكان يزعم أن ذا النون هو الذي يأتيه بالوحي، ولم يأت بقرآن، لأن قومه من الفصحاء لم يكن ليَجبر عليهم ذلك، إلا أنهم تابعوه عصبية وطلباً لأمر كانوا يحسبونه كائناً في العرب بالغلبة.

ولم يؤتر منه كلام سوى قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْنَعُ بِتَعْفِيرِ وَجْهِكُمْ، وَقَبْحِ أَدْبَارِكُمْ شَيْئاً، فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً، فَإِنَّ الرِّعْوَةَ فَوْقَ الصَّرِيحِ».

وذلك أن الصلاة في شرعه كانت مجرد قيام وابتهاال إلى الله، فيما زعم.

١ - القعس - بضم القاف - نتوء في الجسد، كناية عن... وفي الأغاني: «فَنُوجَ فِيهِنَّ التَّوَامِيلُ...» والتواميل: التضعيف من....

٢ - راجع تفصيل القصة في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٩٦ - ٤٩٩.

٣ - الإصالة، ج ٤، ص ٣٤٠.

ولما توافته جيوش المسلمين، تلقف في كساء له بفناء بيت له من شعر، يتنبأ لهم والناس يقتتلون، وكان عيينة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة، يقاتل دونه. فلما هزّت عيينة، الحرب وخرس القتال، كثر على طليحة، فقال: هل جاءك جبرئيل بعد؟ قال: لا، فرجع فقاتل حتى إذا اشتدت الحرب ثانية، جاءه فقال له: لأبأ لك، أجاهك جبرئيل بعد؟ قال: لا والله، فجعل يقول عيينة: حتى متى؟ قد والله بلغ منّا. ثم رجع فقاتل، وكثر عليه ثالثاً وسأله هل جاءه جبرئيل، وفي هذه المرة قال: نعم! قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: «إنّ لك رحي كرحاه، وحديثاً لاتساه».

فقال عيينة: أظنّ أن قد علم الله أنّه سيكون حديث لاتساه، يا بني فزارة، هكذا فانصرفوا فهذا والله كذاب! فانصرفوا وانهمز الناس، فغشوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنا - وقد كان أعد فرسه عنده، وهيأ بعيراً لامرأته النوار - فلما أن غشوه يقولون ماذا تأمرنا، قام فوثب على فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها، وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل. ثم سلك الحوشية حتى لحق بالشام، ورفض جمعه.

مرزقيت كاتيبير علوم اسدي

٤ - الأسود العنسي

هو مسعود بن كعب من بني مذحج، ويقال له: عبهلة. وكان يلقب ذا الخمار، إذ كان يقول: يا تبني ذو خمار. وكان فصيحاً معروفاً بالكهانة والسجع عالماً بالنسب. وقد تنبأ على عهد النبي ﷺ وخرج باليمن وأتبعته قبائل من مذحج واليمن واستنحل أمره. وكان يدّعي أنّ ملكين يأتيانه يسمى أحدهما «سحيقاً» والآخر «شريقاً» وكان إذا ذهب مذهب التنبؤ أكتب ثم رفع رأسه ويقول: قال لي: كيت كيت. وكان له خدع كثيرة يزخرف بها. قتل قبل وفاة النبي ﷺ بيوم. قتله فيروز وقيس وداؤويه من أبناء الفرس الذين أسلموا باليمن، قتلوه في تواطئ خطير:

وذلك عن طريق امرأة يقال لها: مرزبانة، كان قد اغتصبها، لأنّها كانت من أجمل

النساء وكانت مسلمة صالحة، وكانت تحدث عنه أنه لا يغتسل من الجنابة. فصنعت سريراً - حفيرة تحت الأرض: التفتق - وأدخلتهم عليه وهو سكران، فخطبوه بأسيا ففهم، وهم يقولون:

ضلّ نبيّ مات وهو سكران والناس تلقى جلّهم كالذبان
النور والنار لديهم سيّان^١

وذكر ابن جرير: أن الأسود العنسي كتب إلى عمّال رسول الله ﷺ ورؤساء الأجناد: «أيّها المتورّدون علينا، امسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفّروا ما جمعتم، فنحن أولى به. وأنتم على ما أنتم عليه».

وكان اللعين قد خرج واستغلظ أمره واستولى على صنعاء وقتل شهر بن باذان الذي خلف أباه باذان على صنعاء بأمر من رسول الله ﷺ وتزوج بامرأته (آزاد) - وهي ابنة عمّ فيروز، ولعلّها التي كانت تلقّب بمرزبانة، على ما جاء في رواية السهيلي الآنف - وقد أسند أمر جنده إلى قيس بن عبد يثوث، وأسند أمر الأبناء (الفرس الذين قطنوا اليمن) إلى فيروز وداؤويه. وكانوا من ذي قبل من عمّال رسول الله ﷺ فاستمالهم وهدّدهم على قبول ولايته، فقبلوا مكرهين.

قال: واستخفّ بقيس وبفيروز وداؤويه، وتزوج امرأة شهر، ابنة عمّ فيروز. يقول فيروز: ونحن في هذه الشدة، إذ جاءنا كتاب رسول الله ﷺ قدم علينا به ويبرئ يحس، يأمرنا فيه بالقيام على ديننا والنهوض في الحرب، والعمل في الأسود إمّا غيلة وإمّا مصادمة وأن نبليغ عنه من رأينا أن عنده نجدة وديناً، فعملنا في ذلك، وكاتبنا الناس ودعوناهم، فرأينا أمرًا كثيرًا^٢. قال: وقد أحسن بذلك الأسود، يقال: أخبره به شيطانه. فأرسل إلى قيس، وقال له: إن هذا - وأشار إلى شيطانه - يقول لي:

١ - الترويض الآنف، ج ٤، ص ٢٢٦، وذكره ابن هشام في التبصرة، ج ٤، ص ٢٤٦.

٢ - كلف: غلظ وكثر واتنف.

عمدت إلى قيس فأكرمته، حتى إذا دخل منك كل مدخل، وصار في العر مثلك، مال ميل عدوك وحاول ملكك، وأضمر على الغدر، إنه يقول: يا أسود يا أسود، يا سواد يا سواد، اقطف قُتته وأخذ من قيس أعلاه، وإلا سلبك أو قطف قُتتك. فقال قيس: كذب وذو الخمار، لأنك أعظم عندي من أن أحدث نفسي بذلك. فقال العنسي: ما أجفأك، أنت كذب الملك! قد صدق الملك لكبي عرفت الآن أنك تائب!

ثم خرج قيس من عنده وجاء إلى جُشيش وفيروز وداذويه وأخبرهم بالخبر، وقال: إذن فما الرأي؟ قالوا: نحن على حذر. فبيناهم على ذلك إذ أرسل إليهم العنسي، وقال لهم: «ألم أشرفكم على قومكم، ألم يبلغني عنكم!» فقالوا: قلنا مررتنا هذه، فقال لهم: لا يبلغني عنكم فأقتلكم. قالوا: فنجونا ولم نكد. لكنه لم يزل في ارتياب من أمرنا وأمر قيس. ونحن أيضاً في ارتياب من أمره.

قال فيروز: إذ جاءنا اعتراض عامر بن شهر بن باذان، وذو زود، وذو مران، وذو كلاع، وذو ظليم عليه، وكاتبونا وبنوا لنا النصر، وإنما احتاجوا لذلك حين جاءهم كتاب رسول الله ﷺ بشأن العنسي يحرمهم محرماً وغير عربي على رفع فتنته. فكاتبناهم أن لا يحركوا شيئاً حتى نبرم الأمر.

قال: فدخلت على آزاد، امرأته، فقلت لها: يا ابنة عم، قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك قتل زوجك وظأطاً في قومك القتل، أي أسرع فيهم القتل، وسفل بمن بقي منهم وفصح النساء، فهل عندك من ممالأة عليه؟ فقالت: علي أمره. قلت: إخراجهم؟ قالت: أو قتله. قلت: أو قتله؟ قالت: نعم، والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، ما يتوم الله على حق، ولا ينتهي له على حرمة. قالت: فإذا عزمتم فأعلموني، أخبركم بما أتى هذا الأمر.

قال: فاجتمع أمرنا على أن نغدر به، فأتيت آزاد وأخبرتها بعزيمتنا وانتظرت رأيها، فقالت: هو متحرّس، وليس في القصر ناحية إلا والحرس محيطون بها، سوى هذا البيت

١ - القُتة: كالتقة نطقاً ومعنى، وهو أغلى أنسيء ورأسه.

فَإِنْ ظَهَرَ إِلَى مَكَانٍ كَذَا، فَإِذَا أُمْسِيتُمْ فَانْتَبِهُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّكُمْ دُونَ الْحَرَسِ، وَلَيْسَ دُونَ قَتْلِهِ شَيْءٌ. قَالَتْ: وَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِيهِ سِلَاحاً وَسَرَاجاً.

فَتَقَدَّمَ جَشِيشٌ وَدَاذُوِيهِ فَاقْتُلَعَا بِطَانَةِ الْبَيْتِ، فَدَخَلَ فَيَرُوزٌ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَجَلَسَ عِنْدَ آزَادِ كَالْزَائِرِ. وَإِذَا بِالْأَسُودِ دَخَلَ عَلَيْهَا فَاسْتَحَفَّتْهُ غَيْرَةً، وَأَخْبَرَتْهُ بِرَضَاعٍ وَقَرَابَةٍ، فَصَاحَ بِهِ وَأَخْرَجَهُ.

قَالَ: فَتَقَبْنَا الْبَيْتَ مِنْ خَارِجٍ وَدَخَلْنَا فِيهِ سَرَّاجٌ تَحْتَ جَفْنَةٍ. وَإِذَا بِهِ يَمْرُؤٌ بِبَابِ الْبَيْتِ إِذْ سَمِعَ غَطِيطاً، فَعَاجَلَهُ فَيَرُوزٌ فَخَالَطَهُ وَهُوَ مِثْلُ الْجَمَلِ، فَأَخَذَ بِرَأْسِهِ وَقَتْلَهُ، فَدَقَّ عُنُقَهُ وَوَضَعَ رُكْبَتَهُ فِي ظَهْرِهِ فَدَقَّهُ. ثُمَّ قَامَ لِيُخْرِجَ فَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ بِثَوْبِهِ، وَهِيَ تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ. فَقَالَتْ: أَيْنَ تَدْعُنِي؟ قَالَ: أَخْبِرْ أَصْحَابِي، فَأَتَاهُمْ فَتَقَامُوا مَعَهُ وَأَرَادُوا حَرْزَ رَأْسِهِ، فَاضْطَرَبَ فَلَمْ يُمْكِنَ ضَبْطُهُ، فَقَالَ: اجْلِسُوا عَلَى صَدْرِهِ، فَجَلَسَ اثْنَانِ عَلَى صَدْرِهِ، وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ بِشَعْرِهِ، إِذْ سَمِعَتْ مِنْهُ بِرَبْرَةٍ (صِيَاحٌ وَنَخِيرٌ) فَأَلْجَمَتْهُ بِمِثْلَةٍ^١ فَأَمَرُوا الشُّفْرَةَ عَلَى حَلْقِهِ، فَخَارَ كَأَشَدِّ خَوَارِ تَوْرٍ. فَابْتَدَرَ الْحَرَسُ الَّذِينَ كَانُوا أَحْوَلَ الْمُقْصُورَةِ، فَقَالُوا: مَا هَذَا مَا هَذَا؟ فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: النَّبِيُّ يُوحَى إِلَيْهِ، فَيُخْبِرُ.

قَالَ: وَكَتَبْنَا بِذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ قَدْ أَتَاهُ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ اللَّيْلَةَ الَّتِي قَتَلَ فِيهَا الْعَنْسِيَّ. فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِهَلَاكِ عَدُوِّ اللَّهِ، فَقَالَ: قَتَلَ الْعَنْسِيَّ الْبَارِحَةَ. قَتْلَهُ رَجُلٌ مَبَارُكٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مَبَارَكِينَ. قِيلَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ فَيَرُوزٌ، فَازَ فَيَرُوزٌ. ^٢ تِلْكَ كَانَتْ نَهَايَةُ أَمْرِ الْمَلْعِينِ عَدُوِّ اللَّهِ.

قَالَ فَيَرُوزٌ فِي كَيْفِيَّةِ قَتْلِهِ: إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ إِلَيْهِ كُنْتُ قَدْ خَلَعْتُ سَيْفِي فَقُلْتُ إِنْ رَجَعْتَ إِلَيَّ سَيْفِي خُصْتُ أَنْ يَمُوتَنِي، فَضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى رَأْسِهِ، وَأَخَذْتُ رَأْسَهُ بِيَدٍ وَلَحِيَّتَهُ بِيَدٍ، ثُمَّ لَوَيْتُ عُنُقَهُ فَدَقَقْتُهَا.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَكَانَ أَوَّلُ أَمْرِهِ إِلَى آخِرِهِ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ.^٣

١ - هي خرقعة تمسكها المرأة عند النوح تثير بها. ٢ - فيروز مغرب فيروز، بمعنى المتفكر.

٣ - تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٦٣-٤٧٣.

٥ - ابن المقفع

عبد الله بن المقفع الفارسي الماهر في صنعة الإنشاء والأدب^١ وهو الذي عرّب «كليلة ودمنة» بأسلوبه الأدبي البديع، صاحب كتاب «الدرّة البتيمة» المعروفة، زعموا أنه اشتغل بمعارضة القرآن مدة ثم مرق ما جمع واستحيى لنفسه من إظهاره.

يقال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني^٢ وعبد الملك البصري^٣ وابن المقفع في المسجد الحرام يستهزئون بالحاجّ ويطعنون في الإسلام والقرآن.

فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض القرآن كلّ واحد منّا ربه، وإذا انقضاه بطلت نبوة محمد ﷺ وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام!

فتوافقوا على أن يجتمعوا بعد عام ويأتوا بما عملوا في نفس المكان. فلما كان من قابل واجتمعوا، وإذا هم لم يأتوا بشيء!

قال ابن أبي العوجاء: أمّا أنا فمذ فارقكم تفكّرت في هذه الآية «فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ حَلَّصُوا نَجْيًا»^٤ فلم أقدر على موازاتها في الخصاصة والبيان، فقد شغلتنني عن التشكّر في غيرها!

وقال عبد الملك: وأنا منذ فارقكم كنت متفكراً في هذه الآية «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّائِبِ وَالْمُتُنَوِّبِ»^٥ فلم أقدر على مناظرتها!

وقال أبو شاكر: وأنا أيضاً منذ مفارقتي إياكم ظلت متفكراً في هذه الآية «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^٦ فلم أقدر على أن أماتلها!

فقال ابن المقفع: يا قوم، إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا مذ فارقكم

١ - أسلم علي يد «عيسى بن علي» عم المتصور، وتعلّمه لذلك تصادفة كانت بينه وبين عمه) أمر عامله بالبصرة (سفيان بن عباد) بشق ابن المقفع نكابة به، بحجة زندقته في ظاهر الأمر كان ذلك عام (١٤٣).

٢ - ستأتي ترجمتهما.

٣ - ثم نشرته علي ترجمته.

٤ - يوسف (١٢): ٨٠.

٥ - الحج (٢٢): ١٧٣.

٦ - الأنبياء (٢١): ٢٢.

مفكر في هذه الآية «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلنَّوْمِ النَّظَّالِينَ» فلم أستطع أن آتي بنظيرتها!

قال هشام بن الحكم^١ وهو يراقب الجماعة: فبينما هم في ذلك، إذ مرّ بهم الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وعلم ما هم فيه، فقال لهم - متهمكماً -: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا»^٢. قال: فنظر القوم بعضهم إلى بعض، وقالوا - معجبين بالأمر -: لئن كان للإسلام حقيقة، لما انتهت وصاية محمد ﷺ إلا إلى مثل جعفر بن محمد عليه السلام والله ما رأينا قط إلا هبتاه واقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرقوا مقرّين بالعجز^٣.

هذا وقد أنكر العلماء نسبة ذلك إلى ابن المتفّع، الذي هو من أبصر الناس باستحالة المعارضة. إنما يعرف ذلك الفضل من الفضل ذووه.

قال الرافعي: هذه النسبة مكذوبة عليه، وأن ابن المتفّع من أبصر الناس بعدم إمكان معارضة مثل القرآن، لالشيء إلا لا يقدّر من بلغ الناس. وإذا قيل أن فلاناً يزعم إمكان المعارضة فاعلم أنه إما جاهل أحمق أو عالم أعمته العصبية، وابن المتفّع ليس واحداً منهما، ذلك الرجل العاقل الخبير بموضع نفسه من كلام الله المجيد.

قلت: إن صحّت الرواية - ولم تصح - فلعلّه كان مجازاة مع بني جلدته من أهل الأدب وربما كانوا يلحدون في آيات الله، فأراد بهذه التجربة إفحامهم وإقناعهم بواقع الأمر.

يدلّك على ذلك قصّته الأخرى - في المسجد الحرام - مع أصحابه، عندما مرّوا بالإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فعمد إلى التنويه بمقامه الرفيع:

١ - مورد ١٦: ٤٤.

٢ - كان من أعظم صحابة الإمام الصادق عليه السلام مشهوراً بالكلام وحسن المناظرة. كان كوفيّاً ونشأ بواسط وأشهر ببغداد. توفي سنة ١٩٩ هـ.

٣ - الإسراء ١٧: ٨٨.

٤ - الاحتجاج تطهير سي، ج ٢، ص ١٤٢ - ١٤٣، وأورد مختصره في بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٦٦ فقلّا عن مختصر التخرائج، ص ٢٤٢.

روى الصدوق رحمه الله بإسناده المتصل إلى أحمد بن محمد بن محسن الميمني، قال: كنت عند أبي منصور المتطّيب، فقال: أخبرني رجل من أصحابي قال: كنت أنا وابن أبي العوجاء وعبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام. فقال ابن المقفّع: ترون هذا الخلق؟ وأوماً بيده إلى موضع الطواف. ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية، إلا ذلك الشيخ الجالس - يعني جعفر بن محمد رحمه الله - فأما الباقيون فرعاع وبهائم.

فقال له ابن أبي العوجاء: وكيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء؟ قال: لأنني رأيت عنده ما لم أرعندهم.

فقال ابن أبي العوجاء: ما بهد من اختبار ما قلت فيه منه.

فقال له ابن المقفّع: لا تفعل، فإنني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك.

فقال: ليس ذا رأيك، ولكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي، في إحلالك إتياء المحل الذي وصفت! فقال ابن المقفّع: أمّا إذا توهّمت عليّ هذا فقم إليه، وتحنّظ ما استطعت من الزلل، ولا تش عنائك إلى استرسال يسلمك إلى عقال، وسمه مالك أو عليك!

قال: فقام ابن أبي العوجاء إلى الإمام وتكلّم معه وحاججه طويلاً - في شرح يطول - ثم رجع وهو مبهور بفضله (صلوات الله عليه) وبوعده. فقال: يا ابن المقفّع، ما هذا ببشر، وإن كان في الدنيا روحاني يتجسّد، إذا شاء ظاهراً، ويتروّح إذا شاء باطناً، فهو هذا! ثم ذكر له حديثه معه.

وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على أن ابن المقفّع كان يرى - بفضل ذكائه وفرط عقله - مكانة أئمة المسلمين، الأحقّاء بمقام الإمامة، سموّاً ورفعة وشموحاً، تلك كانت عقيدته الباطنية، وربما كان يتألّم من تتدّم غير الأهل من أهل الهرج والضوضاء، فكان يقوم في وجههم ويحارّضهم بقوة بيانه وصريح حجّته، ومن ثمّ رموه بالزندقة والإلحاد. هذا ما أظنّه بحقّ الرجل وربما لأشك في استقامة طريقته على غرار استقامة سائر أبناء الفرس الذين

أُسلموا يوم أُسلموا وكانوا يرون الحقّ مع أهل بيت الرسول ﷺ وإن كان في ذلك رغم أنوف أنبياء أُمية وبني العباس!

٦- أبو شاكر الديصاني

هو عبدالله أبو شاكر الديصاني، نسبة إلى الفرقة الديصانية، مذهب قديم من ثنوية المجوس، له كتاب «النور والظلمة». كان يسكن الكوفة وله مع هشام بن الحكم مناظرات، وأسلم أخيراً على يد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في مباحثة جرت معه، فاستسلم وتشهد الشهادتين وتاب إلى الله ممّا كان فيه. عاش إلى حدود المائة والخمسين.

وقد مرّت قصة معارضته للقرآن إن صحت. نعم له معاججات على مذهبه القديم الثنوي استناداً إلى آيات متشابهة في القرآن، ذكرها المجلسي في بحار الأنوار، وغيره.^١



٧- ابن أبي العوجاء

هو عبد الكريم بن أبي العوجاء، خال من زائدة، زنديق مغتر. كان تلميذاً للحسن البصريّ فأنحرف عن التوحيد. وكان يقول: إن صاحبي كان مخلطاً يقول طوراً بالجبر وطوراً بالقدر! فما اعتقد له مذهباً! وقد جرى بينه وبين الإمام الصادق عليه السلام احتجاجات. ولمّا أخذ ليضرب عنقه، قال: لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم وأحلّ.

كان عبد الكريم يفسد الأحداث فتهدّده عمرو بن عبيد، فلحق بالكوفة، فدلّ عليه محمد بن سليمان أمير البصرة فقتله وصلبه، وكان ذلك في خلافة المهدي بعد الستين والمائة.^٢

له مع الإمام الصادق عليه السلام مناظرات كثيرة في مختلف شؤون الدين والسياسة فيما

١- بحار الأنوار، ج ٤، ص ١٤٠ وسفينة البحار، ج ٤، ص ١٥٨، مادة «ديص»؛ وتجدد في التمثل والتحلل للشهرستاني، ج ٢، ص ٥٥.

٢- التكني والألقاب، ج ١، ص ٢٠١؛ ولسان الميزان لابن حجر، ج ٤، ص ٥١-٥٢.

رُعمه من مناقضات في القرآن الكريم،^١ وسنذكرها في مجال مناسب قادم. أمّا قصة معارضته للقرآن فقد مرّت في قصّة ابن المقفّع.

٨ - ابن الراوندي

أبو الحسين أحمد بن يحيى الراوندي البغدادي (ت ٢٤٥). نسبته إلى راوند من قرى كاسان. كان من العلماء الأفذاذ، ومن النقاد من أهل الكلام، له مجالس ومناظرات مع أرباب الأصول من أصحاب المذهب ولاسيما أهل الاعتزال، فإنّ له نقداً حراً على أصول مذهبهم في المعتقدات، ومن ثمّ رمي بالزندقة والإلحاد.

يقال: إنّ وضع كتابه «الفرند» طعناً في الدين ذكر فيه: «أنّ المسلمين احتجّوا نبوّة نبيهم بالقرآن الذي تحدّى به النبيّ فلم تقدر العرب على المعارضة. فيقال لهم: أخبرونا لو ادّعى مدّح لمن تقدّم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن، فقال: الدليل على صدق بطلميوس أو إقليدس، أنّ إقليدس ادّعى أنّ الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه، فكانت نبوّة تثبت؟»^٢

مركز تحقيق الكتب والمطبوعات الإسلامية

لكن يظهر من مناظراته مع أرباب الجدل، أنّ كلماته مثل هذه، إنّما قالها جدلاً وإفحاماً لدليل الخصم، لالعقيدة الخلاف واقعاً، انظر إلى ما نقله صاحب كتاب «معاهد التخصيص» عن مناظرة وقعت بينه وبين أبي علي الجبائي (رئيس المعتزلة في وقته)، قال له ابن الراوندي: ألا تسمع شيئاً من معارضتي للقرآن؟ قال الجبائي: أنا أعلم بمخاري علومك، ولكن أحاكمك إلى نفسك، فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلاً وتلاؤماً، ونظماً كنظمه، وحلاوة كحلاوته؟ قال: لا والله. قال: قد كفيّنتني. فأنصرف حيث شئت.

١ - راجع: التوحيد التصديق، ص ٢٥٣.

٢ - تاريخ أبي القدام التخصيص في أخبار البشر، ج ٢، ص ٦١.

قال الرافعي: أما ما قيل من معارضته للقرآن فلم يعلم منها شيء سوى هذه المناظرة^١. قلت: على فرض صحتها، فهي صريحة في عقيدته بكبرياء القرآن وعظمته الخارقة، ومن ثم فهي على العكس أدل، وأنه إنما جرى الخصوم في أنه هل يمكن المعارضة أم لا؟ هذا وقد رمي إلى الرفض والتشيع، رفضاً لعقائد أهل السنة القائلين بالجبر والقدر، ولعله شايع مذهب أهل البيت في مسائل العقيدة الإسلامية الأولى. وكيف كان، فلم يثبت أنه عارض القرآن أو حاول معارضته، مع أنه الرجل العالم العارف بمواقع الكلام.

قال الشريف المرتضى - في كتاب الشافي -: إن ابن الراوندي إنما عمل الكتب تشيعاً على مغالطات المعتزلة، ليبين لهم عن استقصاء نقضاتها، وكان يتبرأ منها تبرؤً ظاهراً، وينتحي من علمها وتصنيفها إلى غيره. وله كتب سداد مثل كتاب الإمامة والعروس... وعن صاحب الرياض: يبدو من كتب السيد أنه كان يحسن الظن به، مستقيماً في عقيدته...^٢

يذكر الخطاط المعتزلي عن أبي الراوندي - نقلاً عن كتابه في الإمامة - أنه طعن على المهاجرين والأنصار قائلاً: إن النبي ﷺ استخلف عليهم رجلاً بعينه واسمه ونسبه، وأمرهم أن يقدموه ولا يتقدموا عليه وأن يطيعوه ولا يعصوه، فأجمعوا جميعاً إلا نفرًا يسيراً - خمسة أو ستة - على أن زالوا ذلك الرجل عن الموضع الذي وضعه فيه رسول الله ﷺ وأقاموا غيره، استخفافاً منهم بأمر رسول الله ﷺ وتعمداً منهم لمعصيته^٣. وقد كشف الخطاط عن هذا الرجل الذي استخلفه النبي ﷺ في موضع آخر من كتابه الانتصار، قال: ولكن ليس الاقتصاد في التشيع هو ما قصد إليه صاحب الكتاب - يريد ابن الراوندي في كتاب الإمامة - من أن النبي ﷺ استخلف على أمته من بعده علي بن أبي

١ - إعجاز القرآن توافقي، ص ١٨٣ بالهامش. ٢ - التكني واللقاب، ج ١، ص ٢٨٨.

٣ - كتاب الانتصار في الرد على ابن الراوندي لأبي التميمين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخطاط المعتزلي (قرن ٤هـ).

ص ٣ تحقيق الدكتور نبيرج، طبع القاهرة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٤م.

طالب ﷺ باسمه ونسبه ونصهم (ونصّه ظ) عليه، فقصدت الأمة إليه فأزالته عن الموضع الذي جعله فيه النبي ﷺ وأقامت غيره، اعتماداً لمعصيته واستخفافاً بأمره، ثم قصدت إلى القرآن فنقصت منه وزادت فيه، وقصدت بمثل ذلك إلى السنن.^١

٩ - ابن إسحاق الكندي

وممن حاول معارضة القرآن وأحسن بالفشل، هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (المتوفى حدود سنة ٢٦٠) من أحفاد محمد بن الأشعث بن قيس الكندي فيلسوف العرب. كان رأساً في حكمة الأوائل ومنطق اليونان والهيئة والنجوم والطب، وله باع في الهندسة والموسيقى واضطلاع باللغة والأدب، وله نظم جيد وبلاغة وتلامذة... بخيلاً ساقط المروءة وله في ذلك حكايات تنبؤك عن دناءة طبعه. وكان متهماً في دينه، همّ بأن يعمل شيئاً مثل القرآن، فبعد أيام أذعن بالعجز. ذكر ابن النجار: أن أصحاب الكندي طلبوا منه أن يعمل لهم شيئاً مثل القرآن فأجابهم على ذلك فغاب عنهم طويلاً ثم خرج عليهم فقال: والله لا يقدر على ذلك أحد...^٢

كما حاول تأليف كتاب يجمع فيه تناقض القرآن فيما زعم، لولا أن الإمام أبا محمد العسكري ﷺ نهره عن ذلك على يد أحد تلاميذه. ذكر أبو القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي في كتابه «التبديل» أن ابن إسحاق الكندي، وكان فيلسوف العراق في وقته، أخذ في تأليف تناقض القرآن وشغل نفسه بذلك وتفرّد به في منزله. وأن بعض تلامذته كان يتردد على الإمام الحسن العسكري ﷺ فقال له: أما فيكم رجل رشيد يردع أستاذكم الكندي عما أخذ فيه من تشاغله بالقرآن؟ فقال التلميذ: نحن من تلامذته، كيف يجوز منا الاعتراض عليه في هذا أو في غيره؟ فقال له أبو محمد: أتودّي إليه ما ألقى عليه عليك؟ قال: نعم. قال: فصر إليه وتلطّف في مؤانسته ومعاونته على ما هو بسبيله، فإذا وقعت الأنسة في

١ - الانقصار تلخيصاً لصغرتي، ص ١٦٤.

٢ - راجع: سير أعلام النبلاء تذهبي، ج ١٢، ص ٣٣٧، رقم ١٣٤، ولسان التميزان، ج ٦، ص ٣٠٤.

ذلك فقل له: قد حضر تني مسألة، أسألك عنها؟ فإنه يستدعي ذلك منك! فقل له: إن أتاك هذا المتكلم بهذا القرآن، هل يجوز أن يكون مراده بما تكلم منه غير المعاني التي قد ظننتها أنك ذهبت إليها؟ فإنه سيقول لك: إنه من الجائز، لأنه رجل ينهم إذا سمع. فإذا أوجب ذلك، فقل له: فما يدريك لعلة قد أراد غير الذي ذهبت إليه، فتكون واضعاً لغير معانيه! فصار الرجل إلى الكندي وتلطف إلى أن لقي عليه هذه المسألة. فقال له: أعد علي! فأعاد عليه. فتفكر في نفسه ورأى ذلك محتملاً في اللغة وسائغاً في النظر. فقال: أقسمت عليك إلا أخبر تني من أين لك هذا؟ فقال: إنه شيء عرض بقلبي فأوردته عليك. فقال: كلاً، ما منك من اهتدي إلى هذا ولا من بلغ هذه المنزلة! فعرفني من أين لك هذا؟ فقال: أمرني به أبو محمد. فقال: الآن جئت به، وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت! ثم إنه دعى بالنار وأحرق جميع ما كان الله في ذلك.^١

١٠ - أبو الطيب المتنبي

كذلك نسب إلى أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي (المتوفى قتيلاً سنة ٣٥٤) أنه ادعى النبوة في حدثان أمره، وكان ذلك في بادية السماوة (العراق) وتبعه خلق كثير من بني كلب وغيرهم. وقيل أنه تلا على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن أنزل عليه، منه: «والنجم السيّار، والفلك الدوّار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار امض على سنّك، واقف أثر من قبلك من المرسلين، فإن الله قاصع بك ريغ من ألحد في دينه، وحلّ عن سبيله».

لكنه كلام ليس من طبقة شعره ولا في وزن كلامه، كما لا يخفى على من راج ديوانه. وإنما نسب بالمتنبي لأنه فاق الشعراء في شعره وأعجز الأدباء في أدبه، فلكانه تنبأ وأتى بالمعجزات، كما قال ابن جني: سمعت أبا الطيب يقول: إنما لقبت بذلك لمكان قولي:

١ - انصاف، لابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٥٢٤، وأوردته انجمي في بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣٦٦ في تاريخ حياة الإمام العسكري عليه السلام.

أنا ربّ الندى وربّ التوافي
وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله
غريب كصالح في ثمود
ما مقامى بأرض نحلة إلا
كمقام المسيح بين اليهود
وقال الواحدى بشأته:

ما رأى الناس تاني المتنبّي
أيّ تان يرى ليكر الزمان
وهو في شعره نبّي ولكن
ظهرت معجزاته في المعاني
وهو من فحول شعراء الشيعة، وله في مديح أمير المؤمنين عليه السلام قصائد وأبيات منها قوله:

أبا حسن لو كان حبّك مدخلي
جهنّم كان النور عندي جحيماً
وكيف يخاف النار من بات موقنا
بأنّ أمير المؤمنين قسيمها
وكم لأعداء أهل البيت مفتريات لصقوها برجال الألب والكمال من الشيعة
الأبرار، حسداً من عند أنفسهم وبغضاً لحوالي هذا البيت الرفيع.

مركز تحقيقات كتابت وپښتو علوم اسلامي

١١ - أبو العلاء المعري

أحمد بن عبدالله بن سليمان (ت ٤٤٩)، كان نسيج وحده بالعربية، وفاق أهل زمانه
أدباً وذكاءً، وقد أعجبه محضر الشريف المرتضى فكان مولعاً بالحضور لديه، حتى عدّ من
شعراء مجلسه. وقال فيه:

يا سائلي عنه لما جئت أسأله
ألا هو الرجل العاري من العار
لوجئته لرأيت الناس في رجل
والدهر في ساعة والأرض في دار^٢
وزعم بعضهم أنّه عارض القرآن في قوله: «أقسم بخالق الخيل، والريح الهابّة بليل،
ما بين الأشراف ومطالع سهيل، أنّ الكافر لطويل الويل، وأنّ العمر لمكنوف الذيل، اتق

١ - التكني واللقاب، ج ٣، ص ١٣٩.

٢ - المصدر، ص ١٩٤.

مدارج السيل، وطالع التوبة من قبيل، تنج وما إخالك بناج». وقوله: «أدلت العائذة أباها، وأصاب الوحدة وربها، والله بكرمه اجتباها، وألاها الشرف بماحباها، أرسل الشمال وصباها، ولا يخاف عقباها...»^١

لكنه كلام ليس يشبه من كلام أديب شاعر بليغ. قال الرافعي: وتلك ولاريب فرية على المعري أراد به عدو حاذق، لأن الرجل أبصر بنفسه وبطريقة الكلام الذي يعارضه. ولأنه هو الذي أثبت إعجاز القرآن فيما كتبه ردّاً على ابن الراوندي فيما نسب إليه.

قال - بشأن إعجاز القرآن -: «وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، ما حذى على مثال، ولا أشبه غريب الأمتال، ماهو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الإرب... وأن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلائي في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذاب نسق، فتبارك الله رب العالمين»^٢.

نعم يجوز أن يكون الكلام الألف إنما قاله معارضة لآ عن جدّ وعن واقعية أرادها. قال الخطيب: إن يكن ذلك من كلام أبي العلاء فلن يكون إلا عن معارضة أرادها وقعد لها، وإلا فإنّ أبا العلاء لا يرضى بنفسه أن تنزله إلى هذا السخف في مقام الجدّ أبداً. وإنه إذا كان أبو العلاء يتهم في دينه، فإنّه لا يتهم في أدبه، وإنّ ذوقه للكلام وبصره بمواقع الحسن والروعة فيه يحميه من أن يزلّ أو ينزلق فيتصدّى لمعارضة القرآن ويلقي بنفسه في البحر ليكون من المغرقين. وهو الذي دأب على أن يزيّن كلامه وأدبه بما يقبس من كلمات القرآن وآياته، فهل من يفعل ذلك يتصدّى لمعارضة القرآن؟! المعري أعقل من هذا وأعرف الناس بمكانة القرآن!^٣

١ - معجم الأدباء نياقوت التحصوي، ج ٤، ص ٤١٥. ٢ - المتصدر، ج ٤، ص ١١٠.

٣ - الإيجاز في دراسات المتأخرين، ص ٥٠٥.

١٢ - حادث طريف عاصرناه؟

ذكر الشيخ طنطاوي عند تفسيره لقوله تعالى: «يَوْمَ نَقُولُ لِحَبْثِهِمْ هَلْ أَمْتَلَأْتِ فَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» حادثاً عجيباً ينبؤك عن مدى بلاغة هذه الآية بالغاً حد الإعجاز، قال:

في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٣٢م قابلني الأديب المصري الأستاذ كامل كيلاني فحدثني حديثاً عجيباً كان أشار إليه بمدّة قبيل تقديم هذه السورة إلى الطبع، وهذا الحديث راجع إلى البلاغة التي ظهرت في الآية، فهناك حديثه:

قال: كنت مع الأستاذ «فنگل» وهو من أفاضل المستشرقين الأمريكيين، وكانت بيني وبينه صلات أدبية وثيقة، وكان يأخذ برأيي في ذكر المشاكل التي تقابلها في الأدب، لما يعتقده في من الصراحة. ففي يوم همس في أذني متهيئاً، فقال: خبرني عن رأيك بصراحتك المعروفة، أمّن يعتقدون إعجاز القرآن أنت، أم لذلك تجاري جمهور المسلمين الذين يتلقّون ذلك كابر عن كابر؟ وابتسم ابتسامة كل معانيها لا تخفى على أحد، وهو يحسب أنه قد ألقى سهماً لا يسيل إلى دفعه! فابتسمت له كما ابتسم لي وقلت: لكي نحكم على بلاغة أسلوب بعينه يجب أن نحاول أن نكتب مثله أو نقلده، فلنحاول ليظهر لنا نحن قادرون أم عاجزون عن محاكاته وتقليده! فلنجرب أن نعبّر عن سعة جهنّم، فماذا نحن قائلون؟ فأمسك بالقلم وأمسكت به، فكتبنا نحو عشرين جملة، متخيّرة الأسلوب نعبّر بها عن هذا المعنى، أذكر منها:

- ١- إن جهنّم واسعة جداً.
- ٢- إن جهنّم لأوسع ممّا تظنون.
- ٣- إن سعة جهنّم لا يتصورها عقل إنسان.
- ٤- إن جهنّم لتسع الدنيا كلها.
- ٥- إن الجنّ والإنس إذا دخلوا جهنّم لتسعهم ولا تضيق بهم.
- ٦- كلّ وصف في سعة جهنّم لا يصل إلى تقريب شيء من حقيقتها.

- ٧- إنَّ سعة جهنم لتصغر أمامها سعة السماوات والأرض.
- ٨- كلُّ ما خطر ببالك في سعة جهنم فإنَّها لأرحب منه وأوسع.
- ٩- سترون من سعة جهنم ما لم تكونوا لتحلموا به أو تتصوَّروه.
- ١٠- مهما حاولت أن تتخيَّل سعة جهنم، فأنت مقصَّر ولن تصل إلى شيء من حقيقتها.

- ١١- إنَّ البلاغة المعجزة لتتصر وتعجز أشدَّ العجز عن وصف سعة جهنم.
- ١٢- إنَّ سعة جهنم قد تخطَّت أحلام الحالمين وتصور المتصورين.
- ١٣- متى أمسكت بالثلم وتصدَّيت لوصف سعة جهنم أحسست بتصورك وعجزك.
- ١٤- إنَّ سعة جهنم لا يصفها وصف، ولا يتخيَّلها وهم، ولا تدور بحسبان.
- ١٥- كلُّ وصف لسعة جهنم إنما هو فضول وهذيان.

إلى آخر هذه الجمل التي لا أذكر منها إلا ما ذكرت، لتفادى العهد وطول الزمان. فقلت له متبسِّماً ابتسامة الظافر الواقع: الآن لتجلى لك بلاغة القرآن وإعجازه، بعد أن حاولنا جهداً أن نحاكبه في هذه المعنى.

فقال: هل أدبى القرآن هذا المعنى بأبلغ ممَّا أدبناه؟ فقلت: لقد كنَّا أطفالاً في تاديتك، فقال مدهوشاً: وماذا قال؟ قلت له: قال: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ»! فصنق أو كاد، وفتح فاه كالأبله أمام هذه البلاغة المعجزة! وقال لي: صدقت، نعم صدقت، وأنا أقرُّ لك ذلك، مغتبطاً من كلِّ قلبي (هذا المظهر).

فقلت له: ليس عجيباً أن تدَّعن للحقِّ وأنت أديب خبير بقيمة الأساليب. وهذا المستشرق يجيد الإنجليزِيَّة، لأنَّها لغة بلاده في أمريكا. والألمانيَّة، لأنَّها اللغة التي درس بها الأدب. والعبريَّة، لأنَّها لغة الأمومة والعربيَّة، لأنَّها اللغة التي وقف حياته على درس أدبها. فهو رجل متخصص للأدب، وقد جعل حياته وقفاً عليه.

قال الأستاذ طنطاوي: هذا حديث الأستاذ «كامل غيلاني» ذلك الشاب الذي ظهر ببلادنا المصرية في هذه السنين، وله كتب منشورة نهج فيها منهجاً حديثاً^١.

محاكاة وتقاليد صبيانية

وأخيراً قامت أفراد وجماعات زاعمة بإمكانها معارضة القرآن، فجاءوا بتلفيقات غريبة اقتباساً من أسلوب القرآن ومن نفس تعبيره في تقليد أعمى، لا براعة فيه ولا جمال، سوى أنها سخافات وخرافات لا يتعاطاها ذو عقل حكيم. منها ما جاء في رسالة «حسن الإيجاز» التي زعم كاتبها، وهو مسيحي متطرف، أنه عارض القرآن في سورة القصر فكان بإمكانه معارضته في السور الكبار، هكذا زعم المسكين!

فمما عارض به سورة الحمد، وزعم أنه أخصر منه لنظماً وأجمع منه معنى، قوله: «الحمد للرحمان، رب الأكوان، الملك الديان، لك العبادة، وبك المستعان، إهدنا صراط الإيمان».

مرکز تحقیقات کتب ویراثہ اسلامی

وقد أسهب سيدنا الأستاذ في تسخيف هذا التائه وتزييف مزعومته، وفند أسلوبه على قواعد الكلام بشكل فني دقيق، منها قوله: «ولست أدري ماذا أقول لكاتب هذه الجملة، ألم يشعر بأن المؤلف من معارضة الكلام بمنله، أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلام مستقل في أسلوبه وتعبيراته، لكنه يماثل كلام المعارض في قوة البيان وقدرة التأثير، في مستوى رفيع وأسلوب بديع، الأمر الذي يمتاز به القرآن الكريم. وليس معنى المعارضة أن يقلد في أسلوب التعبير ويبدل من مواضع الكلمات بتصريف وتعيير في ألفاظه. إذ هذا وإن أمكن وكان سهلاً، لكنه مع ذلك يذهب بروق الكلام وربما يطيح به إلى حضيض الابتذال، كما حصل بالفعل لهذا المعارض السفيه. وليس ما لفته تقليدياً مما بقي بما وفاه

١ - تفسير انجواهر تفسیر طنطاوی، ج ٢٣، ص ١٠٧-١٠٨.

سورة الحمد من جليل المعنى وقوة التعبير»^١.

وهكذا زعم الكاتب أنه عارض سورة الكوثر، بكلمات لثقتها من غير ما نظم ولا أسلوب ولا محتوى معقول، وزاد شناعة أنه لعق إناءً كان قد لعنتها كذاب يمامة من قبل، جاء في تليفقه:

«إِنَّا أُعْظِينَاكَ الْجَوَاهِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَجَاهِرًا، وَلَا تَعْتَمِدْ قَوْلَ سَاحِرٍ».

وما ذاك إلا تقليد مفضوح عن قولة مسيلمة:

«إِنَّا أُعْظِينَاكَ الْجَمَاهِرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَهَاجِرًا، وَإِنْ مَبْغَضَكَ رَجُلٌ كَافِرٌ».

قال سيدنا الأستاذ رحمه الله: لم يلتفت هذا المعتوه أن إعطاء الجواهر لا يستدعي إقامة الصلاة والجههر بها، لأنَّ نعمة الثروة أحسن نعم الله على الإنسان الذي شرفه بجلال النعم العظام، كالحياة والعقل والإيمان، ثم ما وجه تعريف الجواهر، أهى لام العهد أم لام الجنس للاستغراق أم لغيره؟ وأخيراً ما وجه المناسبة بينه وبين قوله: «لا تعتمد قول ساحر» أي ساحر؟ معين أم غير معين؟

مرکز تحقیق کتب وعلوم اسلامی

ولعل قولة مسيلمة كانت أقرب إلى نظم السورة، بعد أن كان الأصل أيضاً تقليداً وسرقة محضة. الأمر الذي ليس من المعارضة في شيء.^٢

البابية والبهائية

البائية فرقة مبتدعة ابتدعها «علي محمد بن ميرزا رضا البراز الشيرازي» ولد سنة ١٢٣٦ في شيراز وورد كربلاء سنة ١٢٥٥ لتعلم العربية والدروس الدينية، فصادف أن تتلمذ عند السيد كاظم الرشتي (ت ١٢٥٨). فكان يدعو شيخه الباب الأعظم، وبعد وفاته ادعى لنفسه البائية (الوسيط بين الغائب المنتظر والناس). ثم ارتقى بنفسه إلى مرتبة

١ - راجع: البيان في تفسير القرآن، ص ١٠٩. ٢ - راجع: المصدر، ص ١١٢.

المهدوية ووصف نفسه بصفة «بقية الله» وأمر أتباعه بإدخال جملة «أشهد أن علي محمد الباب بقية الله» في الأذان. وانتهى أمره إلى شقته بأمر «ناصر الدين شاه القاجاري» في ميدان تبريز سنة ١٢٦٦ وعمره إذ ذاك ٣١ سنة.

وقد تدرج المعتوه من درجة البائية إلى دعوى المهدوية فإلى دعوى النبوة، والأوهية أخيراً.

وله في كل هذه المدارج مقالات سخيطة كان يملئها عليه شيطانه الأخرس، وكان يصدرها بصورة ألواح قدسية نازلة من السماء، كما زعم. ومن سخافات الهذيان ما سطره في لوح الحمد:

«أستحمد حمداً ما حمده أحد من قبل ولا يستحمده أحد من بعد، حمداً طلع وأضاع وتشمس وأشرق وأنار وبرق فأبار، فارتفع، وتسطع فامتنع، حمداً شراقاً ذو الاشتراق، وبراقاً ذو الابرراق، وشفاقاً ذو الاشتقاق، وبراقاً ذو الارتقاق، ورتاقاً ذو الارتقاق، ورفاقاً ذو الارتفاق، وحقاقاً ذو الاحتقاق، وسفاقاً ذو الاستفاق، وحداقاً ذو الاحتدق، وقلقاً ذو الاقتلاق... ويختتم اللوح بقوله: جملاً كملاً زقعاً بهياً، بحياناً جملاناً، جمولاناً، وعظماناً».

وفي لوح البهاء: «بسم الله البهي الأبهى، لا إله إلا هو الواحد البهتان، بهاء السماوات والأرض وما بينهما، فوق كل ذي البهاء، لن يقدر أن يمتنع عن ملكك سلطان أبهائه من أحد لا في السماوات ولا في الأرض ولا ما بينهما إنه كان بهاء باهياً بهياً...».

وفي لوح القدم: «بسم الله الأقدم الواحد القدام المقدم القدوم القدامان المتقدم المقدم المقدمون المقدمون المقدمون، المقدم ذي القدمين، المقدم ذي القدماء، ذي القدمات، ذي الأقدام... إلى أن يقول:

أشهد يا إبراهيم إنه لا إله إلا أنا الرحام الرحيم، لن يرى في الأسماء إلا الله فك رب العالمين، لم يكن لما خلقت من أول ولا آخر، وكل ما يرى قائمون ولن يقدر أحد أن يحصي ظهورات ربك من أول الذي لأول له إلى آخر الذي لآخر له. قل في كل

الظهورات لا إله إلا الله وأنّ مظهر نفسه لحقّ لا ريب فيه، كلّ بأمر الله من عنده يخلقون...». وفي لوح القائم: «وإني أنا القائم الذي كلّ ينتظرون يومه وكلّ به يوعدون، قد خلقتني الله بأمره وجعلني قائماً على كلّ نفس بما قد آتاني الله من الآيات وإنّه هو المهيمن القيوم... إلى أن يقول: قل كلّ شيء هالك إلا وجهه، كذلك يظهر الله صدق ما نزل لعلمكم تتذكّرون... ويختتم اللوح بقوله: ولعمري أنّ أمر الله في حقّي أعجب من أمر محمد رسول الله من قبل لو أنتم فيه تتفكّرون. قل إنّه ربّي في العرب ثمّ من بعد أربعين سنة قد نزل الله عليه الآيات، قل إني ربّيت في الأعجميين وقد نزل الله عليّ من بعد ما قد قضى من عمري خمسة بعد عشرين سنة آيات التي كلّ عنها يعجزون. إنا كنّا نستسخ ما كنتم به تعملون...»^١.

أمّا البهائية فهم أخلاف فرقة الباب تاهوا في بيداء الضلال كما تاه أسلافهم. وأوّل من استخلف الباب هو الميرزا يحيى بن عباس النوري الملقّب بصبح أزل، وأصبح خليفة الباب سنة ١٢٦٥، وارتحل هو وأصحابه إلى بغداد، وتغيّب هناك عن أعين الناس، وكان الواسطة بينه وبين أغانم البايّة أخاه الميرزا حسين علي الملقّب ببهاء الله الذي تغلّب على أخيه (صبح أزل) بعدئذ وعزله وقام مقامه وإليه تنتمي الفرقة البهائية.

وإليك من كلمات «صبح أزل» أنزلها بصورة آيات!!

«سبحان الذي نزل الكتاب بالحقّ فيه آيات اللوح هديّ وبشرى تقوم يسمعون، أن اتبع حكم ربّك لا إله إلا هو كلّ إليه ترجعون. وأنّ في الجيّن قد خرجن الحوريات من قصرٍ بحكم ربّك العزيز الحميد، وأنّ من دعائهنّ قل هذا الحرف، فلمّا جاء الرجال الذين يقاتلون من الله بالحقّ فأتانا نحن لفائزون. وأنّ وعد الله لمفعول. قل الحكم في يوم الأمر كان من لديّ لمشهوداً أن ارجعن وسبحن ربّ الخلق الذي بيده ملكوت كلّ شيء، وأن لا إله إلا هو الغنيّ الحميد»^٢.

١ - فلسفه نيكو، ج ٥، ص ٤٤، ٤٥، و تحت ظاه، مادة «باب»، ص ٣٧٧٧.

٢ - فلسفه نيكو، ج ٥، ص ٤٠.

ومن سخائف كلمات البهاء في كتابه «المبين» طبع ١٣٠٨ في بومباي: «يا هذا الهيكل أبسط يدك على من في السماوات والأرض وخذ زمام الأمر بقبضة إرادتك إننا جعلنا في يمينك ملكوت كل شيء، افعل ما شئت ولا تخف من الذين هم لا يعرفون - إلى أن يقول - ترتفع أيادي كل شيء، إلى الله المقتدر العزيز الودود، سوف نبعث من يدك أيادي القوة والقدرة والافتقار وتظهر بها قدرتي لمن في ملكوت الأمر والخلق ليعرف العباد أنه لا إله إلا أنا المهيمن القيوم...»^١

القاديانية

القاديانية: فرقة هندية إسلامية مبتدعة، ابتدعتها الميرزا غلام أحمد القادياني (١٢٤٨-١٣١٩) كان من أولاد الأثرياء الكبار في الهند. كانت داعيته -حسبما زعم- تطهير الإسلام من الشوائب والدخائل، ومن عقيدتهم تكفير أصحاب سائر المذاهب وعدم التزواج معهم وتحريم الاقتداء بهم في الصلاة. وعدم جواز الصلاة على موتى غير مذهبهم. ونحو ذلك من مزاعم غريبة. ومن كتبهم «حماسة البشري إلى أهل مكة وطلحاء أم القرى» و «القصائد الأحمدية» و «المسيح الموعود والمهدي الموعود» و «مواهب الرحمن». كلها بقلمه.^٢

وذكر السيد هبة الدين الشهرستاني: أن أصل هذا الهندي من «بلخ» من قرية «مزار شريف» بأفغانستان. وكان آباؤه ارتحلوا إلى مدينة «سبزوار» من بلاد «خراسان» ثم ارتحلوا منها إلى قرية «قاديان» في منطقة «بنجاب» شمالي الهند، أيام الاحتلال الإنجليزي... فجعل غلام أحمد وهو شاب يافع يتعلم الإنكليزية والعربية ويدرس العلوم الدينية، يستخدم عند الإنكليز على مزارع القرية هناك براتب «عشرين روبية» شهرياً. وفي سنة ١٨٨٠م أعلن في كتابه «برهان أحمدى» أنه المهدي الموعود ثم أعلن في سائر

١ - المصدر، ص ١٠٤، ١٠٥.

٢ - المصدر، ص ٦٩، وثبتت في مادة «غلام أحمد» من ١٦٧٦٨ نقلاً عن معجم المطبوعات، ج ٢، ع ١٤١٩.

كتبه بنزول الوحي عليه، ومن جملة ما أوحى إليه: نسخ حكم الجهاد من شريعة الإسلام ووجوب طاعة الإنجليز في البلاد! فأعانتها السلطة على دعوته وأعلنت برسمية مذهبه. وفي سنة ١٨٨٩م ادعى النبوة رسمياً، وزعم أنه المسيح، وأسقط من اسمه لفظ «غلام». ومما زعم أنه أوحى إليه - ما جاء في كتابه «حمامة البشرى» - : «فألهمني ربي مبشراً بفضل ما عنده وقال: إنك من المنصورين. وقال: يا أحمد بارك الله فيك، مارميت إذ رميت ولكن الله رمى. لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم. ولتستبين سبيل المجرمين... وقال: أنت على بينة من ربك رحمة من عنده وما أنت بفضل من المجانين ويخوفونك من دونه أنك بأعيننا سميتك المتوكل... ويمكرون ويمكر الله... فأدخل الله في لفظ اليهود معشر علماء الإسلام الذين تشابه الأمر عليهم كاليهود. وتشابهت القلوب والعادات، والجذبات والكلمات من نوع المكائد والبهتان والافتراءات، وأن تلك العلماء قد أثبتوا هذا التشابه على النظارة بأقوالهم وأعمالهم، وانصرفهم واعتسافهم، وفرارهم من ديانة الإسلام... وكونهم من المسرفين العادين. وكنت أظن بعد هذه التسمية أن المسيح الموعود خارج. وما كنت أظن أنه أنا. حتى ظهر السر المخفي، وبسماني ربي عيسى في إلهام من عنده. إنا جعلناك عيسى بن مريم، وأنت مني بمنزلة لا يعلمها الخلق، وأنت اليوم مني بمنزلة توحيدي وتثريدي...» إلى آخر ما لفته من ترهات...^١

مصطنعات و تلفيقات هزيلة

هناك مزاعم اصطنعتها أصحاب شبهة التحريف، فحسبتها قرآناً وعلى شاكلته فيما زعموا ونسبوها إلى الوحي سقياً وحمقاً، وليست سوى تلفيقات هزيلة نسجت على عقول ضعيفة، لانظم لها ولا تأليف معروف، فضلاً عن ضحالة المعنى وضالة المحتوى إلى مستوى سحيق.

نعم تصانع الأخباريون مع إخوانهم الحشويين على اختلاق روايات وحكايات

١ - راجع: المعجزة الفارقة، ص ١١٧-١١٩.

أساطيرية عن سور وآيات زعموهنّ مُسقطات من الذكر الحكيم. وبذلك حاول الفريقان قصارى جهدهم على هدم أساس الإسلام والإطاحة بصرحه الرفيع وحصنه المنيع. يالها من عقلية هزيلة وفكرة هابطة. «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانِ ضَعِيفاً»^١. «كَتَبَ اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا نُورًا قَوْلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»^٢. «يُرِيدُونَ نِيْطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»^٣. وهانحن نعرض نماذج من سخائف تلك المخاريق، لتكون هي بذاتها شاهدة صدق على ذلك البون الشاسع بين رفيع كلامه تعالى، والوضيع من تلك الستطات. من ذلك ماختلفته عقلية برهمية حاقدة على الإسلام والمسلمين هو صاحب «دبستان المذاهب»، فحسب فيما حسب في أوهام خياله، سورة قرآنية ساقطة من القرآن، ناسباً ذلك إلى بعض فئات الشيعة نسبة عمياء، إذ لا أثر لها في أقل رسالة أو أدنى كتاب منسوب إليهم إطلاقاً، وإنما هدرت منه من غير هوادة، ولم يعلم مستنده ولا الذي قص عليه هذه القصة الخيالية. نعم كان الرجل ذا شذوذ عقلي مفرط يتقبل كل ما يلقيه عليه المشعوذون ممن أحسوا منه هذا الشذوذ، فضلاً عما كانت تحمله ضلوعه من الحقد على أبناء الإسلام وكان يحاول مبلغ جهده الحثيث ولكن في ستار خبيث على تشويه سمعة الإسلام ليدس التحريف في عقائد الفرق والملل أيّاً كانوا وأي مذهب سلكوا، رغبة في ترويع مذهب أبيه (آذركيوان) وكان قد دعا إليه منذ عهد أكبر شاه السيموري (٩٦٣-١٠١٤).

أمّا صاحب دبستان، وإن اختلفت الآراء في معرفة اسمه ونسبه، لكن المحقق هو «المؤبد كيخسرو اسفنديار» حفيد (آذركيوان - المتوفى سنة ١٠٢٧) مؤسس المذهب الكيواني. وكانت ولادة المؤلف قبل موت جدّه ببضع سنين في مدينة «بندنه - من أعمال الهند» وعاش حتى ما بعد سنة السبعين بعد الألف، على ما يظهر من تأريخات جاءت قيد الحوادث في كتابه الآنف.

٢ - المجادّة ٥٨: ٢٦.

١ - انديام ٤: ٧٦.

٣ - تصف ٦٩: ٨.

وأول من أشاد بشأن كتابه هذا هو «فرنسيس غلادوين» الإنجليزي ترجمه إلى الإنجليزية عام ١٧٨٩م. وفي عام ١٨٠٩م (في ذي القعدة ١٢٢٤) طبع الكتاب بنصّه لأول مرة في «كلكتا» بدستور من المندوب البريطاني في الهند (ويليام بيلي)...^١
 أما لماذا اهتم العجوز المستعمر بهذا الكتاب ونشره وطبعه؟! لأمر ما جده قصيراً
 أنفه!

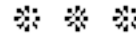
والسورة المزعومة هذه غير منسجمة اللفظ ولا ملتزمة المعنى إلى حد بعيد، بما لا يقاس بكلام العرب فضلاً عن كلام الله المعجز. وإليك مقتطفاً من نصّها:

«يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان^٢ عليكم آياتي، ويحذرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض وأنا السميع العليم. إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات^٣ لهم جنات النعيم. والذين كفروا من بعدما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدتهم الرسول عليه يقدفون في الجحيم. ظلموا أنفسهم^٤ وعصوا الوصي الرسول، أولئك يسقون من حميم. إن الله الذي نور السماوات والأرض بما يشاء، واصطفى من الملائكة الرسل، وجعل من المؤمنين^٥ أولئك في خلقه يفعل الله ما يشاء،^٦ لا إله إلا هو الرحمان الرحيم.. قد خسر الذين كانوا على آياتي وحكمي معرضون...^٧ ولقد أرسلنا موسى وهارون، فبغوا هارون^٨ فصبر جميل... فاصبر فسوف يبصرون... وجعلنا لك منهم وصياً لعلمهم يرجعون...^٩ إن علياً قائماً بالليل، ساجداً يحذر الآخرة^{١٠} ويرجو ثواب ربه. قل هل يستوي الذين ظلموا وهم عذابي يعلمون^{١١} سيجعل الأغلال في أعناقهم وهم على

-
- ١ - راجع ما حققه الأستاذ رحيم في المجلد الثاني من الكتاب المطبوع سنة ١٣٦٢ وقد ذكرنا بعض الكلام عنه عند اتبعت عن شبهة التحريف.
- ٢ - كيف انور اتناون يتلو الآيات؟
- ٣ - كيف اتوداء بعهد الله ورسوله في آيات؟
- ٤ - ما محل إعراب هذه الجملة الفعلية، أي خبر عن مبتدأ محذوف؟
- ٥ - ما معنى «وجعل من المؤمنين»؟
- ٦ - ما معنى «وذلك في خلقه يفعل الله ما يشاء»؟
- ٧ - لماذا ارتفع خبر كان؟
- ٨ - كيف يكون هارون مبيهاً؟
- ٩ - ما معنى «وجعلنا لك منهم وصياً لعلمهم يرجعون»؟
- ١٠ - كيف انتصم، خبر «إن» مرتين؟
- ١١ - لماذا يستوي الذين ظلموا... وكيف يعلمون بعذابه؟

أعمالهم يندمون. إنا بشرناك بذريته الصالحين... فعليهم مني صلوات ورحمة أحياء وأمواتاً يوم يبعثون.^١ وعلى الذين يبعثون عليهم من بعدك غضبي أنهم قوم سوء خاسرين».^٢

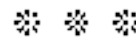
والعجيب أن المحدث الثوري - مع معرفته بالعريضة - استندها حجة قاطعة على زعمه التحريف فيما رواه أهل الخلاف^٣.. وليته تدبرها ولم يتسرع إلى قبول ما ترفضه الحقول...!



وحكي عن أبي موسى الأشعري عندما كبر وخرف في أخريات حياته السوداء أنه كان يقول - في مجتمع قراء البصرة -: إنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأنسيتها، غير أنني حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان من المال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»، وزاد بعضهم: «ويتوب الله على من تاب».

قال: كنا نقرأ سورة أخرى نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيتها غير أنني حفظت منها «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم»... وزاد السيوطي: «فتسألون عنها يوم القيامة».

لاندري كيف توافق المحدث الثوري مع هذا المعجوز الخرف في أوهامه وخرافات، وقد قال تعالى: «وَمَنْ يُعْمَرْهُ تَنَكُّسُهُ فِي الْخَلْقِ»... وقد كان قد شرب في قلبه السنن والحمق من أوليات حياته وإلا فكيف يخفى على ذي حجب الفرق الواضح بين كلامه تعالى وهذا المختلق من الفاظ وكلمات لامحتوى لها ولائتلاف. وليته نسي هاتين كما نسي غيرهما من بقية السورتين الموهومتين.



وأغرب من ذلك ما وهمه بشأن دعاء القنوت المروي عن طرق العامة، فحسبهما

١ - لماذا كانوا أمواتاً يوم يبعثون؟

٢ - لماذا انقصب، نعمت موصوف مرفوع؟ راجع: دبستان اصناف، تحقيق رحيم رضا زاده ملك، ج ١، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

٣ - فصل الخطاب، ص ١٧٩ رقم (سج - ٦٨) من التذييل الثامن.

٤ - المصدر، ص ١٧١، رقم (ب - ١٢). ٥ - ص ٣٦ - ٣٨.

سورتين تحاكيان سور القرآن. والبون شاسع والفسحة واسعة بينهما وبين نظم القرآن وتراكيب ألفاظه.

وهما: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك وننتي عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك»... «اللهم إياك نعبد وإياك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك الجذَّ إنَّ عذابك بالكفار ملحق...».

ونقل المحدث الثوري عن الإتيان: أنَّ عمر بن الخطاب قنت بهما بعد الركوع^١ ومع ذلك فتد رُعمهما سورتين قرآنيتين أسقطتا من المصحف الشريف، ياله من ضحالة الفكر.. ياللعجب «أليس منكم رجلٌ رشيد؟»^٢.

وأيضاً زعم من قول مسلمة بن مخلد الأنصاري: آيتان لم تكتبَا في المصحف، وهما: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، أَلَا بُشِّرُوا أَنْتُمْ الْمُنَافِقُونَ، وَالَّذِينَ آوَوْهُمْ وَنَصَرُوهُمْ وَجَادَلُوا عَنْهُمْ، الْقَوْمَ الَّذِينَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، أُولَئِكَ لَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، جَوَادٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»... دليلاً على اختياره^٣.
لاندري ماهي المناسبة بين مفتاح الآيتين المزعومتين وخواتيمهما؟! وكيف خفي ذلك على مثل الثوري العائش في أوطان غربيته بسامراء يومئذ؟! 

... إلى أمثالها من سفساف القول هي أشبه بمهازل الكلام. وقد ذكرنا تفاصيلها في مسألة «شبهة القول بالتحريف» وأبدينا أوجه التخلص منها. ونها لاتعدو مزاعم رُعمها أهل الحشو من أهل الحديث، وساندتهم إخوانهم من الفئات الأخبارية أصحاب العقول الساذجة! والله هو العاصم.

١ - فصل الخطاب، ج١، ١٧٢، برقم (٦).

٢ - مود: ١١، ٧٨.

٣ - فصل الخطاب، ج١، ١٧٣، برقم (١٣).



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

صفاقة تبشيرية مفضوحة

في مطالع الألف الثالث من الميلاذ!

تكاد تهت البشرية لتستطلع على آفاق جديدة في حياتها الفكرية والأدبية وشعورها الديني العميق الذي أحسته في باطن ضميرها منذ عهد قريب، ومن ثم أخذت تنبذ الخرافات والأوهام التي كهرت ضميرها الديني منذ أحقاب، ولتدرس معالمه على أصول منطقية وفي ضوء العقل الرشيد، وإذا بالجمعية التبشيرية التابعة للكنيسة الأمريكية، نراها تقفز قفزتها الملتوية، انتكاساً على عقب، ورجوعاً إلى الوراء إلى حيث أسلافهم الأغبياء، فجعلت تلوك ما قضمته الآباء، تكراراً للمكرّر المستمر على خط الفشل الناصح، وكما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «تَكَلَّمُوا بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَه رِجَالٌ مِنْ قَبْلِهِمْ»^١. «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ»^٢.

هذا.. وقد فاجأتنا الأخبار بأن شركة أمريكية اسمها «أمريكا على الخط» بنت على شبكة الإنترنت تلفيقات في مجموعات أربع حسبتها على شاكلة السور القرآنية، لغرض

١ - مقتبس من كلامه عليه السلام في الخطبة رقم ١٨٣ من نهج البلاغة، ص ٢٦٦.

٢ - آية ٢: ١١٨.

المعارضة مع القرآن، فيما حسبوا. وبإلها من سخافة في رأي ووقاحة في الإصرار على تجربة فاشلة قد قاساها رجال من قبل، وقد سجل فضحهم كراراً على صفحة التاريخ، ولم ينهوا: أن من جرّب المجرب حلت به الندامة، ولكن أتى للموقيع من ندم على سخافته.

إنهم حاولوا المعارضة مع القرآن، ولكن في شراسة فاضحة، تجاه أدب القرآن الرفيع! بينما القرآن يقُدّس المسيح عيسى بن مريم وأُمّه الصديقة، ويعظم من شأن القساوسة والرهبان الذين اتبعوه بإحسان، بكل أدب واحترام.

«إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُنْقِذَ إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ...»^١
«وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ...»^٢

نجد المعارض الوقح يسرد في شراسته - فيما أسماه سورة «المسلمون» - : «يا أيها المسلمون إنكم لفي ضلال بعيد...»

«وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ أُغْوِيتَ عِبَادِي وَجَعَلْتَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ رَبِّي إِنَّمَا أُغْوَانِي الشَّيْطَانُ...»

إلى آخر خزعبلاته التي زعمها تعادل رصانة القرآن وأدبه في التعبير. وإليك القصة وآراء العلماء حولها في نقد نزيه؛ ولنبداً بالسور المزيّفة التي زعمها الصفيح الزائف أنها تضاهي سور القرآن:

سورة الإيمان

واذكر في الكتاب الحواريين إذ عصفت الرياح بهم ليلاً وهم يُجْحَرُونَ (١) إذ تراءى على المياه لهم طيف المسيح يمشي، فقالوا «هو ربنا»^٣ يهزأ بنا أم قد مسنا ضرباً من

١ - انضمام ٤: ١٧٦. ٢ - انضمام ٥: ٨٢.

٣ - ثم نذر «هو ربنا» أو ابن الرب؟ وكيف يكون المسيح - وهو بشر - رباً أو ابنه أو نبياً؟

جئون (٢) فجاءهم صوت المعلم أن لا تخافوا إني أنا هو فلا تبصروا (٣) فهتف هاتف منهم يقول ربّي مرّني إن كنت حقاً هو، آتي على المياه إليك، عسى أن يبدّل الله شكّي ييقين (٤) قال فاسع إليّ ولشكك للناس آية لعلمهم يتذكرون (٥) وإذ طفق الحوار يمشي رأى شدة الريح فخاف وبدأ يغرق فصاح برّيه يستعين (٦) فمدّ يمينه له فأخذه بها وقال يا قليل الإيمان هذا جزاء الممّثرين (٧) وإذ ركب السفينة معه سكنت الرياح لتوها فسبح الحواريون بحمده، وهتفوا له قائلين (٨) أنت هو أبن الله حقاً، بك نحن آمنّا، وأمامك نخرّ ساجدين (٩) قال طوبى للذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بشتك فأولئك هم المفلحون (١٠)

سورة المسلمون

السم (١) قل يا أيّها المسلمون إنكم لفي ضلالٍ بعيد (٢) إن الذين كفروا بالله ومسيحه لهم في الآخرة نار جهنّم وعذاب شديد (٣) وجوه يومئذ صاغرة مكفّهرة تلتصق عفو الله والله يفعل ما يريد (٤) يوم يقول الرحمن يا عبادي قد أنعمت على الذين من قبلكم بالهدى منزلاً في التوراة والإنجيل (٥) فما كان لكم أن تكفروا بما أنزلت وتضلّوا سواء السبيل (٦) قالوا ربّنا ما ضلّنا أنفسنا بل أضلّنا من ادّعى أنّه من المرسلين (٧) وإذ قال الله يا محمد أغويت عبادي وجعلتهم من الكافرين (٨) قال ربّي إنّما أغواني الشيطان إنّّه كان لبني آدم أعظم المفسدين (٩) ويغفر الله للذين تابوا من أعوانهم الإنسان ويبيع بالذي كان للشيطان نصيراً إلى جهنّم وبئس المصير (١٠) وإن قضى الله أمراً فإنّه أعلم بما قضى وهو على كل شيء قدير (١١)

١ - من هذا إلا تناقض مفضوح و مضادة مع قاطع النقل بأن لا ربّ سوى الله الواحد القهار
٢ - استعما كلمة «إن» هنا نحن فاعش. إذ لا موضع لظرف. فلو كان كانت التخرجة عارفاً بأصوات اللمة فكان عليه أن يأتي بـ «إذا»، كما جاء في القرآن التكرير.

سورة التَّجْسُد

سبحانَ الذي خلقَ السمواتِ فلم يجعلْ لها حداً^(١) وخلقَ الأرضَ وكورها
وجعلها ماءً^٢ وجلداً^(٢) قل للذين خدعوا بدعوة الشيطانِ عَمِيَتْ بَسَائِرُكُمْ فافترِيتُمْ
على الله كذباً وكنتم للشيطانِ سداً^(٣) إنَّ الشيطانَ كان للإنسانِ عدوًّا^(٤) لَوْ شَاءَ
رَبُّكُمْ لَاتَّخَذَ مِنَ الْحِجَارَةِ أَوْلَاداً^٣ لَهُ إِذْ هُوَ الَّذِي قَالَ لِلْمَكُونِ كُلِّ فَكَانَ وَسبحانه أن يستشير
في أمره أحداً^(٥) سبحانه ربِّ العالمين أن يتَّخذَ من خلائيقه ولداً^(٦) قل للذين يمشرون
فيما أنزل من قبل ليس المسيح خليفة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً^(٧) فيه
ومنه كان مع روح قدسه إلهاً سرمدياً واحداً^(٨) واحداً^(٨) وإذ بعثَ به الآبُ للعالمين كما
وعده^(٩) حلَّ في بطنِ عذراءٍ كلمته، وخرجَ منه جسداً^(١٠) عاشر الإنسان، علَّم الإنسان،
مات عن الإنسانِ فدى، وكالإنسانِ رقداً^(١١) وإلى أبيه السماوي بعد ثلاثة أيام صعداً^(١٢)
إنَّ الذين كفروا بآياته وقالوا قولاً إذا^(١٣) لن يجعل الله لهم من أمدٍ أبداً^(١٤) أما الذين
آمَنوا بالله ومسيحِهِ فلهم مغفرةٌ وجَنَّاتٌ تجري فيها أنهارٌ أبداً^(١٥)

مركز تحقيقات كميتر علوم اسلامی

سورة الوصايا

المدَّ^(١) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ لِلْعَالَمِينَ مَبْشِراً^(٢) وَنَذِيراً^(٢) تقضي بما يخطرُ بفكرِكَ^١ وتديرُ
الأُمُورَ تدبيراً^(٣) فمن عملَ بما رَأَيْتَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلِسُوفَ يُلْقَى عَلَى يَدَيْكَ^٥
جزاءٍ مَرِيراً^(٤) إِنَّا أُعْطِينَا مُوسَى مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْوَصَايَا عَشْرَةَ وَنَعْطِيكَ عَشْرَاتٍ أُخْرَى
إِذْ قَدْ خْتَمْنَا بِكَ الْأَنْبِيَاءَ وَجَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا^(٥) فَانْصَحْ مَا لَكَ أَنْ تَنْصَحَ وَمَا أَمَرْنَاهُمْ بِدِ

١ - التلاسدودية صفة خاصة بالله العظيم، لا شيء سواه.

٢ - الذي جاء في التكملة، المقدسة أن الأرض خلقت بعد خلقه السماء. وكذا التجلد.

٣ - ما معنى اتخاذ الحجارة وتداً إذ لا تصانع. ولا هي إلا حيث يمكن الإنبيات.

٤ - هذا يناقض تماماً قوله تعالى: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ». المائدة: ٥٩.

٥ - لا يجازي على العصيان إلا الله، لا أحد سواه.

فقد سَمِعنا لك أن تجري على قرارتنا تغييرا (٦) قل لعبادي الذين آمنوا إن تشاءوا يستعبدوا بالرحمن أن لا يضحك منهم الشيطان وليكبروا الله إن عطسوا تكبيرا (٧) وأن لا يفتشوا في بيوتهم كلباً ولا يضعوا على حيطانهم تصويرا (٨) وإذا أرادوا التبعالاً فليبدوا باليمين قبل الشمال وإن لم يفعلوا فقد اقترفوا ذنباً كبيراً (٩) وإن تبرزوا فليمسحوا مؤخراتهم بحجارٍ ثلاثية ويكفوا عن الروث إذ قد جعلناه للجنّ غذاءً^١ وعلى المؤمنين أمراً^٢ محظوراً (١٠) قل لعبادي الذين آمنوا يغزوا من أرادوا ويقتلوا من أجل رزقهم^٣ ومن لم يغز منهم أو لم يحدث نفسه بغزو مات منافقاً منكوراً (١١) وللمذين يخشون سحراً يأكلوا سبع عجوات ينجيهم الله من السحر ويبعد عنهم شراً مستطيراً (١٢) قل لعبادي إن أرادوا أن يحلفوا فليحلفوا بالله ولا يخافوا تبذيراً (١٣) وأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء متى وتلات ورباع أو ما ملكت أيماهم إننا جعلناهم الذين آمنوا يسيراً (١٤) وإذا فرغت من بين يديك الوصايا فاطلب إليك جبريل يا أيها الساعياً مأموراً (١٥) وإن شغل جبريل عنك فعليك بورقة بن نوفل^٤ واستفيد منه قبل أن تنفقه فيصبح الوحي عليك أمراً عسيراً (١٦)

مرآة حق كآية نور علم

الإنترنت والسور المزيفة للقرآن

بقلم: مصطفى مشهور

Mustafa Mashhour: (El-Shaab, 30 June 1998)

فاجأتنا الأخبار بأن شركة أمريكية اسمها «أمريكا على الخط» بثت على شبكة الإنترنت ما أسمته «سور من القرآن» تحت أسماء «سورة الإيمان» «سورة المسلمون» «سورة التجسد» «سورة الوصايا».

ومما ذكر في سورة المسلمون: «قل يا أيها المسلمون إنكم لفي ضلال بعيد» وعبارة أخرى: «وإذ قال الله يا محمد أغويت عبادي وجعلتهم كافرين». وغير ذلك من العبارات.

١ - كيف يكون الاتبعال بدءاً بالشمات ذنباً كبيراً؟
 ٢ - كيف يجعل روث الإنسان طعاماً للجن؟
 ٣ - كيف يجوز اقتلاع نمرض النهب والإغاشة؟
 ٤ - كيف يخلف إنسان عن ملك مقرب؟

ونقول بكلّ الاطمئنان: إنّ هذا الافتراء لن ينال من الإسلام ولا من القرآن شيئاً. فالله سبحانه وتعالى قد تعهّد بحفظ كتابه ليبقى حجّة للناس إلى يوم القيامة فقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^١ وقد سبق أن تحدّى أهل الاختصاص في اللغة العربية التي نزل بها أن يأتوا بعشر سور من مثله وفي آية أخرى أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم عجزوا، فكيف يأتي اليوم من ليس له باع في لغة أو دين بهذه السور الأربع التي نشرت. لكنّه الحتد والغيط. فنقول لهم موتوا بغيظكم.

ربّ ضارّة نافعة

على المسلمين جميعاً، أفراداً وحكومات ومؤسسات دينية أن تستشير فيهم هذه الحادثة الغيرة على دينهم وتدفعهم إلى أداء واجبهم نحو دينهم الذي ارتضاه الله للناس كافة بأن ينشروه بوجهه الصحيح، وصورته المشرقة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كما أمرنا الله والأجاري الأعداء في المستوى الهابط الذي يهاجمون به الإسلام. فقد تعرّض رسول الله ﷺ للإيذاء وقيل عنه إنه مجنون وشاعر وكاهن وكان يقول: «ربّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون» وصبر المسلمون على هذا الإيذاء واستمروا في الدعوة إلى الله حتى نصرهم الله ومكّن لهم دينهم ومما ينبغي أن نذكره ونعترّ به أن المسلمين يعتبرون كلّ أنبياء الله أنبياءهم «عليهم صلوات الله وسلامه» وأنّ إيمان المسلم لا يكتمل ما لم يشهد بذلك وقد جاءوا جميعاً بالإسلام.

ولعلّ هذه الحادثة تدفعنا إلى الاستفادة من هذه المكتشفات الحديثة كالإنترنت وغيرها بأن نحسن الاستفادة منها في نشر الدعوة إلى الله وتصحيح الصور الخاطئة عن الإسلام، فهي فرصة ثمينة للمسلمين الذين يتوجه بهم في الأساس للعالمين وللشركاء كافة.

فلتتحول مشاعر الغضب والاستنزاز التي تحدثها مثل هذه الأحداث إلى طاقة بناءة وفاعلة تحث المسلمين على التفكير في توظيف تلك الوسائل لتصبح منبرا رشيدا ومتحضرًا للدفاع عن الإسلام، وتبنيته للمخلق بعصيرته المشرقة خاصة وأن اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا، يبذلون جهودهم في تشويه صورة الإسلام في الغرب بأنه دين إرهاب وعنف. ونكون «بهذا المنهاج» نحن الرابعين من الإنترنت وأمنائه، وأن إساءاتهم كالزبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكنه في الأرض.

فعلى المسلمين جميعاً ومؤسساتهم الدينية وعلمائهم أن يعطوا هذا الجانب الاهتمام اللائق به، وأن يقوم المتخصصون بالرد على الشبهات التي تلصق بالإسلام، وأن يوضحوا للناس جميعاً وجهه المشرق وما يحمله للإنسانية من خير في دنياهم وأخراهم وبأن يوقظوا الناس من غفلتهم وانغماسهم في زخارف الدنيا وشهواتها ونسيانهم الحسير المحتوم الذي ينتظرهم جميعاً، وهذا واجب العلماء فهم ورثة الأنبياء.

كما لا بد أن يعسل إلى هذه الشركة التي بت هذا الزيف الاستنكار من العديد من الجهات الإسلامية والحكومات الإسلامية والدعوة إلى مقاطعتها إن لم تصحح هذا الخطأ وتلغيه، كما لا بد أن تشعر أمريكا عن طريق وزراء خارجية الدول الإسلامية بسخط المسلمين عليها لسماحها لهذه الشركة أن تبث هذا البرنامج الشاذ، وعليها أن تراعي مشاعر المسلمين الذين يشكلون ثلث سكان العالم.

نظرة تاريخية...

إن الدين عند الله الإسلام وكل الأنبياء جاءوا بدعوة الناس إلى إسلام الوجه لله وإلى توحيد الله وعبادته ونرى ذلك على لسان بعض هؤلاء الأنبياء، ولما كانت الحياة في الزمن الغابر بدائية وليس فيها ما يوجد الآن من وسائل الاتصالات والمواصلات السريعة فكان كل رسول يبعث إلى قومه ومعه معجزة حسية يراها قومه ويدركون أنها ليست من

صنع البشر ولكنها من صنع الله فيؤمنوا، ولكن الله سبحانه كان يعلم مسبقاً أن البشرية ستكتشف من وسائل المواصلات والاتصالات السريعة التي تجعل الكرة الأرضية كأنها مدينة واحدة، فما يحدث في أمريكا والعين نعلمه في الحال فجعل الله الرسول ﷺ للناس كافة ولم يجعل معجزته حسية يراها من عاصروه فقط ولكنه جعلها معجزة معنوية خالدة وهي القرآن الكريم وتعهّد الله بحفظه من أيّ تبديل أو تحريف «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» ليبقى حجة على الناس إلى يوم القيامة.

ثم إن الإسلام والقرآن رسم للناس منهاج حياتهم في كل جوانبها بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة وقد أثبتت الأيام والتجارب فشل النظم الأخرى كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وغيرها. في حين أن الإسلام قد أسعد الكثيرين فترة من الزمن ليست بالقصيرة وانحسرت عنهم الانحرافات والجرائم إلى حد كبير. ولكن سنة الله في التغيير تفرض نفسها. فعندما قصر المسلمون في أمور دينهم سلط الله عليهم الأعداء فاحتلوا بلادهم ونشروا فيها الفساد والخمر والربا وأسقطوا الخلافة وغرسوا الكيان الصهيوني فكانت هذه الفترة التي يعاني المسلمون فيها من المحن والابتلاءات والتي هي أيضاً من سنن الله في الدعوات للتمحيص والصلل ليخرج منها المسلمون أقوى عزيمة وأصلب عوداً فيحقق الله بهم الحق ويبطل الباطل وقد بدت في الأفق بوادر صحوة إسلامية نرجوها النماء والقوّة.

ومن إعجاز القرآن الإعجاز العلمي

لما كان القرآن هو معجزة الإسلام وعصرنا الحالي يتميز بالعلم والعلماء فإن القرآن الكريم يحتوي على المئات من الآيات التي تتفق معها الحقائق العلمية التي يكتشفها

العلماء حديثا كأطوار الجنين في بطن أمه وقد ذكرها القرآن منذ ألف وأربعمائة سنة مما يؤكد يقينا أنها ليست من صنع محمد ﷺ الأمي ولكنها من صنع الله العليم الخبير، فالعقل والمنطق يحتمان على من يؤمن بأن هذا القرآن من عند الله بسبب سبقه بهذه الحقائق العلمية، أن يؤمن بما في القرآن من عقيدة التوحيد وغيرها من المبادئ الدينية فيدخل في دين الله.

وقد قام بعض المسلمين بدراسات حول الإعجاز العلمي في القرآن وقاموا بجهود طيبة ولا يزالون وغيرهم يواصلون هذه الأبحاث. ونطالب أهل التخصص من العلماء في الفروع المختلفة أن يقدموا أبحاثهم في هذا الإعجاز العلمي وأن تترجم هذه الأبحاث إلى اللغات الحية وتنتشر عن طريق الإنترنت وغيره من الوسائل فيكون لذلك الأثر الطيب الكبير فيدخل الناس في دين الله أفواجا.



كلمة أخيرة

نقول وقد أظننا شهر ربيع الأول الذي ولد فيه رسول الله ﷺ، إن هذا الدين الذي ارتضاه الله للناس جميعا وحتى قيام الساعة لا يمكن أن يقتضي عليه البشر مهما قاموا به من كيد وتضليل، وإن هذا الصراع القائم بين أهل الحق وأهل الباطل قد حسم الله نتيجته في قوله تعالى «كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ».

لقد شقيت البشرية بعدها عن تعليم ربها، وانتشر فيها الفساد والقتل والمخدرات والشذوذ الجنسي والاعتصاب وغير ذلك وقامت الحروب والفتن ولانجاة للبشرية من هذا الخراب والضياع إلا بالعودة إلى تعاليم الله رب العالمين وهذا دور المسلمين بالعودة

إلى دين الله وأن يبدؤوا بأنفسهم وأسرهم ليرزوا القدوة الفاضلة، ثم عليهم أن يوضحوا للناس ما يتميز به هذا الدين من أمن وسلام وعزّة وكرامة وظهر وعفاف، وأن يستفيد المسلمون من كل وسائل الإعلام الحديثة في هذا التبليغ، والرسول ﷺ يحثنا على ذلك في قوله: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم). فكل من يتقدم للإسلام جهداً في أي جانب ويكون له أثره في المستقبل سيكون له أجر عظيم.

Parodizing Qur'an is not Miraculous

تقليد القرآن ليس إعجازاً

(El-Shaab, June 23, 1998)

كتب عامر عبد المنعم

حدث ما حذرنا منه وقام كثير من المسلمين وبدافع الغيرة على الإسلام في الترويج لأحد المواقع المنحرفة التي تسخر من القرآن بإرسال برقيات عبر البريد الإلكتروني إلى آلاف الأشخاص يطالبونهم بالتصدي لموقع يزعم كلاماً مثل ما قاله مسيلمة الكذاب وغيره من قبل، وبدورهم قام الآخرون الذين تسلموا هذه الرسائل بإرسالها إلى من يعرفون، في ترويج غير مقصود لمنكر وباطل.  من التفتيش على موقعي

أشار أحد قرّاء جريدة الشعب إلى أنّه بعث بالرسالة التي وصلته إلى أكثر من مائة صديق يحتفظ بعناوينهم في قائمة بريده الإلكتروني وأكدت قارئة أخرى نفس الأمر كما اتصل بالجريدة العديد من الأشخاص مؤكدين أنّ رسائل وصلتهم من أشخاص يعرفونهم وآخرين لا يعرفونهم.

ومع تزايد الاحتجاجات التي أرسلت إلى «شركة أمريكا أون لاين» التي تستضيف الموقع قام صاحبه المجهول بإنشاء موقعين آخرين على حاسبات شركتي «جيوستر» و «تريبود» بهما نفس المادة المنكرة.. وقد وصلت الشعب رسائل بهذين العنوانين الجديدين (نحتفظ بهما) كما أنّ «أمريكا أون لاين» لم تستجب للضغط. الأمر الذي يكشف أنّ خصومنا يريدون إدخالنا في معركة وهمية ليس لها حدود، وللأسف ما زال

بعض المسلمين الذين تقدّرهم وتقدّر مكانتهم يعطون أعداء الإسلام الشعور بأنهم حققوا ما يريدون بالاستمرار في الترويج لهذا الموقع عبر البريد الإلكتروني وإشاعة عنوانه بزعم التحذير منه.

ولكن السؤال هل فعلاً يمكن اعتبار هذه الترهات والهدل تحدياً لله؟

يقول د. أحمد عبد الرحمن: هذا الكلام ليس جديداً وليس به عبقرية فمحاولات تقليد القرآن كثيرة فقد فعلها مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة كما فعلتها امرأة اسمها سجاح.. ومن يقرأ تاريخ الطبري يجد كثيراً من مثل هذه الأقاويل التي تثير الضحك أحياناً، كما أن القاديانية أثبتوا كتاباً خاصاً بهم، حيث اقتطعوا آيات من القرآن ووضعوا بدلاً منها وهذا لا صلة له بالإعجاز.

ويضيف د. أحمد عبد الرحمن: الإعجاز القرآني المقصود ليس في الألفاظ فقط وإنما في المعاني والعقائد وما تضمنه عن الظواهر الكونية والتشريع الإسلامي لذا فالذين حاولوا تقليد القرآن استخدموا بعض ألفاظ القرآن وحذفوا بعضها ووضعوا أخرى فأين الإعجاز. أيضاً الإعجاز إنك تقرأ القرآن تعرف أنه قرآن ولكن عندما تقرأ هذا التقليد المشوه تعرف أنه ليس قرآن وهذا قمة الإعجاز.

ويقول المفكر الإسلامي د. محمد عمارة: هذا نوع من الهزل، ليس جديداً وما يقولونه ليس إعجازاً لأن التحدي القرآني مركّب فإعجاز القرآن في البيان وفي التركيب وما يحويه من أسرار البلاغة وفي الإنباء والحديث عن الغيب وإعجازه الأكبر في قدرته على خلق الإنسان الراشد في كل زمان ومكان فمنذ (١٥) قرناً لم يحدث أن استطاع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن حتى كثّر العرب فصحاء البلاغة.

ويضيف د. عمارة: أنا أرى أن الانزعاج من مثل هذه المواقع مبالغ فيه والانشغال به مضیعة للوقت وتُصوّر أننا إذا وقفنا مواقف ردود أفعال لما يبث على الإنترنت حول الإسلام فنصبح ضحايا العديد من المنظمات بل والأفراد الذين يستهلكون جهودنا في

الرد على طوفان من الافتراءات على الإسلام بصرف النظر عن ما في هذه الافتراءات من جديد أو من جدية.

ومع هذا قال د. عمارة: نحن محتاجون إلى أن نضع تصوراً وسطياً معتدلاً للإسلام كدين وحضارة وقيم وكعقيدة وكشريعة وكأمة وتاريخ وأن نضع ذلك على الإنترنت وأيضاً أن نضع إلى جانب هذا التصور الوسطي للإسلام الحجج التي يقيمها الإسلام على صدق دعوته ونضع أيضاً الرد على الشبهات التي قيلت والتي تقال عادة في مواجهة الإسلام، ذلك أن تبليغ الإسلام إلى الناس يقتضي أولاً تبليغ الدعوة وتانياً إقامة الحجّة وتالياً دفع الشبهة فإذا نحن قدّمنا صورة الإسلام كما نراها وأقمنا الحجّة على صدق دعوته وإذا فنّدت الشبهات نكون وضعنا المرجع لمن يريد أن ينهم ولمن يريد أن يسأل وبذلك نكون قد أسسنا البناء ولم تستنفذ طاقاتنا في الجري وراء مشيري الاستنزافات والشبهات.

ويستطرد الدكتور محمد عمارة: أتصور أن هذا العمل يجب أن لا يتحوّل إلى مبادرات فردية تخضع لمزاجات مذهبية أو طائفية وإنما يجب أن يجتمع له وعليه أبرز مؤسسات العلم الإسلامي في الوطن العربي والعالم الإسلامي، فعلى سبيل المثال يستطيع الأزهر أن يدعو رابطة العالم الإسلامي والمجامع العلمية في العالم الإسلامي ومجامع اللغة العربية والجمعيات الإسلامية الكبرى ومجامع الفقه الإسلامي وممثلين لوزارات الأوقاف وأقسام الشريعة والدراسات الإسلامية بالجامعات بحيث يتكوّن مؤتمر له أمانة ويتوزّع هذا المؤتمر إلى لجان لا تبدأ العمل من السفر وإنما تستعين بما في المكتبة الإسلامية من دوائر المعارف وموسوعات ومؤلفات بها كل ما يمكن أن يقيم هذا البناء الفقهي وأن تكون مهمّة هذه الهيئة الإعداد والتبويب والصياغة ليخرج هذا العمل في شكل منسق وروح واحدة وبذلك نضع هذا التصور في متناول الراغبين معرفة أيّ شيء عن الإسلام.

وفي تعليقه على ما حدث يقول الدكتور عبدالله هلال الأمين العام المساعد لنقابة العلميين ورئيس اتحاد الطلاب العرب في جامعة ولاية فلوريدا عام ١٩٨٨: الهجوم على القرآن الكريم بكافة الوسائل التآمرية ليس جديداً، فقد بدأ منذ نزلت أولى الآيات على رسول الله ﷺ. والقرآن منذ ذلك الوقت يدافع عن نفسه، ويدود بعضه عن بعض، فهو كلام الله تبارك وتعالى الذي وعد بحفظه، وقد حفظه بالثعل سبجانه وتعالى فرغم تصاعد الهجوم وزيادة الإلحاد على مر الزمن، فمؤسر الحفظ يتصاعد بدخول المخترعات الحديثة من تسجيل صوتي وتسجيل بالصورة واستخدام إمكانات الحاسب الآلي، وغير ذلك من وسائل الاتصال الحديثة.. وتعتبر شبكة الإنترنت من أعظم ما توصل إليه الإنسان في العصر الحديث، وهي كغيرها سلاح ذو حدين، فيمكن أن تستخدم لصالح الإيمان والدعوة، كما يمكن أن تستخدم في الاتجاه العكسي كما يحدث من حين لآخر والحل في نظري يعتمد علينا نحن بأن نكون فاعلين وليس مجرد أصداء لردود الأفعال، علينا أن نستفيد من وسائل الاتصال الحديثة ونسابق الأمم في إبراز الوجه الحضاري للإسلام والإعجاز العلمي واللغوي للقرآن الكريم. فإذ لا تنفع صوت القرآن عالياً لن يدع الفرصة لأصوات الخفافيش أن تظهر.

ويشير د. عبدالله هلال إلى أن وسائل الاتصال الحديث تتميز بالانفتاح والحرية ولا تجدي معها وسائل الإغلاق والمصادرة لذلك فإني أرى أن أصواتنا كما أسلفت ونبدل الجهد والعرق لإبراز وجوه الخير التي يتميز بها الإسلام، وإبراز كنوز المعرفة التي يحفل بها القرآن الكريم أمّا الرد على هؤلاء السفلة الذين يهاجمون كتاب الله فيكفي السخرية منهم وعدم الالتفات إلى جهالاتهم.

Obscurities Fending:

Al-Azhar Official Response to Qur'an Parody

الأزهر وبيان الرسمي

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

وبعد فرداً على الشيطان من الإنس غلبت عليه شقوته، وبارز الله بعصيانته، وافترائه على بارئه، فقد دأب المحجوج المبهوت، وأعماه حقه البغيض عن الحقائق الجليلة فلم يستطع تبين ما كتبت يده ولا ما أملاه عليه عقله الشارد، فناقض نفسه بعمه، وسوّلت له نفسه المريضة بالسوء أن ارتاب مما نزل على رسولنا الكريم، فمن جهله وحماقته أن أتى ببعض آية، فذكر متجهماً: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ولم يكمل الآية، فلو أكملها لأوجعته عتاباً ولكلفته جواباً، فيقول الله تعالى في الآية نفسها: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارُ» فهذا يكون هذا المبهوت قد تحدّث نفسه، فجعله الله هالكاً لنفسه فسلطها عليه بالضلال والبهتان، فهيها تهيها أن يصف عبته بما وصف به نفسه. لقد سبق هذا المبهوت من هم على شاكلته، فأشراف العرب مع كمال حداقتهم في أسرار الكلام وشدة عداوتهم للإسلام، لم يجدوا في بلاغة القرآن وحسن نظمه وأسلوبه مجالاً، ولم يوردوا في القدح مقالاً، بل اعترفوا أنه ليس من جنس خطب الخطباء وشعر الشعراء، وكيف يتصور أن يكون الفصحاء والبلغاء من العرب العرباء كثيرين كثرة رمال الدهناء وحصى النضحاء كانوا عاجزين عن المعارضة، فهذا العايت لم يكن إلا صاغراً بينهم.

إن أراد هذا الغافل إلا اتباع الضلال فعليه نفسه، وإن أراد الهدى فليتبعنا يهدي صراطاً مستقيماً ونهجا قويمًا فنورد إليه بعضاً من الأمور التي تدل على أن القرآن كلام الله؛ أولاً - كونه في الدرجة العالية من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبيهم وتفاصيلها عنها درجات بلاغاتهم وهي عبارة عن التعبير باللفظ المعجب ولا تقصان في البيان. ثانياً - نسقه العجيب وأسلوبه الثريد في المطالع والمقاطع والنواصل مع اشتماله على رقائق البيان وحقائق العرفان وحسن العبارة ولطف الإشارة وسلاسة التركيب وسلامة الترتيب فتحيّرت فيه عقول العرباء وفهوم الفصحاء والحكمة في هذه المخالفة أن لا يبقى لمتصف عنيد فطنة السرقة.

ثالثاً - كون القرآن منظوياً على الإخبار عن الحوادث الآتية فوجدت في الأيام اللاحقة على الوجه الذي أخبر كقوله تعالى: «تَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ»^١ رابعاً - ما أخبر من أخبار القرون السالفة والأهم الهالكة وقد علم أنه كان أمياً ما قرأ ولا كتب ولا اشتغل بمدرسة مع العلماء ولا مجالسة مع الفضلاء بل تربى بين قوم لا يعرفون الكتاب وكانوا عارين عن العلوم العقلية. يقول الله تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُحْتَلِفُونَ»^٢.

خامساً: ما فيه من كشف أسرار المنافقين حيث كانوا يتواطؤون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد وكان الله يطلع رسوله على تلك الأحوال حالاً فحالاً. سادساً: جمعه لمعارف جزئية وعلوم كونية لم تعهد العرب عامة ولا محمد ﷺ خاصة من علم الشرائع التنبيه على طرق الحجج العقلية والسير والمواعظ والحكم وأخبار الدار الآخرة ومحاسن الآداب والشيم.

سابعاً - كونه بريئاً عن الاختلاف والتفاوت مع أنه كتاب كبير مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم، فلو كان من عند غير الله لوقعت فيه أنواع من الكلمات المتناقضة.

ثامناً - كونه معجزة باقية متلوة في كل مكان مع تكثّل الله بحفظه بخلاف معجزات الأنبياء، فإنها انتضت بانقضاء أوقاتها.

تاسعاً - أن قارئه لا يسأمه، وسامعه لا يملّ، بل تكراره يوجب زيادة محبته.

عاشراً - كونه جامعاً بين الدليل ومدلوله، فمن يدرك معانيه ينهم مواضع الحجّة والتكليف معاً في كلام واحد باعتبار منطوقه ومفهومه، لأنه ببلاغة الكلام يستدل على الإعجاز، وبالمعاني يقف على أمر الله ونهيه ووعدته ووعدته، كذلك حفظه لتعليمه بالسهولة، والخشية التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماع القرآن والهيبة التي تعترى تاليه.

الأزهر



فأين هو من هذا فحاشا وكلاً.

إغلاق الموقع الذي أساء إلى القرآن على الإنترنت
كتب عامر عبد المنعم:

أغلقت شركة «أمريكا أون لاين» بالولايات المتحدة الأمريكية الموقع الخبيث الذي أساء إلى القرآن الكريم كما فعلت نفس الأمر شركة ترايود إلا أن المجرم مازال يبت ما دنته المزيّفة على موقع آخر على حاسبات شركة «جيوسيتز»... وقد بثّ صاحب الموقع -الذي أعلن أن اسمه سكوت جوزيف- رسالة أسار فيها إلى أن أحد اليهود دفع له مبلغ ٥٠٠٠ دولار لإنشاء هذه المواقع لتدمير الإسلام، وقال إنه درس اللغة العربية ويعيدها وقدّم اعتذاره للمسلمين. وقد كشفت الرسالة التي كتبها بالإنجليزية أنه شخص عربي وليس أجنبياً كما يزعم لأنها احتوت على العديد من الأخطاء والتي يستحيل أن يقع فيها من يعرف الإنجليزية.

من ناحية أخرى أصدر الأزهر الشريف بياناً رداً على هذا المجرم أكد فيه أن هذا الجاهل أعماه حقه البغيض عن الحقائق الجليلة فلم يستطع تبين ما كتبت يداه ولا ما أملاه عليه عقله الشارد فناقض نفسه.

وعلى صعيد جمع المعلومات عن صاحب هذا العمل الإجرامي تشكر «الشعب» كل الإخوة القراء في جميع أنحاء العالم الذين ساهموا بمعلومات هائلة سنشر تفاصيلها حال اكتمالها لحساب هذا العايب بكلام الله.

*The Full Story of the Criminal Attack on the Holy Qur'an on Internet
Abuser Creates more than one site for his filth*

site born-dead last September until Muslims started protesting last week

(El-Shaab, 30 June '998)

القصّة الكاملة للمجرم الذي أساء للقرآن على الإنترنت
نشأ أكثر من موقع ونشر ترهات على كها القرآن
الموقع ولد ميتاً في سبتمبر الماضي وانتشر عنوانه فجأة الأسبوع الماضي
د. جمال عبد الهادي: أفضل علم نشر الموضوع في الصحف
تقرير: عامر عبد المنعم

انشغل الرأي العام الإسلامي خلال الأسبوع الماضي بقصّة «الموقع الخبيث» الذي يسيء إلى القرآن على شبكة الإنترنت، فقد صدم المسلمون من قيام أحد شياطين الإنس باقتراء ألفاظ على وزن آيات القرآن، زاعماً أنه يتحدّى القرآن، ويكتب سوراً متلماً أنزله الله.

وتناقلت وسائل الإعلام هذا الموضوع، وساهمت في اشتعال النار في نفوس المؤمنين غضباً من تجرؤ هذا الفاجر على الله والاستهزاء بكلام المولى عز وجل، ودخل

الأزهر بقتله ليرد على هذه الترهات منذ الأفاويل وكاشفا خبثها وضحالتها.
ومع اتساع الاحتجاجات، وتزايدها ضد هذا الموقع، استغل هذا الشيطان إمكانيات
شبكة الإنترنت في إنشاء مواقع أخرى يبت من خلالها مادته المزيّنة، بعد أن شعر أنه
استطاع استغضاب المسلمين وإتارتهم.

ماهي القصة؟ وما أبعادها؟ وكيف نواجه هذا الإجرام؟

هذا ما نوضحه من خلال متابعة هذه المعركة المفتعلة منذ بدايتها.

قام هذا المجرم بإنشاء هذا الموقع في أواخر شهر سبتمبر ١٩٩٧ على حاسبات
شركة «أمريكا أون لاين» بالولايات المتحدة الأمريكية وبدأه بترجمة بالإنجليزية لقول
الله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ثم أتبع ذلك عناوين بأسماء إفاك من تأليفه بها كلام مسيحي
على وزن آيات القرآن الكريم وزعم أنه يتحدث الله بها وأطلق على الأولى سورة الإيمان
والثانية سورة التجسد والثالثة سورة المسلمين والرابعة سورة الوصايا. وتعتمد صاحب
الموقع إخفاء هويته ولم يضع أية معلومة تكشف هويته ولا حتى عنوان بريده
الإلكتروني.

وظل هذا الموقع ميتاً لم يشعر به أحد حتى الأسبوع الماضي عندما بدأ المسلمون
أنفسهم تبادل رسائل البريد الإلكتروني عبر الإنترنت محذرين منه ومطالبين باتخاذ
تحرّك لإغلاقه، وقام صاحب موقع مصري ببت رسائل إلى أكثر من ثلاثة آلاف مسلم في
جميع أنحاء العالم يطلبهم بإرسال بقرقيات احتجاج إلى شركة «أمريكا أون لاين»
لإغلاق هذا الموقع الذي يسيء إلى القرآن. ومع تصاعد الاحتجاجات استجابت شركة
«أمريكا أون لاين» لطلب المسلمين وشكّلت لجنة لفحص المادة التي يحويها الموقع،

فقررت إغلاقه بعد اكتشافها أنه يسيء إلى المسلمين، فقام صاحب الموقع المجهول الهوية بإنشاء موقعين آخرين على حسابات شركتي «ترايبود وجيوسيتز» ووضع عليهما نفس المادة المزيفة وقام صاحب الموقع العربي الذي تبني الحملة بإرسال العنوانين الجديدين إلى آلاف المسلمين أيضاً لمواصلة الحملة فاستجابت شركة «ترايبود» وأغلقت الموقع بينما لم تتجاوب شركة «جيوسيتز».

وفي خطوة مفاجئة وغير مقنعة بث صاحب الموقع الخبيث رسالة أعلن فيها اعتذاره للمسلمين، وقال: إن يهودياً أعطى له ٥ آلاف دولار لكتابة هذا الكلام لتدمير الإسلام، وزعم أنه أراد أن يمحي ما كتبه، إلا أن ذلك اليهودي احتفظ بكلمة المرور التي يستطيع بها أن يدخل الموقع ويغير ما فيه، وزعم أن اسمه سكوت جوزيف.

إلا أن الذين قرأوا الرسالة تأكدوا أن هذا الشخص ليس أجنبياً وإنما عربي، لأن هذا الاعتذار تضمن العديد من الأخطاء يستحيل أن يقع فيها من يعرف الإنجليزية.

ومع توسع وإذاعة ما يحويه هذا الموقع ونشر الصحف المصرية عن هذه الجريمة اضطر الأزهر خوض المعركة وإصدار بيان وافٍ موضحاً أن ما كتبه هذا السفه ليس إعجازاً وإنما عبث وقال إن هذا الجاهل «أعماه حقه البغيض عن الحقائق المجلية فلم يستطع تبين ما كتبت يده ولا ما أملاه عليه عقله الشارد فناقض نفسه». وتضمن بيان الأزهر ١٠ نقاط رد على هذا الأفاك.

وعقب بيان الأزهر تمادي المجرم في غيئه وحربه على الله بإنشاء موقع آخر على حسابات شركة «جيوسيتز» تضمنت نفس المادة السابقة مضافاً إليها أربع سور مزيفة أخرى وبعض كلمات من أقوال مسيئة الكذاب الذي سبق وأن ادعى النبوة ليؤكد أن الاعتذار كان مزعوماً أو أن من كتب الاعتذار شخص آخر غيره لإثارة البلبلة وإعطاء القضية مزيداً من الإثارة.

وحتى الآن لم يعرف من وراء هذا الإفك والتزييف، وما إذا كان شخصاً أم مؤسسة،

أي أن الخصم مجهول، وبالتالي فالوسائل التقليدية لمواجهة قد تدخلنا في معركة لانهاية لها - فالحملة المنظمة ضد شخص معروف ومحدد أو ضد منظمة معينة تأتي بنمارها مثلما تفعل المنظمات الإسلامية في الولايات المتحدة والغرب، أمّا على الإنترنت فالوضع مختلف.

وعدم وضوح هذه الرؤية قد ينتج عنه تهديد الجهود أو السير في الطريق الخطأ مثلما صرح به الدكتور أحمد عمر هاشم - رئيس جامعة الأزهر - بأنه يعدّ مذكرة قانونية ضدّ شركة «أمريكا أون لاين»، فهذه الشركة ليست صاحبة الموقع وإنما هي تباع مساحات على حاسباتها لملايين من الأعضاء دون النظر في المادة التي يضعونها، وقد قامت الشركة بالاستجابة لمطالب المسلمين وأغلقت الموقع.

وما فعلته «أمريكا أون لاين» و«ترايبود» لم تفعله «جيو سيتيز» كما أن هناك شركات أخرى متحيّزة ضدّ الإسلام ولن تستجيب لهذه المطالب، وبالتالي فالسير في طرق إغلاق المواقع المعادية للإسلام قد يأتي بنتيجة ولكن ليس في كل الأحوال لطبيعة الإنترنت غير الأخلاقية وأهدافها التجارية، وعدم وجود جهة معروفة للمحاسبة.

وليس معنى هذا التقليل من أيّ اجتهاد في هذا المجال وإنما هذا يدفع المسلمين للبحث عن الوسائل الملائمة للتعامل مع هذه الشبكة لصدّ الشبهات وعرض صورة الإسلام وعدم تهديد الجهود.

فمن المعروف أن هناك مواقع عديدة تهاجم الإسلام ومواقع لعبادة الشيطان يصعب حصرها ولن تجدي معها رسائل الاحتجاج والمصادرة، لأننا لسنا مالكي هذه الشبكة، كما أن عملية تتبع أصحاب هذه المواقع غاية في الصعوبة لن يقدر عليها إلا جهاز مخبرات مثل الـ «سى.إى.أيه».. بل حتى هذا الجهاز عاجز عن معرفة كل من اخترقوا أجهزة وزارة الدفاع الأمريكية وحصلوا على معلومات سرّية خاصة بالبتاجون.

ليس معنى هذا أن يقف المسلمون صامتين ولا يبدون أيّ مقاومة وإنما هذا يحتم

علينا دراسة كل الوسائل الممكنة لتحقيق الرسالة المنشودة والمدافع عن القرآن حتى
لاستنزف في ردود أفعال غير محسوبة.

فمن المعروف أن إنشاء موقع على الإنترنت أمر غاية في السهولة ويمكن لأي إنسان
أن ينشئ موقعاً في أي وقت يشاء ويضع عليه ما يريد وإن تم إطلاقه ينشئ غيره، وهذا
ما قام به الخبيث صاحب الموقع الذي نتحدث عنه.

ليس إعجازاً

وليس معنى الجدل الذي أثير حول الموضوع أن هذا المجرم فعل شيئاً عبثياً وإنما
لأن ما حدث تعدد صريح لله عز وجل يغضب كل صاحب فطرة سليمة والسؤال الذي
طرح هل تزييف وتقليد آيات القرآن يعد إعجازاً وتحدياً لله؟ ثم كيف يتعامل المسلمون
مع مثل هذا الإجرام؟

طرحنا هذا السؤال منذ الأسبوع الماضي على ليفة من المفكرين والعلماء..



وقفة عند (الخزعبلات) المنشورة في (الإنترنت)

من قبل الاستكبار الأمريكي

بقلم: السيد حسين الحيدري

اطلعت أخيراً على صفحات أربعة نشرت عبر الإنترنت يتحدث كاتبتها القرآن
الكريم في إعجازه مدّعي أنها مثل القرآن، ولديّ عدّة ملاحظات ينبغي الانتباه إليها حول
هذه الصفحات الأربعة التي يزعم كاتبتها أنه يعارض بها القرآن الكريم في تحديده للبشرية:
أولاً: إن كاتب هذه الصفحات قد أعلن بلسان حاله - لابلسان مقالته - عن عظمة
القرآن الكريم من حيث لا يدري، وذلك لأن هناك ملايين الكتب المؤلفة باللغة العربية،
وما أكثر الكتب الأدبية منها والنصوص البلاغية الجميلة فيها، ولكن هذا الكاتب تركها
جميعاً وأعرض عنها كلها ولم يقتبس منها شيئاً وجاء إلى كتاب واحد من بين ملايين

الكتب الأدبية وهو القرآن الكريم واقتبس منه نصوصاً كثيرة ووضعها بين كلامه كي يبدو كلامه فصيحاً بليغاً، ولو كان هناك كلام آخر يراه الكاتب أعظم بلاغة من القرآن الكريم لاقتبس منه وأخذ عنه ولكنه وعلى الرغم من قلة الصفحات التي كتبها لم يقتبس إلا من القرآن الكريم وهو اعتراف صريح منه بعظمة القرآن الكريم إذ طرّز كلامه بآيات منه.

وإليك نموذج واحد وهو صفحة (التجسد) لوحدها فانظر مقدار ما فيها من السرقات القرآنية والاقتباس بالنص أو ما هو قريب منه:

أما ما سرقة بالنص:

- ١ - «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ»^١
- ٢ - «إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِإِنْسَانٍ عَدُوًّا»^٢
- ٣ - «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ»^٣
- ٤ - «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا»^٤
- ٥ - «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ»^٥
- ٦ - «وَبِالْعَالَمِينَ»^٦
- ٧ - «الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ»^٧



مركز تحقيقات كتاب وعلوم اسلامی

وأما ما هو قريب من النص:

- ١ - «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ»^٨ فقال: [لو شاء ربكم].
- ٢ - «لَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَنداً لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ»^٩ فقال: [لو شاء ربكم لاتخذ من الحجارة أولاداً له].
- ٣ - «مَا كَانَ اللهُ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ»^{١٠} فقال: [سبحانه رب العالمين أن يتخذ من خلائقه ولداً].

١ - الإسراء: ١٧، ٥٣.

٢ - التوبة: ٤، ٥٧.

٣ - القافزة: ١، ٤.

٤ - الأنعام: ٦، ١١٢.

٥ - مريم: ١٩، ٣٥.

٦ - يس: ٣٦، ٣٧.

٧ - التعلق: ٩٦، ٥.

٨ - الأنعام: ١٧٥.

٩ - الأنعام: ٦، ١١.

١٠ - الزمر: ٦٤، ٥.

- ٤ - «لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا»^١ فقال: | فافتريتم على الله كذباً |.
- ٥ - «إِلَهُاً وَاحِداً»^٢ فقال: | إلهاً سرمدياً واحداً |.
- ٦ - «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ»^٣ فقال: | إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِهِ |.
- ٧ - «فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^٤ فقال: | هو الذي قال للكون كن فكان |.
- ٨ - «لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ»^٥ فقال: | لم يجعل لها |.
- ٩ - «فَتَكُونُ لِنَشِيطَانٍ وَلَيْثاً»^٦ فقال: | وكنتم للشيطان سندا |.
- ١٠ - «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ...»^٧ فقال: | خلق الأرض كورها |.
- ١١ - «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا»^٨ فقال: | سبحانه أن يستشير في أمره أحداً |.
- ١٢ - «إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا»^٩ فقال: | وإذ بعث به الأب للعالمين |.
- ١٣ - «سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^{١٠} فقال: | سبحانه رب العالمين |.
- ١٤ - «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا»^{١١} فقال: | أما الذين آمنوا بالله ومسيحه فلهم مغفرة وجنات نعيم خالدين فيها أبداً |.

ونجده أحياناً يصنع جملة من جمع آيتين وإليك مثالين:

- ١ - قوله تعالى «لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ»^{١٢} و«أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا»^{١٣} فقال: | لن يجعل الله لهم من أمده بدياً | ولكنه لم يوفق في هذا الجمع وسيأتي التعليق عليها.

١ - طه ١٤٠: ٦٩.

٢ - آل عمران ١٣: ٤١.

٣ - النور ٢٤: ٤٠.

٤ - الزمر ٦٢: ٥.

٥ - آل عمران ٣: ١٦٤.

٦ - التوبة ٤: ١٢٢.

٧ - التين ٧٢: ٢٥.

٨ - التين ٧٢: ٢٥.

٩ - التين ٧٢: ٢٥.

١٠ - التين ٧٢: ٢٥.

١١ - التين ٧٢: ٢٥.

١٢ - التين ٧٢: ٢٥.

١٣ - التين ٧٢: ٢٥.

ب - قوله تعالى «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ»^١ و«لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ»^٢ وقد قال: اللهم مغفرة وجنة نعيم.

وبهذا ستكون النسبة المئوية لسرقاته من القرآن في صفحة (التجسد) لوحدها ٧٣٪. ثانياً: لو أننا حذفنا هذه الآيات القرآنية التي طعم كلامه بها لتبين لكل عاقل بشكل واضح وجلي، أن باقي كلامه مهلهل ركيك واه كبيت العنكبوت، وهذا الأمر يشعر به كل قارئ لهذه الصفحات. فبينما يشعر الإنسان حين يتلو الآيات القرآنية التي اقتبسها أنها في أعلى درجات البلاغة فإذا وصل إلى كلام الكاتب شعر بالهبوط من تلك القمة الشامخة في البلاغة إلى حضيض من الكلام المضطرب الركيك. ولو قارنت كلامه هو بعد حذف الآيات بكلام أدباء العرب المشهورين لوجدته ساقطاً عن منزلة كلامهم بدرجات كثيرة جداً.

فمنلاً لا يمكن مقارنته بخطب نهج البلاغة ذات الفصاحة العجيبة والمضامين الحكمية الراقية ولا بكلام الإمام علي بن الحسين السجاد (عليه السلام) في أدعيته الموسومة بالصحيفة السجادية حيث تسمو روح قارئها إلى سماء العظمة والرفعة.

ومن الواضح أن كلام هذا الكاتب لا يبلغ عشر معشار تلك الخطب والأدعية الرائعة ورغم ذلك فلم يدع أحد أن خطب نهج البلاغة أو أدعية الصحيفة السجادية تشبه آيات القرآن الكريم بل غاية ما قيل فيها: (إنها فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق). فإذا كان كلام هذا الكاتب لا يرقى إلى خطب نهج البلاغة فكيف وأنتى له أن يرقى إلى آيات القرآن الكريم؟!!!

«كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ»^٣.

ثالثاً: لو أن شاعراً نظم قصيدة وأورد فيها شطراً واحداً من قصيدة لشاعر آخر دون

٢ - نقصان ٣٦: ٨.

١ - النخب ٢٢: ٥٠.

٣ - التكهف ١٨: ٥.

الإشارة لذلك - بأن يضعها بين قوسين أو يشير لذلك في الهامش مثلاً - فإن الأدباء يسمونه سارقاً ويسقط من أعينهم.

أما لو سرق عدة أشطر أو أبيات من قصائد شاعر آخر، فستلحقه المضيحة والعار أمام أدباء الدنيا. هذا إذا لم يكن في مقام التحدي للشاعر الذي سرق منه... أما لو عرض قصيدته تلك متحدياً بها نفس الشاعر الذي سرق منه تلك الأشطر فإنه سيكون موضعاً للسخرية والاستهزاء من قبل الأدباء والشعراء والحكماء والعقلاء... وهكذا بالنسبة لكاتب الصفحات الأربعة عبر (الإنترنت) فإنه قد سرق آيات كثيرة من القرآن الكريم ووضعها بين كلامه دون إشارة للاقتباس من القرآن الكريم بل زعم أنها من كلامه وإنشائه فنسبها لنفسه. ثم جاء ليتحدى نفس القرآن الذي سرق منه تلك الآيات متصوراً أن حيلته تنظلي على الناس وكأنه يعيش بعقلية القرون الوسطى وبهذا فقد جعل نفسه أضحوكة ومسخرة للمذكتين والمتفكّكين، وفضح نفسه وأوضح عن جهله.

رابعاً: نحن نعلم أن القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ خلال ٢٣ سنة حيث كانت تنزل الآيات متناسبة مع الحوادث الواقعة في ذلك الزمان وبالرغم من تناول المدة التي نزل فيها القرآن الكريم وتغير الحوادث المختلفة وكثرة الآيات التي تضمنها القرآن الكريم فإننا نجد القرآن الكريم على مستوى واحد من البلاغة والفصاحة والجمال والروعة أوله كآخره ووسطه، بالإضافة إلى عدم التناقض والتعارض بين آياته. «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا».

فإنها موافقة للعقل والعلم رغم تطور الزمان وتقدم الكشوفات العلمية كما صرح بذلك علماء الغرب أنفسهم. فقد أثبت الدكتور الفرنسي مورييس بوكاي في كتابه (التوراة، الإنجيل، القرآن والعلم) بعد دراسة طويلة أن القرآن هو الوحيد الموافق لآخر المكشوف

العلمية.

وقال الفيلسوف الإنجليزي برناردشو في المقدمة الثالثة من كتاب Getting to Marriage: (إن الأمة الإنجليزية ستضطر إلى اتخاذ الإسلام ديناً لها لأنه الدين الوحيد الذي يساير التقدم المطرد للعلم).

أما كاتب الصفحات الأربعة فعلى الرغم من قلة الصفحات التي سطرها ورغم أنه قد نشرها في وقت واحد فإنك تشاهد:

أ - المناقضات الكثيرة بين كلماته مما لا يصدر عن عاقل يفهم ما يقول.

ب - مناقضتها لصريح العقل وواضح البداهة.

ج - مناقضة أقواله لتعاليم إنجيله الذي يدعو إليه.

د - ارتكابه للأخطاء الكثيرة.

هـ - ضحالة الأفكار التي طرحها.

ولعلك تطأبني بالدليل على ذلك من كلامه، فأقول:

أما عن التناقض بين كلامه، فنجد بعض الأمثلة عليه:

مثال (١): قال في (التجسد) الفقرة (٦): [سبحانه رب العالمين أن يتخذ من خلقة ولدًا] والعبارة صريحة في نفي كون الله والدًا لأحد بحيث يكون ذلك ولدًا له، ولكنه ناقض هذا الكلام ثلاث مرّات، ففي نفس الصفحة:

١ - في الفقرة (٩) حيث يقول: [وإذ بحث به الأب].

٢ - في الفقرة (١٢) حيث يقول: [والى أبيه السماوي].

٣ - وناقضها أيضاً في الصفحة الثانية التي سماها (الإيمان) في الفقرة (٩) حيث قال: [أنت هو ابن الله حقًا].

مثال (٢): قال في (التجسد) الفقرة (٧): [ليس المسيح خليفة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبدًا] والعبارة صريحة بأن الله لم يخلق المسيح بل كان هناك منذ الأزل

والى الأبد إلهان اثنان هما الله والمسيح وأن المسيح كان مع الله أبداً وسيكون معه أبداً. تمّ يضيف عبارة أخرى في الفقرة (٨) هي: [مع روح قدسه] لتصبح الآلهة ثلاثة هم: الله والمسيح وروح القدس.

ولكنه ناقض هذا الكلام بمناقضتين:

المناقضة الأولى: في آخر الفقرة (٨) حيث يصف هؤلاء الآلهة الثلاثة بأنّها: إلهاً سرمدياً واحداً واحداً.

فبعد أن وصفهم بأنهم ثلاثة جاء ووصفهم بأنهم (إلهاً واحداً واحداً) فهل تراه يصفهم ما يقول؟ وهل خفي عليه من الحساب والرياضيات ما لا يخفى حتى على الأطفال؟!!!
والمناقضة الثانية:

١ - قوله في أول الفقرة (٨): [فيه ومنه] وعبارة [منه] تعني أن المسيح صدر إلى الوجود من قبل الله وخلق الله بينما قال سابقاً [ليس المسيح خليفة الله].
٢ - وكذلك يناقض قوله [أنت هو ابن الله]، فالابن متولد عن الأب.
مثال (٣): لقد تناقض كلامه في وصف المسيح بشكل عجيب ومضحك:

١ - فتارة يصفه بأنه هو (الرب) كما في الفقرات (٢) و(٣) من (الإيمان): [...] فقالوا: أهو ربنا... فجاءهم صوت المعلم... إني أنا هو].
والفقرة (٨) من (الإيمان): [وسبح الحواريون بحمده].

٢ - وتارة يصفه بأنه كان مع الله ولم يخلقه الله كما في الفقرة (٦) من (التجسد): [ليس المسيح خليفة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً].

٣ - وتارة يصفه بأنه ابن الله كما في الفقرة (٩) من (الإيمان): [أنت هو ابن الله حقاً].

٤ - ورابعاً يصفه بأنه نبي أرسله الله كما أرسل موسى من قبله وأنه خاتم الأنبياء كما في (الوصايا) الفقرة (٢): [إنا أرسلناك للعالمين] والفقرة (٥): [إنا أعطينا موسى من قبلك من الوصيات عشرة ونعطيك عشرات أخرى إذ قد ختمنا بك الأنبياء].

فكيف يكون المسيح قارة مع الله أبدًا ولم يخلقه الله وقارة هو الله وقارة ابن الله وأخرى نبي أرسله الله كباقي الأنبياء ولكنه خاتمهم...؟!

نبتوني بنا ويلها أيها العتلاء... إن كنتم (للخرعيلات) شارحين!!!

وصدق الله العظيم حيث يقول في وصف القرآن الكريم:

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا».

وهناك تناقضات أخرى في كلامه ربما كانت غير واضحة للجميع نذكر بعضها على وجه السرعة:

قوله في ورقة (الإيمان) الفقرة (٢): [إذ تراءى على المياه لهم طيف المسيح يمشي]. والطيف هو خيال الشيء، أي تخيل غير الحقيقي أنه شيء حقيقي ولذلك سمي المنام طيفاً. إذن كيف يكون الخيال دليل معجزة؟ ثم لو فرضنا أنه معجزة فما علاقة من يمشي على الماء بكونه هو الرب؟ فما أكثر المعجزات التي حدثت على يد الأنبياء وذكرها الإنجيل ولم يصبحوا عندكم بذلك أرباباً. ثم ما علاقة ذلك بقوله [أهو ربنا يهزأ بنا]؟ فهل رؤية المعجزة دليل على استهزائه بهم؟ أين موضع الهزة في ذلك؟

ثم إذا كانت شدة الريح أغرقته وبدأ يغرق ثم صاح بربه يستعين، يستحق مثل هذا الإنسان الذي أغرقته شدة الريح وهو يستعين بربه، أن يعصفه: [يا قليل الإيمان هذا جزاء الممتريين] أي الشاكين مع أنه لم يشك وإنما شدة الريح والخوف أغرقه. فكيف يقال له هذا جزاء الممتريين؟

وأما صفحة (المسلمون) فإنه قال: قل يا أيها المسلمون إن الذين كفروا بالله ومسيحه].

مع أن المسلمين آمنوا بالله وآمنوا بالمسيح أنه نبي مرسل من قبل الله وإيمانهم هذا

موافق لما ذكره هو في (الوصايا) عن المسيح أنه نبي مرسل إلى الناس كباقي الأنبياء. فكيف ادعى بأنهم كفروا بالله ومسيحه؟

وقال أيضاً فيها الفقرة (٥) و(٦): [قد أنعمت على الذين من قبلكم بالهدى منزلاً في التوراة والإنجيل، فما كان لكم أن تكفروا بما أنزلت] مع أن القرآن يقول: «كَرَّرَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ». إذن فالمسلمون مصدقون بالأنبياء وبالتوراة والإنجيل التي نزلت على موسى وعيسى. فكيف يزعم كفرهم بهما؟
أما عن المناقضات للعقل:

فبالإضافة للمناقض الواضح بين كلامه السابق فإنه مناقض للعقل أيضاً. فكيف يكون مثلاً الشيء واحداً حقيقةً، وثلاثة حقيقةً؟ فإن من بديهيات العقل والمنطق بطلان ذلك. ثم إن قوله: [ليس المسيح خليفة الله إذ كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً] ثم قوله: [إنه ابن الله حقاً]، يناقض العقل، لأن إطلاق لفظة الابن تدل على أنه كان هناك زمان ولم يكن الابن موجوداً مع الأب ثم وجد بواسطة الأب فكيف يقول: إنه كان مع الله أبداً؟ وإذا كانا موجودين معاً أبداً، إذن ما معنى إطلاق الابن على أحدهما والأب على الآخر؟

ثم وصف المسيح تارة بأنه الله وتارة بأنه نبي الله كباقي الأنبياء، أرسله الله للعالمين، لا يمكن أن يقبله عقل عاقل أبداً. لأن المرسل لابد أن يكون مغايراً للرسول فلا يمكن أن يكون المرسل والرسول واحداً إلا إذا أصبحنا مثل الكاتب بغير عقل.

ثم وصف المسيح بالتجسد غير معقول؛ فقد زعم في الفقرة (٧) من (التجسد) [إن المسيح كان موجوداً مع الله] فإن كان موجوداً بروحه وجسده فلا معنى إذن للتجسد، لأن

التفعل يدل على وجود الشيء بعد عدمه والمفروض أن جسده كان موجوداً، وإن كان موجوداً بروحه فقط تم خلق الله جسده في بطن أمه مريم وخرج من بطنها جسداً فنقول أن كل الناس خلق الله أجسادهم بهذه الطريقة في أرحام أمهاتهم، فما ميزة المسيح من جهة خلق جسده في بطن أمه حتى يخصصه بفكرة التجسد؟ وإذا كان السبب خلقته من غير أب فآدم خلقه الله من غير أب ولا أم.

ثم لو كان في التجسد فضل وشرف ومجد فلماذا اختص به الابن دون الأب السماوي مع أنه سماءهما إلهاً واحداً أحداً كما مر؟ ثم كيف يموت الإله فداء عن الإنسان والموت فناء ولا يعقل فناء الإله؟ بالإضافة لمناقضته للفقرة (٧) | كان مع الله قبل البدء وهو معه أبداً | ولقوله | سرمدياً |.

وأما عن مناقضتها للإنجيل فالإتيك نماذج منها:

أ - لقد وصف المسيح بأنه (إله) مع أن الأناجيل تعترف بأن الله إله المسيح (كما في إنجيل يوحنا ١٧: ٢٠ ومتى ٤٦: ٢٧ ومرقس ١٥: ٣٤) وفي يوحنا ١٧: ٣٤ اعتراف بأن المسيح لا يعلم ما يعلمه الله ولا يفكر إلا على ما أعطاه الله إياه وأن الحياة الأبدية أن يعرفوا الله بأنه إله حقيقي وحده وأن يسوع هو المسيح الذي أرسله.

ب - قوله | إذ قد ختمنا بك الأنبياء |.

مع أن المسيح قال (كما في إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤: ١٦): (وأنا أطلب من الأب | أي الرب | فيعطيك معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد). أي أن هناك شخص آخر سيأتي وهو خاتم الأنبياء، وذلك لقوله (ليملك معكم إلى الأبد) وهذا يعني أنه لا يأتي بعده شخص آخر.

علماً بأن الكلمة الأصلية في الأناجيل القديمة هي (بيريكليتوس) اليونانية أو (الفارقليط) والتي ترجمتها (أحمد) وليست (باركليتوس) التي تعني المعزي.

وفي الإصحاح ١٦ يوحنا سطر ٦ - ١٥ (الكئي أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق

لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي).

وتفسير المعزي بروح القدس غير صحيح لأن روح القدس كان موجوداً مع المسيح أما هذا المعزي فإنه لا يأتي إلا بعد ذهاب المسيح.

ولذلك يقول (وليم مور) في كتابه (تاريخ ولیم مور) طبع عام ١٨٤٨ م ص ٥٤: إن المسيحيين كانوا ينتظرون الرسول المنتظر. وهناك من ادعى أنه هو البارقليط وأتبعه المسيحيون مثل (منتسي) ادعى عام ١٨٧ أنه هو الرسول الذي أخبر عنه المسيح. إذن فأهل القرون السابقة كانوا يفهمون أن البارقليط إنسان ورسول وليس ملكاً. ج - ويقول في صفحة (الإيمان) الفقرة ٩ مخاطباً المسيح | أنت ابن الله حقاً... وأمامك نخر ساجدين |.

والمسيح (يحيى) قد تنبأ في الإنجيل بأن الناس سوف يعبدونه بالباطل. ففي إنجيل متى الإصحاح ١٥: ٩ (وباطلاً يعبدوني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس). أي أن عبادة المسيح ليست من تعاليم الله ووصاياه بل هي من وصايا الناس الباطلة. وأما عن ارتكابه للأخطاء، فإنك تجد فيها: أ - من الأخطاء النحوية:

قال في صفحة (الوصايا) الفقرة ١٥ | فاطلب إليك جبريل يأتيك ساعياً مأموراً |. وهذا خطأ والصحيح أن يقول: (يأتيك) لأنه جواب الطلب فيكون مجزوماً بحذف حرف العلة.

ثم إن السعي: للمشي على الأرض، وأما جبريل فإنه ملك يطير. ب - من الأخطاء اللغوية:

قوله في الفقرة ١٧ من صفحة (المسلمون): | ما ظللنا أنفسنا |. والصحيح (ما ظللنا) لأن (ضل) لازم و(أضل) هو المتعدي. ج - من الأخطاء المعنوية:

وقال في الفقرة: ١ من (التجسد): [خلق السماوات فلم يجعل لها حداً].

فإن السماوات التي خلقها الله وماتحويه من النجوم والكواكب محدودة مهما كانت واسعة. لأن كل شيء مخلوق في الكون لا بد أن يكون له حد خلقه الله فيه فلا يستعدي حدوده، والشيء الوحيد الموجود غير المحدود هو الله سبحانه وتعالى.

د - استخدمه لكلمات لا معنى لها:

١ - قوله في الفقرة: ٨ من (التجسد): [فيه ومنه] مع أن كلمة (فيه) قد أقحمها بلا معنى.

٢ - قوله في الفقرتين ١٣ و ١٤ من (التجسد):

[إن الذين كفروا بآياته وقالوا قولاً إذأً (١٣) لن يجعل الله لهم من أمده بدءاً (١٤)].

فالفقرة (١٤) التي وضعنا تحتها خطأ ليس لها معنى مطلقاً سوى ترصيف الكلمات

من دون تفكير في معناها.

وأما عن ضحالة الأفكار التي طرحها

فقد دعا للشرك بدلاً من التوحيد بآيات أن الله ثلاثة!!

ودعا لعبادة المسيح بدلاً عن عبادة الله!! وأشار إلى تجسيد الله!!

«سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا».

وطرح فكرة (الفداء) التي تشجع الناس على ارتكاب الجرائم بحجة أن المسيح

يتحمل خطاياهم، وفيها اتهام للعدالة الإلهية حيث يحاسب شخص بما يفعله الناس

جميعاً ويجعله لعنة بدلاً عنهم كما عن بولس في ثالث غلاطية ١٣ فكيف يجعل الله

المسيح ملعوناً بأمير لم يقترفه هو. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ثم كيف يكون موته لثلاثة أيام فداءً عن كل البشرية رغم أن هناك الملايين الذين

قتلوا ظلماً لثلاثة أيام فقط. ثم كيف امتنع عفو الله ورحمته للثائبين من الخطايا ولم تنزل

رحمته عليهم إلا بقتل المسيح فداءً؟!

ثم إن الإنجيل في متى: ٢٦ ومرقس: ١٤ ولوقا: ٢٢ يذكر أن المسيح لم يكن راضياً وكان يبكي ويصرخ ويطلب من الله كي يخلصه، فكيف يُجبر شخص على أن يتحمل ذنوب الآخرين قسراً وإكراهاً ويُعرض للإهانة والاستهزاء ثم نسميه (بالفداء)!!

سبحان الله إنه هذيان يخجل الإنسان أن ينسب إليه فكيف بنسبته للقدس الرحمن الحنان المنان.

ولو تتبعنا كل ترهاته لطان بنا المقام ولاحتجنا إلى كتابة صفحات طويلة.

ونكتفي بهذا النموذج المضحك - أيها المنصفون -:

يقول [وإذا أرادوا انتعالاً فليبدأوا باليمين قبل الشمال وإن لم يفعلوا فقد اقترفوا ذنباً كبيراً] (الوصايا: ٩).

فإن الابتداء باليسار ليس ذنباً حتى يعتبره ذنباً كبيراً!! لافي الأديان ولا في الأعراف ولا عند العقلاء!!

وهكذا لو تأملت بقية الوصايا فإنه سيطول ضحكك وتعجبك من هذا الجاهل وهو يحاول أن يتحدث القرآن العظيم في قوانينه الرائعة الراقية النافعة لصلاح المجتمع والأسرة والفرد وتنظيم العلاقات الدولية.

والآن تأمل في مثل قوله تعالى في القرآن «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدُوا أَعْدَاءَكُمْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ»^١.

أي لا يجزئكم بغض قوم على أن لا تعدوا معهم، وقارن ذلك مع وصايا صفحة (الوصايا)!!

و لقد قال شبلي شميل (الملحد) كلمته المشهورة في وصف القرآن الذي جاء به

النبي محمد ﷺ:

إني وإن أكن قد كثرت بدينه هل أكفرون بمحكم الآيات؟

وأخيراً نقول للجهات المشرفة على نشر هذه الصفحات: لا يوجد هناك أي مانع لمن يريد أن يجرب حفظه في تحدي القرآن، بل إن القرآن الكريم لازال يتحدى البشرية ويدعوهم لذلك، وليس فيه إهانة لمشاعر المسلمين.

ولكننا نقول إن التحدي يحتاج إلى أسلوب أدبي وبلاغي مع مضامين صحيحة رائعة وراقية..

فما التجاسر على سيد الكائنات محمد ﷺ كما في صفحة (المسلمون) الفقرات ٧-٩:
 إقاولوا ربنا ما ضللنا أنفسنا بل أضلنا من ادعى أنه من المرسلين (٧) وإذ قال الله يا محمد أغويت عبادي وجعلتهم من الكافرين (٨) قال رببي إنما أغواني الشيطان إنه كان لبني آدم أعظم المفسدين (٩)،

فليس له تفسير سوى الحق الأسود، والجهل الأعمى... وهذا هو الذي أغضب ملايين المسلمين، فليفتهم الذين لا يفرقون بين التحدي والتعدي.

قم المقدسة - الحوزة العلمية

ربيع الآخر: ١٤٢٠ هـ ق

مقارنة عابرة

وأن مقارنة عابرة بين كلامه تعالى النازل قرآناً، وبين كلام أفصح العرب المعاصر للنزول، لتجعل الفرق بيناً بينهما، وأن لامتضاهة هناك ولا تماثل، كما لاتناسب بين الثريا والثرى، ذاك نجم لامع وهذه أرض هامة، لا يشبه أحدهما الآخر في شيء ومن ثم أذعن العرب بأنه ليس من كلام البشر الذي تعارفوه وكان في متناولهم يمارسونه، نعم هو كلام الله الوحي النازل على رسوله، هذا شيء كانوا قد لمسوه.

وقد مرّت عليك نماذج من خُطَب العرب وأشعارهم وكانت من النمط الأرقى المعروفة يومذاك. فإذا ما قارَنتها مع أي القرآن الحكيم وأسلوبه البديع، تجد هذا الفرق بوضوح.

مثلاً، هذا «قُسّ بن ساعدة الأيادي»^١ ما تزال العرب تفتخر بجلال خطبه القديمة حتى اليوم، في حين أنها لاتعدو سرداً لفظاً لفائدة في ذكرها سوى تليق سجع أو رعاية وزن، لا غير. وإليك من خطبه: «أيّها الناس، اجتمعوا فاسمعوا وعوا. من عاش مات، ومن مات فات، وكلّ ما هو آت آت. في هذه آيات محكمات، مطر ونبات، وآباء وأُمّهات، وذاهب وآت، نجومٌ تُمور، وبحورٌ لاتغور، وسقف مرفوع، وبهاد موضوع، وليل داج، وسماء ذات أبراج. مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون؟! أَرَضُوا فَأَقَامُوا، أَمْ حُسِبُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. يامعشر إباد، أين تمود وعاد، وأين الآباء والأجداد، أين المعروف الذي لم يُشكر، والظلم الذي لم ينكر، أَقَسَمَ قُسٌّ قَسَمًا بالله، أنّ الله ديناً هو أَرْضَى من دينكم هذا...».

مرزقيت كويري سردى

هذا وقد أعجب صاحب كتاب «الإعجاز في دراسات السابقين» هذا الكلام العربي القديم فقال في وصفه: «إنّه ثمرة من تمار البلاغة العربيّة الطيّبة الناضجة! وضر به متلاً لما كان للعرب من خطب مضممة وحكم رائعة معجبة، يترقق عليها ماء الحُسن والملاحاة، فيها روعة أسرة وجمال أخاذ... إلى آخر ما يقول في تقرّض بيان أسلافه أعراب البادية الأقحاح!»^٢

ولكن... ياترى، أيّة ميزة لهذا الكلام الذي يشبه كلام الكهنة في أسجاع متكلف بها،

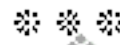
١ - كان الخطب العرب وكان يضرب به المثل «خطب من قُسّ بن ساعدة». يقال شهد النبي ﷺ وهو يخطب، في سوق عكاظ، وقد اعتزّت العرب بفضله وبيانه. راجع التبيان والتبيين لتاج العظ، ج ١، ص ١٦٣.

٢ - الإعجاز في دراسات السابقين، ص ٥٣.

وأرداف متمحل فيها، ليس فيها تلك الروعة والجمال البارع الذي نجده في قوله تعالى من سورة الفجر: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا النَّصْحَانَ بِالْوَادِ. وِفْرَعُونَ ذِي الْأُوتَادِ. الَّذِينَ ظَعَنُوا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ. فَضَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبَازٍ صَادٍ...»^١

إنه تعالى ذكر الظالمين وأردف ذكرهم بما يهول من عظيم قدرتهم وخطير فسادهم في الأرض، وأخيراً كان مآلهم إلى سياط الجحيم. «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ»^٢ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^٣.

هذا هو أسلوب القرآن في وعظه الحكيم، يهد الإنسان هدأً، ويهز من مشاعره هزاً، ثم يهيمن عليه بسطوة بيانه وقوة كلامه في كلا تبشيره وإنذاره!



وهذا امرؤ القيس، ألمع شعراء الجاهلية، نراه في أجود قصائده، قد ضاق به الكلام حتى لجأ إلى غرائب الألفاظ الوحشية غير المألوفة والاستعمال، كالعقنقل والسجنجل والكهنبيل والمستشمرات وفتالها مما تركها سائر العرب حتى عافتها كتب تراجم اللغة! الأمر الذي عيب على امرئ القيس.

كما عيب استعماله كلمات لا موضع لها ولا مناسبة مع مقصود شعره، قال - في مطلع قصيدته المحلقة -:

فتنا نيك من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمرأة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
لم يقتنع في وصف المنزل بقوله «بسقط اللوى» حتى أكمل بيان حدوده الأربعة، جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، كأنما يريد بيع منزله، فيخشى أن أحلّ بهد منه أن يفسد بيعه

٢ - الانشقاق ٨٤: ٦.

١ - الفجر ٨٩: ٦-١٤.

٣ - الزلزلة ٩٩: ٧-٨.

أو يطل شرطه، وما هذا إلا تطويل بلا طائل، وهو من أكبر معائب الكلام.

وأيضاً فإنه حاول إيكاء غيره ليرافقه في البكاء على فراق حبيبه، وهذا من السخف في الرأي، أن يدعو الأغنياء إلى التغازل مع عشيقته فلا يغار، وهل يرضى صاحب حمية أن يتواجد صديق له على من يهواه؟!

وأخيراً فما وجد تأنيث الضمير في «لم يحف رسمها» العائد إلى المنزل، مؤولاً إلى الديار، كما رُعم! وهكذا في «نسجتها» بتأويل الريح. وكان الأولى هو التذكير، لأن الحمل على المعنى في غير المبهمات (كالوصولات) ضعيف في اللغة.

وأضعف منه زيادة «من» في الإثبات، فإنه شاذ في اللغة.

قال ابن هشام: شرط زيادتها تقدم نفي أو نهي أو استفهام بهل وزاد الفارسي: بعد أداة الشرط أيضاً. نعم أهمله الكوفيون جرياً على طريقته في اتباع الشواذ، ولا يقاس عليه في التصحيح. قال ابن مالك:

وزيد في نفي وشبهه فحجر نكرة كما لباع من مفر

واشترط كون المدخول نكرة قال ابن هشام: لغرض إفادتها توكيد العموم في مثل «أحد» و«ديار» وهما صيغتا عموم إذا وقعتا بعد النفي وشبهه. وهكذا جاء في القرآن الكريم، نحو «وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ»^١ «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُتٍ». «هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ»^٢.

أما لفظتا «جنوب» و«شمال» فهما اسمان خاصان لا يفيدان العموم ولا سيما في الإثبات.

كما أن من شأن الرياح أن تعثو الآثار وتمحوها محواً، لأن تستحكمها وتنسجها نسجاً كما نسجه امرؤ القيس في عقليته الغائرة!

قال الباقلاني: وضرورة الشعر دلته على هذا التعسف.^١

ذكر السيد صدرالدين المديني بشأن حسن الابتداء، أن من شرائطه التأني في الكلام فيأتي بأعذب الألفاظ وأجزئها وأرقها، وأسلسها سبكاً وأتقنها مبنياً وأوضحها معنى. خالياً من الحشو والركاكة والتعقيد.

قال: وقد أطبق علماء البيان على أن القرآن في مفتتحات سورته ومطالع مقاطع آياته، أتى بأحسن وجوه الكلام وأبلغها، وأجودها سلاسةً، وأسبكها نظماً، وأوفاهها بغرض البيان، وبذلك قد فاق الأقران.

يدلّك على ذلك مقارنته مع مطالع سائر الكلام من خطب وقصائد فصحاء العرب يومئذ.

هذا امرؤ القيس تراه مجيداً في الشطر الأول من مطلع معلّته، حيث وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمزمل. وهو من كثير المعنى في قليل اللفظ. لكنّه هبط كلامه في الشطر الأخير، حيث أتى بالألفاظ لا طائل في ذكرها، سوى الإبعاد عن مقصود الكلام. فلا تناسب بين الشطرين من بيت واحد هو مطلع قصيدة قد جدّ فيها جدّه، فيمارعهم.^٢

ومما عيب على امرئ القيس أيضاً قوله:

كأنّي لم أركب جواداً للذّة ولم أبطّن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الرّقّ الرويّ، ولم أقل لخيلي كزّي كزّة بعد إجمال^٣

فإنّه قابل لمظنتين بلفظتين مع عدم التناسب فكان فيه تكلف.. قاله ابن رشيق.

قال: ومنهم من يقابل لمظنتين بلفظتين، ويقع في الكلام حينئذ تفرقة وقلة تكلف،

١ - إعجاز القرآن بهامش الإفتان، ج ٢، ص ١٣٠ - ١٣١. ٢ - راجع: أنوار التبريع، ج ١، ص ٣٥.

٣ - سبأ: تخمر: شراها يشربها. والرّق: انخسر. والتروّي: من التّشرب: اتّمام التّشبع. وإجمال: انخيل: نفوره وشروده.

فمن المتناسب قول علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض كلامه: «أين من سعى واجتهد، وجمع وعدد، وزخرف ونجد، وبنى وشيد» فأتبع كل لفظة ما يشاكلها، وقرنها بما يشبهها (وهذا من لطيف الكلام).

قال: ومن الشرق المنفصل قول امرئ القيس، وذكر البيتين...

قال: وكان قد ورد على سيف الدولة رجل بغداديّ يعرف بالمنتخب، لا يكاد يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين، ولا يذكر شعرٌ بحضرته إلا عابه، وظهر على صاحبه بالحجة الواضحة، فأنشد يوماً هذين البيتين، فقال: قد خالف فيهما وأفسد، لوقال:

كأنني لم أركب جوادا، ولم أقل
لخيلي كزّي كزّة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروي للمدة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لكان قد جمع بين الشيء وشكله، فذكر الجواد والكز في بيت، وذكر النساء والخمر في بيت؛ فالتبس الأمر بين يدي سيف الدولة، وسأله ما قال!

فقال رجل ممن حضر: ولا كرامة لهذا الرأي، الله أصدق منك حيث يقول: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى».

فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظما. فسر سيف الدولة، وأجازه بصلة حسنة. هذا... وقد حاول صاحب الكتاب تبرير موقف امرئ القيس في تفرقة هذه غير المتناسبة، وأتى بتكلف وتأويل ظاهرين...

وأما الآية الكريمة فقد فُتد مزعومة القائل بأنها نظيرة البيتين، قال: وأما احتجاج الآخر بقول الله عز وجل فليس من هذا في شيء لأنه تعالى أجرى الخطاب على مستعمل العادة، وفيه مع ذلك تناسب، لأن العادة أن يقال: جائع عريان، ولم يستعمل في هذا الموضع عطشان ولا ضمان. وقوله تعالى: «تظما» و«تصحى» متناسب، لأن الضاحي

هو الذي لا يستره شيء، عن الشمس، والظلمة من شأن من كانت هذه حاله.^١
وأيضاً قوله:

وهرّ تعيد قلوب الرجال وأفلت منها ابن عمرو وحجر
قال ابن رشيق: وقد يأتي القدماء من الاستعارات بأشياء يجتنبها المحدثون
ويستهجنونها، ويعافون أمثالها ظرفاً ولطافة، وإن لم تكن فاسدة ولا مستحيلة، فمنها قول
امرئ القيس - وذكر البيت - قال: فكان لفظة «هرّ» واستعارة الصيد معها مضحكة هجينة،
ولو أن أباه حجرًا من فارات بيته ما أسف على إفلاته منها هذا الأسف.

قال: وأين هذا من استعارة زهير حين قال يمدح:
ليث بعثر يعطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صدقا
لا على أن امرأ القيس أتى بالمخطأ على جهته ولكن للكلام قرائن تحسنه، وقرائن
تقبحه كذكر الصيد في هذين البيتين.^٢

قال: ومثل قول امرئ القيس في التبحر قول مسلم بن الوليد:
وليلة خلست للعين من بركة كبريت معلوم هتكك فيها الصبا عن بيضة الحجل
فاستعار للحجل - يعني الكليل - بيضة، كما استعارها امرؤ القيس للخدر في قوله:
وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهُوٍ بها غير معجل
وكلاهما يعني المرأة، فالتقى لمسلم سوء الاشتراك في اللفظ، لأن بيضة الحجل من
الطير تشاركها، وهي لعمري حسنة المنظر كما عرفت...^٣

ثم ذهب في بيان الاستعارة وأنها من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها فنزلت
موضعها وهي كثيرة في القرآن.^٤

وكذا قوله في التشبيه لغرض المبالغة في التهويل:

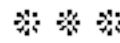
١ - النخبة، ج ١، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.
٢ - المصدر، ص ٢٧٦.
٣ - المصدر، ص ٢٧٢.
٤ - المصدر، ص ١٧٤ - ١٧٨.

أَيَقْتَلَنِي وَالْمَشْرِفِي مَضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقِ كَأَنْيَابِ أُنْغَوَالٍ
وقد جاء نظيره في القرآن لغرض المبالغة في التقييد:
«طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ»^١

غير أن المشبه به وقع في القرآن معرّفاً وفي البيت منكرٌ، وهذا من عيب الكلام، إذ
لا تهويل بشيء مجهول غير معروف. أمّا الآية فقد جاء التشبيه فيها بما لا يشك أنه منكر
قبيح...^٢

وكذلك في كثير من أشعاره نقد كثير، ذكره أهل الصناعة عرضاً وفي طي كلامهم عن
نكات ودقائق شعرية أو أدبية، وربما أتوا بشعر امرئ القيس وأضرابه منلاً، ولو أرادوه
غرضاً لأصابوا منه الكثير في الكثير... هذه حالة ألمع شعراء الجاهلية وعظيم العرب
فصاحة وبياناً... ضربناه لك مثلاً، وعليه فقيس من سواء...

أمّا القرآن الكريم فقد مضت عليه قرون متطاولة، وحاولت خصومه الكثير النيل منه
بشتى الوسائل والحيل، فهل ساعدتهم السوفيقي أم باؤوا بالخبيثة والنشل صاغرين،
وأصبحوا العوبة إخوانهم الشياطين وأضحكة الإيس والجن أجمعين!



هذا... وقد تحمّس صاحب الدراسات^٣ لهكذا أشعار ساقطة وتافهة في نفس الوقت
وقد أخذته الحميّة الجاهليّة الأولى، فقام مدافعاً عن موقف شاعر مستهتر خليع قضى
حياته الكدرة في البذخ والترف والابتذال الشنيء...

إنه صوّر من امرئ القيس شخصيّة تاريخيّة لامعة، قد حشد في معلّقته الحياة العربيّة
كلّها، ماتراه العين، وما ينبض به القلب، وما تنله الأرض، وما تسوقه السماء... وفي معلّقته
مشاهد للحياة، كأنك في مركب من مراكب النضاء تطوف في الدنيا في مشارق الأرض

١ - تصانيف ٣٧: ٦٥. ٢ - الحمدة، ج ١، ص ٢٨٨.

٣ - عبد الكريم الخطيب في كتابه (الإعجاز في دراسات المتأخرين)، ص ١٣٠، فمابعده.

ومغاربها في لحظات!

قال: وأقف بك عند مشهد صغير من تلك المشاهد التي تحفل بها هذه المعلّقة. في هذا المشهد يحدث امرؤ القيس عن نفسه، حين وقف على أطلال الديار التي كانت يوماً ما تضمّ محبوبته فهاج ذلك ذكريات كثيرة عنده، كان أشدها يوم ارتحلت مع قومها وهم يرتحلون، فوقف كما يقف المرء على ميّت عزيز له، يقول:

كأنّي غداة البين يوم تحمّلوا لدى سمرات الحيّ ناقف حنظل^١

قال: إنّك تجد من كلّ كلمة من هذا البيت مطلقاً من مطالع الروعة، ومدخلاً يدلّف بك إلى مشهد من مشاهد الإنسان في صراعه مع عواطفه، فلا تملك من نفسك إلّا أن تعطف على تلك النفوس التي ذهب بها الوجد وأحرقها الأسى!

قلت: ولعلّ صاحبنا هذا هو ناقف حنظل هو أجسه، فجعل يهذو عن أبيات لاعدوبة فيها ولا روعة ولا جمال، وإنّما هي بيدك قاحلة لا غصاة فيها ولا طراوة. والمعنى الذي أراده مفهوم عام يتصوّر كلّ عامّي مسترسلاً.

مركز تحقيق التراث
بمكتبة جامعة القاهرة

وذكر ابن رشيق بشأن المبالغة: أنّ الناس مختلفون فيها، فمنهم من يؤترها ويقول بتفضيلها ويراهم الغاية القصوى في الجودة، كما قيل: أشعر الناس من استجيد كذبه^٢ ومنهم من يعيبها وينكرها ويراهم عيباً وهجنة في الكلام.

قال بعض الحدّاق بنقد الشعر: المبالغة ربما أحوّلت المعنى وبُستته على السامع، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره، لأنّها لا تقع موقع القبول كما لا يقع الاقتصاد ومقاربه، لأنّه ينبغي أن يكون من أهمّ أغراض الشاعر والمتكلّم أيضاً الإبانة والإفصاح وتقريب المعنى على السامع، فإنّ العرب إنّما فضّلت بالبيان والنصاحة وحلا منطقها في

١ - البين: الفراق. والشمرة: شجرة نخم ته سوك. وناقف الحنظل: هو الذي يمشي الحنظل فيخرج نمره انمر.

٢ - نسيه ابن رشيق إلى نالمة بني ذبيان.

الصدور وقبلته النفوس لأساليب حسنة، وإشارات لطيفة، تكسبه بياناً وتصوره في التلوذ تصويراً.

فمن أحسن المبالغة وأغربها عند الحدائق: التقصّي، وهو بلوغ الشاعر أو المتكلم ما يمكن من وصف الشيء، كقول عمرو بن الأيهم التغلبي:

ونكرم جارنا مادام فينا وننبعه الكرامة حيث كانا

ومن أغربها أيضاً ترادف الصفات، وفي ذلك تهويلٌ مع صحة لفظ لاتحيل معنى، كقول الله تعالى:

«أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ».

فأمّا الغلوّ فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة... ويقع فيه الاختلاف، من ذلك قول امرئ القيس:

كان المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعلّ به برد أنيابها إذا غرد الطائر المستحر

فوصف فاما بهذه الصنعة سحراً عند تغير الأفواه بعد النوم، فكيف تظنّها في أوّل الليل؟! فقد بالغ وأتى بالمستحيل، فكان كذباً صريحاً وهجنة في الكلام. ومثل ذلك قوله يصف ناراً:

نظرت إليها والنجوم كأنها معاصبيح رهبان تشبّ لفتال

وفيه من الإغراق ما يلحقه بالمستحيل، يقول: نظرت إلى نار هذه المرأة تشبّ لفتال، والنجوم كأنها معاصبيح رهبان. وقد قال:

تنوّرتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

وبين المكانين بعد أيام، وإنما يرجع المُقَال من الغزو والغارات وجه الصباح، فإذا
 رآوها من مسافة أيام وجه الصباح وقد خمد سناها وكل موقدها فكيف كانت أول
 الليل؟! وشبه النجوم بمصاييح الرهبان، لأنها في السحر يضعف نورها كما يضعف
 نور المصاييح الموقدة ليلاً أجمع، لاسيما مصاييح الرهبان، لأنهم يكلون من سهر الليل
 فربما نعوذ ذلك الوقت.^١

ومن أبيات الغلو قول مهلهل:

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع بالذكور

وقد قيل: إنه كذب بيت قالته العرب، وبين حجر - وهي قصبة اليمامة - وبين مكان
 الواقعة عشرة أيام، وهذا أشد غلوًا من قول امرئ القيس في النار، لأن حاسة البصر أقوى
 من حاسة السمع وأشد إدراكاً...

ومنها قول النابغة في صفة السيوف:

تَقْدُ السلوقي المضاعف نسجه ويوقدن بالقضاح نار الحباحب^٢

وقد عيب على امرئ القيس - في شعرة الآنف - مضافاً إلى غلوّه في المبالغة، تعبيره
 عن أسنان حبيته بالآنياب، لأنها أولاً اسم للسن خلف الرباعيّة، وليست مطلق الأسنان.
 وتانياً أكثر استعمال الآنياب في الحيوانات الضاربة المهولة، كما شبهه هو السهام المسنونة
 بالآنياب الأغوال في قوله:

أيقتلني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كآنياب أغوال

واستعار بعضهم الآنياب للشر، أنشد ثعلب:

أفر جذار الشر، والشر تاركي وأطعن في آنيابه، وهو كالح^٣

وهكذا قُبِح تشبيه امرئ القيس بنان حبيته بالديدان الحمر الدقاق تعيش في

٢ - المقصود: من ٥٦.

١ - النخبة، ج ٢، من ٥٣، ٥٦.

٣ - كالح وجهه: غبس وتكشّر.

الرمال، في قوله:

وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسجل^١
شبه بناتها بالأسروعة (دودة في الرمل) ليناً، وبياضاً، وطولاً، واستواءً، ودقة،
وحمرة رأس. قال ابن رشيق: كأنه ظفر قد أصابه الحناء. وربما كان رأسها أسود...

قال: إلا أن نفس الحضري إذا سمع قول أبي نؤاس:

تعاطيكها كف كأن بناتها إذا اعترضتها العين صف مداري
أو قول الرومي:

أشار بقضبان من الدر قمعت أشار بقضبان من الدر قمعت
أو قول ابن المعتز:

أشرف على خوف بأغصان فضة مقومة أثمار هن عقيق
كان ذلك أنش في نفسه وأحب إليها من تشبه البنان بالدود في قول امرئ القيس...
نعم إذا كان ذلك في الهجو كان قريباً، كقول حسان:
وأملك سوداء نويبة كان أناملها الحنظل

والحنظل - كحننذ - بحاء مهملة: دابة من حشاش الأرض مثل الخنفساء.^٢ قيل: هو
ضرب من الخنافس طويل.^٣

وهل هذا التشبيه البشع في شعر امرئ القيس في وصف أنامل محبوبته وأسنانها،
يشبه شيئاً من توصيفات جاءت في القرآن الكريم للحوار العين؟!
انظر إلى هذا الوصف الجميل:

١ - تعطوا: تتناول. برخص: أراد بنانا رخصاً ليناً. غير شئن: ليس بخصن. والأساريع: جمع الأسروعة وهي دودة صغيرة تعيش في الرمال. ظبي: اسم موضع فيه رمل. إسجل: شجر الصغيطة تتخذ من عروق مساويك كالآراك.
٢ - قمعت المرأة بناتها بالحناء: حطبتهن.
٣ - الخنفساء - مثانة - حشرات الأرض، واحدةها خنفاشة.
٤ - المعركة، ج ١، ص ٢٩٩-٣٠٠.

«وَحُورٌ عَيْنٌ. كَأَمْثَالِ اللَّوْنِ الْمَكُونِ».^١

«مُتَكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِشْدَاقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ... فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ
لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قُبُلُهُمْ وَلَا جَانٌ... كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ».^٢

«وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٌ... مُدْهَامَاتٌ... فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ... فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ... فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ... حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ... لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قُبُلُهُمْ
وَلَا جَانٌ... مُتَكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ».^٣

فقد جاء وصف جمالهن متروناً بوصف عفافهن، مما هو أقرب إلى النفس وأرغب في
غريزة حب الاختصاص التي جبلت عليها طبيعة الإنسان!

وقول أبي تمام الطائي، يرثي خالد بن زياد الشيباني في قصيدة يمدح أباه فيها:
ويصعد حتى يظنّ الجهول بأن له حاجة في السماء

يريد من الصعود: الرفعة في القدر والمنزلة، لكنه بنى على تناسي التشبيه فزعم أنه
يحاول الصعود إلى السماء على حقيقته... وهذا التشبيه والتناسي خاليان من أي لطف
وظرافة!

وقايس بينه وبين قوله تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ»^٤ انظر
إلى جرس لفظه ولطف تعبيره...

وقوله تعالى: «رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ، ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ».^٥

كلام خال من التشبيه، لكن ملؤه الأبهة والجلال والكبرياء، في حسن النظم وجودة
التعبير...

قال ابن رشيق: واستبشع قوم قول الآخر يصف روضاً:

٢ - الترحمان ٥٥: ٥٤، ٥٨.

٤ - فاطر ٣٥: ١٠.

١ - الواقعة ٥٦: ٢٢، ٤٣.

٣ - الترحمان ٥٥: ٦٢، ٧٦.

٥ - فاطر ٤٠: ١٤.

كأن شقائق النعمان فيه تياب قد روين من الدماء
فهذا وإن كان تشبيهاً مصيباً، فإن فيه بشاعة ذكر الدماء، ولوقال من العصفرة^١ مثلاً أو
ما شاكله لكان أوقع في النفس وأقرب إلى الأنس.
وكذلك صفتهم الخمر في حبايبها بسلخ الشجاع^٢ وما جرى هذا المجري من التشبيه
فإنه وإن كان مصيباً لعين الشبه فإنه غير طيب في النفس، ولا مستقر على القلب، ومن
ذلك قول أبي عون الكاتب:

تلاعبها كف المزاج محبة لها، وليجري ذات بينهما الأنس
فتزبد من تيه عليها كأنها غريزة خدر قد تخبطها المس^٣
فلو أن في هذا كل بديع لكان مقيتاً بشعاً، ومن ذا يطيب له أن يشرب شيئاً يشبه بزبد
المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس^٤؟
قال: وكأني أرى بعض من لا يحسن إلا الاعتراض بلا حجة، قد نعى عليّ هذا
المذهب، وقال: رد على امرئ القيس، ولم فعل، ولكني بيّنت أن طريق العرب القدماء في
كثير من الشعر قد خولفت إلى ما هو أليق بالوقت وأشكل بأهله...
وقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود^٥
على أنه تشبيه لا يلحق، ولا يشق غبار صاحبه، ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر
السقيم، فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به، وفضل عليه قول عدي بن الرقاع العاملي:
وكأنها وسط النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم^٦

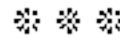
١ - العصفرة - كلفند - صبح أصغر اتلون.

٢ - الشجاع - مثلك اثنين - ضرب من التحيات. وسأخوها: كشط جادها.

٣ - الغريزة والغريزة: التناوب والتشابه في مطاع شبايبهما لا تجرية تهما في التحية.

٤ - العود: جمع العائدة التي تعود المريض المتروك بها. ٥ - الجاذر: جمع الجوز، وتد البقرة الوحشية.

وسانُ أَقْصَدَه العاس فرئتت
 وأجرى الناس هذا المجرى قول صريع الغواني^١ على أنه لم يقع لأحد مثله وهو:
 فلطت بأيديها تمار نحورها^٢ كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع^٣
 فهذا تشبيه مصيب جداً، إلا أنهم عابوه بما بيتت، وإنما أشار إلى قول النابغة:
 وَيَخْطِطْنَ بِالْعِيدَانِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ وَيَخْبِئْنَ رَمَانَ التُّدِيِّ النَّوَاهِدِ^٤
 ومثله قول أبي محجن الثقفي في وصف قَيْنَه:
 وترفع الصوت أحياناً وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الخرد^٥
 فأبي قينة تحب أن تُشبه بالذباب؟ وقد سرق بيت عنتره وقلبه فأفسده.^٦



قال ابن رشيق في باب الاعتذار: وأجل ما وقع في الاعتذار من مشهورات العرب
 قصائد النابغة الثلاث، يقول في إحداها:
 بُيْتُتُ أَنْ أَبَا قَابُوسٍ أَوْعِدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ^٧
 ويقول في الثانية:
 فَلَا تَتْرَكْنِي بِالْوَعِيدِ كَأَنِّي إِلَى النَّاسِ مَطْلِي بِهِ الْقَارِ أَجْرِبُ^٨
 ويقول في الثالثة - وهي أجودهن وأبرعهن -:
 فَإِنَّكَ كَالْمَلِيلِ الَّذِي هُوَ مَدْرَكِي وَإِنْ خَلَّتْ أَنْ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ^٩
 قال: ومن تمّ تعلق بهذا المعنى جماعة من الشعراء منهم سلم الخاسر يعتذر إلى

١ - وسان: من غلبه العباس، أقصده: طعنه فلم يخطئه، رثى بالمكان: أقام فيه والجنس به.

٢ - صريع الغواني: مجنونهن، كناية عن امرئ القيس. ٣ - نطّ: انشعب، ستره: ونمار النحور كناية عن التدين.

٤ - نهدي التدي: كعب، وانهر وأشرف: واتشدي جمع التدي. ٥ - خرّذ الطائر: رفع صوته.

٦ - النعمدة: ج ١، ص ٣٠٦ - ٣٠٢. ٧ - زار الأسد: حمات من صدره.

٨ - القار: القير. ٩ - المتناي: المتباعد.

المهدي:

وأنت كالدهر مبهوثاً حبائله والدر لا ملجأ منه ولا هرب

قال ابن طاهر:

لأنك لي مثل المكان المحيط بي من الأرض نبي استهضتني المذاهب

قال ابن رشيق: وإلى هذه الناحية أشار أبو الطيب بقوله:

ولكنك الدنيا إلي حبيبة فما عنك لي إلا إليك ذهاب

قال: إلا أنه حرّف الكلم عن مواضعه.

قال: واختار العلماء لهذا الشأن قول علي بن جبلة:

وما لأمرى حاولته عنك مهرب ولو رفعتني في السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدي لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح ساطع

قال: لأنه قد أجاد، مع معارضته النابغة، وزاد عليه ذكر الصبح. قال: وأظنه اقتدى

بقول الأصمعي في بيت النابغة: ليس الليل ولي بهذا المثل من النهار...^١

قال: وأفضل من هذا كله قول الله تعالى:

«يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّكُمْ تَعْذُونَ مِنَ الظُّلُمَاتِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّقُوا

لَا تَعْذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ».^٢

وقال من اعتذر للنابغة: إنما قدم الليل في كلامه لأنه أهول، ولأنه أول، ولأن أكثر

أعمالهم إنما كانت فيه، لشدة حرّ بلدتهم، فصار ذلك عندهم متعارفاً...^٣

وعقد ابن رشيق باباً في أغاليط الشعراء والرواة، ذكر فيه ما أخذ علماء الأدب على

كثير من أشعار القدماء والمحدثين، فكان من ذلك ما أخذوه على قول زهير يصف ضفادع

(سربات):

٢ - ترجمان ٥٥: ٣٣.

١ - النعمدة، ج ٢، ص ١٧٧ - ١٧٩.

٣ - النعمدة، ج ٢، ص ٢٥١.

يخرجن من شربات مأوَّها ضحلٌ على الجدوع تحفُّن الغمر والعرقا^١
 إذ لا تخاف الضفدعة من الغرق مهما كان غمر الماء! فقد غلط في هذا التوصيف...
 واعتذر عنه بأنّه لم يرد خوف الغرق على الحقيقة، ولكنها عادة من هرب من الحيوان
 من الماء، فكأنّه مبالغته في التشبيه، كما قال تعالى:
 «وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلزُّرُولِ مِنْهُ الْجِبَالُ»^٢.
 وقال: «وَتَلَعَّتِ الْقُلُوبُ الْحَاجِرَ»^٣.

والقول فيهما محمول على «كاد». هكذا ذكر الحذاق من المفسرين. مع أنّا نجد
 الأماكن البعيدة القعر من البحار لا تقربها دابة، خوفاً على نفسها من الهلكة، فكأنّه أراد
 المبالغة في كثرة ماء هذه الشربات...^٤

قلت: فعلى هذا كان كلامه وصفاً للماء لا للمضادع، وعلى أيّ حال فإنّ استهداف
 هكذا أهداف حقيرة وهابطة كانت حصيلة تضيق آفاق الحياة العربية حينذاك، وأن ذلك
 من سعة آفاق مطالب القرآن ومتناصده العمليّة في أوصافه وتشبيهاته وتمثيلات. وهل
 تناسب بين قول زهير في هذا الميراث والآيتين الكريمتين؟! وإنما يتناغم الكلام
 ويتصاغر، بضخم موضوعه وصغره، وعلوّ مقصوده وسفله. الأمر الذي نجده فرقا بين
 مقصود الآيتين ومقصود زهير في البيت، بل بين القرآن كلّ وأشعار العرب الجاهلي كلّها!
 قال الأصمعي: وأخطأ زهير في قوله - في ذم الحرب والقتال -:

فتنتج لكم غلمان أشام كلّهم كأحمر عاد، ثم ترضع فتتنظم^٥

حيث شبه الغلمان المشائيم بعافر ناقّة صالح، الموصوف بالأحمر، واسمه قدار. لكن

١ - شربات: موضع قرب مكة، ضحل الماء، فسد، وانجذع؛ سابق التخلّة، الغمر: الماء الكثير، وغمره الماء غمراً؛ علا: وغطأ.

٢ - إبراهيم ١٤: ٤٦. ٣ - الأعراب ٨٣: ١٠.

٤ - النخبة، ج ٢، ص ٢٥١.

٥ - أشام: مبالغة التمشؤم، وأراد بأحمر عاد: أحمر نمود، وهو عافر ناقّة، واسمه قدارين سائف يقول: فتوتد نكم أبناء في
 أنام تلك الحروب كل واحد منهم يضاهي في التمشؤم عافر ناقّة.

نسبته إلى عاد، وهو خطأ، وإنما هو تمود.

واعتذر عنه بأن تمود هي عاد الثانية، كما جاء في قوله تعالى:
«وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى»^١.

فهل قال تعالى هذا إلا وثم عاد أخرى؟ وهي هلكت بالتمل، من ولد قحطان..
لكن أنصار الأصمعي لا يقرّون هذا الجواب، إذ لا يصادق عليه العارفون بالأنساب
والتأريخ ووصف «الأولى» في الآية معناه السابقة التي كانت قبل تمود، وليس يدل على
أن هناك عادين. والوصف إنما أتى به للإيضاح لا للاحتراز.^٢
وضمن ابن رشيق باب أغاليط الشعراء باباً ذكر فيه منازل القمر، وعلل ذلك بأنه رأى
العرب - وهم أولع الناس بهذه المنازل وأنوائها - قد غلطوا فيها، فقال أحدهم: من الأنجم
العزل والرامحة... وقال امرؤ القيس:

إذا ما التّربيا في السماء تعرّضت
فأنتى بتعرّض الجوزاء، وهكذا كل من عني بالنجوم من المحدثين واستوفى جميع
المنازل مخطئ، لاشك في خلافه، لأنه إنما يصف نجوم ليلة سهرها، والنجوم كلها لا تظهر
في ليلة واحدة.^٣

قال الزوزني: يقول: أتيها عند رؤية نواحي كواكب التّربيا في الأفق الشرقي... ومنهم
من زعم أنه أراد الجوزاء فغلط وقال التّربيا، لأنّ التعرّض للجوزاء دون التّربيا. وهذا قول
محمد بن سلام الجمحي.^٤

لكن إشكال ابن رشيق متوجّه إلى أولئك الشعراء الذين ذكروا مواقع النجوم دلائل

١ - النجم ٥٣، ٥٠. ٢ - هامش النسخة، ج ٢، ص ٢٤٦.

٣ - التمرّض: الاستحمام بإيداء التمرّض. والمفصل: الذي فصل بين خرزة بالذهب أو غيره. يقول: تجاوزت إليها في وقت
إيداء التّربيا عرضها في السماء كإيداء التّوساخ - وهي الجواهر النّزينة - الذي فصل بين جواهره وخرزته بالذهب أو غيره
عرضة.

٤ - شرح المعانيات للزوزني، ص ١٨.

على أوقات لقائهم للغواني أو سهرهم الليالي على طول الزمان وفي كل ليلة باستمرار.
الأمر الذي يخالف مطالع النجوم الفصليّة غير المستديمة...

وإذا كان العرب المحييون بمطالع النجوم ومغاربها قد أخطؤوا في تمثلاتهم الشعرية
هكذا أخطاءً فادحة، فما ظنك بسائر الشعراء وغيرهم من المحدثين؟!

الأمر الذي تحاشاه عنه القرآن الكريم، في حين كثرة تعرّضه لمواقع النجوم...
وهذا أيضاً شاهد صدق من آلاف الشواهد على امتياز القرآن عن سائر الكلام
وارتفاعه عن نمط كلام العرب الأوائل والأواخر جميعاً.
وذكر ابن الأثير للاعتراض ضرباً ثلاثة:

أحدها: أن تكون فيه فائدة والغالب هو تأكيد الكلام وترسيخه. وقد ورد في القرآن
كثيراً، وذلك في كل مورد يتعلّق بنوع من خصوصيّة المبالغة في المعنى المتصود. من
ذلك قوله تعالى: «فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّئَلَّا تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»^١
وذلك اعتراض بين القسم وجوابه. وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين
الموصوف وصفته وهو قوله «لِئَلَّا تَعْلَمُونَ». فذاك اعتراضان كما ترى.

ومثله قوله تعالى: «وَيَجْعَلُونَ لِّلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ»^٢.
وهكذا غيرهما من آيات كثيرة في القرآن، كلّها من القسم المفيد فائدة التوكيد.
والضرب الثاني: ما لافائدة فيه كما لا مفسدة فيه أيضاً. من ذلك قول النابغة:

يقول رجال يجهلون خليقتي لعلّ زيادا - لا أباً لك - غافل^٣
فقوله «لا أباً لك» ممّا لافائدة فيه ولا حسن ولا قبح.
وهكذا قول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً - لا أباً لك - يسأم

٢ - النحل ١٦: ٥٧.

١ - الواقعة ٥٦: ٧٥ - ٧٧.

٣ - النخبة: المدحجية.

لكن وردت هذه اللفظة في قول أبي همام حسنة:

«عتابك عني - لا أبالك - واقصدي».

فإنه لما كره عتابها اعترض بين الأمر والمعطوف عليه بهذه اللفظة على طريق المذموم. الضرب الثالث: الاعتراض المنسند وهو المذموم المحل بفهم المقصود فيعقده تعقيداً، وأمثله ذلك في باب تقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم كثيرة، وقد أوجع بها الشعراء المتكلمون، فمن ذلك قول بعضهم:

فقد - والشك - بين لي - عناء بوشك فراقهم، صرد يصيح^١

قال ابن الأثير: فإن هذا البيت من رديء الاعتراض ما أذكره لك، وهو الفصل بين قد والفعل الذي هو «بين لي» وذلك قبيح لقوة اتصال «قد» بالفعل المدخول عليه، بحيث يعد جزءاً متصلاً به.

وأيضاً فصل بين المبتدأ الذي هو الشك وبين الخبر الذي هو عناء بقوله «بين لي». وفصل بين الفعل الذي هو «بين» وبين فاعله الذي هو «صرد» بخبر المبتدأ الذي هو عناء، فجاء معنى البيت كما تراه مشوهاً ومشوشاً، كأنه صورة مشوهة قد نقلت أعضاؤها بعضها إلى مكان بعض^٢.

وجعل أيضاً يمثّل بأبيات شعريّة من العرب القديم، لعلنا نأتي عليها وعلى أمثالها في سائر أبواب البلاغة والبدیع في قسم الدلائل على إعجاز القرآن، وهو القسم الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى.

ولعلني في هذا العرض العريض قد أسهبت وخرجت عن حد الاعتدال المتناسب مع وضع الكتاب... غير أن تحمّسات قوميّة، وأخرى سناسف كلاميّة، ربّما كانت تحاول رفع منزلة كلام العرب الأوائل بما يضاهي سبك القرآن ونظمه البديع... فكان هذا وذاك من

١ - أصل تركيب الكلام: فقد بين لي صرد يصيح بوشك فراقهم، وانتك عناء.

٢ - اتصل السائر لابن الأثير، ج ٣، ص ٤٠-٤٨، و ج ٢، ص ٢٢٧.

أخطر الأساليب لو هن موضع إعجاز هذا الكلام الإلهي وخرقه للمعتاد والعياذ بالله.
هذا مادعاني إلى التكنير من شواهد الباب، وإلا فلا داعي للتعريض لأشعار لا محتوى
لها ولا وزن في عالم الكلام والاعتبار! والله الهادي.

أجواء مفعمة بالأدب الرفيع أحاطت بعهد نزول القرآن شعراء مخضرمون

ولعلنا لم نبالغ إذا قلنا بأن العرب الأول قد حطوا من رفعة الأدب وسمو البلاغة
وطلاقة اللسان ما لم يحفظوا فيما بعد من أدوار التاريخ، مهما توسعوا في الاضطلاع
بتواعده والإشادة بمبانيه ومبادئه، إنهم - على بداوتهم - كانوا خلصاء وكانوا يعتمدون
قرائحهم الضافية وأذواقهم السليمة الصافية، لاتعمل فيها ولا تكلف مما صنع المتأخرون.
كانت البلاغة حينذاك هي بضاعة العرب الوحيدة وصناعتهم الثريدة، ومن ثم كانوا
قد أحكموا من مبانيها وأتقنوا من أصولها وغرونها قريحة وسليقة لدراسة وتعلماً،
فكانت بالذاتيات الراسخة أشبه منها بالعرضيات الزائلة.
وفي هذا الجو المفعم بالأدب الرفيع نزل القرآن الكريم، فبدلاً من أن يسطو عليه
المحيط الغالب، نراه قد تغلب على البلاد، واستولى على معالمها، وهزم أبطالها، وأباد
عساكرها، وتسلم العرش وسيطر على الآفاق.

ونحن في هذا العرض نقصر على جانب من هذا الجو السائد، جانب الشعر والشعراء
ممن أدركوا الجاهلية والإسلام، وكانوا على مستوى عال، أصحاب طلاقة بيان وذلاقة
لسان، سواء منهم من آمن ومن بقي على جهله القديم، وهم الأقل.
وقد عمدنا إلى أجمع شعراء العرب المخضرمين، وفيهم أصحاب المعتقدات
والمذاهب، والشعراء الفرسان، والحكماء، والوصافون، والهجّاءون، ومن شاكلهم ممن
كانت القبائل تهاب موقفهم وتخشى ألسنتهم الحداد، وكانوا على قدرة من تصريف
الكلام.

نعم كان للشعر والشاعرية مكانة سامية عند العرب، كانوا يهتمون بشعرائهم كما يهتمون بقادتهم وزعمائهم في السلم وفي ميادين القتال. كان الشعراء قادة الفكر وقادة السياسة والحرب، كانوا حماة أعراضهم وحفظة آثارهم ونقلة أخبارهم. وكان شاعر القبيلة لسانها الناطق وكاتبها الرسمي (كالصحفي اليوم) في كل ما يتعاطونه من تبادل ثقافات وتعريف حضارات وتدخلات سياسية وغيرها من شؤون الحياة العامة. والخاصة: كان الشاعر يومذاك دعامة الحياة العربية في تلك الصحراء الجرداء. هذا... وقد نزل القرآن مجابهاً بهذا النمط من الأوساط الرفيعة المقام، العالية الشأن، أصحاب حول وقوة وبيان، فعارضهم فلم يكن منهم سوى استسلام والقياد أو انهزام وصغاراً وإليك من كبرائهم:



١- أعشى بني قيس بن ثعلبة

اسمه ميمون بن قيس بن جندل بن بكر بن وائل من ربيعة.

هو أحد الأعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم والبعض يتقدمونه على سائرهم إذا طرب كما يتقدم امرؤ القيس إذا غضب، والنابعة إذا رهب، وزهير إذا رغب. ^١ ويحتج المقدمون له بكثرة طوالة الجياد وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر والكلام مثاليه لسواه. ولم يكن يمدح قوماً إلا رفعهم ولم يهج قوماً إلا وضعهم، لأنه من أسير الناس شعراً وأعظمهم فيه حظاً. ^٢

وهو صاحب معلقة مطلعها:

ما بكاء الكبير في الأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي ^٣
وله ديوان مخطوط.

١ - الأنثاني، ج ٩، ص ١٢٧.

٢ - الحمدة، ج ٢، ص ١٨١.

٣ - الأطلال: جمع طلل - بفتحين - بمعنى الموضع المرتفع وانشاخ من الآثار.

وقد سمع الأعشى بمبعث النبي ﷺ فقصده بقصيدة يمدحه فيها يريد الإسلام مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبث كما بات السليم مسهدا^١
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم صحبة مهذدا^٢
إلى أن يقول - موجهاً خطابه إلى ناقتة -:

وآليت لا آوي لها من كلالة ولا من حامي حتى تلاقي محمداً^٣
متى أناخي عند باب ابن هاشم تراحي وتلتقي من فواضله ندى^٤
نبياً يرى ما لاترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا^٥
له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غداً^٦
أجدك لم تسمع وصاة محمد نبي الإله حيث أوصى وأشهدا^٧
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقي ولاقيت بعد الموت من قد تزودا^٨
قدمت على أن لاتكون كمثل فمرصد للأمر الذي كان أرسدا^٩
وذا النصب المنسوب لا يسلكه ولا تبعه الأوثان والله فاعبدا^٩
وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
وجعل يعدد من فضائل الأخلاق ومحاسن السلوك...

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه نفر من قريش فيهم أبو سفيان وكان قد حرّضهم

١ - الأرمدا: الذي يستكي عينيه من الترمد. والتسليم: التمدوغ. والمسهد: الذي حرم من النوم.

٢ - مهذد: اسم امرأة بنت جاتيم على وزن دخرج.

٣ - لا آوي: لا ألتحق ولا أرحم. ويروي: لا أنزي. وهو بمناء. والتكلالة: الإغواء. أي: جعلت أن لا ألتحق على نفسي تبعها حتى... والتقي: توارم التقدم من كثرة التمسّي. وشي بلائف ولائف.

٤ - أناخ: انجمل: أبركه. وتلاقي: أتلف. تناوخ: وتراخي أيضاً مقلوب تراوخ بمعنى تجد الراحة. والتندي: التخيير.

٥ - أنجدا: بعد.

٦ - تزود: اتخذ زاداً.

٧ - أرسدا: أهدته: أخذته.

٨ - أرسدا: أهدته: أخذته.

٩ - أرسدا: أهدته: أخذته.

على إرضائه بالرجوع، خوفاً من أن يسلم على رسل الله ﷺ فيشيع إسلامه، فينصر رسول الله ﷺ على قريش بشعره. فحاولوا رده أولاً بكلام فلم ينفعه، ثم جعلوا له مائة من الإبل فأخذها ورجع، قائلاً: لكنني منصرف فأتروني منها عامي هذا ثم آتية فأسلم. قال ابن هشام: فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله ﷺ.^١

٢ - لييد بن ربيعة العامري

هو أبو عقيل لييد بن ربيعة بن هوازن قيس. قال الزوزني: كان من الشعراء المعدودين في الجاهلية. ومعلقته هي الرابعة من المعلقات السبع. وهو يتنوق على زملائه أصحاب المعلقات بإثارة تذكارات الديار القديمة وتحديد المحلات في أثناء السفر، حتى يمكن دارس شعره أن يعين بالاستناد إلى بعض قصائده دليل رحلة من قلب بادية العرب إلى الخليج الفارسي.^٢

يقال: إنه عمّر (١٤٥) سنة عاش معظمها (٩٠) سنة - في الجاهلية. كان من أشرف الشعراء والفرسان المجيدين. وقد أدرته الإسلام وهاجر وحسن إسلامه، ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب فأقام بها حتى مات في أوائل خلافة معاوية.

وكانت الشاعرية بادية على محيائه منذ صباه... ذكروا أن النابغة الذبياني رآه وهو غلام مع أعمامه وفدوا على النعمان بن المنذر، فتوسم فيه الشاعرية، فسأل عنه فنسبوه، فقال له: يا غلام، إن عينيك لعينا شاعر، أفقرض^٣ من الشعر شيئاً؟ قال: نعم يا عم، قال: فأشدني، فأنشده «لَمْ تَرْجِعْ إِلَى الدَّمَنِ الْخَوَالِي... الخ». فقال له: يا غلام، أنت أشعر بني عامر، زدني، فأنشده: «طَلَلْ حَوْلَةَ فِي الْمَرْسِيسِ قَدِيم... الخ». فضرب يده على جبينه، وقال: اذهب فأنت أشعر من قيس كلها.

١ - سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٢٨، وراجع: تاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١١٩.

٢ - شرح المعلقات، ص ٩٠. ٣ - قرض الشعر يفرضه - من باب ضرب يضرب - قاته.

وأكثر شعره في الجاهلية، فقد شغله القرآن عن الشعر بعد الإسلام. ذكروا أن عمر بعث إلى المغيرة بن شعبه وهو على الكوفة، يقول له: استنشد من قبلك من شعراء مصر ما قالوا في الإسلام، فأرسل إلى الأغلب الراجز العجلي، فقال له: أنشدني، فقال:

أرجزاً تريد أم قصيداً
لقد طلبت هيتاً موجوداً

ثم أرسل إلى لبيد، فقال: أنشدني ما قلته في الإسلام، فكتب سورة من القرآن في صحيفة ثم أتى بها وقال: أبدلني الله هذا في الإسلام، مكان الشعر. فكتب المغيرة بذلك إلى عمر، فنقص من عطاء الأغلب وزاد في عطاء لبيد خمسمائة.

وكان لبيد من أجواد العرب، يقال أنه آلى على نفسه في الجاهلية أن لا تهت صبا إلا أطعم. وكان قد أدامه في الإسلام، كانت له جفنتان يغدو بهما ويروح في كل يوم على مسجد قومه فيطعمهم، حتى كان أيام الوليد بن عقبة، فقرب مهبط الصبا وهو مملق لا يستطيع الوفاء بنذره. فبلغ ذلك الوليد، فبعث إليه مائة بكرة من الإبل، وكتب إليه بأبيات مطلعها:

أرى الجزار يشحذ شفرتيه
إذا هبت رياح أبي عقيل ... الخ

فلما بلغت أبياته لبيداً، قال لابنته: أجيبيه، فلعمري لقد عشت برهة وما أعبي بجواب شاعر، فقالت:

إذا هبت رياح أبي عقيل
دعونا عند هبتها الوليدا
إلى أن تقول:

أبا وهب جزاك الله خيراً
نحرناها فاطعمنا التريدا
فعد إن الكريم له معاد
وظني - لا أباً لك - أن تعودا

فقال لها لبيد: قد أحسنت، لولا أن استطعتميه! فقالت: إن الملوك لا يستحي من مسألته. فقال: وأنت يابنية في هذه شعر.

ومما يستجاد من شعره، قصيدة مطلعها:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل امرئ يومئذ يعلم سعيه
وكل نعيم لامحالة زائل
إذا كشف عند الإله المحاصل^١

قال ابن حجر: وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «صدق كلمة قالها شاعر، كلمة ليبد هذه».

قال المرزباني في معجم الشعراء: قالها النبي ﷺ على المنبر.^٢

ويقال: إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، هو:

الحمد لله أن لم يأتني أجلي
حتى اكتسيت من الإسلام سروالا

ولكن استشهد ابن هشام في تفسير كلمة «ند» بشعر لبيد:

أحمد الله فلا يد له
بيديه الخير ما شاء فعل

قال: وهذا البيت في قصيدة له.^٣ ونفي الحمل مما لا يقول به مشرك.

وله ديوان، مطبوع.

أما معلقته فمطلعها:

عفت الديار محلها فمما تقيتها كغيرها من
تأبد غولها فرجائها

وهي تشتمل على تصوير قصصي جميل، وكان في تشبيهاته القصصية صادقاً في

عاطفته، وقد أظهر في وصفه مقدرة نادرة في دقته وإسهابه والإحاطة بجميع صور

الموصوف.^٤

ولبيد لم يزل معادياً للإسلام معانداً، فكان ممن تأخر في إسلامه، حتى اضطرت به

الظروف، كسائر كبراء قريش.

١ - المتصل: وعاء الفضل وهو من الثمن ونحوه يستخرج ماؤه.

٢ - الإحالة: ج ٣، ص ٣٢٧. ٣ - سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٨١.

٤ - عفت أي ذهبت آثارها التحل من الديار ما حل فيه لأيام مدودة. واتقام منها: ما طالت الإقامة به. ومنى: موضع

غير منى التحرم. تأبد: توحش. الغول: الزجاء: جهلان مروقان.

٥ - شرح المتعلقات، ص ٩٠.

وهو الذي عارضه عثمان بن مظعون وهو ينشد في مجلس من قريش، وذلك بعد أن تخلّى عثمان من جوار الوليد بن المغيرة كراهة أن يذمه مشرك. فصادف في منصرفه ليبدأ ينشد هذا الشعر: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل». فقال عثمان: صدقت. ثم قال: «وكل نعيم لا محالة زائل». فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

قال ليبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذي جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله! فرد عليه عثمان حتى شري أمرهما^١ فقام إليه الرجل فلطم عينه فحضرها^٢.

ولما كانت سنة التسع وهي سنة الوفود، وقد افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، أتته وفود العرب مستسلمة من كل وجه، لأن العرب كانت تربص بالإسلام أمر قريش، فلما دانت له قريش ودوخها الإسلام وعرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا البقاء على عداوته، هرعوا يدخلون في دين الله أفواجا، يضربون إليه من كل صوب ومكان. ومن جملة الوفود وفد بني عامر، وفيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبار بن سلمى. وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم.

فقدم عامر، عدو الله، يريد الخدر برسول الله ﷺ وقد قال له قومه: يا عامر، أسلم فإن الناس قد أسلموا. قال: لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش.

فتواطأ عامر مع أربد في قتله ﷺ غيلة، لكنه لم يوفق، فقد أضر على رسول الله ﷺ أن يخلو به ليخدر به، لكنه ﷺ أبى إلا أن يؤمن بالله أولا. فأبى عامر وهدد رسول الله ﷺ قائلا: لأملأن المدينة عليك خيلاً ورجالاً، وولّى لوجهه.

١ - أي اشتد وعظم انجدال.

٢ - أي جعل عينه خضراء من شدة انطمة.

فلما خرجوا من عنده ﷺ راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر الطاعون في عنقه، فهلك في بيت امرأة من بني سلول. فجعل يقول: أغدة كغدة الابل، وموتاً في بيت سلولية؟!

وأما أربد، فلما قدم على قومه، قالوا: ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء، لقد دعانا إلى عبادة لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل. فخرج بعد مقاتله هذه يوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جملة صاعقة فأحرقتهما.

وكان أربد بن قيس هذا أخاً للبيد بن ربيعة لأُمِّه.

ولما بلغ لبيد ما أصاب أربد من عذاب الله وسخطه، رثاه وبكى عليه في قصائد مطبنة، وأبيات شعر كثير، يكبر من قدره ويعظم من شأنه، مما يكشف عن خصومته للإسلام الذي أذل أعزة الجاهلية من أهل الشرك والإلحاد.^١

هذا لبيد، مع شدة خصومته مع الإسلام وطول معارضته مع المسلمين في أكثر من عشرين عاماً، ومع قدرته الفائقة في نظم الشعر والقرض والإيفاء بكلام فصيح، أنه لم يستطع بل لم يفتكر يوماً في معارضة القرآن بالبيان.

وأما إسلامه فكان على أثر جذب أصاب مضر، بدعوة النبي ﷺ عليهم. فوفد عليه وفد قيس، وفيهم لبيد، فأنشده:

أُتيناك يا خير البرية كلها	لترحمنا ممّا لقينا من الأزل ^٢
أُتيناك والعذارى تدمي لبانها	وقد ذهبت أم العسي عن الطفل ^٣
فإن تدع بالسقيا وبالعضو ترسل السماء	لنا، والأمر يبقى على الأصل ^٤

١ - راجع: سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢١٣ - ٢١٩.

٢ - الأزل - مفتحتين -: انقدم ومالا نهاية ثم كناية عن التقدير فيما كان يعتقد العرب في مسألة التقدر.

٣ - اللذان - مفتاح الأول -: انصدر أو خصومتين ما بين التدينين.

٤ - يبقى على الأصل، أي يرجع إلى أصلها قبل التجذب.

وَأُلْقِيَ لِكُنَيْتِهِ الشَّجَاعُ اسْتِكَانَةً مِنْ الْجُوعِ صَمْتًا بِالْمَرَّةِ، وَلَانْحُلْ^١
 وَرَوَى ابْنُ هِشَامٍ بِإِسْنَادِهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قُرَيْشٍ
 وَغَيْرِهِمْ، فَأَعْطَاهُمْ يَوْمَ الْجِعْرَانَةِ مِنْ غَنَائِمٍ حَنِينٍ.^٢
 قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ، وَكَانُوا أَشْرَافَ النَّاسِ، يَتَأَلَّفُ بِهِمْ قَوْمَهُمْ.
 فَأَعْطَى مِنْ بَنِي قَيْسٍ جَمَاعَةً مِنْهُمْ: لَيْبِدِينَ رِبِيعَةَ.^٣

٣ - عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير بن قيس القرشي السهمي. قال ابن حجر: كان من أشعر قريش،
 وكان شديداً على المسلمين، ومواقفه في الحروب ضد الإسلام مشهورة، وكان ذا حنكة
 ورأي عند قريش. قال المرزباني: كان شاعر قريش.^٤
 قال ابن الأثير: وكان من أشد الناس على رسول الله ﷺ في الجاهلية وعلى أصحابه،
 وكان يناضل عن قريش ويهاجي المسلمين وكان من أشعر قريش.^٥ وله سابقة شعر
 قديمة، وهو القائل في وقعة الفيل:

تَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا	كَانَتْ قَدِيمًا لَا يَرَامُ حَرِيمُهَا
لَمْ تَخْلُقِ الشَّعْرَى لِيَأْتِي حَرَمُتْ	إِذْ لَا عَزِيزَ مِنَ الْأَنْبَامِ يَرُومُهَا
سَائِلُ أُمِيرِ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى	وَلَسَوْفَ يَنْبِي الْجَاهِلِينَ عَلَيْهَا

١ - الإصابت، ج ٣، ص ٣٢٧ والاستكانة هي: التذلل، يريد: أن الشجاع يتغلب عن كنيته، لأن الكنية تعظيم. وحال يحول: تحول وتحرك.

٢ - الجعرانة: موضع قرب مكة، قال ياقوت: ماء بين انطايف ومكة وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ ثلثاً قسم غنائم هوازن، مرجعه من غزاة حنين، وأحرم منها، وله فيها مسجد (معجم البلدان، ج ٢، ص ١٤٦). ثم جمعت إلى رسول الله ﷺ سبأيا حنين وأمواتها. وأمر رسول الله ﷺ باتساعها والأموال إلى الجعرانة فجمعت بها. أيام اترب في الإسلام تخرجي زيدان، ص ١١١) وراجع: سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٠ - ١٣١.

٣ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٣٥ و ١٣٧ و ١٣٨ والإصابت، ج ٣، ص ٣٢٧.

٤ - الإصابت، ج ٢، ص ٣٠٨. ٥ - أسد الغابة، ج ٣، ص ١٤٩.

سَوْنُ الْفَالِمْ يَوُوبُوا أَرْضَهُمْ بَلْ لَمْ يَعِشْ بَعْدَ الْإِيَابِ سَتِيمَهَا
كَانَتْ بِهَا عَادٌ وَجَرَهُمْ قَبْلَهُمْ وَاللَّهُ مِنْ فَوْقِ الْعِبَادِ يَقِيمَهَا^١
وَهُوَ الْقَاتِلُ يُبْكِي قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ مِنْ فَتْيَةٍ بَيْضِ الْوُجُوهِ كَرَامِ
مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلَهُ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ يَرِثُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ^٢
وَقَالَ فِي وَقْعَةِ أَحَدٍ:

يَا غُرَابَ الْبَيْنِ أَسَمِعْتَ فَقُلْ إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلَ
إِنَّ لِلْخَيْرِ وَاللَّشَرِّ مَدَى وَكَلا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبْلُ
كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ مَا جَدَ الْجَدِّينَ مَقْدَامَ بَطْلٍ
لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعُ الْخُرُوجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ
فَقَتَلْنَا الضَّعْفَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَعَدَلْنَا مِيلَ بَدْرٍ فَاعْتَدَلُ^٣
... إلى آخر الآيات. وهي التي تمثل بها يريد بن معاوية حينما أثنى رؤوس شهداء
الطف وأسارى أهل البيت عليهم السلام وقال يرثي قتلهم في قصيدة طويلة مطلعها:
أَلَا ذُرِفَتْ مِنْ مَقْتَلَيْكَ دُمُوعٌ وَقَدْ بَانَ مِنْ حَبْلِ الشَّابِ قَطُوعٌ^٤
وَقَالَ فِي يَوْمِ الْخَنْدَقِ:
حَيِّ الدِّيارِ مَحَا مَعَارِفَ رَسْمِهَا طَوُّ الْهَلَا وَتَرَاوَحِ الْأَحْقَابِ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:
جَيْشٌ عَيْنِي قَاصِدٌ بِلَوَائِهِ فِيهِ وَصَخْرٌ قَائِدُ الْأَحْزَابِ
لَوْلَا الْخَنَادِقُ غَادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ قَتَلَى لَطِيرٍ سَغَبٌ وَذُنَابٌ^٥

١ - المصدر، ج ٤، ص ١٦.

٢ - المصدر، ص ١٤٨.

٣ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٥٩.

٤ - المصدر، ص ١٤٣.

٥ - المصدر، ص ٢٦٩.

وهكذا لم يدع مناسبة إلا حمل على المسلمين أخذاً بجانب المشركين.
قال ابن إسحاق: لما فتح رسول الله ﷺ مكة، هرب هبيرة بن أبي وهب، وعبد الله بن الزبعرى، إلى نجران^١ قال: رمى حسان بن ثابت، عبد الله بن الزبعرى - وهو بنجران - بيت واحد، مازاده عليه:

لَا تَعُدْ مَنْ رَجَلَا أَحَدَكَ بُغْضَهُ نَجْرَانُ فِي عَيْشِ أَحَدٍ لَيْمٍ^٢

وفي رسالة بهجير إلى أخيه كعب يحذره غضب الرسول ﷺ «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَتَلَ رَجَالًا بِمَكَّةَ مِمَّنْ كَانُوا يَهْجُونَهُ وَيُؤْذُونَهُ، وَإِنْ بَقِيَ مِنْ شَعْرَةٍ قَرِيشَ كَابَنِ الزُّبَيْرِ وَهَبِيرَةَ بْنِ أَبِي وَهَبٍ، قَدْ هَرَبُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ...»^٣

قال ابن إسحاق: فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى، خرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وقال حين أسلم:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بِبُورٍ^٤
إِذْ أَبَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَيِّ وَمَنْ مَالٌ مِثْلُهُ مَتَبُورٍ^٥
أَمِنَ اللَّحْمَ وَالْعِظَامَ لِرَبِّي تَعَلَّقَ قَلْبِي الشَّهِيدُ أَنْتَ الْنَذِيرُ
إِنِّي عَنْكَ زَاجِرٌ نَمَّ حَيًّا مِنْ لَوْيٍ وَكُلِّهِمْ مَغْرُورُ

وله قصيدة أخرى أطول منها أيضا قالها حينما أسلم، مطلعها:

مَنْعَ الرِّقَادَ بِلَابِلٍ وَهَمُومٍ وَاللَّيْلَ مَعْتَلِجَ الرِّوَاقِ بِهِيمٍ^٦
مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَامِنِي فِيهِ فَبِتُّ كَأَنِّي مَحْمُومُ
يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتُ عَلَى أَوْصَالِهَا غَيْرَانَةَ سُرْحِ الْيَدَيْنِ غُسُومٍ^٧

١ - الإحصاء، ج ٢، ص ٨٠.

٢ - يريد: لا يفتؤك عطف من أبغضته أي محمداً رسول الله ﷺ يعني: أدرك رحمته إن عدت قائماً ومسلماً.

٣ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٤.

٤ - الراتق: التماسد، والتفتق: التمزق. والمتبور: التهانك.

٥ - التهانك: التهانك، والتسكن: بالتحرير، وسط الطريق. والمتبور: التهانك.

٦ - اللابيل: التوساوس والأحزان، والمتعاليج: المتطرب، والبهيم: الذي لا ضياء له.

٧ - الغيرانة: انقطة، وسرح اليدين: خفيتهما، والغسوم: التي لا تمرد عن وجهها.

إني لمعتذر إليك من الذي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم^١

٤ - هبيرة بن أبي وهب

قال ابن إسحاق: وأما هبيرة بن أبي وهب المخزومي فأقام بها حتى مات كافراً، وكانت زوجته أم هاني بنت أبي طالب، واسمها هند. فلما بلغه أنها أسلمت فيمن أسلم من نساء قريش، قال مغضباً ومتغيّراً:

أشأقتك هند أم أذاك سؤالها كذاك النوى أسبابها وانتالها

إلى أن يقول:

فإن كنت قد تابعت دين محمد وعطفت الأرحام منك حباً لها
فكوني على أعلى سحيق بهضبة مملئة غبراء يبي بلالها^٢



٥ - فروة بن مسيك المرادي

كان من وجوه قومه ومن الصحابة الفرساني وأسلم من اليمن، وقد سنة تسع أو عشر على رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة ومباعداً لهم، رغبة في الإسلام، وقد كانت قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة، أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثنوهم^٣ في يوم يقال له «يوم الردم».

قال ابن إسحاق: وفي ذلك اليوم يقول فروة بن مسيك:

مررن على لفات وهنّ خوص يئازعن الأعنة ينتحيناء
فإن تغلب فخلابون قدما وإن تغلب فغير مغلبينا

١ - أسديت: حملت. وأهيم: أذهب، في وجهي متحيراً.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٦١-٦٣. والصحيق: التعب. والبهضبة: الكدبة الدائبة. والمملئة: الممتلئة. والغبراء: الغبراء: التي

عليها الغبراء. ٣ - أي أكرموا فيهم القتل والتجارات.

٤ - لفات: من ديار مراد. وخوص: غائرات العيون. والانتحام: التعرض.

وما أن طبتنا جبن ولكن
كذاك الدهر دولته سجال
فبيننا ما نسر به ونرضى
إذا انقلب به كرات دهر
فمن يغط بريب الدهر منهم
فلو خلد الملوكة إذن خلدنا
فأفنى ذلكم سرورات قومي
وقد تمثل بهذه الأبيات، شهيد الطف الإمام أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام عندما تألفت عليه كلاب بني أمية وبني مروان في وقعة كربلاء.

ولما توجه فروة إلى رسول الله ﷺ قال
لما رأيت ملوك كندة أعرضت
قربت راحلتي أوم بمحمد
وفي رواية أبي عبيدة: حسن ثنائها.

قال ابن اسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له: يا فروة، هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟ قال: يا رسول الله، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم، لا يسوؤه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: أما أن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيراً واستعمله النبي ﷺ على قبائل مراد وزبيد ومدحج كلها، وبعث معه خالدين سعيد بن العاص على الصدقة. وأيضاً قال له النبي ﷺ ادع الناس وتالفهم، فإذا رأيت الغفلة

١ - طبتنا: أي عادتنا وشيئتنا.

٢ - غضارة النسي: غطاراته.

٣ - شبطوا: استحدثت أحوالهم. ويقال: طحدثت الصلابة القوم: أهملتهم.

٤ - سرورات القوم: أشرافهم.

فانتمها وانز.

وكان من الصحابة الذين سكنوا الكوفة بعد فتح العراق.^١

٦ - عمرو بن معدي كرب

من الشعراء الفرسان، قال جرجي زيدان: هم أكثر شعراء الجاهلية، لأن الفروسيّة والحرب من طبائع أهل البادية، وقلّ من الشعراء من لم يركب أولم يغز. وشاعرنا فارس من فرسان اليمن أو هو فارس اليمن.^٢

قال ابن حجر: هو فحل في الشجاعة والشعر. قال أبو عمرو بن العلاء: لا يفضل عليه فارس في العرب. وكان شاعراً محسناً، ومما يستحسن من شعره قصديته التي أولها:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقي وأصحابي هجوع
يقول فيها:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وصله بالزمام فكل أومر سلكك أوسموت له ولوع^٣

وبعد أن ذاع صيت الإسلام وملاً أرجاء الجزيرة، قصد رسول الله ﷺ في أناس من بني زبيد، وكان قد قال لقيس بن مكشوح المرادي، حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش، يقال له محمد قد خرج بالحجاز، يقول: إنه نبي، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً كما يقول، فإنه لن يخفى عليك، وإذا أقمناه اتبعناه. وإن كان غير ذلك علمنا علمه. فأبى قيس ذلك، وسفه رأيه. فركب عمرو بن معدي كرب حتى قدم على رسول الله ﷺ فأسلم وصدقته وآمن به، فرجع

١ - سيرة ابن هشام، ج ٥، ص ٢٢٨؛ والإصابة، ج ٣، ص ٢٠٥.

٢ - تاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٤٢ و ١٤٧.

٣ - الزمام: التمام في الأمر والتعزم عليه، من أزمع إذا عزم وجزم بالأمر.

إلى قومه فأقام فيهم مسلماً مطيعاً، فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرواً وتحطّم عليه وقال: خالفني وترك رأيي! فقال عمرو في ذلك:

أمرتك يوم ذي صنعاء أمراً بادياً رشده
أمرتك باتقاء الله و المعروف تتعده
خرجت من الحنى مثل الحُمير غره وتده

... إلى آخر الآيات.

وقال فيه أيضاً:

أعاذل عدتي بدني ورمحي وكلّ مقلص سلسل القياد
إلى أن يقول:

تمني أن يلاقيني قيس ووددت وأينما مني ودادي
فمن ذا عاذري من ذي سفاه يرود بنفسه مني المرادي
أريد حياته ويريد قلبي عذيرك من خليلك من مراد^٢

وذكر المفيد في الإرشاد: ولما عاذر رسول الله ﷺ من تبوك، قدم إليه عمرو بن معدى كرب فقال له النبي ﷺ: أسلم يا عمرو، يؤمنك الله من الفرع الأكبر. قال: يا محمد، وما الفرع الأكبر، فأني لأفرع. فقال: يا عمرو إنه ليس كما تظن وتحسب، إن الناس يصاح بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميت إلا نشر، ولا حي إلا مات، إلا ما شاء الله. ثم يصاح بهم صيحة أخرى فينشر من مات، ويصفون جميعاً وتنشق السماء وتهتز الأرض وتخر الجبال هذاً، وترمي النار بحتل الجبال شرراً، فلا يبقى ذوروح إلا انخلع قلبه وذكر ذنبه وشغل بنفسه، إلا ما شاء الله، فأين أنت يا عمرو من هذا؟!

١ - أي اشتد عليه.

٢ - انصاف: انقلاص القوائم من القرس والنوق. راد بنفسه: خذوها وعرضوها للهلاك. وهذا التوبيخ مما تضمن به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ابن ماجم الصرادي نعمة الله تعالى على من اتقى الله.

وعندئذ قال عمرو: ألا أني أسمع أمراً عظيماً، فأمن بالله ورسوله، وآمن معه من قومه ناس ورجعوا إلى قومهم.^١

يقال: إنه ارتد بعد رسول الله ﷺ وكان على قومه حينئذ فروة بن مسيك فقال فيه: وجدنا ملك فروة شرّ ملك وكنيت إذا رأيت أبا عمير ترى الحولاء من خبث وغدر^٢ وكان ذلك - على ما قيل - على عهد أبي بكر، فبعث إليه المهاجر بن أبي أمية، فأسر عمرو وأرسله إلى أبي بكر، فعاود الإسلام. وحضر القادسية وأبلى فيها. قال قيس بن أبي حازم: شهدت القادسية فكان عمرو بن معدي كرب يمرّ على الصفوف ويقول: يا معشر المهاجرين كونوا أسوداً أشداء، وكان إذا حمل أخذ الفارس ويرميه على الأرض ويقول: اصنعوا هكذا. وهو القائل بشأن تلك الواقعة:

والقادسية حين راحم رستم
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً
كنا الكمأة نهراً كالأسطان^٣
بنوي الجهاد وطاعة الرحمان

وفي سنة ٢١ كانت وقعة نهروند وفيها انهزم المسلمون، وقاتل عمرو بن معدي كرب يومئذ حتى كان المفتح، فأثخنته الجراحة فمات بقرية «رودق» وقد تجاوز المائة. وقيل: إنه عاش بعد ذلك وشهد صفين، فكان من المعمرين الذين تجاوزوا المائة والخمسين. وكان شيخاً عظيم الخلق، أعظم ما يكون من الرجال، أحسن الصوت، إذا التفت التفت بجميع جسده.^٤

١ - كتاب الإرشاد، ج ٨٤، ط نجف و ط ١٥٨، ط قم. ٢ - ساف: شم. وانظر من اتهمهم بمنزلة الرجم من الإنسان.
٣ - الحولاء - بضم الحاء وكسرها وفتح الواو: جلدة ماؤها أخضر تخرج مع التوت.
٤ - رستم بن فرخزاد: قائد جيوش الفرس. وكمأة: جمع كئي بمعنى التشجاع. والأسطان: آنية تصفر. قال التبريزي: وكان اتون يذل الفلاح من السمل بمعنى الضمت. ٥ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ط ١٣٠، والإصابة، ج ٤، ط ١٩.

٧ - معاوية بن زهير بن قيس

كان شاعراً مجيداً، وله قصائد مطوّلة ورثانة، كان من أحلاف بني مخزوم مشركاً صلباً، وهو الذي مرّ بهيرة بن أبي وهب، وهم منهزمون يوم بدر، وقد أعيا بهيرة، فقام وألقى عنه درعه وحمله فمضى به.

قال ابن هشام: وأصحّ أشعار أهل بدر ما قاله أبو أسامة معاوية بن زهير:
ولمّا أن رأيت القوم خَفُّوا وقد شالت نعامتهم لفرأ^١
وإن تركت سراة القوم صرعى كأنّ خييارهم أذباح عثراً^٢
إلى أكثر من ثلاثين بيتاً.
وقال أيضاً:

ألا من مبلغ عني رسولاً مغلغلة يثبتها لطيف^٣
ألم تعلم مردي يوم بدر وقد برقت بجنيبك الكفوف^٤
وقد تركت سراة القوم صرعى كأنّ رؤوسهم حدج نقيف^٥
إلى ما يقرب من عشرين بيتاً.

قال ابن هشام: تركت قصيدة لأبي أسامة على اللام، ليس فيها ذكر بدر إلا في أوّل بيت فيها والثاني، كراهية الإكثار.^٦

٨ - عامر بن الطفيل العامري

هو ابن عم لبيد الشاعر، وكان فارس قيس وسيدهم، وكان عتيماً لا يولد له، وكان شاعراً فخوراً مستكبراً لا يرى لغيره ولا لغير قومه ولا لغير أرضه وبلاده من وزن. وقد ذكر

١ - قال التمهيلي: العرب تضرب زوايا الندامة مثلاً للفرار. تقول: شانت ندامة القوم إذا قرؤا والندامة: باطن القدم، ومن مات، شانت ندامته.

٢ - سراة القوم: أشرافهم. وانحدر: انصدم الذي يذبح به قرابان.

٣ - النضلة: الرسالة تامل من بلد إلى بلد. والطفيف: الرقيق الخلاق.

٤ - برقت: نصت. الحدج: التحنط. والنقيف: المتكسور.

٥ - سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٤٠-٢٤١.

جرجي زيدان بعض شعره بهذا الشأن، وله ديوان أقدم على طبعه المستشرقون.
وهو الذي توأما مع أربد بن قيس ليقتال رسول الله ﷺ فعصمه الله من شرهما، وخرجا
من عنده كافرين وماتا على الكفر لعنهما الله.^١

٩ - الأغلب بن عمرو العجلي الراجز

هو أحد المعمرين في الجاهلية وأدرك الإسلام وأسلم، وكان في جملة من توجه إلى
الكوفة مع سعد، ومات في واقعة نهاوند سنة ٢١.
وهو أول من رجز الأراجيز الطوال. إذ كانت العرب ينشدون الرجز في الحرب
والحداء والمفاخرة فيأتون منه بأبيات يسيرة. ثم جاء الأغلب فكان أول من قصد الرجز
وأطاله ثم سلك الناس طريقته. ومن ثم سمي بالراجز.^٢
وذكرنا في ترجمة لبيد: استنشاد المعيرة له وللبيد، فأبى لبيد ولكن الأغلب جاء إليه
وقال:

أرجزاً تريد أم قصيدة  طلبت هيتاً موجودا
فكتب المعيرة بذلك إلى عمر فأمره أن ينقص من عطائه خمسمائة يزيد لها في عطاء
لبيد.^٣

١٠ - أمية بن أبي الصلت

كان شاعراً فحلاً من شعراء الجاهلية وأدرك الإسلام كافراً.
فمن شعره:

١ - أسدالآية، ج ٣، ص ٨٩، وتاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٤٨.

٢ - أسدالآية، ج ١، ص ١٠٥، وتاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٤٣.

٣ - الإحابة، ج ١، ص ٥٧.

ولو شئت لجئتني كميت طمرة^١ ولم أحمل النعماء لابن شعوب^٢

١٢ - أبو محجن الثقفي

فارس شجاع وكان مستهتراً مولعاً بالشراب وقد أدرك الإسلام، لكنه لم ينخلع من سقطاته، ذكروا أنه هوى امرأة من الأنصار على عهد عمر بن الخطاب، يقال لها شمس، فحاول النظر إليها فلم يقدر، فأجر نفسه من بناء بيني بيتاً بجانب منزلها، فأشرف عليها من كوة، فأنشد:

ولقد نظرت إلى الشمس ودونها
خرج من الرحمان غير قليل... الخ
فاستعدى زوجها إلى عمر، ففاه وبعث معه رجلاً يقال له أبو جهراء كان من أعوان أبي بكر يستعمله في حوائجه.

وكان لا يزال يجلد في الخمر. وأن عمر جلد في الخمر سبع مرّات. وهو الذي يقول:
إذا مت فادفني إلى جنب كريمة
تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني في النلاة فإني
أخاف إذا ماتت أن لا أدوقها
وكان في مناه بالبصرة أيضاً يتعاطى الخمر ولا يتورعها، ومن ثم أمر به عمر أن يحمل إلى البحر، ولكنه هرب ولجأ إلى معسكر سعد بن أبي وقاص بالكوفة. ولما كان يوم القادسية حمله سعد معه، لكنه أتى به يوماً وهو سكران من الخمر فأمر به فقيّد وحبسه في بيته. وكان بسعد جراحة، فاستعمل على الخيل خالد بن عرفة، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنع الناس، واتفق أن المسلمين أصابهم جهد، فهاجت حماسة أبي محجن وهو يسمع الغوغاء فجعل يتملّ:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقتل
وأترك مشدوداً عليّ وتاقياً

١ - الطمرة: الفرس السريعة التوثب. والنعماء: اليد التي يضام اقتصادها.

إلى أن يقول:

هلمّ سلاحي لا أباً لك إنني أرى الحرب لا تزدد إلا تمادياً
ثم قال لامرأة سعد - واسمها سلمى - وكانت في البيت: ويحك خلّيني فذاك لله عليّ إن
سلمت أن أجيء حتى أضع رجلي في القيد، وإن قتلت استرحتم مني. فاحتالت في
إطلاق سراحه.

فوتب أبو محجن على فرس سعد بباب البيت وكانت من أجياد الأفراس يقال لها:
البلقاء، فأخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس وحمل على الأعداء، فجعل لا يحمل في
ناحية إلا هزمهم بإذن الله، فتحيّر الناس من وجود هذا الفارس وجعلوا يقولون: إن هذا
ملك! وسعد ينظر إلى جموع العسكر ويقول في نفسه: «الضبر ضبر البلقاء»^١ والظفر ظفر أبي
محجن، وأبو محجن في القيد! فلما انهزم العدو ورجع أبو محجن ووضع القيد في رجله،
جاءت سلمى إلى سعد وأخبرته الخبر.
فقال سعد: لا والله لأأخذ اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يديه ما أبلاهم، فخلّى
سبيله فقال أبو محجن عند ذلك: لقد كنت أشربها إذا كان يقام عليّ الحد، أظهر منها، فأما إذا
بهرجتني^٢ فوالله لأشربها أبداً.^٣

١٣ - الحارث بن هشام المخزومي

هو أخو أبي جهل لأبويه وابن عمّ خالد بن الوليد وابن عمّ حنتمة أم عمر بن الخطاب،
وقيل: أخوها، وشهد بدر الكافرا فانهزم وعيّر بفراره^٤ فاعتذر بقوله:

١ - الضبر - بالتضاد المتجمعة وإتياء الموحدة - عدو الفرس.

٢ - يقال: بهرج اندم أي أهذبه، وبهرج المكان: تم يجعله حصى. كناية عن عدم إقامة الحد عليه.

٣ - الإصابت، ج ٤، ص ١٧٤.

٤ - يقال: إن حسان بن ثابت غير بيتين:

الله أعلم ما تركت قتالهم
وعرفت أنني إن أقاتل واحداً
فصددت عنهم والأحبة فيهم
قال الأصمعي: لم أسمع اعتذاراً في الفرار أحسن من هذا^١
وهكذا لما بلغه شعر أبي سفيان في واقعة أحد:
ولو شئت نجّيتي كميّتُ جِمرَةً^٢ ولم أحمل النعماء لابن شعوب^٣
وما زال مهري مزجر الكلب منهم^٤ لدن غدوة حتى دنت لغروب^٥
فظنّه تعريضاً بفراره يوم بدر، فقال مجيباً:
جزيتهم يوماً ببدر كمثلته^٦ على صاحب ذي ميعة وشيب^٧
لدى صحن بدر أو أقمت نوائحاً^٨ عليك ولم تحثل مصاب حبيب^٩
وإنك لو عاينت ما كان منهم^{١٠} لأبت بقلب ما بقيت نخيب^{١١}
وكان الحارث بن هشام من أعيان قريش، وله في كل واقعة يد. وكانت قريحته
الشعرية تعمل في خدمة الكفر ومعارضة الإسلام. وله قصائد كثيرة في وقائع دامية كانت
بين المشركين وجيوش الإسلام.
منها قصيدته في يوم بدر، مطلعها:

→ إن كنت كاذبة بما حدثتني
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم

راجع: أسد الأديبة، ج ١، ص ٣٥١.

١ - حيوا: أطعوا، واتمروا؛ وقد اقرض، والأشقر: كناية عن الندم، والتزبد: انزى، علا: ازبد.

٢ - أي تم يؤتم قتالي عدواني.

٣ - سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٩.

٤ - أسد الأديبة، ج ١، ص ٣٥١.

٥ - التكميت: من التخييل؛ ما كان نونه بين الأسود والأصفر. والظمرة - بكسر التين وتشديد الراء المفتوحة -: القرس السمريّة التوت.

٦ - سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٨٠. ومزجر: التكميت؛ كناية عن القرب.

٧ - الميعة: الخفة والانشاط. ٨ - التصدر: ص ٨٢. وأبت: رجعت. والتخيب: اتجهان.

ألا يا قومي للصَّباة والهجر^١ وللحزن مني والحرارة في الصدر^٢
وقصيدة أخرى يعرض بها علي بن أبي طالب عليه السلام مطلعها:
عجبت لأقوام تخنى سنيهم^٣ بأمر سناه ذي اعتراض وذئ بطل^٤
وقال يبكي أخاه أبا جهل في قتلى بدر:
ألا يا لهف نثسي بعد عمرو وهل يغني التلهف من قتيل^٥
إلى غيرهن من قصائد وأشعار عارض فيها الإسلام والمسلمين.

وأسلم يوم الفتح مرغما، وقد استجار يومئذ بأُم هاني بنت أبي طالب، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: قد أجرنا من أجزت. وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائم حنين كما أعطى المؤلفة قلوبهم. ومات في طاعون عمواس سنة ١٧، أيام عمر بن الخطاب، فتزوج عمر بامرأته فاطمة بنت الوليد، أخت خالد بن الوليد.^٦



١٤ - ضرار بن الخطاب الفهري

كان من فرسان قريش وشجعانهم وشعراهم المطبوعين المجددين. وهو أحد الأربعة الذين تبوا الخندق. قال ابن بكّار: لم يكن في قريش أشعر منه ومن ابن الزبيري. وبعضهم يفضلّه على ابن الزبيري. قال ابن بكّار: تقول رواة العشر أن ابن الزبيري كان أشعر قريش، وأما ما سقط إلينا من شعره وشعر ضرار بن الخطاب، فضرار عندي أشعر منه وأقل سقطا.^٧ وكان ضراراً ضراراً على المسلمين بسيفه وشعره حتى كان يوم الفتح وسقوط قريش فاستسلم مع من استسلم من قريش، فجاء مسترحماً ومستعطفاً، خائفاً ممّا أو عده سعد بن عبادَةَ من استحلال الحرمة بشأن قريش، قال:

١ - القصيدة، ج ١٠ و ١٢.

٢ - الصباة: رقة الشوق.

٣ - أسدناة، ج ١، ص ٣٥٢.

٤ - القصيدة، ص ٢٩.

٥ - القصيدة، ج ٣، ص ٤٠ و ١٥٩.

يا نبي الهدى إليك لجا
حي قريش وأنت خير لجا
حين ضاقت عليهم سعة الأر
والثقت حلقنا البطان على التوم
إن سعداً يريد قاصمة الظهر
ومن شعره يوم بدر، في قصيدة مطلعها:
عجبت لشجر الأوس والحيث دائر
عليهم غداً والدهر فيه بصائر^١
ويقول فيها:
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا
فلأننا رجالاً بعدهم سنغادر^٢
وقال - أيضاً - في رثاء أبي جهل، في قصيدة يقول فيها:
فبلغ قريشا أن خير نديها
وأكرم من يمشي بساق على قدم^٣
ثوى يوم بدر رهن خوصاء رهنها
كريم المساعي غير وغد ولا برم^٤
فآليت لا تنهل عيني بحبرة
على هالك بعد الرئيس أبي الحكم^٥
وقال رداً على شعر كعب بن زهير كان يرثي حمزة بن عبدالمطلب وقتلى أحد، في
قصيدة مطلعها:
أيجزع كعب لأشياعه
ويكي من الزمن الأعوج^٦
ولضرار في وقعة أحد قصائد عديدة يتشفي بها عن قتلاهم ببدر ويشمت الأنصار
في لهجة قاسية، منها قوله:
إنني وجدك لولا مقدمي فرسي
إذ جالت الخيل بين الجزع والقاع^٧

١ - القصيدة: التمهيد: التصارم، والتصالح: التجرداء.
٢ - التحين - بفتح الحاء التمهيد: التهلاك والصوت.
٣ - التدي: التماس.
٤ - القصيدة: من ٢٨، والتهل: سأل.
٥ - الجزع: منصرف التوادي. والقاع: المنخفض من الأرض.
٦ - القصيدة: من ٢٨، والتهل: سأل.
٧ - القصيدة: من ٢٨، والتهل: سأل.

ما زال منكم بجانب الجزع من أحد
أصوات هام تراقي أمرها شاع^١
... إلى آخرها.^٢
وقوله:

لما أتت من بني كعب مزيئة
والخزرجية فيها البيض تأتلق^٣
وجردوا مشرفيات مهتدة
وراية كجناح النسر تحتلق^٤
فقلت يوم بأيام ومعرفة
تبي لما خلفها ما هزير الورق^٥
... الخ^٦

وقوله - معرضاً بما أصيب المسلمون يوم أحد -:

ما بال عينك قد أرى بها السهد
كأنما جال في أجفانه الرمد^٧
أمن فراق حبيب كنت تألفه
قد حال من دونه الأعداء والبعد^٨
... في أبيات كثيرة.

وله في يوم الخندق قصيدة مطبوعة يقول فيها:

بأيدينا صوارم مرهفات
نقد بها المفارق والشؤنا^٩
كان وميضهن معريات
إذا لاحت بأيدي مصليتنا^{١٠}
وميض عقيقة لمعت بليل
تري فيها العقائق مستبينا^{١١}
فلولا خندق كانوا لذيه
لدمرنا عليهم أجمعينا

١ - اتهام: جمع هامة، وهي أظافر التي يزعم العرب أنه يخرج من رأس القليل فيصبح، وتراقي: تصيح، وشاع: مقنوب شاع.

٢ - المصدر: ص ١٥٢.

٣ - مزيئة: كنية فيها أنواع من التسلح، تأتلق: تلمع وتضيء.

٤ - المشرفيات: السيوف المنسوبة إلى المشارف من قري الأنعام.

٥ - هزير: حرك.

٦ - المصدر: ص ١٧٢.

٧ - السهد: عدم النوم، وأرى: قصر، والرمد: وجع العين.

٨ - البعد: واحدة العقيق، الجوهرة المعروفة، وأيضا: اتواذي وكل مميل ماء شقه النيل.

٩ - المصلي: واحد العقيق، الجوهرة المعروفة، وأيضا: اتواذي وكل مميل ماء شقه النيل.

ولكن حال دونهم وكانوا
... الخ.^١

ولقد صدق ابن بكّار، أن شاعريّة ضرار لقويّة.

وله مطايبات مع أبناء جلدته من قريش، قال يوماً لأبي بكر: نحن كنا لقريش خيراً
منكم، أدخلناهم الجنة، وأوردتموهم النار! يعني أنه قتل المسلمين فدخلوا الجنة. وأن
المسلمين قتلوا الكفار فأدخلوهم النار.

واختلف الأوس والخزرج فيمن كان أشجع يوم أحد، فمرّ بهم ضرار، فقالوا: هذا
شهدنا وهو عالم بها فاسأله عن ذلك. فقال: لا أدري ما أوسكم وما خزرجكم، لكنني
زوّجت منكم يوم أحد أحد عشر رجلاً من الحورالعين!

ومن الطريف أن ابن الأثير يذكر أن عمر بن الخطاب روى عنه^٢

وروى المذهلي عن السائب بن يزيد، قال: بينما نحن مع عبدالرحمان بن عوف في
طريق مكة إذ قال عبدالرحمان لرياح بن المعترف: غنّنا، فقال له عمر بن الخطاب: إن كنت
أخذاً، فعليك شعر ضرار بن الخطاب^٣ كبيتهم ردي

١٥ - الحُطَيْيئة العبسي

هو جروول بن أوس من بني عبس، قال أبو الفرج: كان من فحول الشعراء ومقدميهم
وفصحائهم. متين الشعر، شروود القافية، متصرّف في جميع الفنون من المديح والهجاء
والفخر والنسيب، ويجيد في ذلك كلّ.

قال الأصمعي: وما تشاء أن تقول في شعر شاعر أنه عيب إلا وجدته إلا الحُطَيْيئة
فقلّما تجد ذلك في شعره. وقال إسحاق الموصلي: ما زعم أن أحد من الشعراء بعد زهير

٢ - أسد الغابة، ج ٤، ص ٥٠.

١ - انصهر، ص ٢٦٦.

٣ - الإصباغة، ج ٢، ص ٢٠٩.

أشعر من الحُطَيْيئة^١ ولكنّه كان دنيء النفس ذا شرٍّ وسفٍّ لا رأي له، من الشعراء الذين في كلِّ وادٍ يهيمون. كانت العرب تخاف لسانه، كانوا يسترضونه بالمال خوفاً من شرّه، فقد كان يستدرّ الناس بتهديدهم بالهجو.

ذكروا أنّه نزل المدينة فجمعوا له من كلِّ أهل بيت من قريش والأنصار العشرة والعشرين حتى كانت أربعمائة، وظنّوا أنّهم قد أغنوه، وما أن صارت الجمعة إلّا وهو يستقبل الإمام مائلاً ينادي: من يحملني على نعلين...^٢ هكذا كان يفعل مع كلِّ قوم ينزل فيهم وإلّا سلقهم بهجوه.

قال جرّجي زيدان: وأكثر هجوه -بعد الإسلام- الذي وصل إلينا، في الزبرقان وبغيض. كان الزبرقان من عمّال عمر بن الخطاب، وقد عرف شدّة وطأة الحُطَيْيئة فأحبّ أن يقربه فأنزله في قومه وضمن له مؤونة عياله على أن يستصفي له مدحده. وكان بغيض وإخوته ينافسون الزبرقان. فاغتنموا استهانة «أمّ شذرة» أمّ الزبرقان مرّة بالحُطَيْيئة فدعوه إليهم وأكرموه وبالغوا في إكرامه، فمدحهم بالبيت المشهور الذي رفع رؤوسهم به وهو: قوم هم الأنف، والأذنان غيرهم من ذنوبهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنوب؟ وكان من هجوه للزبرقان بهذه المناسبة:

والله ما معشر لاموا امرئاً جنباً في آل لآي بن سحّاسٍ بأكياس
إلى أن يقول:

ملّوا قراه وهزّته كلابهم وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيثها واقعد فيك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يُعدّم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فشكاه الزبرقان إلى عمر، فدعا عمر حسان بن ثابت، فقال: أتراه هجاء؟ قال: نعم،

١ - المصدر، ج ١، ص ٢٧٨.

٢ - وفي رواية: علي بن أبي طالب. تاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٦٨-١٦٩.

وسلح عليه، فسجنه. فكتب إليه من السجن:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة
حمر الحواصل لأماء ولاشجر
فاغفر عليك سلام الله يا عمر
فأخرجه من السجن وهذذه بقطع لسانه وأذنيه، فتوسط له عمرو بن العاص فأطلق
سراحه وأوصاه أن يكف عن الهجو.^١

وبلغ من شغل الحطية بالهجو أنه هجا والديه وهجا نفسه.^٢

وهو من أصحاب المشوبات، ومطلع مشوبته:

نأتك أمانة إلا سؤالا
وأبصرت منها بعين خيالاً

قال ابن الأثير: إنه أسلم في حياة الرسول ﷺ ثم ارتد بعده ثم أسلم، ولم تكن له
صحبة. وإن وفد بني عيسى لما وفدوا على النبي ﷺ كانوا تسعة، وأسماءهم معروفة،
وليس الحطية منهم. وذلك لأن الوفود من القبائل كانوا أعيانها ورؤساءها، والحطية
ما زال مهيناً خسيساً لم يبلغ محله أن يكون مع الوفد.^٣

قال ابن الأثير: هو مخضرم أمرك الجاهلية والإسلام، وكان أسلم في عهد النبي ﷺ
ثم ارتد، ثم أسير وعاد إلى الإسلام.

وعن حماد الراوية: حطية - مصغرة - لقب بذلك لأنه شرط شرطه بين قوم، فقبل له:
ما هذا؟ قال: هي حطاة.^٤ وهي المدفوع من الأست، يقال: حطأ إذا شرط. وحطأ بها: حبق.
وحطأ بسلاحه: رمى بها. قال النيروزآبادي: حطأ: جعس أي تغوط. قال الزبيدي: وبذلك
سمي الحطية.

والحطية: الرجل الدميم القصير. قال النيروزآبادي: وهو لقب جرؤل الشاعر، قال

١ - راجع الإحصاء، ج ١، ص ٤٧٨ - ٤٧٩.

٢ - راجع في ذلك: تاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٦٩ - ١٧٠.

٣ - أسد اللبابة، ج ٢، ص ٣٠. ٤ - الإحصاء، ج ١، ص ٣٨٧.

الجوهري: لدمامته. وقيل: كان يلعب مع الصبيان فسمع منه صوت فضحكوا، فقال: ما لكم إنما كانت حطية، فلزمته نبراً.

١٦ - الخنساء السلميَّة

اسمها تماضر بنت عمرو بن الشريد من سرة سليم (قيس) من أهل نجد. وقد أجمع رواة الشعر على أنه لم تقم امرأة في العرب قبلها ولا بعدها أشعر منها^١ وقد أنشدت شعرها للنابعة في سوق عكاظ فأعجب به وقال لها: لولا أن هذا الأعمى (يعني الأعشى) أنشدني قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم.

وأكثر شعرها في رثاء أخيها صخر، كان قد قتل في وقعة يوم الكلاب كان غزاً بني أسد فطعنه أبو تور الأسدي طعنة مرض منها جُولا ثم مات، وكان حليماً جواداً محبوباً لدى قومه.



ومن شعرها في رثاء أخيها صخر:

أعيني جوداً ولا تجمداً
الأبيكيان لصخر السدي

١ - الخنساء: تأخر الأنف إلى الرأسي وارتفاحه عن الأنفة وليس بطويل ولا مشرف فهو أنخس وهي خنداء. وأصل الخنساء في انضمام وانقر وهي كلها خنساء. وأنف انقر أنخس، لا يكون إلا هكذا قيل: وبه سئيت امرأة خنداء، تشبهاً بانضمام وانقر اتوحش كما جاء في شعر نبيد: تاج انروس، ج ٤، ص ١٤٣.

٢ - ويدل ذلك على ذلك شاهداً قصة نقدها في عكاظ على حسان بن ثابت، حين أنشدتها قوله:

ولنا انجذات انقر يلعن بالتضحى
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقاتلت انجذاء: ضلقت انجذارت وأبرزته في نهاية مواضع، قال: وكيف؟ قالت: قلت «ولنا انجذات» وانجذات مادون انجذرت، فقاتلت انجذاء، وتو قلت «انجذات» فكان أكثر، وقلت «انقر» وانقر انجذات في انجذات وتو قلت «انبيض» فكان أكثر اتساعاً، وقلت «يلعن» واتسع شيء يأتي بعد الشيء، وتو قلت «يشرقن» فكان أكثر، لأن الإشراق أدوم في انجذات، وقلت «بالتضحى» وتو قلت «بالتضحى» فكان أبلغ في التضحى، لأن التضييف بالتثنية أكثر طروقاً، وقلت «سيوفنا» والأسياف دون انجذات، وتو قلت «سيوفنا» كان أكثر، وقلت «يفطرن» فقلت على قلة القتل، وتو قلت «يجرن» فكان أكثر، لانصباب الدم، وقلت «دماً» واندما أكثر من اندم، وفطرت بمن وندت وتم ففطرت بمن وندونا هاشم إعجاز القرآن نوافي، ص ٢١٥.

أَلَا تَبْكِيَانِ الْجَرِيَّ الْجَمِيلَ أَلَا تَبْكِيَانِ الْفَتَى السَّيِّدَا
طَوِيلَ النِّجَادِ عَظِيمَ الرَّمَادِ وَسَادَ عَشِيرَتِهِ أَمْرَدَا
وَمَنْ قَوْلُهَا فِيهِ:

وَأَنْ صَحْرًا لِمَوْلَانَا وَسَيِّدَنَا وَأَنْ صَحْرًا إِذَا نَشْتُوا الْخَارَ
أَسْمٌ أَبْلَجَ يَأْتِمُّ الْهَدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارَ
قَدُمْتَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَفْدِ بَنِي سَلِيمٍ، فَذَكَرُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ
يَسْتَنْشِدُهَا وَيَعْجِبُهُ شَعْرُهَا. فَكَانَتْ تَنْشُدُهُ وَهِيَ ﷺ يَقُولُ: هَيْه يَا خُنَاسُ^١ وَيَوْمِي بِيَدِهِ.

يَقَالُ: إِنَّهَا حَضَرَتْ الْقَادِسِيَّةَ مَعَ أَوْلَادِهَا الْأَرْبَعَةِ، فَجَعَلَتْ تَحَرِّضُهُمْ عَلَى النَّبَاتِ فِي
الْقِتَالِ فَتَقُولُ لَهُمْ: يَا بَنِي إِنْكُمْ أَسْلَمْتُمْ وَهَاجَرْتُمْ مَخْتَارِينَ، وَإِنْكُمْ لِبَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ وَبَنُو
امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، مَا خُنْتُ أَبَاكُمْ وَلَا فَضَحْتُ خَالَكُمْ وَلَا هَجَنْتُ حَسْبَكُمْ وَلَا غَيَّرْتُ نَسَبَكُمْ.
وَقَدْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ فِي حَرْبِ الْكَافِرِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ
الدَّارَ الْبَاقِيَةَ خَيْرٌ مِنَ الدَّارِ الْفَانِيَةِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا
وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^٢ فَإِذَا أَصْبَحْتُمْ عِنْدَ أَنْ شَاءَ اللَّهُ سَالِمِينَ، فَانْغَدُوا إِلَى
قِتَالِ عَدُوِّكُمْ مُسْتَبْصِرِينَ، وَبِاللَّهِ عَلَى أَعْدَائِهِ مُسْتَنْصِرِينَ. وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْحَرْبَ قَدْ شَمَرَتْ
عَنْ سَاقِهَا وَاضْطَرَمَّتْ لُظَى عَلَى سِيَاقِهَا، وَحَلَلَتْ نَارًا عَلَى أَرْوَاقِهَا، فَتَيَمَّمُوا وَطَيَّسُوهَا،
وَجَالِدُوا رَأْسِهَا عِنْدَ احْتِدَامِ خُمَيْسِهَا، تَظْفَرُوا بِالْخُمْ وَالْكَرَامَةِ فِي دَارِ الْخُلْدِ وَالْمَقَامَةِ!
فَخَرَجَ بَنُوهَا، قَابِلِينَ نَصَحَهَا، فَتَقَدَّمُوا وَقَاتَلُوا وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ، وَأَبْلَوْا بِبَلَاءٍ حَسَنًا
وَاسْتَشْهَدُوا الْحَيَّةَ، فَلَمَّا بَلَغَهَا الْخَبَرَ قَالَتْ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَّفَنِي بِقَتْلِهِمْ وَأَرْجُوا مِنْ رَبِّي أَنْ
يَجْمَعَنِي بِهِمْ فِي مَسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ».

١ - خُنَاسُ كُفْرَابِ اسْمُ خُدَّامِ مُحَمَّدٍ. قَاتَلَ الْقَبِيْرُوزَ أَبَا دِيٍّ. وَيَقَالُ نَهَا خُنَاسُ. كَمَا وَرَدَ فِي شَعْرِ دُرَيْدِ بْنِ الْقَسَمَةِ:

أَخْنَسَ قَدْ هَامَ اتَّقُوَادُ بِكُمْ وَأَمْسَابِهِ تَهْبِلُ مِنَ اتَّحَدِ،

٢ - آلِ عِمْرَانَ ٣: ٢٠٠.

وكان عمر بن الخطاب يعطي الخنساء أوزاق أولادها الأربعة المقتولين.^١

١٧ - مالك بن عوف

كان رئيس المشركين يوم حنين، وهو الذي جمع الجموع، وانتفض على رسول الله ﷺ وأصحابه، فكانت الهزيمة أولاً لجيوش المسلمين ثم عادت على المشركين، فلحق مالك بالطائف فقال رسول الله ﷺ: لو أتاني لرددت عليه أهله وماله. فبلغ ذلك مالكا فلحق به وأسلم فأعطاه النبي ﷺ كما أعطى المؤلفة قلوبهم. فأنشد مالك يخاطب رسول الله ﷺ:

ما أن رأيت ولا سمعت بواحد في الناس كلهم كمثل محمد
أوفى فأعطى للمجزيل إذا أجتدي^٢ ومتى تشاء يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عرّدت أسيابها بالسهمري وضرب كل مهتد^٣
فكأنه ليت على أسبلة وسط الهبالة خادر في مرصد^٤
وكان قبل إسلامه وتأليفه عليه عليه السلام على المسلمين يحرض الحرب عليهم، وهو الشاعر المفضل.

من ذلك قوله يوم حنين ير تجز بفرسه:

أقدم محاج إنّه يوم نُكر متلي على متلك يحمي ويكر
في أكثر من ثمانية أبيات، ومحاج اسم فرسه.^٥
وقال عند منهزمة الناس من الهوازن وغيرهم:

١ - أسد الأديبة، ج ٥، ص ٤٤٢، والإمامية، ج ٤، ص ٢٨٨، وتاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٦٦.

٢ - الأجنده - باتدال الصهبة - سوان الحجابة، وطلب التجذوي أبي الكفاية والتمني.

٣ - عرّدت أسيابها: قويت واشتدت. والسهمري: ارمح. والمهتد: المتيف.

٤ - الهبالة: شباريقور عند اشتراك الحرب. والخابر: الأسد في عرينه. والمرصد: المكان.

٥ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٨٩.

ولولا كسرتان على محاج
لضاق على العضاريط الطريق
إلى آخر الأبيات.^١
وقال - معذراً فراره يومئذ -
منع الرقاد فما أغمض ساعة
نعم بأجراع الطريق مخضرم^٢
في قصيدة طويلة.^٣
الأمر الذي يدلنا على طول باعه في الشعر وإنشاد القريض لولا أن أفحمته روعة
القرآن!

١٨ - مالك بن نمط ذو المشعار

قال ابن هشام: قدم وفد همدان على رسول الله ﷺ منهم مالك بن نمط أبو تور، وهو
ذو المشعار وكان شاعراً مجيداً^٤ - ومعه أشرف قومته - قال الحسن بن يعقوب الهمداني في
كتاب «نسب همدان»: إنهم كانوا مائة وعشرين نفساً^٥ قال ابن هشام فلقوا رسول الله ﷺ
مرجعه من تبوك، قال: وعليهم مقطعات الجبرات،^٦ والعمائم المدنية برحال الميس^٧ على
المهريّة^٨ والأرجحية^٩ وكان مالك بن نمط ورجل آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

همدان خير سوقة وأقيال
ليس لها في العالمين أمثال^{١٠}
محلها الهضب ومنها الأبطال
لها إطابات بها وآكال^{١١}

١ - انمصدر، ص ٩٨.

٢ - انعم: الإبل. وأجراع الطريق: معطاته. ومخضرم: مقطوع الأذن علامة.

٣ - انمصدر، ص ١١٧. ٤ - اميرة التحنية، ج ٣، ص ٢٣٠.

٥ - الإحصائية، ج ٣، ص ٣٥٧. ٦ - انمقطعات: ثياب مخيطة، وانجبرات، برود يمنية.

٧ - الميس - بفتح الميم - خشب تصنع منه الرمان التي تكون على ظهر الإبل.

٨ - المنهية: الإبل النجبية، تنسب إلى مهرة قبيلة باليمن. ٩ - الأرجحية: إبل تنسب إلى أرجح، قبيلة من همدان أو فحل.

١٠ - السوق: من دون الصوك والروسام. والأقيال: الصوك دون الصلح الأكبر، واحد قيل.

١١ - الهضب: ما ارتفع من الأرض ترقوي من الأمطار أكثر، واتواحدة هضبة. والإطابات: الأموال الطيبة. والآكال: ما يأخذه
الصلك من رعيته وطيقة ته عليهم.

ويقول الآخر - قال ابن الأثير: هو ابن نمط -^١

إليك جاورن سواد الريف في هبوات العيف والخريف^٢

مخطمات بحبال الليف^٣

فقام مالك بن نمط بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ نصية^٤ من همدان، من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج،^٥ متصلة بحبال الإسلام، لاتأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف^٦ خارف، ويام وشاكر^٧ أهل السود والقود،^٨ أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا آلهات الأنصاب،^٩ عهدهم لا ينقض ما أقامت لعل، وما جرى اليعفور بصلع.^{١٠} فأكرمهم رسول الله ﷺ وكتب لهم كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه وأمر عليهم مالكاً في من أسلم من قومه. وهذا نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من رسول الله محمد ﷺ لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحفاف الرمل^{١١} مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاظها^{١٢} ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علفها ويرعون عافيتها^{١٣} لهم بذلك عهد الله ودمام رسوله، وشاهدتهم المهاجرون والأنصار...»

١ - أسد القابلة، ج ٤، ص ٢٩٤.

٢ - السواد هنا: القرى الكثيرة الشجر والنفخ. والريف: الأرض التي تقرب من الأنهار والنباه الغزيرة. والهبوات: جمع هبوة وهي الغيرة.

٣ - مخطمات: الإبل تجعل لها خطم، وهي الحبال التي تشد على آناف الإبل.

٤ - النصية: خيار تقوم.

٥ - القلص: ككتب: الإبل القليلة، الواحد: قلوص كرسول، ونواج: ممرعة.

٦ - المخلاف: بمعنى المدينة، بفتح اليم، ٧ - خارف، ويام، وشاكر: قبائل يمنية.

٨ - السود: الإبل السوداء نبات الأرض، والقود: الخيل التي تقاد من غير ركوب.

٩ - آلهات: جمع آهة، والأنصاب: حجارة تذبح عليها القرابين.

١٠ - تلح: جبل، واليعفور: ولد القليلة، وصلع: اسم موضع، ١١ - الحفاف: جمع حقف وهو مستدير الرمل.

١٢ - فراع: أعاني الأرض، ووهاظ: المنخفض المتضمن من الأرض.

١٣ - عافيتها: نصر قطع، وأعاني: كثير الثبات.

فقال في ذلك مالك بن نمط:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى	ونحن بأعلا رحرحان وصلد ^١
وهن بنا خوص طلائع تغتلي	بركبانها في لاحب متمد ^٢
على كل فتلاء الذراعين جسة	تمر بنا مر الهجف الخفد ^٣
حلفت برّب الرقصات إلى منى	صوادر بالركبان من هضب قرود ^٤
بأن رسول الله فينا مصدق	رسول أتى من عند ذي العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها	أشد على أعدائه من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه	وأضى بجد المشرفي المهتد ^٥

١٩ - فروة بن عامر الجذامي

كان عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان (قرب عمان عاصمة الأردن) وما حولها من أرض الشام. وكان شاعراً مجيداً عارفاً بفنون الكلام. ولما بلغه خبر النبي ﷺ وخصومه العرب له، بحث إليه ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء.

ولما سمعت الروم بإسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم. فكان ممّا قال في حبسه ذلك:

طرقت سليمي مؤهناً أصحابي والروم بين الباب والقروان^٦

١ - الفحمة: السمود، والدجى: القلعة جمع دجية، ورحرحان: وصادد: موضعان.

٢ - الخوص: الغائرة التيون، جمع خوصاء، وطلايع: مبيحة، وتغتل: تمتد في سيرها، والاحب: الطريق البين.

٣ - الجسة: الباقة القوية على السير، والهجف: الذكر الضخم من النعام، والخفد: بمعنى الهجف.

٤ - الرقصات: الإبل، والرقص: قرب من سيرها فيه حركة، وصوادر: رواجع، والقرود: ما ارتفع من الأرض، بمعنى الهضاب.

٥ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٤٤، ٢٤٦.

٦ - الصوم: بعد ساعة من الليل، والقروان: جمع قرو بالكسر - حوض من خشب تملي فيه الدواب.

إلى آخر أبياته التي نقلها ابن هشام.^١
 وأجمعت الروم على قتله، فغسلوه على ماء لهم يقال لها عثري بفلسطين، قال:
 ألاهل أتى سلمى بأن حليلها على ماء عثري فوق إحدى الرواحل
 على ناقة لم يضرب الفحل أمها مشدبة أطرافها بالمناجل^٢
 وقال - أيضاً - خطاباً إلى المسلمين:
 بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي

٢٠ - كعب بن زهير المزني

كان كعب من أهل بيت الشعر في الجاهلية والإسلام. قال ابن حجر: وكان زهير وولداه: بجير وكعب، وولدا كعب: عقبة والعوام، شعراء. قال الحطيم لكعب: أنتم أهل بيت ينظر إليكم في الشعر، فاذكرني في شعرك، ففعل.
 وروي عن الشعبي قال: أنشد النابغة الذبياني النعمان بن المنذر:
 تراك الأرض إكاً مت حقيقاً وتجي ما حييت بها ثقيلاً
 فقال له النعمان: هذا البيت إن لم تأت بعده بيت يوضح معناه، وإلا كان إلى الهجاء أقرب. فتعسر على النابغة النظم. فقال له النعمان: قد أجلتك ثلاثاً، فإن قلت ذلك كذا من الإبل العصافير^٣ وإلا فضربة بالسيف بالغة ما بلغت!

فخرج النابغة وهو وجل وأتى زهير بن أبي سلمى والد كعب، وكان زميله في الشعر والقريض فحمر له وأكرمه وقص عليه الخبر، فجلسا يفكران لا يصفران شيئاً، وكان كعب حينذاك صبيّاً يلعب بالتراب مع الصبيان. فأقبل فرأى كلا منهما واضعاً ذقنه على صدره

١ - المصدر، ص ٥٣٨؛ وأسد الغابة، ج ٤، ص ١٧٨.

٢ - شدب الشجر: قشر لحاء. والمناجل: آلة حديدية يقطع بها الترع ونحوه.

٣ - العصافير: التميد والمقصود هنا: الذباب.

يفكر! فقال: يا أبت مالي أراك قد اغتممت؟ فقال: تنح! فدعاه النابغة ووضعها على فخذه، وأنشده البيت.

فقال كعب للنابغة: يا عم ما يمنعك أن تقول:

وذلك إن فللت الغي عنها
فستمع جانبيها أن تميلاً
فضمّه أبوه إليه وقال: ابني ورب الكعبة. وأعجب النابغة، فدعا على النعمان وأنشده، وساق الإبل إلى كعب فأبى أن يقبلها منه.

مات أبوه زهير كافراً قبل المبعث، وبقي كعب وأخوه بجير كافرين، حتى فتح الله مكة على يد رسول الله ﷺ فاتفق أن كعباً وبجير خرجا في غنم لهما حتى أتيا أبرق وذلك عند منصرف رسول الله ﷺ عن الطائف سنة تسع من الهجرة، فقال بجير لكعب: اثبت في غنمنا حتى آتي هذا الرجل فأسمع ما يقول. فجاء بجير رسول الله ﷺ فأسلم، فبلغ ذلك كعباً، فقال:

ألا بلغا عني بجيراً رسالة
على أي شيء ويب غيرك ذلكا؟

في أبيات.. يهجو بها رسول الله ﷺ

فبلغت أبيات رسول الله ﷺ فأهدر دمه، وقال: من لقي كعباً فليقتله. فكتب بجير إليه يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، وإن بقي من شعراء قريش كاهن الزمري وهبيرة بن أبي وهب، قد هربوا في كل وجه. فإن كانت لك في نفسك حاجة، فطير إلى رسول الله ﷺ لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تنعل فانج إلى نجائك من الأرض.^١

ويقال: إن بجير أجابه في أبيات شعر أيضاً، منها:

١ - اختلف نقل الأبيات، كذا نقلها ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٥.

قوله: «ويب، غيرك»، ويب، بالتواو: كلمة مثل مثل نطقاً ومعناً، منصوب على إسماعيل فعل، وهو دعاء بالهلاك أي تيهنك غيرك، مقصوداً به التوبيخ ﷺ وقيل: «وخالفت أسباب انهدى وأثبتته» فيما سجله ابن هشام، فراجع.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٤.

مَنْ مُبْلَغُ كَعْبٍ؛ فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي

تَلُمُ عَلَيْهِا بِاطْلًا وَهِيَ أَحْزَمُ

إِلَى اللَّهِ - لَا الْعَرَى وَلَا اللَّات - وَحْدَهُ

فَتَنْجُوا إِذَا كَانَ النِّجَاءُ وَتَسْلَمُ - الْخ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:

فَلَمَّا بَلَغَ كَعْبٌ الْكِتَابَ ضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ، وَاشْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَرْجَفَ بِهِ مَنْ كَانَ فِي حَاضِرِهِ مِنْ عَدُوِّهِ، فَقَالُوا: هُوَ مَقْتُولٌ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ بَدْءًا قَالَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَمْدَحُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ، فَنَزَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ جَهِينَةَ كَانَتْ بَيْنَهُمَا مَعْرِفَةٌ، فَعَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَشَارَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ فَقَمِ إِلَيْهِ فَاسْتَأْمَنَهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ حَتَّى جَلَسَ عِنْدَهُ مَتَنَكِّرًا وَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا يَعْرِفُهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ قَدْ جَاءَ لِيَسْتَأْمِنَ مِنْكَ تَائِبًا مُسْلِمًا، فَهَلْ تَنْتَقِلُ قَابِلٌ مِنْهُ إِنْ أَنَا جِئْتُكَ بِهِ؟ قَالَ ﷺ: هُوَ آمِنٌ، فَحَسَرَ كَعْبٌ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: بَرِّئْتُ وَأَمْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَذَا مَكَانُ الْعَائِذِ بِكَ، أَنَا كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ، فَأَمَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَأَنشَدَ كَعْبُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي كَانَ أَعَدَّهَا قَرِيضًا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَطْلَعَهَا:

بَانَتْ سَعَادُ فَتَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولٌ	مَتَيْتُمْ إِثْرَهَا لَمْ يُقَدْ مَكْبُولٌ ^١
وَمَا سَعَادُ غَدَاةُ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا	إِلَّا أَغْنَى غَضِيضُ الطَّرَفِ مَكْحُولٌ ^٢
هَيْفَاءُ مَقْبَلَةٌ عَجَزَاءُ مَدْبَرَةٌ	لَا يُسْتَكِي قَصْرُ مِنْهَا وَلَا طَوْلٌ ^٣

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

١ - بَانَتْ بِمَعْنَى ذَارَقَتْ. الْمَتَبُولُ: الَّذِي أَسْفَمَهُ الْحُبُّ، وَالْغَدَاةُ: الْغَدَاةُ مِنَ شِدَّةِ الْحُبِّ. تَمَّ يَفْدُ: أَي تَمَّ يَفْدُ مِنْ الْأَسْرِ، وَالْغَدَاةُ: أَسْرُ الْحُبِّ، وَالْمَكْبُولُ: الْمُتَعَبَّدُ.

٢ - الْأَغْنَى: التَّطْبِيءُ الَّذِي فِي صَوْتِهِ ثَلَاثَةُ غَضِيضِ اطَّرَفِ: فَاتَرِدُ. الْمَكْحُولُ: الْمَكْتَحِلُ.

٣ - هَيْفَاءُ: مِنَ الْهَيْفِ بِمَعْنَى ضَمُورِ الْبَصَرِ وَدَقَّةُ الْتَحَاصُّرَةِ. عَجَزَاءُ: كَبِيرَةُ الْعُجُزِ وَهِيَ التَّرْدَفُ.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
نبيئت أن رسول الله أوعدني
مهلاً همدان الذي أعطاك
لأن أخذني بأقوال الوشاة ولم
لقد أقوم مقاماً لو يقوم به
ظلل يرعد إلا أن يكون له
حتى وضعت يميني ما أثارعه
فلهو أخوف عندي إذ أكلمه
من ضيغم بضراء الأرض مخدرة
فجعل ينشدها حتى بلغ قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به
في فتية من قريش قال قائلهم
زالوا فما زال نكاس ولا كشف
مهند من سيوف الله مسلول^{١٠}
بطن مكة لما أسلموا زولوا^{١١}
عند اللقاء ولا ميل معازيل^{١٢}

- ١ - الآلة الحديدية: النحاس الذي يحمل عليه الصيوت.
- ٢ - نبيئت: أنجبرت. أوعدني: تهددني بالقتل.
- ٣ - الهذلة: النطاء الممنوحة فوق التوقع والانتظار.
- ٤ - الوشاة: النمام.
- ٥ - يريد حضور النبي ﷺ وفي ظل غدايته انهابة.
- ٦ - يرعد: تأخذ الرعدة وترجفة. والتنويل: التأمين.
- ٧ - ما أثارعه: أي أطاوعه. ذونقمات: أي دوسطوة ونقطة على أعدائه. وقيله: قوته.
- ٨ - أخوف: أي أرهبه عن لقائه.
- ٩ - التضميم: الأسد، وضراء الأرض: شجرتها، وبخدر الأسد: مخبؤه، وعثر: مكان مشهور بكثرة التبعاع، والتغيل: التبعاع.
- ١٠ - المهند: السيف المطبوع في الهند، ويقال: السيف الهندية، والمسلول: المتخرج من غمد.
- ١١ - التصبية: التجماعة، وزولوا: أي تحوّلوا وانتقلوا.
- ١٢ - الإنكاس: جمع نكس - بالكسر - وهو الرجل الضعيف، والتكشيف: جمع كشف وهو الذي لا ترمى له، كناية عن الرجل المتشجاع، والتغيل: جمع أميل وهو الذي لا سيف معه ولا يحمي الركوب فيميل عن القرس، والمعازيل: الذين لا سلاح لهم، واحده المعزال بكسر الميم.

فأشار رسول الله ﷺ إلى الناس، أن استمعوا إلى ما يقول...

ولما فرغ من إنشاده، حباه رسول الله ﷺ وأكرمه، وخلع عليه بردته المعروفة، التي كان الخلفاء الأمويون والعباسيون يتداولون لبسها في الأعياد تشریفاً بانتسابها إلى رسول الله ﷺ فكانت من شعارات الخلافة. يقال: إن معاوية اشتراها من ولد كعب بأربعين ألف درهم. وذكر أبو الفداء: أنها انتقلت من العباسيين إلى النتر. قال جرجي زيدان: لكنها الآن في جملة المخطّفات النبوية في السراي القديمة في الأستانة^١ أما القصيدة فطُبعت مرّات وشرحها الكثيرون.

ولكعب مدائح أخر بشأنه ﷺ قال ابن رشيق: أجمع الناس على تقديم قول كعب بن زهير حين يمدح رسول الله ﷺ منها قوله:

تحمّله الناقة الأدماء محتجراً^٢ بالبرد كالبرد جلّ ليّلة الظلم^٣
وفي عناقيه أو أثناء ريحته^٤ ما يعلم الله من دين ومن كرم^٥



٢١- حسان بن ثابت الخزرجي / تحقيق: كميّة علوم إسلامي

كان من الشعراء الهجائيين، عاصر الجاهلية والإسلام، واشتهر في الجاهلية بمدح ملوك غسان وملوك الحيرة، وله مع النابغة الذبياني أحاديث. وكان شديد الهجاء حتى قيل: لو مزج البحر شعره لمزجه. ومن شعره في الجاهلية قوله يمدح جبلة بن الأيهم الغساني:

أولاد جفنة عند قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

١ - قال الدكتور حميد مؤنس - بهامش تاريخ النسخ الإسلامي، ج ١، ص ١٣٦ - من المشكوك فيه أن تكون البردة التي كان سلاطين آل عثمان يحتفظون بها هي بردة الرسول ﷺ.

٢ - الأدماء: السمراء المحتجرة: من لبس المحتجر وهو نوب قلعه امرأة علي رأسها.

٣ - انعطافان: انزدام والازار. والريحه: بالفتح: الصلاة تشبه الصلاة.

٤ - الإصابتة: ج ٣، ص ٢٩٥؛ وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٤٤؛ والعمدة، ج ١، ص ٢٣؛ ج ٢، ص ١٣٦.

يستون من ورد البريص عليهم
يُنشون حتى مائه كلابهم
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
واختص بعد الإسلام بمدح النبي ﷺ حتى قيل: إنه شاعر رسول الله ﷺ ومن مدحه
له قوله:

متى يد في الداجي البهيم جبينه
يلع مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد؟
نظام لحق أو نكال ملحد
وكان الذين يهجون رسول الله ﷺ من مشركي قريش، أسفيان وابن الزبعرى
وعمر بن العاص وضرار بن الخطاب. فقال قائل لعلي بن أبي طالب: لو تهج القوم الذين
يهجوننا؟ فقال: إن أذن رسول الله ﷺ، فليل لرسول الله ﷺ فقال: ليس من عنده يراد ذلك.
ثم قال: ما يمنع الذين نصرُوا رسول الله ﷺ أن ينصروه بالسنتهم؟ فقال حسان: أنا
لها، يا رسول الله ﷺ فجاء حسان إلى أبي بكر وهو يعرف أنساب قريش ومساوي
أمتهم - فتعرف منه ما هداه إلى هجوهم بما أعجزهم وأداع قريشاً، فعرفوا أن ذلك من
دلالة ابن أبي قحافة. فمن ذلك قوله في أبي سفيان:

وأن سنام المجد من آل هاشم
ومن ولدت أبناء زهرة منهم
ولست كعباس ولا كإبن أمه
وأن امرئاً كانت سمية أمه
بنو بنت مخزوم ووالدك العبد
كرام ولم يقرب عجائزك المجد
ولكن لئيم لا تقام له زند
وسمراء مغمور إذا بلغ الجهد

فلما بلغ ذلك أبا سفيان قال: هذا شعر لم يغيب عن ابن أبي قحافة.

قال ابن سيرين: انتدب لهجو رسول الله ﷺ أربعة (ذكرناهم) وانتدب لهجو المشركين
ثلاثة: حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم مثل
قولهم في الوقائع والأيام والحوادث ويذكرون مثالبهم. أما ابن رواحة فكان يعيرهم بكفرهم

وعبادة ما لا يسمع ولا ينفع، فكان قوله أهون عليهم.

قال الأصمعي: الشعر نكد، يتقوى في الشرّ ويسهل، فإذا دخل في الخير يَضَعُفُ فقد كان حسان من فحول شعراء الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره.

وقيل لحسان: لأن شعرك وهرم يا أبا حسان (لأن حسانا دخل الإسلام وقد تجاوز عمره الستين) فقال: يا ابن أخي إن الإسلام يحجز عن الكذب، وذلك لأن الإجابة في الشعر إنما هي في الإفراط، وهو كذب يمنع الإسلام.

وكان حسان من أجبن الناس، حتى أن النبي ﷺ جعله مع النساء في الأظام^١ يوم الخندق وكانت صفية عمة النبي ﷺ بنت عبدالمطلب في فارع^٢ حصن حسان بن ثابت. قالت: وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا يهودي فجعل يطوف بالحصن حيث خندق النبي ﷺ فقلت لحسان: هذا اليهودي يطيف بالحصن كما ترى ولا آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله! قال: يغفر الله لك يا بنت عبدالمطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا! قالت صفية: فلما قال ذلك، أخذت عموداً فنزلت من الحصن إليه فضربت بالعمود حتى قتلتها ثم رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان، انزل فاسلبه، فقال: مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبدالمطلب.

قال ابن الأثير: ولم يشهد مع النبي ﷺ شيئاً من مشاهدته لجبنه.

عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام وكذلك عاش أبوه ثابت وجدّه المنذر وأبوجده حرام. ولا يعرف في الحرب أربعة تناسلوا في مثل هذا العمر غيرهم.^٣

آل عبدالمطلب كلهم شعراء

١ - جمع الأظام - بضمةين - بمعنى الحصن.

٢ - اقارع: اتصكان التمر تفع.

٣ - أسدنافة، ج ٢، ص ٤-٧، وتاريخ آداب اللغة العربية، ج ١، ص ١٧٦.

ولو قلنا: إن العرب كلهم شعراء في ذلك العهد لما بالغنا، ولأسيما قريشاً كانوا أفذاذ العرب وخالصتها، وخصوصاً بني عبدالمطلب، إذ ليس منهم رجالاً ونساءً من لم يقل شعراً، حاشا النبي ﷺ فما كان ينبغي له الشعر... قاله ابن رشيق.^١

فمن شعر حمزة بن عبدالمطلب يذكر لقائه أبا جهل وأصحابه في قصيدة منها:

عشيّة صاروا حاشدين وكلنا مراجله من غيظ أصحابه تغلي
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا مضايًا وعقلنا مدى غرض النبل
وقلنا لهم: حبل الإله نصيرنا ومالككم إلا الضلالة من حبل
فتار أبوجهل هناك باغياً فخاب ورد الله كيد أبي جهل
وما نحن إلا في ثلاثين راكباً وهم مائتان بعد واحدة فضل

وأما العباس فكان شاعراً مثلاً حسن المهدّي، من ذلك قوله يوم حنين يشتخر بنبوته مع رسول الله ﷺ:

ألا هل أتى عرسي مكزّي وموقفي بولوي حنين والأسنة تشرع
وقولي إذا ما النفس جاشت لها قدي وهام تدهدي والسواعد تقطع
وكيف رددت الخيل وهي مغيرة بزوراء تعطى باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا

ومن شعر الزبير بن عبدالمطلب بعد رفع ببيان الكعبة:

أعزّ به المليك بني مؤي فليس لأصله منهم ذهاب
وقد حشدت هناك بنو عدي ومرة قد تقدّمها كلاب
فبؤأنا المليك بذاك عزّاً وعند الله يلتمس الثواب^٢

١ - النعمدة، ج ١، ص ٣٦.

٢ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢١١.

وأما أبو طالب - واسمه عبد مناف عند المشهور وقيل عمران - فحدث عن غزارة شعره ولا حرج. كان شاعراً مجيداً، له في مديح الرسول ﷺ قصائد وروائع، منها: قصيدته العصماء تبلغ المائة بيت، قالها عندما خشي دهماء العرب وتآلبهم عليه في حمايته لرسول الله، متعوذاً بحرم مكة وبمكانته منها، مهدداً أنه لا يسلم رسول الله ولا تاركه شيء أبداً. وفيها إلماع بتصديقه للدعوة وإيمانه بصدق رسالة ابن أخيه، قال فيها:

أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعية ومن ملحق في الدين مالم نحاول
إلى أن يقول:

كذبتهم وبيت الله نترك مكة ونظعن إلا أمركم في بلابل
كذبتهم وبيت الله نبري محمداً ولما نطاعن دونه ونناضل^١
إلى قوله في وصف الرسول ﷺ:

وما ترك قوم - لا أباً لك - سيلاً يحوط الذمار غير ذرب مواكل^٢
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه مبيناً ثمالي اليتامى عصمة للأرامل^٣
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل^٤
إلى قوله - متنبهاً بظهور الإسلام وغلبته -:

فابلق قصيماً أن سيئس أمرنا وبشر قصيماً بعدنا بالتخاذل
إلى أن يقول:

لعمري لقد كُذِّت وجداً بأحمد وإخوته دأب المحب المواصل^٥

١ - التبادل: تشويش التخاذل، نبري محمداً أي نملكه ونملك، عليه، والمنافعة: مراعاة المصالح.

٢ - الذمار: التحمية والندم. والذرب: التفاحش التسمان. والمواكل: الذي يكل أموره إلى غيره إذ ليس له جذ في الأمور.

٣ - الثمان: المتجاً والمتأوى ومن يقوم بأمر غيره.

٤ - أراد بالهلكة التخلل. وهو من تصيف التعريض بأوثق الذين تم عهدوا بهديه الترشيد.

٥ - التمراد بالإنخوة هنا ذو قرابته الأحداث ممن آمنوا به وصادقوه.

فلازل في الدنيا جمالا لأهلها
فمن مثله في الناس أي مؤمل
حليم رشيد عادل غير طائش
لقد علموا أن ابننا لا مكذب
فأصبح فينا أحمد في أرومة
حدثت بنفسه دونه وحميته
فأيده رب العباد بنصره
وزينا لمن والاه رب المشاكل
إذا قاسه الحكماء عند التفاضل
يوالي إله ليس عنه بغافل
لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل^١
تقصر عنه سورة المتطاول
ودفعت عنه بالذرا والمكلاكل^٢
وأظهر ديننا حقه غير باطل

قال ابن هشام بعد ذكر القصيدة بتمامها: هذا ما صح لي من هذه القصيدة...^٣

قال السهيلي: فإن قيل: كيف قال أبو طالب: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه... الخ، ولم يره قط استسقى، وإنما كانت استسقاء الله ﷻ في أسفاره وحضره بعد الهجرة...؟
فالجواب: أن أبا طالب قد شاهد من ذلك أيضا في حياة عبدالمطلب ما دلّه على ما قال.
روى أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي النيسابوري^٤ أن رقيقة بنت أبي حنيفة بن هاشم قالت: كنت على قريش سنو جدي قد أقحلت الظلف^٥ وأرقت العظم، فبينما أنا راقدة للههم أو مهدمة ومعني صنوي،^٦ إذا أنا بهاتف صييت يصرخ بصوت صحل^٧ يقول يا معشر قريش، إن هذا النبي المبعوث منكم، هذا إيان نجومه، فحيتهلا بالحياء والخصب،^٨ ألا فانظروا منكم رجلا طوالا عظاما أبيض أشم العرين له فخر يكظم عليه...^٩

١ - لا مكذب: هو المتصدق في قومه وعشيرته الأقربين. وإذا كانت عقيدة أبي طالب فيه ذلك، فهو مضافا يدن صريحا على تصديقه إياه، وإيمانه برسائعه.

٢ - المتطاول: المتدلى، والبعطش: والتدب: التحنن والتعطف. والذرا: جمع ذروة، هي أعلى ظهر التعبير، والتكلاكل: جمع كانكل، عظم الصدر.

٣ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٩٩.

٤ - صاحب الرسالة الأولى في الإعجاز التنويزي سنة ١٣٨٨ تقدم الكلام عنه.

٥ - أقحلت الشبي: أبيضه. الظلف: التعبير بصيغة التحاقر تكسر.

٦ - الصنوي: الأصم المتفريق.

٧ - صحل: صوت: يح وخس.

٨ - الخصب: المتطير. الخصب: الثبات.

قالت: فأصبحت مدعورة... فافتصت رؤياي. فوالحرمة والحرم، إن بقي أبطحي إلا قال: هذا شبيه الحمد (يريدون عبد المطلب شيخ الأباطح) وتناثت^{١١} عنده قريش وانقض إلى الناس من كل بطن فشئوا ومسوا واستلموا وطوفوا ثم ارتقوا أباقيس، وطفق الناس يدقون حوله ما أن يدرك سعيهم مهلة حتى قرّوا بذروة الجبل واستكنوا جنابيه^{١٢}.
فقام عبد المطلب فاعتضد ابن ابنه محمد ﷺ فرفعه على عاتقه وهو يومئذ غلام قد أئنع أو قد كرب^{١٣}. ثم قال:

«اللهم سادّ الخلة، وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلّم، ومسؤول غير مبخل، وهذه عبدؤك وإماؤك بعذرات حرمك،^{١٤} يشكون إليك سنتهم، فاسمع اللهم وأمطر علينا غيثاً مريعاً مغدقاً» فماراموا - والبيت - حتى انفجرت السماء بمائها وكظّ الوادي بتجيجهم^{١٥}.

قال ابن هشام: وحدثني من أثنى به، قال: أقحط أهل المدينة فأتوا رسول الله ﷺ فشكوا ذلك إليه. فصعد رسول الله المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما أقاء أهل الضواحي^{١٦} يشكون منه الغرق. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حوالينا ولا علينا»،^{١٧} فأنجاب السحاب عن المدينة، فصار حوالها كالإكليل. فقال رسول الله ﷺ: لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره. فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
تمال اليتامى عصمة للأرامل

٩ - التعرّين: التبيد التشريف، وهو اسم لما صلب من الأنثى، وأشمّ التعرّين: الزرع رأسه عند التمشي.

١٠ - تناثرتقوم: اجتمعوا كأنهم.

١١ - استكنوا جنابيه: أي ملأوا حطفيه.

١٢ - أئنع انقلام: ترعرع وناهر البلوغ.

١٣ - كرب: ج ٥، ص ٢٩؛ وهامش سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٠٠. والتجيج: التميل الغزير.

١٤ - الضواحي: جمع ضاحية هي الأرض التي تبرز ليس فيها ما يكن من المطر. وضاحية كل بلد: خارجه ونواحيه.

١٥ - هو من حمدن الأدب في الاندفاع، لأنّ انطر رحمة ونعمة، فكيف يطالب برفع نعمته وكشف رحمته.

قال ﷺ: أجل^١.

ومما يستدل على إسلامه وقبوله للدعوة قوله - مخاطباً لرسول الله ﷺ -:

ودعوتني وعلمت أنك صادق
ولقد علمت بأن دين محمد
من خير أديان البرية دينا
ذكرهما ابن حجر في الإصابة^٢
وذكر أيضاً قوله من قصيدة:

وشق له من اسمه ليحمله
فدوالعش محمود وهذا محمد

وذكر ابن هشام - في السيرة - أبياتا وقصائد كثيرة قالها أبو طالب في مدح رسول الله ﷺ والإشادة بموضعه الكريم، منها قوله عند ما رأى من قومه ما سره جهدهم معه وحديثهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم وليحدثوا على أمره أكثر، قال فيها:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمنخر
ففيها أشرف عبد من قريش
وإن حصلت أشرف عبد من قريش
ففيها أشرف عبد من قريش
وإن فخرت يوماً فإن محمداً
هو المصطفى من سرها وكريمها
... إلى آخر ما يقول...^٣

ومن شعر جعثر بن أبي طالب ذي الجناحين قوله يوم مؤتة - وفيه قتل (رحمة الله عليه):

يا حبذا الجنة واقتربها
طيبة وبارد شرابها
والرؤم روم قد دنا عذابها
علي إذ لاقيتها ضرابها

٢ - الإصابة، ج ٥، ص ١١٥ - ١١٦.

١ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٠٠.

٣ - المصدر، ج ١، ص ٢٨٨.

ومن شعر عبدالله بن عباس:

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرني في حاجة لم يجد بها سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بمالي همّ من مقامه وزايله همّ طروق مسامر
وكان له فضل عليّ بظنه بي الخير أني للذي ظنّ شاكر

ومن شعر مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه صلوات المصلين) وكان
مجوّداً ما قاله يوم صفين يذكر همدان ونصرهم إياه:

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نفع في السماء كأنه عجاّبة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحمره وكندة في لحم وحيّ جذام
تيمّمت همدان الذين هم هم إذ ناب دهر - جنّتي وسهامي
فجاؤني من خيل همدان عجمهم فلو لمس من همدان غير لثام
فخاضوا لظاهها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشر بمدام
فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
ومن شعره عليه السلام أيضاً يوم صفين:

لمن راية حمراء يخفق ظلّها إذا قلت قدّمها حضيض تقدّما
فيوردها في الصّف حتّى يرد بها حياض المنايا تنظر الموت والدماء

ومن شعر الحسن بن عليّ عليه السلام وقد خرج على أصحابه مختضباً:

نسودّ أعلاها وتأبى أصولها فليت الذي يسودّ منها هو الأصل

ومن شعر الحسين بن عليّ عليه السلام وقد عوتب في امرأته:

لعمرك إني لأحبّ داراً تحلّ بها سكينه والرباب
أحبّهما وأبذلّ جليّ مالي وليس للآثمي عندي عتاب^١

وبنات عبد المطلب كلّهن شاعرات:

فمن شعر صفية في قصيدة ترمي بها أباها عبد المطلب:

أرقت لصوت نائحة ليل على رجل بتارعة الصعيد
فناضت عند ذلكم دموعي على خدي كمنحدر الفريد^٢
إلى أن تقول:

فلو خلد امرؤ لقدم مجدٍ ولكن لاسبيل إلى الخلود



وقالت برة بنت عبد المطلب تبكي أباها:

أعينيّ جوداً بدمع دور على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجدّ وار الزناد جميل المحيّي عظيم الخُصر
إلى أن تقول:

أتته المنايا فلم تشوه بصرف الليالي وريب القدر^٣

وقالت عاتكة تبكي أباها عبد المطلب:

أعينيّ جوداً ولا تبخلاً بدمعكما بعد نوم النيام
أعينيّ واسحنفرا واسكبا وشوباً بكاء كما بالتّدام^٤

١ - النعمان، ج ١، ص ٣٤ - ٣٧.

٢ - القرين: أنشأ.

٣ - أنشوى: الأطراف. وتم تشوه أي تم تصب، أنشوى بل أصابت القفل.

٤ - اسحنفرا انمطر ونحوه: شرز وكثر صبه. والاتدام: ضرب الوجه في التّباحة.

إلى أن تقول:

تبك في بادخ بيته رفيع الذؤابة صعب المرام^١

وقالت أم حكيم البيضاء ترثي أباه عبد المطلب:

ألا يا عين جودي واستهلي وبكي ذا الندى والمكرات

ألا يا عين ويحك أسعفيني بدمع من دموع هاطلات

إلى أن تقول:

فبكيه ولا تسمي بحزن وبكي، ما بقيت، الباقيات

وقالت أميمة بنت عبد المطلب تبكي أباه:

ألا هلك الزاعي العشيرة ذو الفقار وساقى الحجيج والمحامي عن المجد

إلى أن تقول:

فقد كان زينا للعشيرة كلها وكان حميداً حيث ما كان من حمد

وقالت أروى بنت عبد المطلب تبكي أباه:

بكت عيني وحق لها البكاء على سمع سجيته الحياء

إلى أن تقول:

مضى قدماً بذي ركب خشيب عليه حين تبصره البهاء^٢

وذكر محمد بن سعيد بن المسيب أن عبد المطلب أشار برأسه وقد أضمت أضمت: أن

هكذا فابكيني.^٣

١ - تبك: فاحمل من البكاء - بضم الباء - وهو أصل التثنية وخاتمة.

٢ - الزيد - كحمر - انفرند. والتخميم: التصفيل. فيروى مكان اتهام. اتهام، وهو ما يظهر على السيف المتجهر من التبار.

٣ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٧٩-١٨٣.

فهرس الآيات

الفاحة

٢ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢٨٤

البقرة

١ و٢ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ١٥٢، ٥٥

٢٣ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ٢٨٠، ٢٧٦، ١٢٠، ٢٩، ٢٥

٢٣ فَاتَّبِعُوا سُورَتِي مِنْ وَثْقَةٍ وَأَذْعُوا شَهَادَتَكُمْ مِنْ كُنُوفِ اللَّهِ ٢٨٠، ٢٧٦، ١٢٠، ٨٨، ٨٣، ٧٢، ٤٣، ٢٩، ٢٥

٢٤ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخَوُّوهُ وَالَّذِي هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعَلُونَ ٢٧٦، ١٢٠، ٨٨، ٨٠، ٧٢، ٥٠، ٢١

١١٨ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ تَسَابَهْتَ قُلُوبُهُمْ ٢٦٣

١٣٣ إِلَهًا وَاحِدًا ٢٨٥

١٦٣ وَاللَّهُمُّ إِلَهُ وَاحِدٌ ٩٦

١٧٩ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمٌ ٩٥، ٩٣

٢٥٥ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ٢٣١

أل عمران

٣ وَتَزَنَ عَذَّتُ الْكِتَابِ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَتَمَّتْ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِهِ هُدًى لِلنَّاسِ ... ٢٩١

٤ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ٢٨٥

- ١١٩ قُلْ مَوْثُوا بِعَيْتِكُمْ ١٨٧
- ١٢٢ إِذْ عَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ٨٠
- ١٦٤ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا ٢٨٥
- ٢٠٠ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْزَبُوا وَهَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٤٥

النساء

- ٥٧ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ٢٨٤
- ٧٦ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ٢٥٨
- ٨٢ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِّانَ وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَبِيرًا ٧٥، ١٣٣، ٢٨٧، ٢٩٠
- ١٢٢ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ٢٨٥
- ١٤١ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ ٢٨٥
- ١٦٣ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُحْيَىٰ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ ١٤٦
- ١٧١ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَذَبْتُمُوهُ الْمُنَافِقُ إِلَىٰ مَرْيَمَ، وَدُوحُ مِنْهُ ٢٦٤
- ١٧٥ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ٢٨٤

مرکز تحقیقات کتب و علوم اسلامی

المائدة

- ٨ وَلَا يَحْزَنْكُمْ سَلَاةُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا اخْتَلَوْا هُوَ أَفْزَقُ لِسَعْدِي ٢٩٥
- ٤٨ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ٥٨
- ٨٢ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُم فَمُتْسِينَ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنْتُمْ ٢٦٤
- ٨٣ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ٢٨٩، ٥٨
- ٨٤ وَمَا لَنَا لَا تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ١٨٩

الأنعام

- ١ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ٢٨٤
- ٨ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَنَادٌ ٢٠٨

- ٥٩ وَجَنَّةٌ مَّتَاجِ الْعُيُبِ لَا يُعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ ... وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ١١١، ٢٩٩
- ٩١ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَمَّا يُكْشَرُ مِنْ شَيْءٍ ٢٠
- ٩٣ أَوْ قَالَ أَوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْقِذُ بِشَيْءٍ مَا أَنْزَلَ ٢٢٧
- ٩٥ و ٩٦ فَالِقُ الْخَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ... فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ١١
- ١٠٣ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ١١
- ١١٢ وَلَوْ سَاءَ زُيْنٌ ٢٨٤

الأعراف

- ٤٣ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ٢٨
- ٨٩ وَسَبَّحَ رَبَّنَا كُلُّ شَيْءٍ عِزْمًا ١١
- ١٤٦ سَاءَ مَسْرِفٌ عَنْ يَأْتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ ١٥٢، ١٥٩
- ١٨٩ فَلَمَّا تَعَدَّاهَا خَمَلَتْ خَمَلًا خَفِيًّا ١١٢



مركز تحقيقات كليات علوم اسلامی

الأنفال

- ٢ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ٤٨
- ٧ وَإِذَا يَدْعُوكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الضَّالَّتَيْنِ أَنَّهُ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ تُغَيَّرَ ذَاتُ السَّوَكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ٨٠
- ٣١ وَإِذَا تُنْفِى عَلَيْهِمْ "بِأَنَّا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ... بَأْسًا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ١٦١، ٢١٦
- ٣١ لَوْ كُنَّا لَقَدْ بَلَّيْنَا هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٥، ٢٩، ٨١، ١٤٣، ١٥٨، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٧

التوبة

- ٣٣ لِيُخْصِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كُذِّبُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُؤْمِنُونَ ٨٠
- ٣٨ و ٣٩ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَوَسَّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ، أَوْضَعْتُمْ وَأَلْحَقُوا ٥
- ١٢٧ لَمْ أَنْصَرِفُوا حَتَّى أَنْصَرَفَ اللَّهُ فَمُرِّيهِمْ بِأَيْمِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ١٢٨، ١٥٢

١٤ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ٢٨

١٧ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ٢٧١

إبراهيم

١٥-١٧ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ... وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ٦٠

٤٦ وَإِنْ كَانَ مُكْرَهُهُمْ لَيَرُؤُنَّ مِنَ الْجِبَالِ ٣١٢

الحجر

٩ إِذَا دُخِّنَ بُرُؤُنَا الذُّكْرُ وَإِذَا لَهُ لَحَافَتُونَ ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠

٥ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ٢٠٨



النحل

٢٤ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٥

٤٣ فَاسْتَلَوْا أَهْلَ الذُّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٦٤

٥٧ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٣١٤

٨٩ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ ١٣٥

٩٠ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَنْهَكُم ١٧٨

١٠٣ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ شَرْه ٢٠

الإسراء

٩ إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِنَبِيٍّ مِمَّنْ قَوْمٌ ١٣٣

١١ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ١٩٩

٤٣ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ عَمْرًا كَبِيرًا ٢٩٤

- ١٦ وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ وَلَوْ عَنِ أَدْبَارِهِمْ تُورَ ١٩٩
- ٥٣ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا ٢٨٤
- ٦٨ أَفَأَمْسِمْ أَنْ يَنْهَيْتُ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ٦٠
- ٨٨ قُلْ لِّمَنِ الْجَنَّةُ الْإِنْسُ وَالْجَنُّ عَنِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ٢٥، ٢١، ٤٣، ٧٣، ٨١، ٨٨، ١٧٣، ٢٤١
- ٨٨ لَا تَأْتُونَ بَشِيرًا وَلَا نَذِيرًا وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٢٢، ٢٥، ٢١، ٤٣، ٧٣، ٨٠، ٨١، ٨٨، ١٧٣، ٢٤١
- ٩٣ قُلْ مُبِحَّانٌ رَّبِّي كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا بَشَرًا وَنُورًا ٢٤

الكهف

- ٥ كَبُرَتْ كَيْفَةً تُخْرِجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ٢٨٦
- ٢٦ وَلَا يَسْرُكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ٢٨٥
- ٩٧ فَمَا اسْتَعَاذُوا أَنْ يُظَاهَرُوهُ وَمَا اسْتَعَاذُوا لَهُ نَشَأَ ٢١



مريم

- ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَكَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ١٠٩
- ٣٥ مَا كَانَ شَرُّ أَنْ يُنْجِدَ مِنْ وَلَدٍ مُبِحَّانَةً ٢٨٤
- ٤٥ فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٢٨٥
- ٧٧-٨٤ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِآيَاتِنَا وَقَالَ أَعُودِيْنِي مَا لِي وَاللَّذَا، أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَاهُ ... إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ٢١٤
- ٩٧ وَتُنْذِرُهُ قَوْمًا لُدًّا ٢١، ٤٣

طه

- ٥ الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ١٠٩، ١١٣
- ١٥ إِنَّ الْمَاعِدَةَ لَرَبِّهِ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِلْجَهَنَّمَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَعُ ١٠٩
- ٦١ لَا تَحْزَنْ وَأَعِني اللَّهُ كَلِمَةً ٢٨٥

- ٧٤ إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ١١٠
- ٧٧-٧٩ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِفْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ ... وَأَضَلُّ فِرْعَوْنَ ... ١١٠
- ١٠٥ قَتَلَ يَدْرِيهَا رَبِّي نَسْفًا ٢١٤
- ١١٨ و ١١٩ لَنْ لَنْ أَتَجَوَّعُ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنْتَ لَا تَقْطَعُ فِيهَا وَلَا تَحْجَى ٢٠١
- ١٣٣ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِيهِ مِنْ رَبِّهِ ٢٩
- ١٣٣ أَوَلَمْ نَأْتِهِمْ بَيِّنَاتٍ مَا فِي الْعُصْفَرِ الْأُولَى ٥٥

الأنبياء

- ٥ بَلِ افْتَرَاهُ بَنُ هُوَ شَاعِرٌ ١٠٨
- ٢٢ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ٢٤٠
- ٢٣ لَا يُشْفَى عَمَّا يُفْضَلُ وَهُمْ يُنَادُونَ ١٦٨
- ٢٤ ٢٩ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ... كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ٢٢٠
- ٩٨-١٠٠ إِنَّكُمْ وَمَنِ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا ٢١٩



الحج

- ٥٠ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٢٨٦
- ٥٤ وَلِلَّهِ الَّذِينَ أَوْفُوا الْعَهْدَ لِلَّهِ الْحَقَّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتُ لَهُ قُلُوبُهُمْ ٢٩
- ٧٣ يَا أَيُّهَا النَّاسُ شَرِبْ مِنْهُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا ٢٤٠
- ٧٤ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ١٣٢

النور

- ١٠ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ ٢٠٥
- ٤٠ لَمْ يَخْشَ اللَّهَ لَهُ ٢٨٥

الفرقان

- ٥ أساطير الأولين اكتبها فهي تخطى عنك بكرة وأصيل ١٦١، ٢١٥
 ٣٢ لولا نزل عليه القرآن جئته واحدة ٢٦

الشعراء

- ١٩٦ وإله لفي زهر الأولين ٥٥
 ٢٠٥ أقرأت إن متعناهم بين ٦٠

النمل

- ٨ سبحانه الله رب العالمين ٢٨٥
 ١٤ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ٢٩
 ٧٦ إن هذا القرآن يعض على بني إسرائيل الضيق الذي هم فيه مختلِفون ٢٧٧
 ٧٩ فتوكل على الله إنه على الحق المبين ٢٨

مركز تحقيقات كميتر علوم اسلامی

القصص

- ٥٢-٥٥ الذين آتيناهم الكتاب من قبليه هم به يؤمنون، وإذا يتلى ... لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ١٩٠

العنكبوت

- ١٠ فكلاً أخذنا بذنبيه ... ومنهم من أعرفنا ٦٠
 ٤٨ وما كنت تنور من قبليه من كتاب ولا تخطئه يمينك ٨٤
 ٥٠ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربنا قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ٢٥
 ٥١ أولم ينظروا أن أنزلنا عليك الكتاب بُنينا عليهم ٢٥، ٤٨

الصفات

- ٦٢-٧٣ أُولَئِكَ خَيْرُ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ، إِذَا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً ... فَاهْتَرَوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ٧٣٢
- ٦٥ حَتَّىٰ كَانَتْهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ٢٠٢

الزمر

- ٤ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ٢٨٤
- ٥ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَذِّبُ ٢٨٥
- ٢٣ اللَّهُ قَوْلَ الْحَدِيثِ كَذَابًا مُتَسَابِهًا مَنَاقِبِي تَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ ١٨٨، ٥٨

غافر

- ١٥ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ فِي أُمُورِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ ... ١١٠، ١٢٨، ٢٠٨
- ١٩ يَلْمِزُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الْعُدُورُ ١١٠
- ٦٨ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٢٨٥



فصلت

- ١-٤ حم، تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... ١٨٤
- ٣ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٨٩
- ٢٦ وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ٢١، ٢٥، ١٨١
- ١ و٤٢ وَإِنَّ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٥٧، ١١٧

الشورى

- ٣٢-٣٤ وَبَيْنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ، إِنَّ يَسَاءَ بُسُكِي الرِّيحِ فَيُظْلَمُونَ ذَوَاكِدَ ... أَوْ يُوقَشُونَ ... ٩٥
- ٥٢ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ١٢٧

الزخرف

- ٥٨ ما صرُّوه لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ٢١، ٢٢
 ٧١ وفيها ما شَتَّهِيَ الْإِنْسُ وَشَتَّ الْأَخْبِ
 ٧٨ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلسَّحَقِ كَارِهُونَ ٢٩

الدخان

- ٤٠-٥٠ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ لَا يُعْنِي مَوْلَى عَنْ ... إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تُخْتَرُونَ ٢٢٢

البجائية

- ١١ ٦ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزِيلُهَا عَلَيْنَا بِالْحَقِّ فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَةٍ يُؤْمِنُونَ ... لَكُمْ عَذَابٌ بِنَ ١٩٩
 ٨ و٧ وَبِئْسَ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْكَ نُجُودًا مِمَّا يَصِيرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ ٢١٦



مركز تحقيقات كميتر علوم اسلامی

الأحقاف

- ١٧ وَالَّذِي قَالَ لِلْإِبْدَةِ أَفَّ لَكُنَا ٢١١

محمد

- ١٩ فَاعْبُدْ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ٩٦

الفتح

- ١٦ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسْئَلَةٌ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ٤٣
 ٢٠ و٢١ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَالِيمَ كَبِيرَةً أَخَذَ وَفَّاءً ... قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ٨٠
 ٢٧ لَقَدْ خَلَقْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ لِلْمُخَلَّفِينَ رِزْقًا مِنْكُمْ وَمُعْظَرِينَ لِأَخِيحَاقُونَ ٢٧٧

ق

- ٣٠ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ فَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٢٥٠، ٢٥١

٣٧ ابن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ١٨٨

الطور

١٥ افسخر هذا أم أنتم لا تبصرون ١٧٦

٣٣ أم يقولون نقول له بل لا يؤمنون ٢٠

٣٤ قنبا نوا يحديث بيده إن كانوا صادقين ٢٠، ٢٠

٣٥-٣٧ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يؤمنون أم ٢١٧

النجم

٤ إن هو إلا وحي يوحى ١٣٤

٥ وإنه أهدى العباد الأولين ٢١٢



المصر

١٧ ولقد بسرونا القرآن لندكر فعل من مدح ١١٩

٣٦ ولقد أذكرهم بعقبتنا فتجاوزوا بالقرآن ١٢٦

٥ سيجزى الجمع ويؤلون الدبر ٨٠

الرحمان

٣٣ يا معسر الجن والإنس إن استطعتم أن تغدوا من أقطار السموات والأرض فاقبلوا لا تقبلون ... ٢١١

٥٤-٥٨ متكئين على فرش بقدائمها من استبرق وجنى الجنات داني ... فيها قاصرات الطرف لم ... ٢٠٨

٦٢-٧٦ وبين دونهما جنتان ... مدهامتان ... فيهما عذبان نساء حنان ... فيهما فاكهة وكحل ورمان ... فيهن ٢٠٨

الواقعة

٢٢ وحوور عين، كأنها النول المكنون ٢٠٨

٧٥-٧٧ فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لفسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم ٣١٤

النجاة

- ٨ وإذا جاءوك جثثكم بما لم يحثكم به الله وتقولون في أنفسهم ٨٠
 ٢١ كتب الله لأشقياء إذا ورثني إن الله قوي عزيز ٢٥٨، ٢٨٧

الحشر

- ٢١ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لزلزلناه خاضعاً مطعناً بين حسبة الله ٢٨

الصف

- ٥ فمما رزقناهم أراح الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين ١٥٢، ١٦٧
 ٨ يريدون ليظفروا نور الله بأقوالهم والله مبهم نوره ولو كره الكافرون ٢٥٨

الجمعة

- ٧ وفتحوا المقومات إن كنتم صادقين ولا ينقصوه بهذا بما قدمت أيديهم ٨١

الملك

- ٣ ما رمى في خلق الرحمن من تفاوت ... هل ترى من فطور ٢٩٩
 ١٦ و ١٧ أم أمثهم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أمثهم ٦٠

القلم

- ١٥-٧ إن ربك هو اعلم بمن خل عن مبينه وهو اعلم بالمعتدين، فلا تطع المكذبين ١٦١
 ٢٠ ٧ إن ربك هو اعلم بمن خل عن مبينه وهو اعلم بالمعتدين، فلا تطع ... فأصاحت كالصرير ٢١٥
 ١٠-١٣ ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء متعصب، متاع لخير معتد أيسر، عتق بعد ذلك زهير ٢٠٨
 ١٤-١٦ أن كان ذا مال وبنين، إذا شئنا غدير آياتنا قال: أساطير الأولين نسليمه عني ٢١٠، ٢١٢

١٦ ٢٠ سَنِيْمُهُ عَلَى الْخُرُصُوْمِ. إِذَا بَلَوْنَا هُمْ إِذَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذَا أَقْسَمُوا لِنَعْرِفَنَّهَا مُعْصِيَيْنَ . ١٦٢

الحافّة

١٦٧ وَاَمَّا عَادُ فَاتَّبَعُوا يَرْيَا صَرَّعَهُ عَائِيَةً. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنَائِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا ١١٣
 ١٦٨ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُنْقَلَبٌ. مَهْلًا تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٢٢٢
 ١٦٩-٢٩ فَبُورِئِهِمْ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابُهَا فَهُمْ يُنَزَّلُونَ وَاهْبِئْ. وَالْمَلَكُ ... هَكَذَا عَلَى سُلْطَانِهِ ... ٢٠٠
 ١٧٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ مُنَاجٍ ٥٧
 ١٧١-١٧٢ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَضَعْنَا مِنْهُ الْأُتْرَيْنِ. هَذَا مِنْكُمْ وَهُنَا أَخَاهُ ٢٣١

البنّاء

١٧٣-١٧٤ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْلِ. وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُعْصِرُونَ يَوْمَ ... ٢٠٠
 ١٧٥ تَدْعُو مِنْ أَمِيرٍ وَمَوْلَى ٢٠٨



مركز تحقيقات كتابية وعلوم إسلامية

الجن

١٧٦ إِذَا سَمِعْتُمْ قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ٢٨
 ١٧٧ وَتَنْ يَعْصِرُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْتَكْبِرُ عَذَابًا صَعَدًا ٢٠٧
 ١٧٨ أَمْ يَخْتَلِي لُؤْلُؤُ رَجِيٍّ أَمْدًا ٢٨٥

النزّاع

١٧٩-١٨٠ وَاحْشِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاعْجَزْهُمْ عَجْرًا جَمِيلًا. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ ... ٢٠٠

المدّثر

١٨١ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١٧٩

- ١١ ١٥ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَيْنَ سُهُوداً ... ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ٢٠٦
- ١٦ و ١٧ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صُعُوداً ٢٠٦
- ١٨- ٢٠ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقَبِلْ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قَبِلْ كَيْفَ قَدَّرَ؟ ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٧+
- ٢١ ٢٣ ثُمَّ كَفَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٧+
- ٢٤ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَهٌ يَحْضُرُ يُؤْتِرُ ٢٠٧، ٢٠٦، ١٧٦، ٧٠
- ٢٥ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٠٧، ٢٠٦، ٣٠
- ٢٦ ٣٠ سَأُصْنِئُ سَفَرًا. وَمَا أدْرَاكَ مَا سَفَرًا؟ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ. لَوْ أَحَدُ الْبَشَرِ عَنِهَا يَسْمَعُ عَشْرًا ٢٠٧، ٢٠٦
- ٥٠ و ٥١ كَانَتْهُمْ حَضْرًا مُسْتَشْفَرَةً قَرَّتْ مِنْ قُسُورَةٍ ١٩٩

النكوير

- ١٧ و ١٨ وَاللَّيْلِ إِذَا عَمْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١١٢

الانشاق

- ٦ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيه ٢٩٨

الفجر

- ٦ ٨ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَارِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ فِي الْإِلَاحِ ٢٩٨
- ٩- ١٤ وَمَعُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَارِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْإِلَاحِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٢٩٨

الضحى

- ١ و ٢ وَالضُّحَى. وَالْبَيْتِ إِذَا أَسْجَى ١٠٩

العلق

- ٥ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ ٢٨٤

الزلزلة

- ٧ و ٨ مَضَى يَعْمَلُ يُوقِنُ ذَرْوَهُ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلُ يوقِنُ ذَرْوَهُ شَرًّا يَرَهُ ٢٩٨

العصر

١ و ٢ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢٣٢

الهمزة

١ ٩ وَبَلِّغْ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُغَتَهَا الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبْ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا ... فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ . ٢٠٤

الكافرون

١-٦ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ ٢٢١

الكوثر

٣ إِنَّ سَائِلَكَ هُوَ الْأَثَرُ ٧١، ٢١٤

النسب

١ و ٢ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢٠٢

٣ ٥ سَيَعْنَىٰ ذَاكَ لِأَبِي لَهَبٍ وَالْمُزَنَةُ بِهَرَجٍ عَلَىٰ الْخَبْزِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْنُونٍ ٢٠٣



الإخلاص

١ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ٩٦

